نصف قرن من ذكريات

الدكتور محمد مهدي علام



أبو بكر عبد الرازق

نصف قرن
من ذكريات
الدكتور محمد مهدى علام

أبو بكر عبد الرازق

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

●● تصـديـر :

بقلم : الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد

ذكريات تحية تلميذ ، وتجلّة أستاذ ..

تعود صلتى بأستاذى الأستاذ الدكتور مهدى علام إلى سنة ١٩٥٠ عندما كنت طالبا بالتوجيهية ، فقد تقدمت فى هذا العام لمسابقة اللغة العربية لطلاب التوجيهية ، وكان أستاذى رئيسا لامتحان هذه المسابقة . فلما اجتزت امتحان التوجيهية تقدمت للالتحاق بكلية الطب ، وذهبت إلى وزارة المعارف للحصول على شهادة بنجاحى فى المسابقة لتقديمها ضمن الأوراق إلى الكلية المذكورة ؛ وحدث أن التقيت بأستاذى الذى كان وقتذاك عميدّلمفتشىاللغة العربية بالوزارة ، فتذكّرنى على الفور وسألنى عن الكلية التى انتويت الالتحاق بها ، فأجبته : كلية الطب ! واستغرب منى هذا الاختيار ، وسألنى : لماذا لا تلتحق بكلية الآداب جامعة إبراهيم باشا (عين شمس فيما بعد) لتدخل قسم اللغة العربية ، الذى سأكون رئيسا له ، وأعد بأن أعيّنك معيدا ، وأرسلك فى بعثة إذا حافظت على تفوقك فى سنوات الليسانس !

وقد مسّ هذا الكلام وترا حساسا فى نفسى ، فقد كان والدى رحمه الله ، أزهريا وكان يتمنى أن أستكمل دراستى فى الأزهر الشريف ، ولكن ظروفا عائلية حالت دون تحقيق أمنيته ، فألحقنى مرغما بالتعليم العام ، ثم وافته المنية وأنا أؤدى امتحان التوجيهية دون أن يتاح لى رؤيته أو حضور جنازته ؛ وقد سبب ذلك لى قلقا نفسيا عميقا ، وأيقظ فى نفسى شعورا متنامياً بالذنب لإخفاق فى تحقيق أمنية عزيزة له ! ولذلك لم أكد أسمع كلام أستاذى حتى صحا فى نفسى شعور آخر بالخلاص من هذه الورطة النفسية التى ظلت تلازمنى منذ وفاة والدى ، فصمّمت على سحب أوراقى من كلية الطب وتقديمها ، فى آخر يوم ، إلى كلية الآداب . وقد صح ما توقعته : فقد صفت نفسى واتصل بينى وبين والدى ذلك الخيط العميق من المودة الذى يتمثل عادة فى صورة أحلام يزور فيها الموتى أحبّاءهم فى الحياة الدنيا ؛ فرأيت وجهه لأول مرة منذ وفاته ، وقد غرق فى ابتسامة واسعة أخذت كل جانب من جوانبه . كما بَدَا لى أستاذى الدكتور مهدى علام من يومها فى صورة أخرى يمتزج فيها حنان الأب بعلم الأستاذ ، ليصبح أبا وأستاذا فى آن معا !

وللدكتور مهدى علام طريقة خاصة فى محاضرة تلاميذه ، فهو يبدأ بإلقاء المحاضرة بصوت عذب ، وبطريقة منظمة يقسم فيها موضوعه إلى عناصر يسلم كل منها إلى الآخر ، فإذا فرغ من إلقائها ، فتح باب الحوار بينه وبين تلاميذه حول أفكار المحاضرة ، يوجهون إليه ما يريدون من أسئلة ، ويطرحون عليه ما يفكرون فيه من آراء فى حرية علمية لم أعهدها من قبل .

وهو يحرص على أن يكون المقرر الذى يدرسه قسمةً بينه وبين تلاميذه ، فيبدأ منذ أول محاضرة بتحديد الجزء الذى سيقوم بإلقاء محاضراته فيه ، ثم يوزع الأجزاء الأخرى فى شكل بحوث على الطلاب ، يعدونها ويقومون بإلقائها تحت إشرافه على زملائهم الذين يقومون بدورهم بمناقشة كل بحث مناقشة عميقة وواعية ؛ وهكذا يتكامل علم الأستاذ مع جهود الطلاب الذين يدخلون بفضل هذه الطريقة ، فى سباق علمى مثمر ، ويتدربون منذ اللحظة الأولى ، على التعمق فى البحث والاستقلال بالرأى . وفى اختصار يصنعون شخصياتهم العلمية صناعة صحيحة ، تقوم على التفكير أكثر من قيامها على مجرد الاستيعاب !

● له طريقة مثلى فى تصويب الأخطاء ..

وأذكر بهذه المناسبة ، من بين البحوث التى أعددتها فى المقررات التى كان يدرسها لنا بحثا عن « كتاب الأغانى » أدرته حول ثلاثة عناصر أساسية : **الأول** ، شخص المؤلف وثقافته ومذهبه الدينى ، وعقيدته السياسية ، وأثر ذلك على طريقته فى اختيار الأخبار ، ومنهجه فى

توثيقها ، واستخلاصه للآراء والقضايا منها . **والثانى** طبيعة هذه المادة المتنوعة ، التاريخية والدينية والأدبية.. والعنصر **الثالث** ، أثر هذا الكتاب بمادته المتنوعه وأخباره المسندة فى الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة حول الشعراء القدامى .

●● الأصفهانى بين عاطفتين :

وقد استقر لدى فى هذا البحث أن أبا الفرج الأصفهانى كان موزعا فى تأليف كتابه بين عاطفتين : **الأولى** ، سياسية ، وتتمثل فى انتمائه إلى بنى أمية ، **والأخرى** ، دينية وتتمثل فى تشيعه لبنى هاشم . وقد سبب له ذلك تمزقا نفسيا ظهرت آثاره فى طبيعة ما كان يختاره من أخبار بنى أمية وبنى هاشم . وانتهيت ، فيما يتصل بمادة الكتاب من الشعر والأخبار والتاريخ ، إلى أنه قد أفاض عليها من خياله الأدبى وعواطفه الدينية وانتماءاته السياسية ما جعل منها : نصوصا أدبية مبتدعة أكثر منها نصوصا تراثية موروثة .

● الأغانى كتاب فى الأدب وليس كتابا فى الأخبار ، والروايات ...

أما أثر الكتاب فى الدراسات الحديثة ابتداء من كتابات طه حسين إلى اليوم ، فقد بدا أثرا مضللا ، يتمثل فى هذه الصور الغريبة التى يرسمها الدارسون المحدثون للشعراء ، والتفسيرات المباشرة التى يقدمونها للمادة الشعرية المنتقاة ، وهى صور وتفسيرات مستقاة من النزعة القصصية التى حرص أبو الفرج على أن تصاحب ما يرويه من أخبار ، ويسجله من أشعار . وفى عبارة مختصرة لقد انتهيت فى هذا البحث إلى أن كتاب الأغانى ، كتاب فى الأدب وليس كتابا فى الأخبار أو الروايات ! وقد أثنى أستاذى على البحث ثناء طيبا ، ودارت حوله مناقشة خصبة طرح فيها الزملاء آراء مختلفة ؛ وقد كان هذا البحث كما كانت **بحوث** أخرى ، فى الأدب والنقد ، طريقا آخر إلى توثيق صلتى العلمية به ، واقترابى أكثر فأكثر منه حتى تخرجت فى عام ١٩٥٤ .

وقد بر أستاذى بوعده لى ، فعيننى مع زميلين آخرين هما : الدكتور عبد المنعم إسماعيل والمرحوم الدكتور طه عبد الحميد معيدين بالقسم ، وسجلنى تحت إشرافه لدرجة الماجستير فى موضوع تراثى هو :

● « شعر عبيد الله بن قيس الرقيات : تحقيق ودراسة » .

وقد كان هذا البحث بالنسبة لى تجربة علمية جديدة ، تقوم على تحقيق أمرين : **الأول** ،

إخراج نص محقق لشعر عبيدالله بن قيس الرقيات . **والثانى** ، دراسة هذا النص المحقق دراسة نقدية تكشف عن أسراره الفنية ، وتفسر رموزه الموضوعية . وقد بدأت بتحقيق الديوان بعد أن جمعت مخطوطاته المختلفة ، واستطعت بمعونته وإرشاده ، إخراج نص أقرب ما يكون إلى الصورة التى كان عليها شعر ابن قيس الرقيات عندما صدر عنه ، فقد وجدت حلولا مقنعة لمشكلات أشعاره المتمثلة فى نسبة بعض قصائد الديوان لغير أصحابها من الممدوحين ، وتحريف بعض كلماته وعباراته لتحقيق أهواء سياسية ومذهبية . ثم أخذت فى دراسة الشعر دراسة تحليلية . ومن أكثر المشكلات التى واجهتنى صعوبة ، رواية أبيات من قصيدته الهمزية التى خصصها لمديح رجالات قريش فى الجاهلية والإسلام ، هى قوله مفتخرا بـ « سهيل بن عمرو » :

وسهيـــل منـــــا ، سهيـــل بن عمرو ، عصمـــة الجـــارحين حب الـــوفــــاءُ
حـــاط أخـــوالـــه خـــزاعـــة لمـــا كثرتهم بمكـــــــة الأحيـــــــاءُ
حين قـــال الرســول : زولـــوا ؛ فـــزالـــوا شرع الـــدين ليس فيـــه خفـــاءُ

وتتلخص هذه المشكلة فى كلمة « **حاط** » التى تعنى رعاية سهيل بن عمرو لأخواله بنى خزاعة والانتصار لهم حينما بيّتتهم قريش بعد صلح الحديبية على نحو ما هو معروف . والأمر ، تاريخيا ، على خلاف ذلك ، فقد كان سهيل هذا هو الذى حرض قريشا على بنى خزاعة فقتلوهم ليلا حتى ساقوهم إلى الحرم .

ولما أعيتنى الحيلة فى إيجاد بديل لهذه الكلمة تستقيم بها الحقيقة التاريخية مع المعنى الشعرى ، لجأت إلى أستاذى الذى طلب إلىّ جمع المادة التاريخية حول هذا الحدث الدينى ، واستطاع من خلال هذه المادة نفسها أن يدلنى على هذا التحريف الذى أحدثته الأهواء السياسية فى تحريف الشعر ، فقد تواترت الروايات بأن رسول الله ﷺ حين علم باعتداء قريش على بنى خزاعة ، أمرهم بالخروج من مكة والتفرق فى الأرض تمهيدا لفتح مكة . فلما علم سهيل بخروج بنى خزاعة فطن إلى ما وراءه فحازهم ، أى ردهم ومنعهم من التفرق ، وبذلك تصبح كلمة « حاط » تحريفا للكلمة الأصلية « حاز » ، وعلى هذا النحو تصبح رواية البيت الصحيحة :

حاز أخواله خزاعة لما ...... » !

●● أنا شاهد على ذلك .. وكلامى حول هذا الموقف لاراد له ..

ولم أكد أنتهى من تحقيق الديوان ودراسته ، وإعداده مطبوعا للمناقشة حتى فوجئت بظهور

طبعة جديدة من ديوان ابن قيس الرقيات أخرجها ونشرها فى بيروت الدكتور محمد يوسف نجم . وبَدَا لِى الأمر فى البداية مشكلة مستحيلة الحل ، ولم أجد ما أعمله سوى أن أعرض الأمر على أستاذى ؛ وقد استمع لكلامى وتخوفاتى حتى انتهيت ، فبادرنى بقوله فى عبارات قاطعة لا تحتمل تأويلا ولا تحتاج تفسيرا : « إننى أعرف أنك أنهيت بحثك وطبعت رسالتك قبل أن ترى هذه الطبعة الجديدة من ديوان ابن قيس الرقيات ؛ وأنا شاهد على ذلك وكلامى فى هذا الموضوع لاراد له ولا معقب عليه .... فلا تقلق ! ولكن لماذا لا تكتب نقدا لهذه الطبعة الجديدة » !

●● رغم جدية البحث فهناك قضايا نقدية طريفه !

وقد أنعشتنى هذه الكلمات وملأتنى ثقة وأملا ، فأقبلت على قراءة الطبعة الجديدة التى أعدها الدكتور يوسف نجم لأكتشف أنه **أولا** ، لم ينشر الديوان عن المخطوطات التى ذكر أنه اعتمد عليها ، فلم يُثبت نص الأصل المحفوظ بمكتبة عاشر أفندى فى استانبول ، ولكنه أعد طبعة متعجلة اعتمد فيها على طبعة المستشرق « **رور دو كاناكس** » الذى اعتمد بدوره فيها على نسختين حديثتين محفوظتين بدار الكتب المصرية . كما أنه ، **ثانيا** ، لم ينتفع بتعليقات « كاناكس » على عناوين بعض القصائد وتصويباته لبعض الروايات . وقد أودعت هذه الملاحظات جميعا مقالة مفصلة نشرتها فى مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الخامس – نوفمبر ١٩٥٩) – وقد أتاح لى ذلك أن أتقدم برسالتى للمناقشة فى عام ١٩٥٩ ، وكانت لجنةالمناقشة تتألف من الأستاذ الدكتور مهدى علام مشرفا ، والأستاذ الدكتور محمد محمد حسين ، والأستاذ الدكتور ، عبد القادر القط عضوين .

وعلى الرغم من إعجاب الممتحنيْن بالرسالة فى صورتها العلمية ، فقد أثارا قضايا نقدية طريفة ؛ أذكر منها :

– قول الدكتور محمد محمد حسين معترضا على رواية أخذتها عن الأغانى ، يقص فيها أبو الفرج أن نسوة من قريش واعدن عمر بن أبى ربيعة وجلسن إليه يُحدِّثْهُنَّ ويُحدِّثْنه حتى مضت قطعة من الليل فرجعن إلى بيوتهن ! ولم أجد ما أُدافع به ، وهنا أسعفنى أستاذى الدكتور مهدى علام بقوله : « **أنسيت أنك أدنت منهج أبى الفرج الأصبهانى فى رواية الأخبار فى البحث الذى قدمته ، وقلت إنه كتاب فى الأدب وليس كتابا فى التاريخ ... هذه رواية أدبية** » !

– وقول الدكتور عبد القادر القط معلقا على محاولتى تصحيح نسبة أبياتٍ منسوبة لابن قيس الرقيات فى ديوانه ، وهى فى غيره من المصادر منسوبة لأبى العباس الأعمى فى رثاء بنى أمية ؛ فقد حاولت الأحتكام إلى لغة النص ، وأنفقت فى ذلك صفحات عديدة ، ولكن الدكتور القط نبهنى إلى عبارة وردت فى البيت الأول ، تحسم الخلاف حول نسبة هذه الأبيات إلى أبى العباس الأعمى ، هى قوله : « .... يوم **غابت بنو أمية** عنى ... » ! ومن المعروف أن ابن قيس الرقيات مات قبل سقوط الدولة الأموية بزمن غير قصير ! ولكن الدكتور القط ، مع ذلك ، عاد فقال : « ولكن التحليل مع ذلك جيد ، فاستبقه » !

وحين نترك هذه الذكريات إلى أعماله العلمية نلفيها أعمالا متنوعة تتوزع بين اللغة والأدب والدراسات الإسلامية ؛ وما بقى بأيدينا منها قليل بالقياس إلى هذا الكثير الذى لا يزال حبيس صفحات الصحف والمجلات القديمة . ونتخير من هذا القليل الذى وصل إلينا أربع دراسات أدبية نحاول من خلالها رصد منهجه فى دراسة الأدب ، هى بترتيب نشرها (١)

(١) محمود حسن اسماعيل ، شاعر الريف ، ونشرت بجريدة المقطم ١٩٣٥ .
(٢) فلسفة المتنبى ، ونشرت بمجلة دار العلوم ١٩٣٦ .
(٣) فن المقصورة فى الأدب العربى ، ونشرت فى حوليات كلية الآداب ١٩٥١ .
(٤) المتنبى بين نفسيته وشاعريته ، ونشرت بمجلة مجمع اللغة العربية ١٩٦٣ .

ويتبين لقارئ هذه الدراسات أن الدكتور مهدى علام يُعمل منهجا نقديا يقوم فى أساسه على مواجهة النصوص الأدبية مواجهة نقدية مباشرة يتألف من عنصرين ينطوى كل منهما على عناصر فرعية أخرى متكاملة ، هما : تحليل النص الشعرى فى ذاته تحليلا فنيا وموضوعيا ؛ **وتفسير** هذه النصوص ورصد جمالياتها بتوثيق الصلة بين معانيها وظروف أصحابها من ناحية ، وبينها وبين ظروف البيئة من ناحية أخرى :

●● شاعر الريف ولماذا أطلق عليه هذا الاسم ؟

(١) وقد اختار لدراسته الأولى عنوانا دالا هو « **محمود حسن إسماعيل ، شاعر الريف** » ليقدم من خلاله شاعرا واعدا من شعراء الطبيعة فى مصر ، أو فلنقل من شعراء « الرومانسية » الذين رادوا بقصائدهم فى وصف طبيعة الريف المصرى ، طريق الشعر إلى

---

(١) أعدت نشر هذه الدراسات بعنوان : « دراسات أدبية » وقدمت لها بمقدمة اجتزأت منها كثيرا فى هذه الدراسة . مكتبة الشباب بالمنيرة ١٩٨٥ .

التعبير الرومانسى فى صورته الصحيحة ، مقدما فى هذا الاتجاه قصائد تدل على وعى فطرى بطبيعة الفن الرومانسى على الرغم من أنه لم يطلع على نتاج الشعراء الغربيين الذين كان هذا النغم الرومانسى يسيل فى قصائدهم سيلا ، وهو ما يؤكد حقيقة بعينها ، هى أن النزوع إلى التعبير الرومانسى نزوع فطرى يقدر عليه كل شاعر وهبه الله قدرا من الإحساس العميق بمأساة الحياة فى صورها البسيطة والمعقدة فى آن معا ؛ كما يحسم جدلا نقديا حول مدى تأثير الرومانسية الغربية فى نشأة التيار الوجدانى فى الشعر العربى الحديث والمعاصر . ولا أبالغ إذا قلت إن هذه الملاحظات الفنية الخالصة التى تتردد فى هذه الدراسة عن فن محمود حسن إسماعيل تستوعب ، فى صورة أو أخرى ، مقومات الرومانسية فى صورها اللغوية والموضوعية والتصويرية والإنسانية . فهو يلاحظ ولع الشاعر بالاعتماد على عنصر التصوير اعتمادا أدى إلى إنتاج فيض من الصور العاطفية والإنسانية ، فى إطار الطبيعة الريفية ، أكسبها وجوداً خاصا ، وجعل لها دورًا متميزا ... كما يلاحظ كيف كان الشاعر ينتزع لغته ومعانيه وموضوعاته انتزاعا من بيئته الريفية : فيتغنى فى أسى إنسانى عميق بالسنبلة ، والنخلة ، وجرة الماء التى تحملها فلاحة مسكينة ، والكوخ البسيط الذى يسكنه فلاح فقير ... إلى غير ذلك من ظواهر الحياة فى الريف المصرى ، مما يجعل منه بحق « شاعر الريف » كما يسميه الدكتور مهدى .

●● المتنبى وآراؤه فى الحياة والناس والدين ..

(٢) وقد أدار دراسته عن « **فلسفة المتنبى** » حول أمرين : **الأول** : تحديد المفهوم الصحيح لما يسميه القدامى والمحدثون فلسفة شعر المتنبى ؛ **والآخر** ، تفسير النصوص الشعرية واستخلاص العناصر الفكرية والخطرات الفلسفية الصحيحة منها ، وتصنيفها وردها إلى أصولها القديمة والحديثة ، وتقويمها فى صورها التى استحالت إليها فى شعر المتنبى . وفى اختصار إنه يحرص فى تقويمه لتراث المتنبى من « الشعر الفلسفى » على التفرقة بين إطلاقين للفلسفة :

« **أحدهما** إطلاقها بمعناها الأعم ، وهو يشمل الرأى أو الفكرة ، فلكل إنسان بهذا المعنى فلسفة فى الحياة ، لأن لكل إنسان رأيا فى الحياة . **وثانيهما** ، إطلاقها بمعناها الأخص ...

[حين] تتناول البحث فى حقائق الأشياء ، وتتفرع إلى البحث فى الإلهيات ، والبحث فى الطبيعيات ، والبحث فى السلوك الإنسانى أو الأخلاق ، وما يتفرع من هذا مما يسمى بالفلسفة الاجتماعية » .

وقد أخذ ، إنطلاقا من هذا التميز ، يفرق بين نوعين من « شعر المتنبى الفلسفى » : **الأول** ، الحكم والأمثال التى كساها ثوبا شعريا يستمد جماله « من روعة الفن ورشاقة التشبيه ،

وحسن التعليل ، وسمو الخيال ، لا من دقة البحث والنظر فى حقيقة الأمور » ، وهو ما لا يجعل منها فلسفة بالمفهوم الصحيح لهذا المصطلح . **والثانى** ، آراء المتنبى فى الحياة والناس والدين ، وأفكاره عن الأخلاق والسلوك ؛ وهذه فيما يرى الدكتور مهدى ، « **مجموع فلسفته فيما عبر عنه » المتنبى فى شعره !**

●● ما هى المصادر التى أخذ عنها آراءه وفكره ؟

ويرد الدكتور مهدى هذا المجموع من فلسفة المتنبى ، أو فلنقل هذه الأفكار التى تقترب من الفلسفة بمعناها الصحيح إلى مصادر ثلاثة :

الأول ، ما يسميه تجارب المتنبى فى الحياة ، وهى تجارب كثيرة ومضنية ، عايش فيها أبو الطيب أحداثا عنيفة ، إنسانية وسياسية واجتماعية ، أنتجت فى حياته مواقف آراء واقعية خاصة فى الحياة والناس من حوله ، ومهدت لظهور قدر من الحكم والأمثال فى كثير من قصائده . وقد كان صدق هذا النوع من « الفلسفة الحياتية » إن صح هذا الوصف ، وانبعاثها من تجارب واقعية ، وقدرة الشاعر البيانية على صياغتها فى لغة شعرية بارعة ، سببا فى ذيوعها وتسلطها على عقول قراء شعره ودخولها إلى قلوبهم .

والمصدر **الثانى** الذى أخذ المتنبى منه بعض أفكاره الفلسفية ، وبالتحديد آراءه فى الدين والسلوك والأخلاق ، مصدر إسلامى يتمثل فيما جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وصياغته صياغة شعرية توهم بانقطاع الصلة بينها وبين الأصل الذى أُخِذَت منه .

أما المصدر **الثالث** ، فيراه مصدرا أجنبيا يتمثل فيما انتقل إلى الثقافة العربية فى العصر العباسى ، بفضل الترجمة التى نشطت منذ القرن الثانى للهجرة ، من آراء ونظريات فلسفية يونانية وهندية ، على نحو ما نجد فى فلسفة أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم من حكماء وفلاسفة العالم القديم التى انتقلت إلى العرب ، وعلى الرغم من اعترافه بأثر هذه الثقافة الأجنبية فى شعر المتنبى ، فإنه يقلل من هذا الأثر فيما يتصل بأفكاره الفلسفيه وحكمه وأمثاله « ... فليس عزيزا على مثل أبى الطيب المتنبى ذكاء وخبرة أن يقع خاطره على مثل خواطرهم . [فقد امتزجت هذه الأفكار جميعا] إسلامية كانت أم مترجمة ، بتجاربه الواسعة التى أفادها من تنقله .... ثم أضاء عليها فكره الوقاد ، فأظهرها لنا فى هذه الصورة الجميلة النادرة التى نقرؤها اليوم شعرا خالدا ..... » !

وقد توزعت آراء المتنبى الفلسفية تلك ، فيما يذهب إليه الدكتور مهدى ، فى موضعين :

فلسفة **دينية** ، وتجمع آراءه فى الإله والرسل ، وتعرض موقفه من الموت ، وفلسفة **حياتية** تتناول تشخيص طموحه وكبريائه وشجاعته وشكواه من الزمان وتبرمه بالناس ، وعصاميته وموقفه من الصداقة والطبع والتطبع ، إلى غير ذلك من قضايا حياتية وإنسانية عايشها المتنبى وصدر عنها فى مواقفه من الحياة والناس من حوله !

ويعد ما يسميه أستاذنا الدكتور مهدى بـ « فلسفة العصامية » فى شعر المتنبى كشفا جديدا لظاهرة فنية تغلب على كثير من مدائحه ومفاخره ، وتلعب ، لهذا السبب أو ذاك ، دورا فنيا فى مدائحه لمن ليست لهم أصول عربية خالصة وفى مفاخره هو خاصة . وتتلخص هذه العصامية الفنية فى أن الشاعر يجعل من مدائحه لهؤلاء الملوك والأمراء تغنيا بقيم خلقية وإنسانية كان يحس إحساس الفنان المرهف بافتقار بيئته إليها ، فيخلق منها عالما مثاليا يشد الناس إليه ، ويهيىء لهم وله خلاصا عن طريقه . ومن ثم فهذه « العصامية » ليست « فلسفة » فى الحياة فحسب : ولكنها « فلسفة » فى المديح كذلك كان المتنبى يفزع إليها كلما فرضت عليه حياته أن يمدح هذا الأمير أو ذاك من أمراء الدويلات العباسية ، هؤلاء الأعاجم الذين غلبوا على سلطة الخلافة ، واقتسموا أقاليم الدولة بينهم . وقد نقلت هذه الفلسفة المدحية صيغ المديح فى شعر المتنبى خاصة نقلة فنية واسعة ، جعلت من « العصامية » خلاصا أخلاقيا وحياتيا ، كما جعلت منها مفتاحا سحريا إلى تفسير المبالغة فى صور المديح ومعانيه على اختلاف أبنيتها البلاغية !

●● ما هى ظاهرة فنّ المقصورة التى سبقت عصر القرطاجنى ؟!

(٣) ويعد بحثه عن « **فن المقصورة فى الأدب العربى** » تجربة علمية من ناحيتين :

الأولى ، أنها كشف لظاهرة فنية فى الشعر العربى القديم لم يلتفت إليها القدامى والمحدثون على كثرة ما كتبوه عن هذا الشعر وشعرائه . **والأخرى** ، أنها نموذج علمى دقيق لتحقيق النصوص ونشرها ، والسمو بنصها إلى الصورة الصحيحة التى صدرت عن صاحبها .

وقد كرس المؤلف مقدمة البحث لتحقيق الغاية الأولى ، فعرف فيها برائد فن المقصورة فى الشعر العربى القديم ، وهو أبو الحسن حازم القرطاجنى ، الذى اتخذت القصيدة / المقصورة على يديه شكلها النهائى المتميز بوصفها شكلا شعريا متميزا ، يضاف إلى الأشكال الشعرية التقليدية الأخرى . وقد حرص فى هذه المقدمة على متابعة هذه الظاهرة الفنية فى الفترات التى سبقت حياة القرطاجنى ، وأنتهى إلى أن « **القافية المقصورة كانت مستعملة فى الشعر العربى قبل الإسلام ، غير أنه يبدو من العدد القليل الذى وصلنا من القطع الشعرية التى**

على هذا الروى ، ومن قلة الأبيات فى كل مقطوعة ، أن هذا النوع من القافية لم يكن كثير الذيوع بين شعراء الجاهلية ، ولكنه ذاع وانتشر بعد الإسلام بفضل القرآن الكريم الذى يمتاز أسلوبه بوفرة استعمال المقصور فى سجعه ، ومعنى ذلك أن هذا الفن قد مر بمراحل متدرّجه من التطور فى العصور الإسلامية المختلفة بفضل أسلوب القرآن الكريم حتى انتهى إلى صورة تجعل من المقصورات فنا شعريا متميزا من غيره من فنون الشعر الأخرى ، أو على حد قوله « مجموعة شعرية مثل غيرها من المجموعات الشعرية المعروفة ... ذات خصائص تجعلها ، من جهة ، متشابهة بعضها مع بعض ، كما تجعلها ، من جهة أخرى ، وبسبب هذا التشابه نفسه ، مختلفة عن غيرها من القصائد ، كالأراجيز والمعلقات واللاميات ... » .

أما تحقيق نص مقصورة القرطاجنى ، وهو الغاية **الأخرى** من هذا البحث ، فقد جاء فى صورة علمية موثقة ، تعرض منهجا فى تحقيق النصوص القديمة متكاملا : فقد حشد لهذا التحقيق عددا من المخطوطات قام بدراستها وتقويمها ، دراسة وتقويما أفرزا نسخة جيدة اعتبرها أصلا أثبت نصه وقارنه بنصوص المخطوطات الأخرى ، فى صرامة ودقة واستيعاب يندر أن نجد لها مثيلا فى النصوص المنشورة التى ظفرت بعناية محققيها ، مستخدما منهجا مَزِيجًا من الوصف والمقارنة لبناء نص لغوى لهذه المقصورة ، برىء من النقص والتحريف والخطأ !

●● ما هى غاية التفسير النفسى للأدب عامة والشعر خاصة ؟

(٤) وتعدّ دراسته عن « **المتنبى بين نفسيته وشاعريته** » نموذجا نقديا لتطبيق المنهج النفسى فى دراسة الشعر فى صورته الصحيحة . فعلى الرغم من كثرة الدراسات التى كتبها المحدثون حول الشعر العربى القديم من منظور « النقد النفسى » فإنها لم تحقق تطبيقا لهذا المذهب النقدى فى صورة علمية دقيقة ؛ فقد انصرفت هذه الدراسات على اختلافها وتنوعها إلى تحقيق غاية بعينها هى استخلاص صورة مرضية لشخصية الشاعر من شعره ، ومن ثم أضحى الشعر فى هذه الكتابات مجرد وثيقة نفسية على أمراض الشاعر وانحرافاته الأخلاقية والدينية على حساب قيمته الفنية التى تجعل منه تعبيرا فنيا له خصائصه ومقوماته[1] ، لا نكاد نستثنى من ذلك إلا ثلاثة أعمال هى : دراسة الأستاذ محمد خلف الله أحمد عن « الأسس النفسية لدراسة الأدب » ، ودراسات الدكتور مهدى علام النفسية لشعر المتنبى[2] ومنها دراسته التى بين أيدينا ؛ وكتاب الدكتور عز الدين إسماعيل « التفسير النفسى للأدب » . ومن المعروف أن غاية التفسير النفسى للأدب عامة والشعر خاصة هى تفسير الصور الفنية التى تفرزها الصراعات الباطنية لتتخفّى فيها ؛ أو فلنقل لتتخذ منها وسيلة مشروعة ومقبولة لخروجها من عالم

---

(١) من هذه الدراسات كتابات عباس محمود العقاد عن أبى نواس وابن الرومى ؛ وكتابات النويهى عن أبى نواس وبشار .

(٢) للدكتور مهدى دراسات أخرى عن شعر المتنبى كان يدرسها لنا منها دراسة عن « اعتذاريات المتنبى » يتجه فيها إتجاها نفسيا .

اللاوعى إلى عالم الوعى . وتأخذ هذه التفسيرات أحد اتجاهين نفسيين معروفين هما : اتجاه فرويد أو اتجاه يونج فيما يعرف بالنماذج الإنسانية العليا الموروثة من تجارب الإنسانية فى مراحل بدائيتها الأولى .

●● صراع المشاعر فى نفس المتنبى وأثره على عملية الإبداع الفنى .

وقد أثمر تفسير الدكتور مهدى لصور القصيدة تفسيرا نفسيا فى تشخيص هذا الجدل الخفى الذى كان يحتدم فى باطن المتنبى بين « نفسيته وشاعريته » أو بين مشاعره الخاصة والعامة . وهو جدل قد انتهى بالمتنبى إلى بناء صوره فى هذه القصيدة بناء خاصا لتنكير عواطفه ، أو فلنقل لإخراجها فى صورة مشروعة ومقبولة « **فقد كان يضطر فى بعض الأحيان إلى إظهار الرضا وهو غاضب ، إلى المدح وفى نفسه أن يهجو ، إلى الأعتذار وفى اعتقاده أنه يجب أن يُعتذر إليه ....** » !

وقد اتخذ الدكتور مهدى من هذه الصور المشروعة مفاتيح إلى تشخيص صراع المشاعر فى نفس المتنبى ، وأثر هذا الصراع على عملية الإبداع الفنى لقصيدته ، منها : المفارقة الحادة التى يسجلها فى الأبيات الأولى بين حبه الصادق لسيف الدولة ، وحب المتشاعرين الزائف له ، وبين حرارة حبه لسيف الدولة ، **وبرود عواطفه نحوه !** أو الانتقال المفاجئ من الشكوى إلى المديح « **خضوعا لموقف تمليه الظروف التى تتعارض مع ما يجيش فى نفسه من الألم** » ، ومزج هجائه لأعدائه ومنافسيه فى بلاط سيف الدولة بتجسيد كبريائه وصلفه وإضفاء المكارم على نفسه .... إلى غير ذلك من الصور التى تشف عن هذه الصراعات الباطنية فى شكل فنى مشروع ومقبول كما قلنا .

●● الوعى بأهمية الإحصاء فى تفسير القرآن الكريم تفسيرًا موضوعيا...

وحين نترك هذه النماذج من دراساته الأدبية إلى دراساته الإسلامية ، نجده حريصا على الصدور عن المنهج نفسه الذى يتلخص فى مواجهة النصوص مواجهة مباشرة ،؛ والنظر فيها نظرا متكاملاً يؤلف فى دراستها ، من عناصرها المتفرقة ، بناء نصيا متكاملا ، والاً على غاياته

واتجاهاته التى يقصد إليها ، ومن هذه الدراسات الإسلامية ، أو فلنقل ما بين أيدينا منها : فلسفة العقوبة ؛ ونظرية الوسط فى الإسلام ؛ ونظرية الصدقة فى الإسلام ، وأخيرا نظرية العفو فى الإسلام .

وتعد دراسته عن « العفو فى الإسلام » كما تعرضه آيات القرآن الكريم ، نموذجا مبكرا لهذا النوع من البحث الموضوعى القائم على جمع العناصر المتفرقة من الموضوع الواحد فى بناء متكامل يؤلف « نظرية » محددة تستوعب جزئيات هذا الموضوع فى صيغة تتصالح فيها عناصره وتتواصل ، كما تعبر عن وعى بأهمية الإحصاء فى رصد الظواهر والأفكار المتفرقة ، والتوفيق بينها وتفسيرها . **وفى عبارة أخرى إنه وعى بأهمية الإحصاء فى تفسير القرآن الكريم تفسيراً موضوعيا وتنظيريا بصفة خاصة .**

● **وقد أقام دراسته على دعامتين :**

الأولى ، إحصاء الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر العفو ، بلفظه أو معناه ، وتصنيفها فى مجموعات تختص كل واحدة منها بموقف بعينه من « العفو » .

والأخرى ، تفسير هذه الآيات تفسيرا متكاملا يؤلف نظرية قرآنية فى العفْو .

وقد أنتهى فى هذا التفسير إلى « أن العفو **ليس أصلا** فى المعاملة بين الناس ، لأنه قدر زائد على العدالة ... » وأنه **ظلم** يوقعه المرء على نفسه « بالتجاوز عن حقه .... » **ولم يفرضه** الله تعالى ، من أجل ذلك ، « **بل رغّب** فيه وندب إليه بوسائل شتىّ » ، وجمع بينه وبين مشروعية العقوبة فى كثير من الآيات ! يريد بذلك إلقاء « الطمأنينة فى قلوب العباد على أن مصالحهم مرعية ... [وأن] عفوهم إذ ذاك سماحة خالصة ، **لا طاعة مزيفة** » !

وقد حقق الدكتور مهدى هذا الموقف القرآنىّ من « العفو » من خلال مراجعة عدد كبير من الآيات القرآنية ، قام بتصنيفها فى **مجموعات** تتكامل وتتواصل فى منظومة فكرية واحدة ، بفضل لغتها حينا ومعانيها حينا آخر :

●● فى الإسلام الحنيف دعاوى خَيْرٍ لم يتم اكتشافها بعد ..

– فهو يلاحظ أن العبارات التى استخدمها القرآن الكريم فى العفو مغرية به حريصة على تقريبه إلى القلوب ..... فقد وصف الله تعالى نفسه بالعفو ، ووصف رسوله الكريم وطالبه به ، **ووصف به كذلك المقربين من عباده ، فوضع بذلك مُثُلاً أمام عباده يهتدون بها من غير إلزام »** .

– كما يلاحظ أن الدعوة إلى العفو يأتى **أكثرها** فى أساليب نادبة ومرغبّة ، **وأقلّها** فى أساليب آمرة ؛ ولكنها جميعا على اختلاف صيغها وأساليبها اللغوية « **ليست خطابا مباشراً**

لجمهور الناس الذين يغلب أن تثور فى نفوسهم روح المعارضة والعناد إذا أُمروا بالتجاوز عن حقهم فى القصاص ..... بل كان الأمر فيها موجها لمن طَهّرت نفوسهم من خبث التعصب والعناد ... » .

– وكما يرغب القرآن فى العفو فإنه يزهد فى العقوبة ، فيزاوج بين التشريع للعقوبة والتحذير من البغى والعدوان ، والدعوة إلى الحيطة والتقية !

– ولعل أروع ما يلاحظه الدكتور مهدى علام من عناصر هذه النظرية القرآنية فى العفو ، أن الدعوة إلى إيثار العفو على العقوبة « **لا تقتصر على معاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، بل تمتد إلى معاملاتهم مع غير المسلمين » من أصحاب الديانات الأخرى** و « **هى ميزة للإسلام فى تعاليمه وفى تاريخه » !**

●● لولا ما كتبه الدكتور مهدى لضاع تاريخ فترة خصبة من حياة مجمع اللغة ...

وعطاء الدكتور مهدى علام فى مجمع اللغة العربية لا يقل خصوبة عن عطائه فى الجامعة ، فقد أخذ منذ اختياره لعضويته فى الستينات ، يشارك فى أعماله الإدارية والعلمية مشاركة متجددة : فشغل لفترة غير قصيرة وظيفة أمين مجمع اللغة العربية ، ثم تركها إلى وظيفته الحالية ؛ نائب رئيس مجمع اللغة العربية . وهو حريص على أن يزاوج ، فى المجمع ، بين أعماله الإدارية وواجباته العلمية مزاوجة منتجة تتمثل فى الإشراف على مجلة **المجمع** وتنظيم مؤتمراته ، وإعداد البحوث والدراسات المختلفة . ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الحديث فى جهوده العلمية ، وما أثمرته فى المجمع طوال أكثر من ثلاثين عاما ، من دراسات وبحوث وكتب مؤلفة ومحققة ؛ ولكنا نكتفى بالإشارة إلى كتاب استقبلته البيئات الثقافية فى مصر والعالم العربى استقبالا طيبا ، هو : « **المجمعيون فى خمسين عاما** » وهو كتاب ترجم فيه لأعضاء مجمع اللغة العربية الذين اختيروا لعضويته على مدى خمسين عاما من عمر المجمع . وقد اقتضاه رصد هذا التاريخ أن يعود إلى منشورات المجلس ومؤتمراته ومجلته ، ومضابط جلساته ومؤتمراته طوال نصف قرن من الزمان ، ليستخلص منها صورة تاريخية وعلمية صحيحة وموثقة لعمل هؤلاء الأعضاء ، ومواقفهم العلمية فى المناسبات والقضايا اللغوية والأدبية المختلفة ؛ وهو جهد مضنن لا يقدر على الوفاء به إلا من وهبه الله قدرة على البحث وصبرا على مشاقه ، ورغبة مخلصة فى إنجازه فى صورته الصحيحة . **ولولا ظهور هذا الكتاب لضاع تاريخ فترة خصبة من حياة مجمع اللغة العربية ، وانطمست صفحة مشرقة من صفحات أعضائه .**

وكما يحرص الدكتور مهدى علام على أن يجمع بين واجباته الإدارية والعلمية فى مجمع اللغة العربية ، فهو يحرص كذلك على أن يجمع بين هذه الأعمال والواجبات ، وواجباته فى التدريس والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه فى الجامعة ، وقد أنتجت جهوده فى الجامعة ولا تزال تنتج ثمرات وفيرة ، بفضل حرصه على أن ينقل لطلابه تجاربه العلمية العميقة ، وخبرته فى البحث ، ودقته فى التفكير ، أو فلنقل منهجه القائم على مواجهة النص مواجهة تفسير وبحث عن الحقائق العلمية ، فى حيدة وصدق كاملين !

●●... نجح فى دحر السياسة الاستعمارية فى التعليم ، ومهد لسيادة الثقافة العربية والاسلامية ...

وليس هذا الوجه العلمى هو وحده الذى يميز حياة الدكتور مهدى علام ويطبعها بطابعه ، فهناك وجه آخر ، أو فلنقل تاريخ آخر ، لا يقل عن تاريخه العلمى أهمية وخطورة هو وجهه الوطنى الذى يتمثل فى مواجهة الاستعمار البريطانى مواجهة ثورية وعلمية ؛ فأما المواجهة الثورية فقد اتخذت شكل مشاركة إيجابية فى ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد كان واحدا من أعضاء خلايا الثورة المسئولة عن كتابة المنشورات وتوزيعها ، ونقل تعليمات قيادات الثورة إلى أعضائها(١). وأما المواجهة العلمية فقد اتخذت شكل مواقف حاسمة فى مواجهة محاولات الاستعمار البريطانى لطمس الثقافة العربية فى المدارس على اختلاف درجاتها ؛ وقد أُتيح له بحكم وظائفه التى تقلدها فى وزارة المعارف فى تلك الفترة ، أن يواجه هذه السياسة ويقلصها ، ويمهد لسيادة الثقافة العربية عامة ، والإسلامية خاصة فى المدارس والمعاهد فيما بعد !

ومن المؤسف أن هذا الجانب من حياة الدكتور مهدى علام يكاد يخفى تماما على كثيرين من زملائه وتلاميذه ! وقد ساهم هو نفسه فى خفاء هذا الدور ، فهو يحرص ، لسبب غير معروف ، على عدم تدوينه . وهو حرص ربما يعود إلى زهده فى الحديث عن نفسه ، ولكنه على كل حال قد أشار إليه إشارات عامة فى ترجمته لنفسه فى كتابه : « المجمعيون فى خمسين عاما » .

وأخيرا ، إذا كان لى أن أقول شيئا فى ختام هذه الكلمة الموجزة عن ذكرياتى مع أستاذى الدكتور مهدى علام ، فهو أن سلوكه العلمى قد امتزج بسلوكه الإنسانى

---

(١) لقد قمت بتسجيل مقابلة للدكتور مهدى علام شرح فيها كثيرا من تفاصيل وأسرار الثورة المصرية ، ثورة ١٩١٩ وبيان دوره فيها .

ليصبحا شيئا واحدا : وهو باختصار ، سلوك إنسان متحضر ومثقف ، يتسع عقله للتفكير المتجدد ، وقلبه للحب الذى لا ينضب ماؤه ولا تجف عواطفه ، فلم أره يوما إلا ساعيا فى الخير ، ومنشغلا بالعلم . ولغته هى الأخرى ، صورة لهذا التحضر الذى يحكم سلوكه العلمى والإنسانى : فلم أسمعه يوما ينطق كلمة غير كريمة ، ولم أره يوما يغضب لغير الحق أو يسعى فى غير العلم والخير .

أمدّ الله فى عمره ، وأفاد به وبعلمه وخلقه أبناءه وتلاميذه .

دكتور / ابراهيم عبد الرحمن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

●● تقديم :

نحمدك اللهم أن شرحت صدورنا للإسلام ، وشرعت لنا من الدين ما وصيت به رسلك الكرام ، ووفقتنا لفهم رسالة خير الأنام ، تلك الرسالة التى جاءت خاتمة للرسائل ، وجامعة للمصالح والمنافع .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين القائل : « من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين » وعلى آله وأصحابه ينابيع الحكم وهداة الأمم .

أما بعد : فليس من أهدافنا الأساسية فى هذا التقديم أن نجلو على القارئ — فى إسهاب وبسط — كل ذكريات أستاذنا الجليل الدكتور محمد مهدى علام ، فهو من شيوخ الأساتيذ ، وعلمه موسوعىّ ، يرى فيه هذا الجيل قيمة من أعظم قيمه ، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال جمع كل ذكرياته فى مثل هذا الكتاب ، فذكرياتهُ تتسع للعديد من الكتب ..

ولكنى أحمدُ الله جلّ وعلا أن يسَّرنى ويَّسر لى كتابة هذه المذكرات ، **لأن استخراج اللآلىء من قلب البحر ليس بالأمر الهين ، فكثيرون قبلى — أكثر منى سمعة وبريقا — حاولوا مع أستاذنا الجليل أن يحدّثهم عن ذكرياته ، أو مجرد « دردشة » فكان يرفض بإصرار عجيب وإباء أشد عجبا .!**

وقد اتصلت بأستاذى الجليل : « هاتفيا » بمنزله ، وعرفته بنفسى ، وطلبت منه تحديد موعدٍ للقائه ، فأجابنى : لا مانع أن نلتقى يوم كذا .. بمكتبى بالمجمع ، الساعة كذا .. وهذا اللقاء يكون للتعارف فقط . والتقيت به فى المجمع فى الموعد المتفق عليه . وقدّمت له بعض كتبى وكتاباتى عن بعض الشخصيات الإسلامية ، فشكرنى . وطلب منى بعض البيانات عن نفسى كتابة ، وعلى أن أنتظر حتى يتصل بى ..

وبعد أسبوع تقريبا طلبنى بالمنزل وحدد لى موعدًا للقاء بالمجمع . والتقيت به فى المجمع فى الموعد المحدد ، فرحب بى ترحيبا حارًا ، وعرفنى أنه موافق على تسجيل ذكرياته معى كأحداث متناثرة وغير مرتبة ، وعلىّ أنا بعد ذلك ترتيبها وتبويبها ، وفى نفس الوقت أبدى قلقه وتخوفه من أن ذلك سوف يكون به مشقة علىّ . فأعلنت له بكل الصدق ترحيبى وسعادتى بكل ذلك .

فسألنى بعد ذلك : ما الدافع وراء تسجيل أو كتابة ذكرياتى أنا بالذات .!

فقلت له : لأنى قرأت معظم ما كتبته إن لم يكن كله ، بدءًا من : « فلسفة الكذب » وكتاباتك فى صحيفة دار العلوم ، وحولية « جامعة فؤاد » وبحوثك العظيمة المدونة فى مضابط مجمع البحوث الإسلامية ، وكتاباتك بمجلة المجمع ، والمجمعيون فى خمسين عاما » . وتلك الكتابات جميعها تنبئ عن شخصيتك الفذة العملاقة التى يجب أن يتعرف عليها جيلنا والأجيال التالية له ، من خلال ما سندونه لسيادتكم من ذكريات ..

ولعلّى أوضح الأمر أكثر فأقول فى كتابك : « فلسفة الكذب » كانت تتجلى عبقريتك ووطنيتك وغيرتك الإسلامية غير المحدودة ، حيث برهنت على أن الصدق ليس فى كلمة : « الخواجة » ، بل هى مجرد دعاية وكسب إعلامى ، ولكن الصدق كله ، والصدق الحقيقى هو صدق المسلم صاحب الخلق ، وضربت الأمثلة الواقعية من حياة الخواجات الإنجليز أنفسهم من خلال تعاملك معهم ومعايشتك لهم ، مقابلاً ذلك كله بصدق الرجل المسلم الحقيقى ، صاحب الخلق الرفيع ، مستشهدًا أيضا بمواقف إسلامية رفيعة القدر .. فهذا منهج جديد لم يسبقك إليه أحد ، خاصة إبرازك لكل ذلك فى قالب فلسفى واجتماعى مرتبط بالخلق الإسلامى الرفيع .

وفى بحوثك المدونة بمضابط مجمع البحوث الإسلامية نجد أمانتك فى البحث تجعلك تقرأ القرآن كله ، كى تجمع الآيات التى وردت بالقرآن الكريم خاصة بموضوع معين مثل : « العفو فى الإسلام » كى تقف على مضمون كل آية ومعناها حسبما وردت ضمن السورة التى جاءت بها . ولك فى هذا فلسفتك ، ونظريتك ، ومنهجك الخاص بك والذى يميزك عن غيرك .

وكذا عند إعدادك بحثا عن « الصدقة فى الإسلام » نجد إضافة أخري جديدة ، حيث يظهر منهجك أكثر وأكثر بجمعك بين التفسير الإسلامى ، والمعنى أو المضمون النفسى والاجتماعى العصرى ، عارضا بذلك لأعظم تفسير عصرى يصل إلى قلوب الجميع بسهولة ويسر ، ولا يبعد قيدأ نملة عن جوهر ما قال به علماء السلف الصالح .

وأما عما كتبته فى : « المجمعيون فى خمسين عاما » خاصا بشخصكم الكريم ، فهو ليس تأريخا ، ولكنه مجرد عناوين لموضوعات جَليلة القدر ، تحتاج إلى المزيد والمزيد من الإيضاح .. فابتسم وقال : لقد كان أحد الأصدقاء يلحّ علىّ أن أكتب مذكراتى الشخصية ، وعندما طبع كتابى « المجمعيون فى خمسين عاما » أرسلت إليه نسخة منه قائلا له : الحمد لله لقد كتبت مذكراتى وليس لك أن تتهمنى بالتقصير بعد ذلك، ولكنه بعد أن قرأ ما كتبته عن نفسى اتصل

بى وقال : يا دكتور مهدى ما كتبته عن نفسك فى : « المجمعيون فى خمسين عاما » ليس تأريخا ، ولكنه تزوير !

فقلت له مندهشا : كيف هذا ؟ . فقال : أستاذى الجليل أنت تعلم جيدًا أن التاريخ عندما يكتب بالزيادة أو النقصان فهو تزوير ، ومن يومها وأنا أفكر فى هذا الأمر .. إلى أن طلَبْتَ منى كتابة مذكراتى ، وأنّ ما كتبته فى « المجمعيون » ليس إلا عناوين لموضوعات هامة لها ما بعدها ، **متفق تماما مع صديقى العزيز الذى سبق وحدثتك عنه ، متهما إياى بالتزوير .**

ولذا فإنى أصرح لك أنه لا مانع لدىّ من تسجيل مذكراتى معك ، خاصة بعد أن ألف الله بين قلبينا ، وشرح صدرى لك ، وأحببتك كأحد أحفادى الذين هم أحب إلى نفسى من نفسى .

ولقد تحدث أستاذى الجليل معى فى العديد من القضايا الهامة والمتنوعة ، بكل الصدق ، عن مرحلة كثر فيها تزييف التاريخ عمدًا أو جهلاً ، حيث كان المسيطر فى تلك المرحلة إما الاستعمار الإنجليزى حتى ١٩٥٢ أو مراكز القوى فيما بعد .. **ولن أدخل فى تفاصيل ، بل أشير فقط إلى عنوان كل قسم من الكتاب الذى يضم سبعة أقسام . الأول** يتحدث فيه عن : النشأة الأولى ودار العلوم .

والثانى : عن المعارف وطريق ملىء بالأشواك . **والثالث** : عن البعثة الأولى إلى إنجلترا وحياته العلمية فى إكسترا. **والرابع** : عن البعثة الثانية للندن ومفاجآت وطرف ما نشستر .

والخامس : عن الأزهر الشريف وقضايا علمية خطيرة .

والسادس : عن قضايا عامة وأحداث تاريخية لها شأن عظيم فى تاريخ الأمة .. **والسابع والأخير عن** : مهدى فى عيون أبنائه .

● وأستأذنك أخى القارئ أن أعرض لجانب واحد — كى لا يطول بنا الحديث — من الجوانب المتعددة فى حياة أستاذنا الجليل ، والثرية بالعلم والمعرفة والوطنية الجارفة ، وهو حبه لمصر وولاؤه الشديد لها ، الذى جعله يرفض — وهو فى بدء حياته — ذهب العرب وكل إغراءاتهم آملاً فى أن يكوّن جيلا من نبهاء دار العلوم يأتمنه على حمل أمانة العلم للأجيال المقبلة من بعده ، وكان يستقبلهم فى مكتبته الخاصة ، وتبدأ الندوة العلمية — دائما — بتلاوة القرآن الكريم من أحسنهم صوتا وترتيلا .

وكان من بين الذين يحضرون تلك الندوة « **سيد قطب** » وكثيرًا ما كان يطلب ويلحّ فى الطلب على أستاذنا الجليل أن يفسّر القرآن الكريم بلغة مبسطة تكون قريبة من وجدان

المسلمين ، وفى نفس الوقت لا تخرج عن جوهر ما فسّره علماء السلف الصالح ، فكان يعتذر بكثرة مشغولياته ويقول له : ممكن أن تقوم أنت بهذا ، وأنا مطمئن لأمانتك العلمية ، ورصيدك الضخم الفقهى واللغوى يساعدانك على هذا . وفى اليوم التالى لهذا الحديث بدأت الندوة بتلاوة القرآن الكريم بالآية الكريمة : ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درّى ..** ﴾[١] **الآية الكريمة** .

ودار الحوار حول تفسير هذه الآية ، وكان — سيد قطب — نجم هذا الحوار ، فطلب منه أستاذنا الجليل أن يبدأ على الفور فى تفسير القرآن الكريم . وكان « فى ظلال القرآن » .

ومما يزيد ما قلته بيانا وتوضيحًا هو أن نعرض سويا لكلمات قليلة ذات معان عظيمة جاءت فى مقدمة كتاب : « مهمة الشاعر » لسيد قطب وهو طالب بكلية دار العلوم فى بداية الثلاثينيات من هذا القرن ، وكانت محاضرة طبعت بعد ذلك فى كتاب ، وأستاذنا الدكتور محمد مهدى علام هو الذى قدم لهذا الكتاب قائلا : « لقد كان من بواعث اغتباطى أن أشرفت على إلقاء هذه المحاضرة ، بمدرج « دار العلوم » مهد العلم والأدب ، **الذى قال فيه المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده : « إن باحثا مدققا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، لوجدها تموت فى كل مكان وتحيا فى « دار العلوم » .**

ولئن كنت قد قدمت المحاضر « سيد قطب » بأنه طالب يسرنى أن يكون أحد تلاميذى ؛ فإنى أقول اليوم وقد سمعت محاضرته ، إنه لوْ لمْ يكن لى تلميذ سواه لكفانى ذلك سرورًا ، وقناعة ، واطمئنانا إلى أننى سأحمّل أمانة العلم والأدب من لا أشك فى حسن قيامه عليها .. لقد كتبت منذ أسبوع كلمة قدمت بها كتاب : « تاريخ اللغات السامية » لنجم آخر من نجوم « دار العلوم » هو : « جودة الطحلاوى » وقد قلت فى تلك الكلمة : إن فى « دار العلوم » اليوم نهضة علمية أدبية يحمل لواءها نفرٌ من أعز أبنائنا علينا ، وإننى حين ذكرت ذلك كنت أفكر فى رهط ، أعدّ : « سيد قطب » فى طليعتهم .

يعجبنى فى كاتب هذه المحاضرة — سيد قطب — جرأته الحازمة ، التى لم تسفّه فتصبح تهوّرًا ، ولم تذل فتغدو جبنا ، وأن هذه الجرأة الرشيدة التى دعته إلى الاستقلال بالرأى فى بحثه ، حتى ولو خالفنا فى بعض ما نعتقده من الآراء الأدبية ، هى التى تجعله أحَب إلى قلوبنا .

و« سيد قطب » باحث ناشيء ، تعجبنى منه عصبيته البصيرة ، وإشادته بذكر الشعراء

---

(١) سورة النور — الآية رقم ٣٥ .

الناشئين من أمثاله ، وهو جدّ موفق فى اختياره لهم ، وليس أقل توفقا فى اختياره من شعر نفسه ، وإن ستره تواضعه وراء ستار : « لشاعر ناشئ » .

وقصارى القول أن أقول للقراء والأجيال المقبلة : **إننى أعدّ « سيد قطب » مفخرة من مفاخر « دار العلوم » ، وإذا قلت : « دار العلوم » فقد عنيت دار الحكمة والأدب**(١) .

ولعلّ من الإنصاف أن أذكر طرفا من الكلمة التى شكر فيها « سيد قطب » أستاذه الدكتور محمد مهدى علام على تفضله بتقديم كتابه الأول : « مهمة الشاعر فى الحياة » فقال : « ... **وفى اللحظة الأخيرة ، شاء المربى الفاضل الأستاذ « مهدى علام » أن يضيف إلى فضله علىّ بصفته أستاذًا فضلا جديدًا بكتابة هذه الكلمة ، وما أحسب ما جاء بها من ثناء إلا طرفًا من طريقته الحكيمة فى التربية ، وهى اتهام طلابه بالفضائل ! بقصد التوريط !!**

وإننى إزاء هذا المظهر السامى ، والعاطفة التى أجلّها وأشعر بقداستها ، لا أجد ما أرد به ، إلا أن أعمل على أن أكون فى الغد خيرًا منّى اليوم ، وبعده خيرًا منّى فى الغد ، وهو ما أرجو أن أوفق إليه بإذن الله .

●● أستاذى الجليل : لقد خصصتنى دون غيرى بأعظم شرف كنت أحلم به طوال حياتى ، وكرمتنى أكثر وأكثر بحبك وثقتك الغالية .. فكيف أشكرك ، وأى عبارة تناسب مقامك الرفيع السامى ، حتى ولو اتخذت لشكرك يراعًا من الندى ، وقرطاسًا من الورد ، ومدادًا من ذوب الذهب ، ومحلول الأدب ، ومبانى من درارى النحور ، ولآلىء البحور(٢) ، وجعلت الإطناب من مقتضياته ، والسحر من آياته ، وسلكت جواهره فى سلك من الضياء ، ونظمته عقدًا كما شاءت الفصاحة وأشاء ، شكرا لما خصصتنى به من حب ورعاية .. فما كنت إلا قاصرًا أو مقصرًا .

ولما كان مَثَلِى إلا كمثَلِ البدوى إذ نظر إلى البدر وقد أبان راحلته ، ورد عليه ضالته وقال : إن قلت زادك الله رفعة فمكانك السماء ؛ أو ضياء ففيك كل الضياء ؛ أو محبة فقد انجذب إليك كل فؤاد ؛ أو منفعة فأنت النفع للعباد والبلاد ؛ وإنما أقول أدام الله للبدر جماله ، وأبقى له كماله ،

---

(١) يرجع إلى كتاب : « مهمة الشاعر فى الحياة ، وشعر الجيل الحاضر » بقلم : « سيد قطب » ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م — مطبعة الطلبة بمصر ومما تجدر الإشارة إليه أن الشهيد حسن البنا من خريجى دار العلوم أيضا .

(٢) لقد اقتبسنا بعض العبارات فى تلك الخاتمة من كلمة فى الشكر والثناء للشيخ العلامة أحمد سلامة أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الخديوية مع تصرف بسيط .

وحرس هالته ، وحفظ أشعته . فأنا البدوى يا مولاى ، وان كنت أقصر منه لسانا ، وأنت البدر وإن كنت أعلى منه مكانا ، فكل إطراء فى فضائلك إيجاز ، وكل غلو فى مكارمك لم يتجاوز الحقيقة إلى المجاز ، على أنك غنىّ عن الثناء ، بما لك من الرفعة والثناء ..

من كان فوق محل الشمس موضعه
فليس يرفعه شىء ولا يضع

جعلك الله للحياة غرة . وللعيون قرّة . ولتيجان الأدباء والباحثين درة ، ما افتخرت بمفاخرك المفاخر ، وتليت آيات شكرك فى الأوائل والأواخر .

أبو بكر عبد الرازق

صباح الخميس ٢٤ من ربيع الأول سنة ١٤١٢ هـ
الموافق ٣ من أكتوبر سنة ١٩٩١ م

•• القسم الأول :

النشأة الأولى
ودار العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

●● نحمدك اللهم حمد من أُمددته بتوفيقك فلم تزلّ .. براعته ، ونثنى عليك ثناء من اشترى حكمتك بلهو الحديث فربحت تجارته . نحمدك اللهم حمدًا يصل جديد النعم بقديمها ، ونسألك توفيقا نحتمى به من عثرات الأقلام وزلات اللسان .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد النبىّ الأمىّ ، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة دائمة إلى يوم الدين .

●● وبعد : ففى خضوع وتواضع ، واستجابة لرأى الزميل أبو بكر عبد الرازق[1] فى أن أتناول بعض الأحداث التى مررت بها فى حياتى ، راجيا من الله العلىّ القدير أن يكون لها من القيمة مايفيد قارئها ؛ أمّا أنا فحسبى أن أذكرها ، فلها مالها من قيمتها ، كبرت أم صغرت .

وأنا لا أذكر – تلك الذكريات – تباهيا بها ، وإنما مادامت قد سجلت للتاريخ فى وقتها ، فأنا أشير إليها بقدر ما أستطيع الآن بعد مرور أكثر من نصف قرن عليها ..

دكتور مهدى علام

---

(١) حقيقة هذا شرف يفوق ما أستحقه بكثير .. فيكفينى فخرًا أن أكون أحد تلاميذ أستاذ الأجيال الدكتور محمد مهدى علام بارك الله لنا فى علمه وعمره . « آمين .. آمين »

●● وبعـد : فسوف أبدأ حديث الذكريات بالتكلم عن النشأة الأولى والنشأة العلمية ... فأنا ابن القاهرة ، وليد قسم الدرب الأحمر ، الثالث من أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .

تلقيت تعليمى الابتدائى فى مدرسة إسمها : « مدرسة جوهر اللاله » وأظن أنه الاسم التركى ، وقد تغير الآن .

بعد ذلك انتقلنا الى مدرسة عثمان ماهر باشا ، وهى كانت تقوم بوظيفة الاعداد للدراسة العليا فى النواحى الدينية ، قضيت خمس سنوات فى هذه المدرسة ، فى هذا الوقت علمت أن هناك احتمال القبول فى مدرسة دار العلوم ، وذلك بعد إجراء امتحان مسابقة القبول التى تحدد قبول الطالب ، على ضوء مايحققه من نجاح فى هذه المسابقة .

● ● التحقت بدار العلوم لأتعلم العربية من منابعها الأصيلة ..

وكان السبب فى رغبتى فى الالتحاق بدار العلوم بيتين من الشعر ، فقد كان المرحوم الاستاذ الحملاوى يدرس لنا البلاغة وفى الكلام على الجناس الذى يسمى : « الجناس المصحّف » جناسا مضبوطا ، أعطى أمثلة فيه ثم قال : وكقولى مودّعا زميلى الاستاذ / حسن توفيق العدل ، عندما انتدب لتدريس اللغة العربية فى برلين :

سِرْ فى أمــــانٍ الى برلينَ مــــدّرِعــــا
سيفــــا من الحــــزمِ يُمضِى حــــدُه اللّسِنُ
فيهــــا الاشــــارة فــــاتلــوهــــا مصحّفــــة
البــــرّ والليــــن أو فــــالبــــر والّلبــــنُ

هذا المعنى وهذا التصوير فجّر فى نفسى شوقا عظيما جدًّا لهذا الحسن العدل ، فسألت الاستاذ الحملاوى فى آخر الدرس يا أفندى : من حسن توفيق العدل ؟ فقال لى : كان زميلى تخرجنا فى دار العلوم سويا ، وله تاريخ عظيم جدًّا . سألته : هل له كتب ؟ فذكر لى أسماء بعض كتبه ، فحصلت عليها ، أو على مايمكن الحصول عليه منها . وأنا فى ذلك الوقت فى الخامسة عشرة من عمرى . تملكنى شعور بأن أسير فى مسار حسن توفيق العدل ، كما يتشبه الجهال بالعلماء ، والصغار بالكبار(١) .

البدء كان دخول مدرسة دار العلوم ، وسألت عن العلوم التى لابد أن ينجح فيها الطالب لأن فى ذلك الوقت كان هناك امتحان قبول فى نحو خمسة عشر علما .

الذى حصل أنى نجحت والحمد لله ، ولو كان من سوء الأدب أنى أذكر طريقة النجاح فأرجو أن أسامح فى هذا ...

الطريقة : أنه كان يتقدم اليها عدد كبير جدًّا من الذين يريدون أن يُلْحَقُوا بها . وفى سنتى هذه ، كان نحو ثلاثمائه وخمسين متقدما . دخلنا الامتحان ، وهم من كل الطوائف ، أزهر ومدارس ، وجهات أخرى ، نجح نحو خمسين فقط فى الامتحان التحريرى فى هذه المواد .

---

(١) حسن أفندى توفيق العدل ، كان أبىّ النفس ،عالى الهمة بمكانٍ عظيم من العلم ، والفضل ، والأدب وحسن الخلق ، محبوبًا لدى جميع من عرفه .

تعيّن أستاذًا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية ببرلين ثم تولى وظيفة التفتيش فى نظارة المعارف المصرية ، فوظيفة التدريس فى دار العلوم . =

●● إحتشمت عندما عرفته !!

وكانت هناك حادثة لطيفة ، فلما كنت أكتب ورقة الامتحان بسرعة وأنزل للعب ، وأحيانا أشرب الشاى ، وأنتظر الجلسة التى بعدها ، لأن اليوم كان يأخذ جلستين ، فى ذلك الوقت كان المشرف على الامتحان كبير مفتشى اللغة العربية ، رجل كبير القدر اسمه المرحوم محمد شريف سليم بك . أنا لم أعرفْ أحدًا من هؤلاء ، أنا لم أختلط بوزارة المعارف ولا أعرف أحدًا فيها ، إنما كان يلقانى هذا الاستاذ وأنا نازل أجرى على السلالم عقب امتحان كل مادة من المواد فيقول : وهو كان يلتزم العربية ، وفيه: « لُكْنة » تزيده جمالاً ، وينادينى ويقول : « أ . أ . أنت لم تحسِنْ أ . أ . ألكتابة ! أ . أنت أسرعت ، و نزلْت ، فالذى يقول لى هذا - كَفَتَى مغرور فى نفسه بعض الشئ - أعْجَب كيف يقول هذا ! وهو ما رأى شيئا مما كتبته أنا . كنت لا أعيره اهتمامًا ، وأظن أنه متطفل بهذا ، لاأعرف من هو ، ولا مركزه ! تكرر هذا مرة ، أو مرتين فسألت عنه فقيل لى : هذا أكبر رجل فى وزارة المعارف ، فى تفتيش اللغة العربية ، وكذا . وكذا . فأنا - حقيقة - خشيته ، واحتشمت عندما كنت أكلمه . وحدث أن نتيجة التحريرى ظهرت ، وكنت أنا أول الناجحين والحمد لله ، دخلنا بعد ذلك امتحان الشفوى ، فى هذا الامتحان ، كنا نمتحن فى القرآن ، وألفية ابن مالك ، وفى المعلومات العامة ، والقراءة فى الأدب . فبدأت فى لجنة القرآن ، وكان يجلس فيها أستاذان أحدهما أذكر إسمه هو : عبد المجيد بك خيرى ، فسئلت فى القرآن الكريم ، وقبل أن أبدأ وجدت كرسيًا أعدّ إلى جانب

= ثم تعين بكلية كمبردج بأنجلترا أستاذا للغة العربية ، وهناك فاجأته المنية عن نحو أربعين سنة وكان ذلك عام ١٣٢٢ هـ .

●● وقد كتب إلى أحد أصحابه يلومه على عدم المكاتبة قائلا : « عزلت أيها الصديق ولات حين عزل ، حيث أملت أن أكون لك كما أنت لى ، وأنا ذلك الخدن الذى ملئت جوانحه شوقا . وحشيت أحشاؤه صدقا ، أغرك إرجاء المكاتة ، أم أغراك صوت الأقلام ، والقلوب كالسّبيكة إذا أصدأها السكون ، فهى خالصة الباطن ، أو كجمرة الزند تتأجج وهى كغبرة الظاهر ؛ بل تحكم لديك الشّك فحكمت . وكان عهدى بك اليقين . ومع هذا فإنى لأشكرك على عدلك ، وأحمدك على فضلك . فلا لوم إلاّ بين الأصدقاء ، ولا عتاب إلا بين أوداء ، وما اختيارى بهذا أن أقرع عصاك ؛ بل أن أجعل شكك يقينا فى صديق رؤيتك أشهى آماله . ولقاؤك أعظم أمنياته والسلام .

●● وكتب وهو فى كمبردج إلى تلامذته - الذين كانوا يكتبون اليه يسألون عنه - يشكرهم على مكاتباتهم فقال :

يدى واتتنى فتناولت هذا القلم ، وليتنى أجد منه يراعًا مطواعًا لفؤادى ، يصف منه مابه من الحنو الى طلعتكم التى طالما تعرفت فيها صدق الإخاء ، ولطف الشعور ؛ بل أراه يتعثر فيتشظى بعبارات هى دون مايكنه هذا الضمير الذى ملئ عطفا . وذاك الصدر الذى حشى شوقا . وما هو بمقصّر وإنما هى القلوب تتناجى كما أبنتم ، وكفى بها ترجمانا مبينا .

حظيت بخطابكم العزيز ، ونظرت فى أعطافه فاذا هو كريم الديباجة . رائع اللفظ . جزل الكلام . سليم البنية . محكم العقد . رقيق العبارة . سلس التركيب . متين الأسلوب . جميل الإتساق . متلاحم الفواصل . مصون عن التكلف . بعيد عن الضعة . فهنيئا لى برائع يراعكم . وبليغ تحريركم . ولقد أبان لى عما هنالك من وفور العقل ، ونفوذ الفكر . وصدق الحسّ . وصفاء الخاطر . ولطف الذوق . وكرم الطبع . ومثل لى شدة شوقكم إلىّ ، ومقدار عطفكم علىّ وإنما مثل بعض مايحنوا عليه صدرى ، وقرى ، وقليلا مما يشعر به فؤادى ، فجزيتم عنى خير جزاء ، مشفوع بالشكر والثناء .

الكرسى الذى أجلس عليه ، **وجلس عليه محمد شريف سليم بك** . ذلك الذى كان يلقانى ويقول : أنت كان ينبغى أن تتأخر سنة أو سنتين لتحسن الأجابة . فقلت فى نفسى : هذا الرجل لم يستطع أن يفعل شيئا فى التحريرى ، لأنه بأرقام سرية ، فلعل هذه فرصته فى أنه يثأر لسوء أدبى عندما خاطبته : فجلست وأجبت وكنت أحفظ القرآن حفظا جيدًا والحمد لله ، فرأيت الدرجة ، ووجدت حركة القلم تدل على كتابة أربعة ونقطة جَنْبُهَا. يعنى الدرجة أربعين ، وهذه هى الدرجة النهائية ، فحمدت الله تعالى ، وهو لم يتكلم ، ولم يقل للمتحنين شيئا ، ولا للممتحن .

● ● للأستاذ السكندرى فى رقبتى دين عظيم ..

وذهبت إلى حجرة أخرى فيها امتحان الألفية حفظاوشرحًا كان أحد المتحنين الأستاذ الشيخ أحمد السكندرى رحمه الله ، وأدين له بالفضل العظيم فيا بعد .

كان أستاذى فى كلية دار العلوم ، فجلست ، ووجدت كرسيا أعد إلى جانب الكرسى الذى أجلس عليه ، وجلس عليه محمد شريف سليم بك ، وتذكرت أن هناك خمسين بيتا فى آخر الألفيه لم أكن قد حفظتِها ، وهى تتعلق بالادغام والامالة ونحو ذلك ، فأنا ظننت أن هذه تكون فرصته عندما أتوقف فى هذا الجزء ، فخاطبت الأستاذ / الذى أمامى ، وأنا لم أكن أعرفه ، إنما اتضح لى – فيا بعد – أنه الأستاذ السكندرى ، فقلت له : يا افندى ، ونحن كنا نخاطب المدرسين جميعًا يا أفندى . فقلت يا أفندى اسمح لى أن أشرح لحضرتك أن الألفية ألف بيت ، وأنا أحفظ منها تسعمائة وخمسون ، والخمسون الباقية لم أحفظها ، فإذا أذنت أنى أمتحن حفظا فى تسعمائه وخمسين بيتا حفظا وشرحًا فى الألفية كلها أكون شاكرًا ، فبلطف عظيم امتحننى فى تسعمائة وخمسين بيتا شرحًا وحفظا ، ولما وصلنا إلى الخمسين الأخيرة أعطانى المتن – متن الألفية – أقرأ منه وأشرح ، ففعلت . فقال لى : وعجبت لصراحته العظيمة سآخذ منك درجتين للخمسين بيتا هذه ، ووجدت أنه كتب أمامى ثمانية وثلاثين من أربعين ، فقمت ومحمد شريف سليم بك لم يقل شيئا !

● ● يا ولد هذه درجة لم يأخذها أحد منى أبدًا ..

انتقلت إلى الحجرة الثالثة وكان يجلس فيها للامتحان فى المطالعة والأدب والمعلومات العامة الاستاذ على الجارم ، وأيضا « الاستاذ / محمد شريف سليم بك » وأستاذ آخر اسمه عثمان بك لبيب على ما أذكر ، فجلست ولعب بى الأستاذ الجارم العابه فى ظرفه وفكاهته ومناقشته

واستجبت له كل الاستجابة ، فلما انتهى وجدته ينظر إلى عثمان بك لبيب ويقول له : ثرتى سفن » ، فسألته أنا ؟! ولماذا يا أفندى كما كنا نخاطبه – ولماذا ثرتى سفن ؟! هل أخطأت فى شئ ؟! فقال لى : أتعرف الإنجليزية ياولد ؟ قلت له : نعم . قال : لماذا جئت إلى هنا ؟ قلت له : لأتعلم العربية من منابعها . فقال : قم . هذه درجة لم يأخذها أحدٌ منى أبدًا . فقمت . وكنت مسرورًا كل السرور ؛ لأنى أدركت من : ٤٠ , ٣٨ , ٣٧ أنى على الأقل سأكون فى المتقدمين فى النجاح . فخرجت أجرى ، وألعب ، وأنا فى غاية السرور ، فاذا بكبير المدرسين الانجليز ، الذين كانوا فى دار العلوم فى ذلك الوقت : « مستر ستفن » ينادينى: «مهد ألآم» فنظرت اليه فقال : كلم شريف بك ، فذهبت إلى محمد شريف سليم ، وكنت أنتظر منه أن يهنئنى .. أو يقول : خاب ماكنت أظنه من أنك أصغر من أن تتقدم .. فاذا به يقول لى : إ . إ . إ . إ . إ . إ . إ .. لاتنس أن تحفظ الخمسين بيتا. فكان كل مايهمه أن استكمل الخمسين بيتا المتبقية من الألفية !! .

هذا كان سبب دخولى دار العلوم ، وكيف دخلتها .

●● أستاذى الجليل : لى تساؤل حول ماذكرته عن مداعبات الاستاذ الجارم رحمه الله .

هذه المداعبات كانت تأتى فى سياق الكلام، إذا جاء بيت من الشعر وأنا أقرؤه.. يناقشنى معناه بأسلوب خفيف ، لطيف ، ذاكرًا مايرتبط به من أمثلة العرب وحكمهم البليغة ، فكانت مداعبات ، وعلم ، وأدب ، فى نفس الوقت . وأذكر أن الكتاب كان : « أدب الدنيا والدين » .

وعلى فكرة اتصلت حياتى بعلى الجارم فيما بعد ؛ لأنه لم يدرّس لى فقط . فعقب هذا انتقل هو الى التفتيش ، إلاّ أنه فيما بعد ، أنا انتقلت إلى التفتيش على حسب ماقال به أستاذنا الفاضل أحمد بك إبراهيم .... يعنى عاشرته مدة ... قد أذكر بعض مايخصنى إلا أن اخر أخبارى عن على الجارم أنه كان جارى بالمعادى .

●● الأستاذ الدكتور أحمد على الجارم الأستاذ بكلية الطب ، جامعة القاهرة .

وهو الآن يعد كتابا عن والده ، فجاءنى كما تفضلت أنت الآن أن أعدّ مقدمة لهذا الكتاب[1] ، وأن أذكر فيها كل ما أعرفه عن على الجارم . وقد فعلت والحمد لله . .. وأتمنى أن يتاح لى أن أقدم لك نسخة من المقدمة فقط لأن الكتاب لم يطبع بعد .

---

(١) الكتاب الذى طلبت من أستاذى الجليل أن يعدّ له مقدمة هو كتاب : « الشيخ تاج وبحوث قرآنية ولغوية » وقد تفضل بعملها وهذا فضل لا أنساه .

● ● على الطريقة السرية انتخبت ممثلا لدار العلوم في ثـــورة ١٩١٩ الوطنيـــة

● ● أنتقل بعد هذا إلى مرحلة خطيرة وعظيمة فى حياة هذه الأمة ، وهى مرحلة ثورة ١٩١٩ ، ومن حسن الحظ أنى أنا أنتخبت على الطريقة السرية أن أكون ممثلا لها فى مدرسة دار العلوم ، فيما كان يعرف فى ذلك الوقت باسم لجنة المدارس العليا ، لأنه لم تكن هناك جامعة فى هذا التاريخ . حيث أن الجامعة لم تنشأ إلا فى سنة ١٩٢٦ ونحن الآن نتحدث عن سنة ١٩١٩ .

هذه اللجنة كانت من تسع مدارس عليا وهى التى كانت موجودة آنذاك: الطب ، الهندسة ، الزراعة ، الطب البيطرى ، المعلمين العليا ، دار العلوم ، التجارة ، الصيدله ، القضاء الشرعى .

● ● وعلى كل حال هذا دوَر بقيت فيه نحو السنتين ، سريًّا ، حقيقة ، وكنا لا نبدو ، أو نظهر ، إلا فى الضرورات القصوى ، وإنما لدينا وكلاؤنا فى مكان كذا ... وكذا ... فى هذه اللجنة كان من بين أعمالنا : نشر منشورات سرية ، لتبصير الأمة بالظروف السياسية ، فكان من حظى أنا ، وزميل آخر بالمهندس خانه ، وكان مندوبها المرحوم عبد العزيز عز العرب بن محمد بك عز العرب ، وهو كان مندوبا عن الهندسة . تولينا أنا وهو كتابة المنشورات السرية ، فهذا كان عملاً من أعمالنا ، ولنا فى هذا تجارب كثيرة جداً ، فى خلال سنتين من ذلك مثلا : أننا كنا نقابل عبد الرحمن بك فهمى ، وعبد الرحمن بك فهمى كان السكرتير العام للجنة الوفد المركزية ، وبيته لايزال قائما فى شارع « قصر العينى » تحتله هيئة الكتاب أو كا يسمونه : « اتحاد الأدباء » هو كان الوسيط بيننا وبين سعد زغلول ، الذى كان فى ذلك الوقت فى باريس مع الوفد ، لأن الوفد سافر الى باريس للدفاع عن الوطن ، وعن الاستقلال ، وشرح القضية أمام مؤتمر « فرساى » ولم نكن نستطيع أن نذهب ظاهرين لبيت عبد الرحمن بك فهمى ، لأنه طبعًا مراقب مراقبة شديدة جدًا ؛ لكن كنا ننتحل صورة باعة الجرائد ، أنا وعبد العزيز عز العرب ، فنذهب بملابس « زَرِيّة » وفى أيدينا وتحت إبطنا مجموعة جرائد ليظهر أننا نعطى جرائد للبيت ، ونتلقى منه التعليمات ، ونخبره بقراراتنا التى نريد أن ننفذها ، ويناقشنا فيها ، وكان له معنا مواقع كثيرة جدًا فى معارضته ، كان رجلاً عسكريا عنيفا ولمعلوماتك يكفى أن تعلم أنه عندما كان مديراً للجيزة ضرب المفتش الإنجليزى فى مكتبه ولم يكتف بالضرب ؛ بل طرده من مكتبه أيضا ... وذلك لأنه كان لكل مديرية مفتش إنجليزى ، ينوب عن سلطة الاحتلال ، وكل وزارة بها خبير أو مايشابه ذلك مثل : « دنلوب » .

●● ضَرْبُه المفتش الانجليزى وطرده من مكتبه .. سبب خروجه من الوزارة !

●● وعبد الرحمن بك فهمى خرج من الحكومة بسبب خلافه مع هذا المفتش .. لأنه ظن من خلال ماتفرضه عليه وطنيته أنه أكبر من المفتش ، ولكن المفتش باعتباره إنجليزيا ... كان يعتبر نفسه أهم من كل المصريين . من أجل هذا اختير سكرتيرًا عامًا للجنة الوفد المركزية العليا التى كانت تشرف على البلد – آنذاك – لأن الوفد عندما خرج كان لابد أن يكون له هنا دعاة ، واختار هذه اللجنة السرية لجنة المدارس العليا ، فكنا نذهب للمناقشة معه فى مثل هذه الأمور ...

●● كانت المطابع تتسابق فى طبع المنشورات الوطنية ... مع خطورتها !

إذا كان الزمان يتسع لذكر حادثة فمن الأشياء المهمة جدًا أنه فى يوم من الأيام أخذت نسخة المنشور لنطبعه ، وكنا نجد مطابع كثيرة جدًا تتعاون معنا وأصحابها فى غاية الوطنية ، ماكانوا يأخذون منا إلا ثمن الورق ، ففى شارع درب الجماميز الذى فتح الآن مع شارع الخليج وأصبح اسمه شارع الجيش ، ثم شارع بور سعيد ، كان فيه عدة مطابع فى المنطقة من باب الخلق الى السيدة زينب .

فى مرة من المرات ذهت إلى المطبعة ووعدنى صاحبها أن يعطينى العدد المطبوع للمنشورات فى حدود الخمسين ألف نسخة ، والمنشور عبارة عن و قة واحدة . ذهبت فى اليوم التالى : لكى أتسلم هذه المطبوعات فإذا بالشرطة .. ضباط ... وعسكر ... وجواسيس ... فى المطبعة . ويحملون المنشور مطبوعًا ... وصاحب المطبعة واقف ، ويسيرون به من المطبعة ، لست أدرى إلى أين . فأنا أدركت أنه ضبط . وبتفكيرى – سليا كان أو غير سليم – ظننت أننى لو أعلنت نفسى له فربما يخفف عنه شيئا ، ظهرت أمامه لكى يدل علىّ . فأشاح بوجهه عنى . فالتفت من ناحية أخرى ، وحاولت أن أحاصره وهو بين الضباط ومن ورائه العسكر يحملون المنشور المطبوع ، فلم يلتفت الىّ فى أية مرة من المرات .

وساروا به من المطبعة إلى المحافظة التى كانت فى باب الخلق قبل أن يبنوا مكانها ... كانت فى منزل منصور باشا فى ذلك الوقت ، ومشى ومعه ناس أيضا ، وأنا مشيت معهم ، وحاولت بكل الوسائل أن أظهر أمامه وأسترعى انتباهه لى فلم أفلح . الى أن وصلنا الى باب المحافظة

فحجزونا خارجه ، أنا وكل الناس الذين ليس لهم صلة ظاهرة بالمنشورات ، وذهبت الى البيت وأنا حزين ، وانتهى الأمر عند هذه النقطة .

●● قبلنى أنا ذلك الولـد !

وبعد ذلك بعدة سنوات بالتحديد سنة ١٩٣٢ كنت أطبع كتابا لى اسمه فلسفة الكذب ، وكان هناك مطبعة فى « الخرنفش » اسمها مطبعة شرف ، ذهبت وأعطيت الأصول الى صاحب المطبعة ، وكنت أذهب فى المساء لأصحح التجارب ، ومن فضلهم أنهم كانوا يعطوننى حجرة أجلس فيها لتصحيح التجارب ، وتنزل لتصحح وتعود الىّ توفيراً للزمن ؛ لأنى كنت أسكن بعيدًا عن الخرنفش ، والخرنفش هذه هى المنطقة التى خلف مدرسة الفرير ، بين الصورين ، بجوار بيت السيد محمد توفيق البكرى ، فكنت أذهب الى المطبعة مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع لتصحيح التجارب وكان وكيل المطبعة يصعد الى الحجرة التى أجلس فيها وأصحح التجارب ، وأحيانا يطلب لى فنجان قهوة ، وأحدثه عن إعجابى بحروف المطبعة .. وحروف المطبعة لاتزال موجودة عندى فى الطبعة الأولى ؛ لأنى عندما طبعته ثانية كان بحروف مغايرة للأولى ، والفرق واضح بين الطبعتين من حيث الحرف وجودته والضبط بالشكل أيضا .. وكنت أحدثه متسائلا : متى بدأتم هذه المطبعة ؟! ففى حديثه يقول أنشأتها بعد ما خرجت من السجن فدهشت . ولا حظ علىّ ذلك . فقال لى : هدىء من روعك أنا لم أكن مسجونا فى جريمة تخل بالشرف . أنا كنت مسجونا سجنا سياسيا لاشتراكى فى قضايا وطنية ضد الانجليز : فقلت له ماهذا ؟ فقص علىّ قصة أنه كان يطبع منشوراً لولد ، وجاء هذا الولد ومن عبطه أنه حاول أن ينظر الىّ عسى أن أعترف عليه . وطبعا لم أعترف عليه ، فأنا أدركت على الفور أنه إذًا هذا الرجل الذى ضبط بالمنشور الذى كنت أعطيته إياه ، فأنا قلت له : وهل تتذكر هذا الولد ؟ ! قال : لا . قلت له: لو أنك رأيته ماذا تفعل ؟ قال : أقبله . فقلت له : قبلنى أنا ذلك الولد .

وحمد الله تعالى على أنه سلم عن المدة التى سجن فيها وخرج . هذه إحدى الحوادث أثناء دراستى بدار العلوم .

●● زيادة الحرص .. جعلتنا نفقد المطابع الأهلية التى تتعاون معنا ..

● **حادثة أخـرى :** فقد أغلقت مطابع كثيرة بسببنا فى سنتى ١٩١٩ و١٩٢٠ . ووصل بنا

الحال أننا لم نجد مطابع نطبع فيها ، بَلَّغنا عبد الرحمن بك فهمى ؛ لأنه هو وسيلتنا فى الاتصال بالوفد وما نفعله ، فقال لى فى ذلك الوقت أنا وعبد العزيز عز العرب حيث كنا نتبادل الاتصال به والسبب فى اختيار اثنين أنه إذا ضبط واحد أدى الآخر المهام المنوطة به . وفى نفس الوقت ينتدب واحد من التسعة معه . وقال لى عبد الرحمن بك فهمى سنحضر لكم مطبعة ، وتستغنون عن هذه المطابع ، وبالفعل هُوَ لَهُ نفوذ باعتباره موظفا كبيرا فى ذلك الوقت ، كان مديرا . وعن طريق الجمارك ، وبطريقة هو يعرفها ، وبالفعل استطاع أن يحضر لنا مطبعة يدوية . وقال عليكم أنتم أن تتعلموا جمع الحروف، وإدارة المطبعة بأيديكم واخراجها . فقلنا لك هذا . وفكرنا ماذا نفعل فى هذه المطبعة وهى بحجم المكتب الكبير مرة أو مرتين . وهدانا الله تعالى إلى أن نجد مطبعجى له بيت ، وفى البيت بدروم . فرجوناه أن يأخذ هذه المطبعة فى البدروم ، ويستعملها لو شاء هو ، وليسمح لنا بطبع منشوراتنا فيها . وكانت الفكرة فكرة عبد العزيز عز العرب ؛ لأنه قال لو فرضنا أن هذه المطبعة ضبطت عندنا فى أحد بيوتنا ، وكانت بيوتنا كبيرة ، ويمكن وضعها فى أى مندرة من تلك البيوت ، ولكن فى هذا خطورة كبيرة . ولكنها لو ضبطت فى بيت المطبعجى لكان شرح الأسباب سهلا ميسرًا . وعندئذ كنا نذهب ونجمع الحروف ونطبعها . عم أحمد الذى هو صاحب البيت الذى به المطبعة يشترى لنا الورق ، ويعلم الله السبب فى أنه بعد شهر أو شهرين غالى فى الثمن الذى يطلبه للورق ، ربما يكون صادقا ، ونحن التسعة ، آباؤنا كانوا يعطوننا أحيانا مساعدة ، وأحيانا نطلب من عبد الرحمن بك فهمى ثمن الورق . فلما لاحظ هو أن ثمن الورق ارتفع . وكان رجلا شديدًا جدًّا ! جدًّا ! نتيجة حبه لوطنه حبا غير محدود ، فقال اشتروا أنتم الورق ، عسكرى . عسكرى . عسكرى جامد ! مش ضرورى تخلوه هو يدفع ثمن الورق ، اشتروا أنتم الورق لأنه سيكون أرخص . وقع الاختيار علىّ فى أن أذهب لشراء الورق . أين كان يباع الورق للجرائد ؟ كان يباع فى شارع جامع البنات بجوار محكمة مصر ، قريب من شارع بين الصورين ، وأعتقد أن المعالم والأسماء تغيرت الآن ! وكان فى هذا الشارع نحو عشرة محلات تبيع الورق الخاص بالكتب والجرائد – آنذاك – أنا أعرف هذه المنطقة معرفة جيدة لأنى أنا وليد هذه المنطقة كما ذكرت لك . وذهبت فى يوم من الأيام الى محل من المحال التى بها الورق ، وسألت عن الثمن ، فاستغليت الثمن ، وأنا سأحاسب حسابا عسيرًا عن كل مليم من عبد الرحمن فهمى هذا – الرجل العسكرى – فتركته وذهت الى محل آخر وأنا أعلم أن هناك على الأقل عشرة محال ، غير أننى لاحظت أن شخصا كان فى المحل الأول ، ووجدته معى فى الثانى ، وأنا ربيب الثورة ، فخشيت أن يكون أحد الجواسيس .

وهم كانوا يريدون بأى وسيلة من الوسائل أن يعرفوا كيف تطبع ! وأين هذه المنشورات ، لأنها عندما كانت تطبع فى مطابع خارجية توصلوا اليها ، فلم أشتر من المحل الثانى مدّعيا أن الثمن مرتفع ، وذهبت الى محل ثالث ، فأجدنى أرى نفس الشخص يتنقل ورائى بادّعاءات جعلتنى أشك فى أنه يريد أن يعرف من الذى يشترى هذا الورق ؛ لأن الورق يعتبر شهادة فعلية ... لأنه ورق جرائد وكميات كبيرة ، جربت المحل الرابع فكان ورائى أيضا ، فاشتريت . وكان يوجد عربات يَدْ فى انتظار من يشترى الورق ليوصلوه له ، ويأخذ صاحبها منه خمسة قروش أو عشرة ، ووضع لى الورق فى العربة ومشى هذا الرجل ومشيت بجواره . ولاحظت أن هذا الرجل أيضا يتبعنا من بعيد ، فدخلت من درب سعادة ومشيت أمام العربة فى الحوارى بسرعة أكبر ، وهذا الشخص أيضا يتبعنا وكل همه أن يتبع العربه . وسرت بسرعة ، إلى أن جاءت عطفة فدخلت فيها ، فلم يكن يرانى ، وجريت حتى لايرانى وأنا أجرى ، ثم وجدت عطفة أخرى فظللت أجرى ، وهكذا ... واستمررت كذلك الى أن ضللته بحيث لا أدرى إلى أين ذهب . ولا أدرى إن كان قد ألقى القبض على صاحب العربة حاملة الورق أم لا .

وكان النظام المتبع عندما نقوم بأى عمل وننتهى منه كنا لانعود الى بيوتنا ، وإنما نذهب الى بيوت بعض الأصدقاء نبيت فيها ، حتى إذا حاولوا إلقاء القبض علينا لايضار أهلنا بسببنا . هذه أيضا إحدى حوادث ثورة سنة ١٩١٩ .

●● الحمد لله ... تغلبت على إرهاب رجال الأمن ، ودنلوب وحافظت على أولويتى :

والحادثة التى أقصها عليك الآن حدثت فى سنة ١٩٢٠ فى أواخرها ، وأنا أجلس فى الحجرة التى أؤدى فيها الامتحان فى فناء المدرسة ، وكنت أراه من المكان الذى أجلس فيه ، فإذا فى أول يوم ، يوم السبت الذى يبدأ فيه الأمتحان ، لمدة أسبوع ، يدخل ثلاثة ضباط ، وثلاثة عساكر ، فعندما رأيتهم لم أشك فى أنهم يحضرون لى ، يكاد المريب يقول خذونى ، وأحزننى أن يحدث هذا يوم الامتحان ؛ لأننى كنت معتزا – استغفر الله العظيم – بأولويتى ، وكنت طوال حياتى فى جميع مراحل التعليم الأول لم أنزل عن ذلك الى الثانى أو الثالث سوى مرة أو مرتين . وحزنت أن يحدث هذا فى أيام الامتحان بالذات ، لأن معنى هذا هو الفصل النهائى إذ أن قواعد « دنلوب » فيما يتعلق بدار العلوم بالذات هى ألاّ يسمح بنصف درجة فى الامتحان نصف درجة فى ورقة الامتحان لا بد أن يفصل بسببها الطالب .

وهذا رغبة منه فى عدم الإقبال على دار العلوم ... فأحزننى هذا . أقول الحق ، وأصبت بحالة ضيق شديدة ، « وأرعفت » نزل الدم من أنفى ! ! وكان الذى يراقب علينا فى ذلك

اليوم ، فى تلك اللحظة ، زكى بك المهندس ، فإذا به ، وهو كان أحد الأساتذة الذين يعرفون دورنا ، وقد كان معظم أساتذتنا منتهى الوطنية ، ويساعدوننا بكل وسيلة ، كتابة ، وترجمة ، ومن ضمن أعمالنا الوطنية كنا نرسل خطابات بالفرنسية ، تلغرفات بالإنجليزية ، فى ذلك الوقت كنا لا نعرف الفرنسية ، أو إنجليزية كما يجب . فكنا نجد من أساتذتنا من يقوم بهذا .

● ● الناظر .. خاطبنى بجدية أعلم أنها ليست جادة ...

وعلى العموم فى ذلك اليوم حضر زكى المهندس ، ووجد أننى وضعت القلم ، وأخرجت منديلا ، كى أمسح به الدم وجلس واقترب منى وقال لى : لما لا تكتب ؟ ! فقلت له : أنا رأيت الضباط داخلين ، وهو كان يراهم أيضا ، فقال لى : هل طَلَبْت أن تخرج ؟ أنت تكتب الى آخر دقيقة . ربما لا تطلب . وإذا طلبت على الأقل تكون انتفعت بالزمن ، أكتب . وهو كان يعرف جيدًا منزلتى لأنه أستاذى من كذا سنة . وعارف أننى الأول ... فأنا سمعت كلامه ، وكتبت مااستطعت أن أكتبه ، إلى أن استدعيت . استدعيت إلى حجرة رئيس الامتحان أسعد بك براده ، كان من كبار رجال وزارة المعارف ، وانتدب لرياسة الامتحان ، وكان فى حجرة أعلى من الطابق الذى كنت فيه أنا فصعدت إليه ، فوجدت طبعا الضباط موجودين ، **فخاطبنى بجدية أعرف أنها ليست جادة . قال لى : أنت مطلوب لتفتيش بيتك . أيوه ياأفندم . وقال حضرة الضابط سيرافقك مع من معه تفتيش البيت ، ثم قال لى : أنا اتفقت مع حكمدار العاصمة : راسل باشا بالتليفون وقلت له : إن أوامر الحكومة المصرية يجب ألا تتعارض . وقال : إن مهدى علام تطلبه الحكومة المصرية بأن يكون اليوم حاضرًا لآداء الامتحان . وتطالبه الحكومة نفسها بأن يكون موجودًا ليفتش بيته ، ألا نستطيع أن نوفر له فرصة للامتحان . وقال : من حسن الحظ أنه وجد حلاً وسطًا . فقال له : ليذهب مع الضباط ، فاذا وجد فى بيته شيء لا علاقة لك به ، تكون المسئولية مسئوليتنا نحن مع وزارة الداخليـة ، وإذا لم يوجد سنسمح له أن يعود . قال لى هذا الكلام . فقلت له : أنا متشكر جدًا . وإذا بالضابط الذى كان واقفا خرج من الحجرة فبقيت أنا وأسعد براده بك فى الحجرة وحدنا فاذا به يقول لى : « تحب نرسل حدّ للبيت ينبههم » . قلت له شكرا ، أنا محتاط . يعنى مفيش فيه أشياء خاصة بالمنشورات .**

وخرجت وذاك الوقت كان سنة ١٩٢٠ لم يكن هناك سيارات ، وأحضر الضابط عربة حنطور ، وركبنافيها بطريقة عجيبة جدًا . ثلاثة ضباط ، وثلاثة عساكر ، وأنا ، دخلنا فيها

من المقاعد ، عسكرى على الرفرف اليمين والثانى على الرفرف الشمال والثالث بجوار السائق ، وأنا والضباط الثلاثة داخل الحنطور ، ونحن فى الطريق خاطب الضابط الكبير أحد الضباط بجواره همسًا وكذا باقى الضباط والعساكر أعتقد أنها تعليمات .

وعندما وصلنا إلى البيت كنت أنا وضابط وعسكرى فقط ، والباقى وزع على المناطق المحيطة بالبيت ، ووقف أمام البيت وأعطى للعسكرى المتبقى معه أوامر شديدة : لاحظ الشبابيك ، لاحظ الداخل والخارج إلخ . وفهمت أنا من هذا أنها احتياطات أمن شديدة .

ثم كان معى مفتاح البيت ، البيت – بيت العائلة – ثلاثة أدوار ، وفتحت الباب بالمفتاح الذى كان معى ، ودخلنا فى حوش البيت وهو على النظام القديم حوش ، وفيه جنينة صغيرة ، داخل البيت ، فتحت ودخلت ، ودخل معى هذا الضابط ، ونحن نسير فى الحوش عند ما يسمى باب الحريم ، يعنى بدء السلالم ، فاذا بوالدتى نازلة عندما سمعت « الزيطة » لتتحرى الأمر ، وبالقرب من السلم الذى سوف نصعد منه إذا به يقول لى : بصوت خفيت والدتك موجودة ! فأنا كدت أجن ! ! وظننت أن سمعة البوليس كما كنا نكرهها جدًا فى ذلك الوقت ، جعلته ينتهز فرصة وجوده ، وحالة ضعفى التى كنت فيها ويريد أن يسخر منى ...

وقلت بينى وبين نفسى ، أنا خسران خسران . ولا بد أن أضربه وليكن مايكون . كيف يجرؤ ويذكر اسم الأم فى ذلك الوقت ، شيء عجيب !! طبعا !! فاذا به عندما لمح والدتى جرى نحوها مسرعًا وأخذ يدها وقبلها !! واندهشت ، ووقفت يدى فى الهواء ، واذا بوالدتى تقول له جاى تعمل إيه هنا ياعبد العزيز ؟ قال لها : جاى مع المصيبة اللى معايا دى ! هوّه له حته خاصة بيه !! قالت : ه حجرة فيها مكتبة وفيها سريره ، فطلعت معه ، وطلب منى أن أساعده فى بهدلة الحجرة لأنهم يقومون أحيانا بتفتيش ششنى ، مراجعة بعد التفتيش الأول خوفا ألا يكون التفتيش أدى تأدية تامة . فقلت : هذه مسألة بسيطة وبدأنا نأخذ الكتب من أىّ مكان ونلقيها على الأرضية . ونفرغ الدولاب والأدراج من الملابس والأوراق ونضعها على الأرض أيضا ، إلى أن أصبحت أرضية الحجرة مليئة بالأوراق والكتب والملابس ، فقال هذا كاف جداً . وطلب منى أن أعطيه كتابا ليس ممنوعًا ؛ ولكن فيه رائحة السياسة ، فأعطيته كتابا لسعد زغلول وهو : « ملاحظات على الجمعية التشريعية » وهو كان وكيل الجمعية التشريعية ، كان مطبوعًا ، وعندى نسخة منه ، وكتاب « مراسلات مصطفى كامل مع مدام جوليت آدمز » وهذا مطبوع عربى وفرنسى ، فأخذهما وقال : إنتظر لابد أن نكتب محضراً من نسختين ، نسخة أوقعها أنا وتبقى عندك ، ونسخة توقعها أنت وتبقى عندنا . نقدمها للداخلية ، لأنهم فى بعض الأحيان يحضرون معهم مسدسات ويدّعون أنهم وجدوها ... لكن لا

تجعل أحدًا يفتش بعد ذلك إلا وتأخذ منه محضرا بهذه الطريقة .

● ثم نزلت وقلت له : الآن دعنى أذهب فأسعد بك برادة قال لى تستطيع أن تحضر بقية الامتحان لأنك لست فى حالة ينتظر منك أنك تغش الامتحان . أو تعمل كذا فى الاسئلة .. ! كان الله فى عونك . فقال لى : الضابط نعم من حقك الآن أن تذهب للامتحان ، وعلى حساب الداخلية . وركبنا العربة التى أحضرتنا ، وأخذ يلتقط الضباط والجنود من الأماكن التى كانوا فيها ، إلى أن وصلنا إلى الكلية ، وظللت على الوفاء لأسْعَد بك برادة ، إلى أن توفاه الله .

جيل من الرواد لن يتكرر

●● **أساتذتى :** فى دار العلوم منهم : أستاذ رحمه الله ، واسمه الشيخ محمد الحسينى خلف ، * وكان يدرّس لنا التفسير ، والكتاب المقرر علينا هو تفسير النسفى ، وهذا الاستاذ كان رجلا فاضلاً ، متورعًا ، دقيقا جدًا ، حسن اللفظ ، فما كان يخاطب أى طالب إلا يامحترم ! يامهذب .

وصادف فى يوم من الأيام أنه كان يقرأ علينا شيئا من كتاب فى يده ، كنا نعلم أنه تفسير البيضاوى . والذى فى أيدينا نحن كتاب تفسير النسفى ، فاذا بمقدار يكاد يكون صفحة أو أكثر ، متفق لفظا ومعنى مع ما بأيدينا .. فداعبته أنا ، وقلت له : ياأفندى ... ياأفندى حضرتك بتقرأ من البيضاوى ، والذى أمامنا من النسفى ، وهو طبق الأصل ، فقال : ماهم بينقلوا من بعض بقه رضى الله عنهم !

حتى فى الوقت الذى كان ينتظر أن يقول الغشاشين الذين ينقلون قال : رضى الله عنهم .. وأنا لا أنسى له هذا ! .

● وأذكر أيضا حادثة له فى أن طالبا عابثا كان يعاكسه ، ففى مرة من المرات ، والأستاذ / يشرح : أسباب تحريم الزنا ، وأنّ من بينها عدم اختلاط الأنساب ، فاذا بهذا الطالب قال له : اللواط ليس فيه اختلاط أنساب !! فقال له : ماهذا الذى تقوله : دى زندقة ، ينعل أبوك استغفر الله العظيم . استغفر الله العظيم . استغفر الله العظيم . سامحونى يا أولادى .. سامحونى يا أولادى .. نطق لسانى بما لا أريد أن أتكلم به ، وظل يعتذر لنا لسبق لسانه بالشتيمة ، نتيجة الكلام الذى أغضبه عندما سمعه من أحد أبنائه . رحم الله شيخنا محمد الحسينى .

●● **أساتذتى فى دار العلوم أيضا ...** المرحوم سلطان بك محمد والد الدكتور حامد سلطان (الحالى) وأستاذ / عظيم جدًّا فى مدرسة الحقوق ، كان - أى المرحوم سلطان بك محمد - مدرسا للمنطق هناك ، ومدرسا لنا فى دار العلوم فى أواخر أيامه ، وكان رجلا عظيما جدًّا ، وله كتب كبيرة وكثيرة مشهورة . والذى أذكره له : أنه من بين ماكان يدرّس لنا البلاغة وفى مقدمة البلاغة ، تنافر الحروف مجتمعة الذى يحرم اللفظ من صفة البلاغة والفصاحة . ويضربون له مثلا : بقول الشاعر :

وقبـــر حـــرب بمكــــــان قَفْــرُ
وليـــس قـــرب قبـــر حـــرب قبـــرُ

وزاد هو قوله : ويقولون إنه من كلام الجنّ .. لأنّكَ لاتستطيع أن تقوله : دون أن تتلعثم !

فقلت له أنا : وقبر حرب بمكان قفرُ   وليس قرب قبر حرب قبرُ
بدون تلعثم وبسرعة فقال : أنت من الجن !!

حدث فى الامتحـان النهـائى
مـا لا أتوقعــه ... ولكن الله ســـلم ...

●● ففى سنة ١٩٢٢ م كانت الثورة الشعبية التى فجرها رائدها وزعيمها سعد زغلول قد هبطت وحصل بالفعل استقلال جزء حسبما جاء بتصريح ٢٢ فبراير الشهير ...

ومن فضل الله على أن تم اختيارى لبعثة علمية فى انجلتره وفى هذه المرحلة ، وعلى الأخص فى نهايتها فى سنة ١٩٢٥ م حدث شئ مهم جدا .. جدا .. فقد كنت أؤدى إمتحانا نهائيا فى علوم التربية ، ويقتضى هذا الامتحان من بين الامتحانات التحريرية والشفوية امتحانا عمليا يقوم فيه الطالب بتدريس درسين أمام لجنة ... اخترت الدرسين ، **وأحدهما :** كان فى الأدب الانجليزى **والثانى :** كان فى جغرافية قناة السويس ، دَرّست الدرس الأول فى يومه الذى حدد له بحضور اللجنة المختصة وكنت مطمئنا اليه والحمد لله ...

وفى اليوم الذى حدّد لِى فيه امتحان جغرافية قناة السويس ذهبت ومعى دراسة كاملة وافية لجميع المراحل التى مر فيها هذا المجرى المائىَ منذ خليج : « سيزوتروس » فى أيام الفراعنة ، والى خليج أمير المؤمنين ، خليج خلجان ماقبل ذلك ... إلى قناة السويس .

فى كل مرحلة من المراحل كنت أعرض الموضوع مصورًا وأتحدث عنه ، وسرت سيرًا سليما جدًّا – فى رأيى – فى الصورة التاريخية الخاصة بها ، ولوجودها فى الصحراء تطمى ، تمر سنوات ثم يعاد حفرها ، إما فى نفس المجرى أو فى مجار أخرى إلخ ، إلى أن وصلت إلى قناة السويس ، وقلت : إن قناة السويس الموجودة الآن افتتحت سنة كذا ، وعقد الامتياز لمدة تسعة وتسعين عاما ويسمى مائة سنة ، لأن المائة تكون تسعة وتسعين وعند انتهائها تكون بداية لمائة جديدة هذا كان سنة ١٩٢٥ عقب قتل السردار سيرلى ستاك . هذه نقطة مهمة جدا « سرليس فاك » سردار الجيش المصرى وحاكم السودان الذى قتل ، وسقطت بسببه وزارة سعد زغلول ، الوحيدة التى فيها روح الوطنية ، وشعور الانجليز متوتر ، ونحن نقيم هناك ، من حسن الحظ أن هؤلاء الناس لم يسيئوا معاملتنا ؛ ولكن أنا شاعر بالحرج القائم فى ذلك الوقت . واذا بى عندما قلت : عند نهاية عقد الامتياز تؤول قناة السويس للحكومة المصرية ، وإذا بولد من التلاميذ يرفع يده ويقول :

What about our Empire sir ?

ومالذى يجرى لأمبراطوريتنا ياسيدى ؟ أنا أعلم السرّ فى هذا السؤال طبعا ؟ ! لأنهم يريدون الطريق الى الهند وغيرها . فأنا لم أشأ أن أدخل فى مناقشة سياسية مع الولد فى ذلك الوقت . فقلت له : إجلس . فإذا بأحد الأساتذة فى اللجنة يأتى إلىّ ويسرّ فى أذنى مايأتى :

●● علام .. على غير ما أتوقع أحسنت المناقشة :

لقد رأينا ماقمت به فى الدرس حتى الآن . ونحن مقتنعون به ، ولكننا نريد أن نعرف كيف تعالج الرد على هذا السؤال ؟! فرجعت الى مكانى ، وصعدت الى السبورة ، فرسمت مايشبه بيتين بينهما ممر ، يوصل بينهما ، وقلت للفصل وللولد بالذات : هذا بيتك . وهذا بيتى أنا . وأنت لاتستطيع أن تصل إلى بيتك إلا إذا مررت فى هذا الطريق ، وهذا الطريق ملكى . فماذا تفعل ؟ ! كما يقولون ألقيت الكرة فى رجله ، فارتبك الولد ، ولم يكن يتوقع وهو السائل أن يصبح هو المسئول ... فقلت له أنا أساعدك . اشتر منى هذا الطريق . فرح جدًّا . وقال نعم سيدى اشتريت . قلت أنا لا أبيع . قلت له : اشتر بيتى . قال ممكن . قلت : لا أبيع . قلت له لم يبق إلا أن تغتصبه . اغتصبه منى .! خجل الولد . قلت : يبدو أنك متردد ، وهذا صواب . أتسمح أن أقدم لك حلاً ؟ قال : ماهو ؟ قلت : أجره منى ... أجر مرورك فيه منى . كل مرة ، تمر فيه إجعل لى جعلاً نتفق عليه . وقلت له هذا هو الذى سيحدث عندما تؤول القناة إلينا ، فنحن لن نمنع أحداً ، لا انجلترا ولا غير انجلترا . سيكون الطريق طريقا مائيا مفتوحا لكل دول الدنيا مقابل رسوم يدفعها من يريد المرور فيها . وكان هذا ختامًا لهذا الفصل وهنأنى الأستاذ / الذى أسرَّ فى أذنى وقال : أحسنت المناقشة .

●● « ألمبى » فعل مالم يستطع أن يفعله الصليبيون ! !

● ... ذكرت لك فى آخر مقابلة ونحن فى طريق عودتنا الى البيت ، أننى لم أذكر موضوعين هامين جدًّا فى تاريخ حياتى عندما كتبت عنها فى « المجمعيون فى خمسين عامًا » .

●● أحدهما : ثــورة ١٩١٩ .

●● والثانية : تدريسى للأمير فاروق عندما كان ولىّ عهدٍ ، ولم يعن ذلك أننى لم أعرف بها من قبل .

ولكن الذى يهمنى ذكره أولا : أنا كنت أذهب لفاروق مرتين كل يوم ساعة فى الصباح ، وساعة بعد الظهر ، وهو ولد فى الحادية عشرة ، وذهبت اليه سنة ١٩٣٠ ، وكنت أستاذًافى دار العلوم ، وَأُخِذْتُ من دار العلوم طول الوقت ، وبدأت الاشراف على تعليم فاروق وهو بين العاشرة ، والحادية عشرة ، عندما انتدبت انتدابا تامًا للاشراف عليه ، والذهاب إليه مرة فى الصباح ، ومرة بعد الظهر ، أنا كنت مكلف بتدريس اللغة العربية ، والثقافة الدينية ، والتاريخ . وبعد الظهر لابد أن ألاحظ ماقام به من أعمال منزلية للأساتذة الآخرين . ولقد نَعْجَبُ أننا كنا خمسة أساتذة نتعاقب على هذا الولد الذى كان بين العاشرة أو الحادية عشرة .

والأساتذة الخمسة هم : « شفيق' زاهر للرياضة ، وكان وكيلا لوزارة المعارف ، ومستر هاتوان للغة الانجليزية ، ومسيو راپنا للغة الفرنسية ، ومهدى علام للغة العربية ، والدين ، والتاريخ ، وقدرى باشا لركوب الخيل ، وطبعا يتعاقبون عليه جميعا وهو وحده .

والتاريخ ، وقدرى باشا لركوب الخيل ، وطبعا يتعاقبون عليه جميعا وهو وحده .

وحدث فى مرة من المرات أنى كنت فى الإسكندرية معه ؛ لأننا كنا فى الشتاء ، ندرس له فى سراى القبة ، وفى الصيف فى كشك الشاى فى حديقة المنتزه ، وهو الآن تابع للسياحة ، وهذا الكشك ينحدر الى البحر ، وكنّا ندرس له فيه فى الصيف ، لا بد من ذكر خلفية فى ذلك الوقت فى حياة السراية ، وهى أن والد الملكة نازلى ، عبد الرحيم باشا صبرى ، الذى كان وزيراً للزراعة – فى ذلك الوقت – توفى ، وكان الملك فؤاد يكرهه كرهًا شديداً جدًّا ، والسبب معروف جدًّا ، وهو أن فؤاد تزوج نازلى على الرغم منه .

والمؤسف أن الملك فؤاد – فيا بعد – أساء معاملتها كثيرًا جدًّا . خاصة بعد وفاة والدها عبد الرحيم صبرى باشا ، ويوم وفاته بالذات أظهر فرحًا شديدا ، ولم يعلن – مجاملة – حزنا

أو حداداً عليه ! وكنا نعرف ذلك جميعًا والذى حدث معى – وهو الذى يعنينى – هو ما سأرويه الآن :

حدث إبان هذه الحقبة عندما كنت أذهب الى مدرسة فاروق فى المنتزه صيفا ! وفى يوم من الأيام عندما انهيت من درسى معه من ٤ – ٥ وكُنت أشرف على ما عمله فى أثناء النهار، بخصوص واجباته المنزلية للأساتذة الآخرين ، نزلت له إحدى مربياته الانجليزيات ، بزجاجة من الليموناده وقطعة من الكعك ، وهذا هو شايه ! لأنّ والده كان مشغولاً عليه بسبب خوفه من ضخامته ، فكان يأخذ هذا أمامى ، ثم تأتينى أنا سيارة من السراية ، لأن منتزة الحدائق أربعمائة فدان . ولم يكن من الممكن أن أمشيها ! أو أركب تاكسى ! فكانت تأتينى سيارة .

الذى حدث أنه فى يومٍ من الأيام حضرت : « كاترين » المربية المساعدة ، ومعها شاى ، والمقصود بالشاى هنا : الليموناده ، وقطعة الكعك . وأخذها فاروق وصعدت معه الى الحرملك ، وهو بعد السلاملك وعلى غير العادة ظهرت الأم والأولاد والخدم فى الحرملك ! وعادة كانت تأت السيارة لركوبى أنا فى أواخر هذه اللحظات التى يتناول فيها شايه ، وصعدت كاترين وفاروق ولم تحضر السياره ! قلت أنتظر قليلا . وإذا بسيِّدة ترتدى ملابس الحداد تأتى من داخل الحرملك فى الحديقة الى البحر ، لأن المدرسة على البحر كشاطئ أو كستحم ووراءها ثلاث لابسات الحداد أيضا . فبقليل من الذكاء أدركت أن هذه هى الملكة وأن هؤلاء وصيفات ، وأنهن حضرن ربّما للاستحمام ! أية مصيبة هذه عندما تحدث هذه ، وأكون أنا موجود ! وأنا أعلم – يقينا – أن فؤاد عندما كان يزور انجلترا وهى معه ، أخذتْ لها صورة – خلسة – من شباك القطار فطلب أن تجمع جميع النسخ لهذه الجريدة التى فيها صورتها !

ماذا أصنع أنا وأنا أعلم دسائس السرايات ؟ فى الكشك هنا تليفون حائطى ... فعندما لاحظت هذا الركب الحزين آتيا ومتجها نحو البحر ، توجهت الى التليفون ، وطلبت الجراج وكان فيه رئيس ، ضابط كبير ، وأعتقد أنى آمر فأطاع ، وهم لايعرفون شيئا ، فقلت له : العربة لم تأت حتى الآن لماذا ؟ فقال أنا متأسف يابك . لابد أنها تكون تعطلت . قلت له : أرسل سيارة أخرى .

وكان كل عملى وجهدى منحصرًا فى أن أظل ووجهى الى التليفون ! لأن السمّاعة مثبتة فى الحائط ، وأظل أكلمه ويكلمنى رغم أنفه ! لأنه ليس فاهم أنا أقصد إيه ! ويقول : حسنا يابك سوف أبعث لك سيارة !

كل ماأردته أن أظل أكلم من يكلمنى وأكلمه ، ليكون شاهدًا على أنّ وجهى كان فى هذه

الجهة ، جهة السماعة التى هى مثبتة فى الحائط عندما كانت هناك أشياء أخرى لاأعلم عنها شيئا ! حتى يحضر سائق السيارة ، وبقيت كذلك لمدة نصف ساعة على الأقل ، والرجل يظن أننى شبه مجنون ! ولكن لأنه يعلم أنّ منزلتى منزلة مهمة جدًا ، فأنا مربىّ الأمير ، لايستطيع أن يغلق التليفون ، وأنا أقول له : كن معى حتى يحضر سائق السيارة !

وبقيت هكذا حتى جاء سائق السيارة ، وكان هذا السائق إيطاليا ، وهم كانوا يستعملون سائقين إيطاليين كثيرًا . وأنا رأيته بمجرد حضوره ، ومرّ من هنا .. من أمامى ، وأنا رأيته ولم أترك التليفون ، حتى جاء هو ، ورآنى فى وضعى وقال لى بالعربية : السيارة جاهزة يابك ؛ لاستشهد به أيضا على أنه عندما جاءنى ليأخذنى بالسيارة ، كان وجهى فى سماعة التليفون !

هذه إحدى المواقف الشديدة جدًا التى نجانى الله سبحانه وتعالى منها ، ولم أسمع لها أىّ صدى بعد تلك النهاية التى حفظنى الله فيها من شرور القصر وأهواله !

● ●فاروق ... كان يظن اللهم صل على محمد وآل محمد يعنى محمد على باشا .. !

● ● فاروق ولدٌ فيه ذكاء ... وفيه استعداد للتعلم ... إلا أنه لم يكن قد تعلم شيئا !

الملك فؤاد كان يريد أن ينصب نفسه أميرًا للمؤمنين ، وساعده على ذلك بعض الكتاب فهل حقيقة كانت هذه الناحية الدينية منعكسة على تربية الملك فاروق ، ومدى علمه واهتمامه بالنواحى الدينية خاصه وأن سيادتك كنت المشرف على تربيته وثقافته .

● هو ! ! ... هو لم يكن يعلم شيئا فى الدين ! ياسيدى أتعجب أنى عندما حفظته التحيات ، كان يظن أن اللهم صل على محمد ، يعنى محمد على باشا جده .. وعلى إبراهيم ، يعنى إبراهيم جده أيضا ! قال لى : هذا !

هناك مشاكل كثيرة جدًا ، وسبب خروجى من هناك أن الذى كان يشرف على ثقافته ، أو تربيته من طرف الملك ، أحد البشوات الذى لايعرف شيئا عن سيكولوجية التربية ! أو أىّ شئ من هذا ، فأنا عانيت كثيرًا جدًا فى أن أضع نظامًا يُصْلِحُ تربيه هذا الولد . من ذلك أولا : أنى وجدت أمامى ولدا فيه ذكاء ، وفيه استعداد للتعلّم ؛ إلا أنه لم يكن قد تعلم شيئا ، يعنى لم يكن يعرف فى الدّين شيئا ، حتى أنه كان يقول : أن اللهم صل على محمد ... « محمد على

جدّى » وابراهيم ... ابراهيم باشا جدى !

والعيب الفنى الذى أدركته أنا ، أن خمسة من الأساتذة يتعاقبون على غلام فى الحادية عشرة – تربويا فى علم النفس – ثم ليس هناك أىّ تفاعل بينه وبين زملاء له .

مثلا من الصعوبات التى عانيتها أن أقرأ له نصا أدبيًا ليقرأه هو ، فيرجو أن أقرأه مرة ثانية ، فأقول لماذا أقرأه مرة ثانية ؟ ! وأقول له هذه ليست قصة قرأناها مرة ففهمناها . نحن نقرؤها مرة ثانية لنفهم معناها – هو لايفهم هذا – هذه نقطة عالية جدًا فى علم النفس وفى التربية فى الاعادة إلى آخره .

ولكن عندما يكون هناك تلاميذ آخرون سيقرؤها اثنان أو ثلاثة مرتين أو ثلاث مرات من غيره إلى آخره . بالاختصار عندما عانيت الصعوبات الفنية والتى أدركت أن الخطأ فيها يرجع إلى أن ولدًا صغيرًا فى هذه السن يتعاقب عليه خمسة مدرسين ، من الذى يستطيع أن يحتمل هذا ؟!

ولد فى هذه السن يخرج شفيق زاهر ، يدخل هانواى ، يخرج هانواى ، فيدخل رابينا ، يطلع رابينا ، ويدخل مهدى علام ، يخلص من كل هذا ! يدخل قدرى باشا لركوب الخيل .

●● وحان وقت الكارثــة ! !

●● واشفاقا على هذا الأمير ، وأملا فى أن يستفيد مما يلقى عليه من معلومات ، اقترحت عليهم أن يقيموا له مدرسة خاصة يختارون ثلاثة أو أربعة من أبناء من يرون أنهم أهل لأن يختلطوا به ، سواء كانوا من أبناء الأمراء ، أو الأعيان ، هذا شىء مفيد لهم هم ، فكان هذا جنون منى ! جنون خصوصا فى هذا الأقتراح ، وقد زدته سوءًا بأن قلت : على النظام الذى كانت عليه مدرسة الأنجال أيام الخديو عباس ، والخديو عباس إبنه عبد المنعم ، وابنه البرنس عبد القادر ، كلهم كانوا فى مدرسة ، ومعهم صفوة من أولاد الأمراء الآخرين ، والباشوات ... يعنى معهم سبعة أو ثمانية ، أو عشرة ، فكان رئيسهم فى هذا ، من حسن حظى أنا ، أنه بعد زوال عهد عباس نقل وكيلا لدار العلوم ، وكان أستاذًا لى ، وكان كثيرا مايحدثنى عن عهده عندما كان مشرفا على أولاد الخديو عباس . فأنا ظننت أن هذا نموذج ، لكن اتضح أن اسم عباس كان أكره اسم يذكر فيها – أى فى تلك التجربة – لأن عباس كان صاحب مُلْكٍ وصاحب ثروة استولى عليها فؤاد . وكان الى ذلك العهد ، يخشاه جدًا ؛ لأن عباس كان لايزال حيا ! والانجليز عندما كان فؤاد يتمرد ، يظهر فى الجرائد : « يقضى الخديو عباس – الويك إند – فى فلسطين حيث لم يكن هناك حدود » وهذا قضى على الاقتراح تمامًا ! كيف أننى أقترح أن يسوّى بين فاروق أو أىّ واحد على وجه الأرض !

يقصد الشيخ أحمد زناتي بك ولد ١٨٧٠ توفي ١٩٢٩ تقويم دار العلوم ص ١٥٨

وبهذا انتهت مدة خدمتى فى العمل بالقصر الملكى ... وفى الاشراف على تربية الأمير فاروق ، رحمه الله .

●● تلاميذى من العراقيين خير من نعمت بهم العراق .

ونعمت بهم صداقة مصر .

●● **بسم الله الرحمن الرحيم** : من ألطف ماتذكرته فيما حدث لى ، وأنا أستاذ فى دار العلوم ، فى أواخر العشرينات ، وأوائل الثلاثينات ، أننى كنت أتبع مع طلابى ما كان يتبعه معى أساتذتى فى انجلترا لأنهم كانوا يدعوننا - نحن المصريين - إلى بيوتهم لنتناول الشاى ، ونتذكر أحوال بيوتنا وأوطاننا إلى آخره .

فكان من عادتى أنى أدعو الطلبة المغتربين وكان عندى نحو عشرة منهم فى دار العلوم .

ولعل ماتذكرته الآن ، وأنا أتكلم عن الموضوع الذى أعددته فى ذهنى ، أعود بضع سنوات ، لأذكر شيئا لايقل أهمية عنه . ذلك أنه فى سنة ١٩٢٨ كنت قائما ا بأعمال عميد دار العلوم ، وهذا عجيب طبعًا ؛ لأننى كنت صغير السنّ ، صغير الوظيفة ، ولكن الذى حدث أنه من الممكن أنّ بعض الشبان يقومون ببعض الأعمال التى يعفون منها كبار السنّ .

●● منهجهم فى العراق خالى تماما ... من القرآن الكريم ...

فى ذلك اليوم حضر لى : رشيد بك الخوجة ، الذى كان قنصلاً عامًا للعراق فى مصر . لم يكن حاضرًا لى طبعًا ، لكن كان حاضرًا لعميد الكلية ولم يجده ، ولكن وجدنى أنا قائما بعمله ، فحدثنى عما يريده ، وهو أنه يريد أن يحضر بعثة من العراق لدار العلوم ، قلت له : هذا أمر حسن وميسور فيما أعتقد ، ولو شئت أرجو أن ترسل الىّ مناهج الدراسة الثانوية الذى حصل الطلاب الذين يحضرون الىّ على الشهادة الثانوية بناء عليه ، وفى ثانى يوم أرسل الىّ هذا المنهج وقرأته ، وحدثت نفسى بعد أن قرأته ، حديثا فنيا ، وحديثا وطنيا ودينيا .

● الحديث الفنى : أن المنهج فى جملته حسب العلوم التى تدرّس فى المدارس الثانوية ، لايختلف كثيرًا عن مناهجنا ، إن زاد فى فرع ، نقص فى فرع آخر ، بما يؤدى الى إختلاف له أى أثر ، إلا أنه ليس فيه حفظ للقرآن الكريم ، وكانت دار العلوم فى ذلك الوقت تشترط : **حفظ القرآن لمن يكون فيها .**

وهنا انتقل الى الحديث الوطنى الدينى .. وهو أننى فكرت فى أننى لو تمسكت بوجوب حفظ القرآن فلن يحضر الينا من طلبة العراق بعثات ، وستكون هذه خسارة للعراق ، وخسارة لنا ، لأننا نحن أولى بأبناء العرب فى مصر .

وكان واضحا فى ذهنى أن كلا من العراق ومصر تحت السيطرة الانجليزية ، وأنه كما أن بعثاتنا – وأنا واحد منها – كانت تقريبا مقيدة على انجلترا ، سيكون كذلك فيما يتعلق بالعراق . فالذين كانوا يريدون أو يفكرون فى إرسالهم الى مصر ، يرسلونهم الى انجلترا . فنكون نحن قد خسرنا هذه الرابطة القوية .

فأحتلت على الأمر فيما يلى : قلت فى كتابة التقرير الذى قدمته للوزارة : إن منهج الدراسة كاف ، باعتباره مساويًا لمنهج الدراسة المصرية، وإن كان هناك خلاف فيه فهو فى أنه لايشتمل على حفظ القرآن الكريم ، وبهذا يكون مخالفة لما تشترطه دار العلوم ، ولكنى أريد أن أقول : « وهذا فى نص التقرير : إن حفظ القرآن الكريم لغير المرتزقين به ، لا وجود له إلا فى مصر ، وأن الذين يحفظون القرآن الكريم عدد قليل جدًّا ويرتزقون به ؛ لكن كفرع من فروع الثقافة ما أظن أن له وجودًا إلا إذا كان فى الأزهر أو دار العلوم ؛ ولذلك أعتقد أن الأفضل أن تقبل هؤلاء الطلبة الذين تقدموا ، وهم حوالى خمسة فى ذلك الوقت ، ونشترط عليهم أن يدرسوا ، وتعمدت أن أكتب كلمة « يدرسوا » بدلا من « يحفظوا » فى كل عام من الأعوام الأربعة فى المدرسة ربع القرآن ، وقصدت بهذا المعنى أنهم يدرسوا القرآن ويلين على ألسنتهم ، ويعرفوا تفسيره .

ومن حسن الحظ أن الوزارة قبلت ذلك ، وحضر هؤلاء الخمسة ، وكانوا من خيرة من نعمت بهم العراق ، ونعمت بهم صداقة مصر .

●● ألحّ علىّ السفير العراقى أن أكون مستشارًا للتعليم فى العراق .. ولكنى رفضت !

●● هؤلاء الخمسة الذين دامت صلتى بهم ، وفى مرة أخرى ربما أتذكر أسماءهم ووظائفهم التى شغلوها بعد أن أعطيت تقريرى للوزارة، وتسلمت رد الوزارة ، وسلمت لرشيد بك الخوجة الذى جاءنى وقال لى : أنا أرجو منك شيئا خاصا ، قلت له : ماذا ؟ قال : أن تحضر الى العراق مستشارًا فنيا فى وزارة التعليم ، وهذا كان منصبا كبيرًا جدًّا ، وأكبر من شأنى ، فقلت له : دعنى أفكر لأنى أنا عائد من انجلترا منذ سنة ، على إثر غياب طويل ، وقد تزوجت منذ

أسابيع ، ولا بد من أن أستشير زوجتى فى مثل هذا ؛ لأنها لايمكن أن تكون ملحقا حيث أذهب تذهب هى .

وبقيت أفكر فى هذا الأمر ، فهو قال لى : بهذه الصيغة «أنت تأتى مستشارًا للوزارة بألف دينار ، وبيت على دجلة ، بالاضافة الى بعض المحاضرات فى مدرسة المعلمين العالية ، وذلك له أجره الخاص ، وطلبت منه أن يمهلنى ، وأمهلنى ، وصادف بعد هذا أنه انتقل لأنه هو كان يمثل أعلى تمثيل سياسى بين العراق ومصر ، وهو القنصل العام ، بعد ذلك ، تطورت الأمور ، وانتقل التمثيل الى مراتب أخرى ، ولكن مامرت سنة إلا وكتب لى وزير المعارف الذى علم بما دار بيننا من حديث يذكرنى بهذا الأمل ، فأكتب إليه معتذرًا .

●● أخت بغداد .. منعتنى من السفر الى بغداد !

●● وظل هذا عدة مرات ، وأنا أقلب الأمر ، ولا أكتمك أنه كان الشائع فى ذلك الوقت أن هناك ذبابة يسمونها : « أخت بغداد » وأن الذين يقيمون فى بغداد تصيبهم فى وجوههم ، ورأيت طبعًا عددًا كبيرًا منها فى كل العراقيين الذين قابلتهم ، وبمضىّ سنتين كنت قد رزقت بطفلين ، فخشيت أن يصيبها قرصة الذبابة ! فكنت أعتذر سنة بعد سنة ، إلا أنه فى ذلك الوقت حضر الطلاب وصادقتهم ، وأحبونى وأحببتهم ، وكنت فى بعض الأحيان أستعين فى الاستعلام عن أوضاع الحياة فى العراق ، وأتذكر أن آخر مرة تكلمت فيها مع بعضهم سألتهم عدة أسئلة .. وكان من بين الأسئلة هل فى بغداد صرف صحى ؟ فاذا بأحدهم يقول لى أستاذ ! أتشترى بغداد ؟ ! وفهمت هذا يعنى أنى أصل فى البحث عن بغداد الى هذا الحد كما لو كانت بيعة أو بيتا ، وأريد المرافق التى بها ! فقلت له : أنا لا أشترى بغداد ، ولكنى أبحث فى صحة أطفالى الذين يمكن يصيبهم هذا . انتهى هذا . وبقيت أنا ، ونقلت من دار العلوم أولا ، انتدابا الى السراية للتدريس لفاروق عندما كان ولىّ عهد ، ثم عدت الى دار العلوم عندما انتهت مدتى هناك ، ثم بقيت فى دار العلوم كما كنت ..

●● أنقذت امرأة من الموت فسبتنى وكادت تفتك بى .. !

وأعود الى قصة الطلبة المغتربين وخاصة قصة ابننا المرحوم حسين بستانة : كان طالبا فى دار العلوم ، وكان من عادتى – كما سبق وذكرت لك – أن أتبع مع طلابى ماكان يتبعه أساتذتنا فى انجلترا معنا . بمعنى : أنهم يدعون بعض الطلبة الأجانب ، الى شاى ، أو وجبة من الوجبات فى بيتهم ، ليعرفوهم بحياة الأمة التى يعيشون فيها . صادف أن كان ذلك فى رمضان ودعوت خمسة

أو ستة ، من الطلبة العراقيين ، ومعهم عددهم من الطلبة المصريين لتناول طعام الافطار فى رمضان .

وجلسنا قبل المغرب بقليل ، وحان آذان المغرب ، واستدرنا حول المائدة ؛ ولكن « حسين بستانة » لم يحضر ، فبدأنا فى طعام الافطار وقلنا يأتيك بالأخبار من لم تزوّد . وبعد : برهة ليست بالقصيرة حضر حسين بستانة ، وهو فى غاية الضجر ، والغضب ، والعرق . فسألته ؟ فقال :ياسيدى أنا أنقذت أمرأة من الموت ! فشتمتنى ! فقلت له : الحمد لله على سلامتك أنت ، وسلامتها . إجلس وتناول بعض المرطبات ، ولعل حديث المائدة يجعلك تقص علينا ماحدث . فقال : وهو فى طريقه الى البيت كانت سيارة تسير بسرعة ، واذا بأمرأة تقع فى مسار السيارة ، هو قال لها : « حاسبي يامرة » فالتفتت إليه وسبته ، وقالت له : المرة انته ! المرة أمك ! المرة أختك ! المرة كذا ... وبمجرد سماع الناس هذا الخطاب بتلك العبارات ، العنيفة من أمرأة الىّ ، تجمعوا من حولى واحترت غاية الحيرة ، لا أدرى ماذا أفعل ومن حسن الحظ ، أنه فى أثناء هذا الاجتماع ، حضر الاستاذ حسن السندوبى ، الناشر والطابع ، وهو رجل فاضل ، وكان يعرفنى ؛ لأنى كنت أنشر بعض مقالاتى عنده ، فاجتذبنى من وسط الجمع وقال : لا تلتفت الى أىّ شىء ، إلى أين أنت ذاهب ؟ ! فقال له : أنا ذاهب إلى الدكتور مهدى علام . فقال : اذهب وسلم لى عليه . حسنا . الحمد لله على سلامتك ياحسين . ولكنى أريد أن أسألك لو أن واحدًا قال : لوالدتك أو أختك يامرة ! هل هذا يؤذى شعورها ؟ قال : ولماذا يؤذى شعورها ياسيدى؟! هى مرة ! فقلت له : إذن الفرق فى استعمال الكلمة فى العراق ، واستعمالها فى مصر ، طبعًا الكلمة عربية صحيحة أيا كانت ، لأن المرة ، هى المرأة ، هى الإمرأة ولكن الكلمة بالصيغة التى قلتها أنت ! عندما توجه الى سيدة بمصر ، تعتبر إهانة ، والحمد لله على سلامتك . وهذه من بين الأشياء التى تتعلمونها وأنتم بيننا لنقرب بين الدول ، وانتهى الأمر عند هذا وحمدنا الله تعالى ، كان هذا فى حوالى ١٩٣٤ م .

●● أجمل الغلطات التى يمكن أن يقع فيها إنسان ..

وبعد مالا يقل عن خمسة وثلاثين سنة ، لم أسمع عن حسين بستانة ؛ لأنه ترك التعليم واشتغل فى وزارة المالية بالعراق . ولم يكن بينى وبينه اتصال ، وصادف بعد ذلك ، أننى سافرت مرة أخرى الى انجلترا وغبت طويلاً ، الى أن حان وقت دعا فيه مجمع اللغة العربية فى العراق مجمعنا فى القاهرة لعقد دورته فى المؤتمر فى بغداد ، فذهبنا . أعضاء المجمع كلنا ، واستقبلنا فى المطار استقبالا عظيمًا جدًا ، وفى ذلك الوقت كان بعض الذين استقبلونا كنت أعرفهم وبعضهم كنت لا أعرفهم ، ولكن كانوا جميعًا أصدقاء ، وشعرت أنا بواحد منهم صعد سلم

الطائرة التّى واحتملنى إحتمالاً ، ونزلنا فى قاعة الزوار الممتازين ، منتظرين حتى يتم إعداد حقائبنا ، وسياراتنا التى ستأخذنا الى الفندق الذى ننزل فيه ، **وبعد مضى نحو ربع ساعة ، ونحن نتحدث عن هذا الصديق الذى اختطفنى ! وكل ماعرفته عنه أنه عراقى.، ثم قلت له : أنا لى سؤال ؟ ! أتعرف أين حسين بستانة ؟ فقال سيدى : أنا حسين بستانة .**

فقلت له : هذه من أحسن الغلطات التى يمكن أن يخطئ فيها إنسان ! لأن ثلاث أو خمسة وثلاثين عامًا قَدْ حَالت بينى وبين تذكرك ، وطبعًا هو كان قد تضخم ! وتغير ! فقلت له : أنت تعلم أن أول شخص أردت أن أقابله عندما أعود الى بغداد ، هو أنت . والحمد لله أنى لقيته ، وبقى فى رعايتى وخدمتى المدة التى أقمناها فى المؤتمر هناك .

●● أنشأت أنا وعز العرب جريدة : « المصرى الحر » التى دوخت الانجليز ..

●● البيت بيتى أنا وليس بيت مهدى ! !

●● جريدة « المصرى الحر» أصدق لون من ألوان جهاد ثورة سنة ١٩١٩ .

● لقد حدث من أحد الدارسين فى دار العلوم ، فى مدة تزيد على الخمسة عشر عاماً بقليل واسمه معروف لأنه من كبار الدارسين ، وكبار رجال الدعوة الاسلامية ، وهو الدكتور عبد الصبور مرزوق ، هذا الاستاذ(١) كان يقدم رسالة للدكتوراه فى أدب ثورة ١٩١٩ ومن الأساتذة الذين كانوا يشرفون على عمله ، قالوا له نحن كنا تلاميذ مع الدكتور مهدى علام فى ذلك الوقت ، فاذا أردت شيئا عن أدب سنة ١٩١٩ . فاذهب اليه . فجاءنى وجلست معه بضع جلسات ، حدثته فيها عما كان فى ذاكرتى - فى ذلك الوقت - عن كل الأشياء المتعلقة بثورة سنة ١٩١٩ فى النواحى الأدبية ، بما فيها المنشورات السرية التى كان لى شرف تحريرها أو تحرير الجزء الأكبر منها ، أنا وزميلى المرحوم عبد العزيز عز العرب ، مندوب مدرسة المهندس خانة ، وأنا فخور بأن أذكر اسمه دائما ، زميلا لى ، وكذلك كنا أنشأنا نحن لجنة طلبة المدارس العليا ، جريدة سرية إسمها : « المصرى الحرّ » وهذه دوخت الانجليز حقيقة ، وكانوا يريدون أن يعرفوا أين تصدر فكنا نضللهم ، لأننا كنا نكتب من محررنا فى القاهرة ، ومن محررنا فى أسوان ، وهم لايعرفون أين هى . ولم يكن أحد يعرف بالفعل أين كانت تطبع . **والذى كان يطبعها على يديه عبد العزيز عز العرب ، ومهدى علام ، والأسطى أحمد حجازى** الذى أودعنا المطبعة عنده عندما أغلقت علينا السبل ، وأشترى لنا عبد الرحمن بك فهمى ، مطبعة من الخارج ، وتعلمنا نحن الطباعة ، وجمع الحروف إلى آخره ... كان يساعدنا فى كل هذا الاسطى أحمد حجازى ، فى بعض الأوقات . كان قد بقى عندى - **فى الوقت الذى كان يحدثنى فيه عبد الصبور مرزوق** - بعض نسخ المنشورات ! ونسخة وحيده من جريدة المصرى الحر !! والمنشورات كنت طبعًا محافظا عليها بعيدًا عن منزلى ، لأنى كنت أعلم يقينا أن بيتى مهدد بالتفتيش مرة أو مرتين فى الأسبوع ، وأنا كنت أتخذ مكانا سريا معروفا لدى وأخفى فيه نسخة أو نسختين من كل منشور ، وكان من جهلى أنى كنت أحب أن يبقى هذا أثرا من أثارى العلمية ، ماكنت أظن أنه قيمة تاريخية !! ماكنت أنظر الى ذلك فى ذلك الوقت ! وأنه سيكون جزءاً من التاريخ ، لكن لى كولد فى سِنّ الثامنة عشرة ، كنت أظن أن هذا انتاج علمى ، وله قيمة ، على كل حال ظل هذا : نسختان تحفظان فى بيت بعيد عن

بيتنا ، بيت إحدى عماتى وانتهى الأمر ، بأنه فى المدة التى اشتد فيها الخناق – فى أواخر الثورة – فى محاولة الحصول ومعرفة من يحرر ويوزع ويطبع هذه المنشورات انقطعت أنا عن أخذ نسخة أو نسختين وكنت أذهب الى عمتى ، وهذه طبعًا كانت سيدة فاضلة كبيرة وعظيمة ، وزوجها كان مأمور قسم ، وكان لايتطرق إليها أى شك أو شبهة ! فانقطعت عنها ، وكانت لى أخت تكبرنى بسنتين ، فكنت أعطيها النسخ وأرسلها بها الى هذا البيت ، وكنت مطمئنا الى هذا ، ولم أعلم شيئا عن تاريخ هذه المحفوظات ، الى أن عدت من البعثة ، فأردت أن أنظر فى هذا الانتاج العلمى ، فإذا بوالدتى وبأختى هذه كل منهما يعترف لى : بأنهما أحرقا كل هذه المطبوعات ؛ لأن الحالة لما اشتدت خافتا تفتيش حتى بيوت الأقارب ، وبما أنهم يعلمون أن هذه السيدة عمة لنا ، وأننى فى وقت من الأوقات كنت دائم الزيارة لها خافتا أن يؤذوها بهذا ويزيدون فى إيذائها إن كان ممكنا ، فجمعوا كل هذه المطبوعات وأحرقوها !

الذى حدث هذا – وبعد حدوث مالا بدّ منه بد – أن شاءت الاقدار بعد كثرة التفتيش والبحث فى الأوراق والكتب وجدت نسخة من جريدة : « المصرى الحر » السرية ، ونسختين من المنشورات ؛ لهما تاريخ عجيب ! أنه فى الاسبوع الأخير من أغسطس ١٩٢٢ م وأنا أعدّ نفسى للسفر فى أول سبتمبر للبعثة الى انجلترة .

ولما حررت نسخة منشورين ، وذهبت الى المطبعة ، وطبعتها ، وأودعت الانتاج الى موزعيه فى جميع أنحاء القطر ، احتفظت بنسخة من كل منهما ، وعلى غير عادتى أخذتها معى إلى البيت .. وما كان يحدث هذا قبل الآن ؛ لكننى كنت فى حالة اطمئنان ، لأن جميع أوراقى قد استكملت ، واستكملت حتى من الجهاز السرى الانجليزى ، ومن الشرطة ، وأعطونى كل التصريحات ... ولم يكن يخطر ببالى بعد هذا وجود هذين المنشورين .. كنت أحب أن يبقى كل منهما معى .

بقى معى الأسبوع الأول من سبتمبر ، وفى صبيحة يوم من أوائل سبتمبر ، طرق طارق باب بيتنا ، الذى كنت أقيم فيه طبعًا مع والدى ، وكان من عادة والدى أن ينزل فى الصباح الى المندرة ، وأمامه الموقد بالفحم البلدى ، وعليه أنواع من الكنك ، للقهوة السادة . والقهوة بسكر ، إلى آخره .. وكنا نحن الأولاد عندما ننزلِ فى الطريق الى مدارسنا ، أو لأعمالنا نمرّ عليه ونشرب معه القهوة ، والشاى لمن أراد أن يشرب الشاى ، ففتح – قريب كان موجودًا بالبيت فى ذلك الوقت – الباب وعاد يقول : يوجد ضيف بالباب – مأمور القسم – ويسأل عنك ؟

---

(١) هو الآن يشغل منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الأسلامية بالقاهرة . وهو منصب جليل القدر بما يؤمل فيه من خدمة للدعوة ونشر الأسلام الحنيف بالحكمة والموعظة الحسنه . والله سبحانه هو الهادى إلى سواء السبيل .

فقال له تفضل . وعرفه بنفسه ، وقال أريد أن أفتش بيت مهدى أفندى علام ، فقال له : أهلا وسهلا ، إنما مهدى علام ليس له بيت . البيت بيتى أنا . ومهدى له حجرة فقط . فان أردت أن تفتشها فقط ، أو تفتش البيت كله ، فلك هذا ، إنما يعنى هو ليس له بيت .

ثانيا هو مسافر بعد يوم أو يومين ! فقال له : والله هذه أوامر صدرت الىّ ولابد من تنفيذها . فقال له : والله هوله حجرة فى الدور الثانى إن شت فتشها وكان هذا الحوار فى حوالى الساعة السادسة صباحًا . !

●● جففت محضر التفتيش بالنشافة التى بها رأس الجريمة !!

الذى حدث أنه بينما كان والدى يتحدث مع مأمور القسم ومن معه علم من فى البيت ، بأن مأمور القسم حضر للتفتيش ، فكانت لى أخت صغيرة ، أصغر منى بكثير ، أرسلوها إلىّ وأنا نائم فأيقظتنى ، وقالت لى : فيه تفتيش جىّ لك الآن ، وهم يصعدون إليك ، تيقظت أنا ، وأول شىء خطر ببالى : هذان المنشوران ولم أدر ماذا أفعل بهما ؟ ! وأنا أعلم أنه من المستحيل أن ألقيهما من الشباك ، وأنا أعلم أنهم - فى هذه الحالة - يحيطون بالبيت ، وأول ماخطر ببالى المنشفة الموجوده أمامى - منشفة الحبر القديمة المعروفة - على المكتب ففككتها وطبقتهما ووضعتهما بين المنشفة والخشب التى تربط فيه ، كل هذا وأنا اسمع أقدام الصاعدين على السلم !! ساعدنى على هذا طول السلم ، لأنى أنا كنت فى الدور الثانى ، وعندما انتهيت من هذا تركت المنشفة وذهبت الى سريرى ، وادعيت أنى نائم !

وصعَدَ الىّ هذا المأمور ، فادعيت أنى استيقظت ! وسألت ماذا ؟ فقال لى : تفتيش . قلت : أى تفتيش ؟! أنا منذ أيام قليلة أخذت توقيعك على سفرى .. فلماذا هذا ؟! قال ليكن ، ولكن أوامر التفتيش لابد أن تتم ، فتركته يفتش كما شاء ، ولم تعفّ يده عن بعض الكتب لرائحة السياسة التى فيها ، وان لم تكن ذات مسئولية ! لكن هم كانوا يحتاطون ويأخذون بالشبهات !

وتذكرت ما أبلغنى إياه فى التفتيش السابق عبد العزيز عوض عندما قال لى : لاتترك تفتيشا يحدث دون أن يكتب لك الضابط محضرامن صورتين الأولى توقعها أنت ويأخذها هو . والثانية يوقعها هو وتأخذها أنت . فأراد أن ينزل ، فقلت له : لو أذنت سيدى هل أخذت شيئا له قيمة .. أو يمثل مسئولية جنائية ضدى ؟ فقال : لا . فقلت لو سمحت لتكتب محضرًا بهذا وأحضرت له الورق والحبر وكتب ماكتب ووقع عليه ، وأخذت نسختى ونقلت له نسخة

منه وقعت عليها ، وجففناها بنفس المنشفة التى وضعت أنا فيها المنشورات ! وحمدت الله ، ثم سافرت .

وبقيت المدة التى بقيتها فى انجلترا ، طالبا فى البعثتين ، وهذه المنشفة معى ! ولم يخطر فى بالى التخلّى عنها .

●● جريدة « المصرى الحر » وجهاد ثــورة ١٩١٩ :

ثم عدت الى مصر . واحتفيت بالمنشورات وأبقيتها ولما سألنى عبد الصبور مرزوق[1] عن بعض هذا إلى جانب ماذكرته شفويا قلت له : أعطيك هذين المنشورين ، وأعطيك نسخة من جريدة : « المصرى الحر » هذه الجريدة السرية التى تمثل أصدق لون من ألوان جهاد ثورة ١٩١٩ م فأخذها وكتب ماكتب ، إلى أن جاء يوم المناقشة فى يوم مناقشته العلنية بدار العلوم ، جاءنى وطلب منى أن أحضر . وقال : سيحضر معك الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الذى كان فى أوقات ثورة ١٩١٩ وفى وقت من الأوقات عين محافظا للقاهرة ... من قبل الوفد . وواحد آخر اسمه : عريان سعد الذى ألقى قنبلة على وهبى باشا لسبب ضاق الانجليز بنا ، وضقنا بهم .. والانجليز يريدون دائما أن يكون الشكل كاملا ليسوا كالفرنسيين الذين لا يهمهم أن يكونوا موجودين أو مش موجودين إن شاله ما فى وزارة ، يخش أى عسكرى يمسك الحكم ! يحكم !

لكن الانجليز ، وزير يوقع ومستشار الوزارة يشير بنصائحه . كا يعبرون ، نحن كنا أعلنا بايحاء من سعد زغلول عن طريق عبد الرحمن بك فهمى السكرتير العام للجنة الوفد المركزية فى القاهرة ، أعلنا – وأضحك عندما أقول أعلنا – نحن طلبة المدارس العليا فى صورة لجنتنا : أن من يقدم على قبول الوزارة سيقتل ولمدة كذا شهر اضطر الانجليز أن يحكموا مصر عن طريق وكلاء وزارات !! وهذا شيء ضايقهم جدًّا ! فكل وزارة كان الذى يقوم بالعمل فيها وكيل الوزارة ، وهم كانوا يريدون أن يكون هناك وزراء مطايا لهم كا كان يسميهم سعد زغلول : برادع .

وفى أثناء هذه المدة ، حاول الانجليز مع جميع المستوزرين أن يقبلوا الوزارة فلم يقبل أحد إلا وهبى باشا . أحد كبار الوزراء السابقين عرضوا عليه الوزارة فقبلها ، وكان الانجليز فى هذا شديدوا المكر .. أمكنهم أن يقنعوا وهبى باشا بقبول تلك الوزارة .

---

(١) الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الأسلامية – القاهرة .

●● تطوع قبطى لقتل وهبى باشا لتفويت فرصة اشعال نار الفتنة على الانجليز .!

●● يقول الباحث : عندى مراجع حية شاركت فى صنع ثورة سنة ١٩١٩ الوطنية .

وكانت هناك سلطات أخرى الى جانب سلطاتنا نحن تتولى الحركة الثورية المسلحة ، ولا أدعى أننا كنا فيها ، فجهودنا كانت كتابية وخطابية ، لمن كان يستطيع أن يخطب .

ولما علم الجناح الذى فيه القدرة على التصدى بالسلاح بقبول وهبى باشا الوزارة تطوع أحدهم للقيام بتلك المهمة .. وفى مساء المناقشة دعانى عبد الصبور مرزوق ، أنا والمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز ، والمرحوم عريان سعد ، وعريان سعد هذا هو الذى اختير للقيام بتلك المهمة ، مهمة القضاء على يوسف باشا وهبى رئيس الوزراء . وعلم فيما بعد أن الانجليز اختاروا قبطيا ليرأس الوزارة ، علمًا منهم بأنه سيقتل لأن هذا كان معلنا من قبل ، وبذلك كانوا يريدون أن يعيدوا فتنة بطرس باشا غالى عندما قتل فى أوائل هذا القرن بيد ابراهيم الوردانى .

وحدث اتصال بين الهيئة التى تنفذ ... وبين لجنة المدارس العليا فنصح بأن يختاروا من يقوم بهذا العمل من الأقباط ، حتى إذا ماقتلوه لايقولون إن مسلما قتل قبطيا ، وبذلك تفوت على الانجليز الفتنة التى يسعون إليها بين المسلمين والأقباط .

ووقع الاختيار على أحد الأعضاء الأقباط وهو « عريان سعد » فذهب وألقى قنبلة فأصابت اثنين من الراكبين فى ركب : « يوسف باشا وهبى » وأصابت أيضا يوسف وهبى رئيس الوزارة بجراح ، وحكم عليه بالاعدام ، وخفف الى الأشغال الشاقة المؤبدة فى سنة ١٩٢٠ أو ١٩٢١ ، فظل فى السجن الى سنة ١٩٢٤ عندما تولى الوزارة سعد زغلول لأول مرة ، فكان من أول أعماله الافراج عن الوطنيين ومن أولهم عريان سعد .

وبقى على قيد الحياة الى أن كانت ليلة المناقشة ، فأحضرونا وأجلسونا نحن الثلاثة ، وإذا بعبد الصبور مرزوق عندما قدم الرسالة كالعادة قبل بدء المناقشة فقال : أنا لدىّ مراجع حية الى جانب المراجع المذكورة فى الرسالة .

عندى مراجع حية : الدكتور مهدى علام ، والشيخ محمد عبد الله دراز ، الاستاذ عريان سعد ، وهولاء شهود عيان على ماكان يحدث فى أيام الثورة الشعبية العظيمة بجانب أنهم من

المشاركين فى صنعها ، ومنهم ستقيت معلوماتى التى كتبتها .

وأنتهى بهذا الموقف الخاص بعبد الصبور مرزوق الذى ابعث إليه بتحياتى ... والذى أقابله أحيانا وأتلقى منه كل تحية وكل احترام .

●● دكتور محمد مهدى علام يروى خواطره حول ماضى دار العلوم ودوروها الوطنى فى صنع الرجال ومقاومة الاحتلا الانجليزى !!

●● عندى وثيقة عمرها سبعون عاما على ضوئها عدلت نظم التعليم والمعلمين ..

●● أفتخر بأننى صاحب الصرخة الوطنية التى أصلحت من حال خريجى دار العلوم ..

●● كيف كان : « دنلوب » يتعامل مع دار العلوم وما هو أسلوبه الاستعمارى البغيض ؟

●● الانجليز كانوا يريدون إحراق دار العلوم قبل أن تحرق لهم الجيش البريطانى .

●● نسى التاريخ أن الانجليز كانوا يعتبرون أنه مادامت دار العلوم ، فلا بقاء للانجليز فى مصر ..

●● وأخرج الانجليز من مصر بعد جهاد عظيم ، ولسوء الحظ بقى فى مصر من يأتمر بأمرهم ويحمل أفكارهم ..

● **بسم الله الرحمن الرحيم** : إن ما أعرفه عن تاريخ دار العلوم فى الحقبة التى عشتها طالبا ، أو أستاذا فيها ، أو متصلا بها ، سوف أحدثك عنه بشىء من الإيجاز ، بداية فانى أحدثك عن نقط بارزة يهمنى أن أبرزها إذ لا يعرف عنها أحد شيئا ... وأنا أعرف ما أقول عندما أقول : لايعرف أحد عنها شيئا ..

لقد نسى التاريخ أن الانجليز كانوا يعتبرون أنه مادامت دار العلوم قائمة .. فلا بقاء للجيش البريطانى فى مصر ... وقد اطلعت على هذا .. فى التقرير السرّى الذى يكتبه « دنلوب » ويوجه متبادلا مع المستشارين فى مختلف الوزارات الى أن يصل الى المندوب السامى .. فقد كانت حادثة غريبه كنت أتردد فى سنة ١٩٢٧ على مكتبة وزارة المالية ، إذ كان مدير هذه

المكتبة أحد معارفى ، وكنت أمرّ كعادة كل الذين يحبون الكتب على أرفف المكتبة ، فوجدت شيئا صغيرًا فى جلدة صغيرة ... فيه بضع صفحات استعرته وقرأته ، فقد كان من عادة المستشارين البريطانيين أن يكتب كل واحد منهم تقريرًا عن وزارته ، ويتبادله مع المستشارين الآخرين فى باقى الوزارات ، ويقدمونه الى المندوب السامى.. وظهر أن هذه النسخة كانت مقدمة من « دنلوب » الى وزير المالية وقت ذاك . ولما صدر قانون الاستغناء عن المستشارين . نسى هذا المستشار هذه النسخة فى مكتبة الوزارة ، ووقعت فى أيد الذين يجمعون الكتب ، ولم يزيدوا على أن وضعوها بين الكتب الىٰ أن وقعت فى يدى .. وحين أطلعت على مافيها ... والمهم ... والمهم جدًّا ... أن فيها مفتاحًا للكثير من القضايا .. التى تناولتها أنا فيمابعد ...

وأهم هذه القضايا كيف كان « دنلوب » ممثلاً للسياسة البريطانية .. وكيف كان يتعامل مع دار العلوم فى أية مرحلة من المراحل .

أولا : فيما يتعلق بالمنهج . المعروف وأنا درست على هذا المنهج فى ثلاث سنوات ، ثم أتيح لى بالكفاح الشديد أن نطلب تغييره وغيره .. فقد كان على الطلاب أن يدرسوا ثمانى ساعات فى اللغة الانجليزية من كل أسبوع ، ودرجة المجموع الذى يحاسب عليه الطالب خمسون درجة فى الوقت الذى لم تكن اللغة العربية تنال هذا فيما يتعلق بعدد الساعات .. تعرضت لهذا فى المذكرة التى رفعت للمسئولين ... وأردنا بهذا بعد أن انجلى عنا كابوس الانجليز ... وتمنكا من أن نقف وقفة رجل واحد ونطالب بحقوقنا ... وهذا من بين الحقوق التى تزعمت فى المطالبة بها ولى الشرف فى هذا .. وكتبت عنها مذكرة ورفعت لأولى الأمر مع بقية الأمور الأخرى ..

وقد تم ذلك .. فبعد مضى ثلاث سنوات وأنا أدرس فى الكلية .. تغير عدد ساعات اللغة الانجليزية .. وبالمناسبة هذا لم يكن من مصلحتى ؛ لأن اللغة الانجليزية كانت من أيسر المواد عندى .. إذ أنى كنت أعرف اللغة الانجليزية قبل أن أدخل دار العلوم ولكن هذا يخفف المسألة على سائر الطلاب بالاضافة الى أنها مسألة قومية ..

الأمر الثانى : أن الذين يرسبون فى أية مادة من المواد كانوا يفصلون ... لا يعيدون .. وكان هذا من توصيات أو اجتهاد « دنلوب » أيضا تزهيدًا للناس فى الدخول فى هذه المدرسة ... وطالبنا بتعديل هذا ...

وربما كان أهم من كل هذا مسألة المرتب .. فنحن عشنا طول مدة الدراسة على أن الخريج يتقاضى ثمانى جنيهات كمرتب للغة العربية ... فى المدارس ، وفى حين أن نظيره ... مدرس أية مادة أخرى من خريجى مدرسة المعلمين السلطانية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت يتقاضى

اثنى عشر جنيها . عندما تناولت هذه القضية .. كمتكلم باسم الكلية مع أولى الأمر .. كان من سوء الحظ أن المصريين الذين يشرفون على الموضوع .. **قد نسوا أن هذا كان سياسة بريطانية وحاولوا الدفاع عنه ..** كانت حجة الدفاع عن هذا التغيير العجيب ... أن الثقافة التى مر بها خريج دار العلوم حتى وصل درجة مدرس ، ثقافة ناقصة لاتساوى ماحصل عليه خريج مدرسة المعلمين السلطانية ، والذى حدث أننى تصديت لهذا بمذكرة وزعت على جميع أولى الأمر فى أنحاء القطر المصرى ، واحتفظت لنفسى بنسخة منها ، وعمرها مايقرب من سبعين عامًا ، وسوف نعرض لأهم ما فى تلك المذكرة من خلال حديثنا إن شاء الله .

ولعل من أهم نقاطها هى الموازنة التى كانوا يقيمونها مع خريج دار العلوم فيما مرّ به من مراحل ... مراحل الدراسة الثانوية التى كان فى كثير من الأحيان يقضيها الطالب فى المعاهد الأزهرية .. بالاضافة الى السنوات الخمس الخ ..

●● «دار العلوم» تأخذ خيرة ماتتقدم لها من مئات المتقدمين ... «ودار العلوم السلطانية» تأخذ مخلفات : «البكالوريا» .

وأنا ألخص لك هذا الموضوع فيما يلى:

أنا قارنت بين الطالب الذى يدخل دار العلوم ... وقد مرّ بالتعليم الأولى ، ثم بالتعليم الثانوى ، ثم بامتحان القبول ... مقارنا بما كانوا يفتخرون به فى الحصول على البكالوريا فى أن الحاصل على البكالوريا له الحق فى أن يدخل مدرسة المعلمين السلطانية ... وأنا قارنت مقارنة فعلية فى المواد وهى مذكورة بالتفصيل فى المذكرة الخاصة بذلك . فالمواد التى يدرس فيها الطالب المعدّ لدار العلوم فى التعليم الأولى ، ثم فى التعليم الثانوى الأزهرى ، وهى فى مجموعها تفوق بكثير نظيرها فى التعليم الثانوى المدنى - ماعدا اللغات - لأنها لم تكن ميزة ، وإنما كانت مادة من المواد يقابلها الدراسة اللغوية ، وحفظ القرآن الكريم ، وبعد ذلك ذكرت أن هذا الطالب لايدخل دار العلوم تلقائيا ...

وإنما تعلن مسابقة .. يتقدم اليها مئات الطلاب من جميع أنحاء القطر .. ومن خارج القطر أيضا .. يشرف على الامتحان أساتذة دار العلوم .. الذين هم كما أشرت غير مرة أنهم هم الذين يضعون امتحان البكالوريا .. وأنهم هم الذين يتولون كل هذا .. من هؤلاء المئات تختار دار العلوم كل عام ثلاثين أو أربعين .. ولا يزيد العدد عن ستين طالبا .. ! فى الدفعة التى دخلت فيها أنا .. كان المتقدمون ثلاث مائة وخمسين .. اختير منهم ثلاثون .. اختير هؤلاء ليمروا بالمرحلة التى دخلت فيها واستمرت خمس سنوات .. نقطة أشرت اليها فى أدب شديد لأنها نقطة

حسّاسة ... وهى أن طلاب مدرسة المعلمين السلطانية يختارون بالكالوريا ... عدد البكالوريا محدود ، يتقدم أوائله الى الكليات ذات اللمعان .. كالطب والهندسة والزراعة ، ماتبقى منهم يؤخذ فى مدرسة المعلمين السلطانية ... فمن غير سوء أدب أشرت إشارة خفية الى أن مدرسة المعلـمين السلطانية تأخذ مخلفات البكالوريا .. ودار العلوم تأخذ خيرة ماتقدم من مئات من المتقدمين ... وما يتعلق بالمنهج فالمنهج كان سيئا جدًّا .. أسوأ شىء فيه طغيان اللغة الانجليزية على جميع المواد .. فما كانت هناك أية مبررات، لأن يزداد عدد دروس اللغة الانجليزية ، لأنه ليس المقصود أن يتفوق خريج دار العلوم ، فى اللغة الانجليزية ، فما هى إلا وسيلة من الوسائل الثقافية ، لكن وكان المقصود من هذا الا يجد طالب دار العلوم متسعا من الوقت لدراسة اللغة العربية و الشريعة الإسلامية أيضا .. !

● أعلام دار العلوم فى ماضيها الزاهر ...

فيما يتعلق بالثقافة التى تمثلها دار العلوم كما وجدت من أول يوم عندما شاء لها على مبارك أنه كان يُختَار عدد محدود من نُبَهاء الطلبة فى الأزهر ليدرسوا دراسات عليا متخصصة ليقوموا بالتدريس فيما بعد ... وظل هذا الى أن كان رصيد دار العلوم لعدة سنوات يزيد على العشرين أو الثلاثين .. المصدر للثقافة العربية والثقافة الاسلامية ، حتى أن خريجى دار العلوم كانوا يعينون فى القضاء الأهلى ، وفى القضاء الشرعى ، وكان لهم حق المرافعة فى المحاماه ، وكثير من الشيوخ المحامين الذين تعتز بهم نقابة المحامين هم من أبناء دار العلوم ..

أبدأ بالدراسة الاسلامية ... التى يظن كثير من الناس أن نصيب دار العلوم ... كان نصيبا ثانويا ... عندما أنشأت مدرسة القضاء الشرعى ... برياسة عاطف بركات باشا ... أحد المهمين من أبناء دار العلوم وابن أخت سعد زغلول ... واذكر هذا للأهمية التى منحها بسبب هذه العلاقة ، على الرغم من أنه كان من كبار الخريجين ، فقد اختار رعيلا عظيما جدًّا من أبناء دار العلوم ، وعهد اليهم بالتدريس سواء كان فى اللغة العربية أو فى الدراسات الاسلامية ، كذلك كان فى مدرسة الحقوق كانت الشريعة الاسلامية تدرس بعناية ، وأول من قام بتدريسها الشيخ الجليل العلامة مُحمّد زيد الأبيانى[1] يليه أحمد بك سلامة ، يليه أبو الفتوح بك . هؤلاء الثلاثة كانوا ثلاثة معالم ... وهم أول من وضع الفقه والشريعة الاسلامية فى مواد قانونية حتى يتفهمه ويستطيع تطبيقه طلبة مدارس الحقوق الذين كانوا يدرسونه ...

---

(١) للشيخ الجليل العلامة محمد زيد الابيانى كتاب فى شرح الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ويقع فى ثلاثة أجزاء وأهم مايميزه أنه كان يشرح الأحكام الشرعية فى متن الكتاب ، وفى الهامش كان يصوغ تلك الأحكام فى مواد قانونية ... واعتقد أن السادة الذين يصوغون الشريعة لو يصوغونها فى قوانين لو اهتدوا الى مثل هذا الكتاب لاستراحوا وما بذلوا أى جهد والكتاب طبع سنة ١٣٢١ هـ — سنة ١٩٠٣ م مطبعة الشعب شارع محمد على .

●● علام ودروه البارز فى ثورة ١٩ مع سعد زغلول

فى اليوم التاسع من مارس سنة ١٩١٩ علمنا أن هناك حركة بين الطلاب للخروج للاحتجاج ... لعلك لاتدرى ... وما كان أحد يمكن أن يدرى ، أن الأبواب كانت تغلق على طلبة دار العلوم بحكم « دنلوب » فكانت المدرسة سجنا أو اشبه بالسجن من حيث إحكام إغلاق أبوابها ... فمن دخل فى الثامنة إلا خمس دقائق لايخرج إلا قبيل الرابعة ... وكان هذا فى دار العلوم فقط دون باقى المدارس المناظرة ... والدراسة كانت صباحًا وبعد الظهر ... سمعنا بعد الغداء فى أحد الأيام الدراسية ... أن هناك حركة ثورية ، ويؤسفنى أن أحد المدرسين – غفر الله له – جاءنا ونحن مجتمعون وقال : **« كُنْ فى الفتنة ذنبا ، ولا تكن فى فيها رأسا »** **وشاء القدر أن نكون رأسًا لا ذنبا فى هذه الثورة** ... خرجنا فى ذلك اليوم ... ولم نعد حتى عادت الثورة بجميع طلابها الى مدارسهم ...

وفقدنا فى هذا وقتا طويلا ... لم يفتن . ولن يفوتنى أن أذكر أكتوبر من أسوأ سيئات « دنلوب » على دار العلوم ، وهى أنه اخترع لها ... الى جانب مااخترع ... أن تكون الدراسة فيها تبدأ فى أول يناير من كل عام .. ! وتنتهى فى ديسمبر ، قاصدًا بذلك ألا يمرّ صيف العام على طلاب عليهم الامتحان بعد شهرين أو ثلاثة ... فى أكتوبر أو نوفبر ... وهم يعلمون أن الراسب يفصل ، وهو يريد بهذا أن يزهد كل الناس فيها ... وبالفعل كان ذلك من أشق مايمكن على الطلاب ... ويريد بهذا أن يحجب الطلاب الذين يعودون الى قراهم وبلادهم من أن يذيعوا بين الناس كره الانجليز سيئ فعالهم وهذا هو السرّ ... !

حاولت أن يتقى هذا بأن تكون الدراسة فى يناير حتى ديسمبر ... وأنا درست ابتداء من يناير الى آخر ديسمر ثلاث سنوات .. إلى أن طالبت فى ظل ما طالبت به العودة الى نظامنا كجميع المدارس ..

●● دَوْرُ دار العلوم فى الحركات الوطنية

أنا عاصرت المرحلة الأولى ... لمدة ثلاث سنوات ، لأن الثورة قامت وأنا فى السنة الثالثة من خمس سنوات ... وعلى فكرة عندما أردنا أن نعود بالسنة الدراسية لتبدأ فى أكتوبر كبقية الكليات والمعاهد اشترط علينا صنائع الانجليز ... ويؤسفنى أن أقول هذا لأن كثيرًا من المصريين الذين تربوا فى أحضان الانجليز نسوا أو تناسوا السّر فيما كان يصنع الانجليز ... فأخذوا بعد خروج الانجليز يدافعون عنهم كأنهم عقيدة دينية لديهم . اشترطوا علينا أن تضيع بقية السنة إذا كنا نقبل أن نعود الى أكتوبر ... وقبلنا هذا ... ضياع العام الدراسى ... قبلنا وقبلنا وقبلنا

لكى نقرر مبدأ . ونعود على حالنا العادى كبقية الطلاب ... والتغيير الذى حدث ... فى اللغة الانجليزية[١] كما هو موضح فى تلك المذكرة ... كما خفض المجموع الى ٥٠ ٪ ليصل الى عشرين فى المائة على الاقل ليتناسب مع مجموع اللغة العربية ...

وفيما يتعلق بأنواع الدراسة كنا مقدمين متضرعين متسمعين لأنواع حديثة من الدراسة فى الخارج ... كان من بينها فقه اللغة ... فطالبنا بأن مادة كهذه يجب أن تدرس عندنا ... والعجيب أنها مرت بمراحل ...

المرحلة الأولى : مرحلة الأستاذ / محمد عبد الجواد رحمه الله ، فقد قام بالبحث فى معاجم اللغة عما سمّاه بالأنابيش ... وكان يجمع هذه الأنابيش من الألفاظ الغريبة ، والجمل الجديدة ، وسمّى هذا فقه اللغة ... بعد ذلك تصدى للأمر الشيخ الجليل السكندرى رحمه الله ، فهمه على أنه الترادف وابتكر أن على كل مجموعة تقوم بدراسة مجموعة من المترادفات ، وبهذه المناسبة دراسة المترادفات كانت تدرس بالمدارس الثانوية ، وعندى الكتب المطبوعة الرسمية التى كانت تطبع لتلاميذ المدارس الثانوية ... فى علم المترادفات ... إلا أن أرسلت البعثات ودرست وعادت ... فوضعت لنا علم فقه اللغة الذى يدرس على اساسه الآن .

---

(١) التفصيل يوجد فى المذكرة المرفوعة لأولى الأمر .. بها مطالب دار العلوم ... ابان ثورة ١٩١٩ .

نشيد ثورة ١٩
فلنمت ولتحى مصر

نحن أبطال شداد نحن شبان البلاد
مالنا غير الجهاد فلنمت ولتحيا مصر

فلنمت ولتحيا مصر

سعد هيا امح الحماية وأقم للنيل راية
ثم علمنا الرماية إننا للنيل زخر

فلنمت ولتحيا مصر

مصر والسودان طُرًّا لاتدع للغير شبرا
ليسيل النيل حرًّا إن طعم النيل مُرٌّ

فلنمت ولتحيا مصر

●● دار العلوم تستصرخ أبناءها ...

هذه مقدمة للمذكرة التى نيط بى أن أعدّها باسم جمعية دار العلوم وتقدمها الى كل رجال الحكم فى مصر ...

تبدأ بدار العلوم تستصرخ أبناءها ... الى المستشارين من أبنائى ... الى القضاة منهم ... إلى المحامين ... إلى رؤساء الأقلام ... الى نظار المدارس ... إلى مفتشيها ... الى مدرسيها ... إلى كل كاتب فى البلد ... وشاعر ... الى من عمهم فضلهم ... الى من وردوا حياضى ... ونهلوا وعلوا إلى كل أولئك أرفع شكاتى ... وأبسط قصتى ... ضارعة إليهم أن يستجيبوا لندائى ... وقد ناديت عن كثب ماسار عليه عملنا ... .

(نصف قرن ...)

●● مطالبنـــــا :

أولا : التسوية بيننا وبين المتخرجين من المعلمين السلطـانيـة ... وقـد تقـدم البرهـان على ذلك ...

ثانيا : تحويل الراسبين فى أى سنة حق إعادة دروسهم فى السنـة التى رسبوا فيهـا للوجوه الآتية :

أولا : أن ذلك قانون عام فى البلاد فى وزارة المعارف على اختلاف طبقاتها .... ولا مبرر لخروج مدرسة المعلمين الناصرية عنه ... لاسيا وأن ذلك كان مقررًا فيها ...

●● مدرسة المعلمين الناصرية إسم « لقيط »

وبهذه المناسبة أنا أرجو أن أذكر .. السبب فى كلمة المعلمين النـاصريـة ... فـالكل يجهل أن دار العلوم حكم عليها بفقد اسمها لمدة عشرين عامًا ... ممن ؟ ! من : « دنلوب » .. « دنلوب » كان يكره دار العلوم ... وكل مايتصل بدار العلوم ... لـدرجـة أنـه سماهـا : « مـدرسـة المعلمين الناصرية » لتكون على مثال مدرسـة المعلمين السلطـانيـة . المعلمون كانوا يتخرجون فى مصر من مدارس تتلوا التعليم الثانوى ... أولى هذه المدارس ، مدرسـة المعلمين التوفيقيـة نسبـة الى توفيق الخديو ... وبعدهـا مـدرسـة المعلمين الخـديويـة نسبـة الى الخـديو ... ولكى يقـارن بينهـا وبين نظيراتها عندما سميت المعلمين السلطانية .. بعد أن زالت دولة الخديويين ، وجلس حسين كامل على كرسى السلطنة ... فسمى المدرسة مدرسة المعلمين الناصرية « اسم لقيط !! » مدرسة المعلمين الناصرية !!

السبب فى ذلك أنها كانت الناصرية ... وكان ناظر المدرسـة النـاصريـة الابتـدائيـة المنتـدب أمين سامى باشا ، وكان ناظر المدرسة الابتدائية وناظر المعلمين ...

ومما كافحنا فى سبيله عودة الاسم الحقيقى الينـا : « مـدرسـة دار العلوم » ويؤسفنى أن أقول أنى دخلتها تحت اسم المعلمين الناصرية ..! وتخرجت منها تحت اسم دار العلوم ..

●● السـرّ الحقيقى وراء ضمّ دار العلوم الى جامعة فؤاد الأول

وراء انضمام دار العلوم الى جامعة فؤاد الأول – بعد أن كانت تنعم بنعمة الاستقلاليـة – سرّ خطير أو أن شئت فقـل : مرشحـات كثيرة ... أهمهـا هـذا المسخ الـذى مسخت بـه على يـد « دنلوب » وأتباعه .

ولخروج من هذا ... ولمعرفة أن الجامعة لها استقلال أشير الى أنها لو دخلت فى نطاق الجامعة لكان خيرًا لها ! ولكن هذه كانت محاولات طالب بها عدد كبير ... ولم يستجب لها إلا أخيرًا ... استجابة حقيقية لقوم كاوا يعلمون تمام العلم أن انضمامها الى الجامعة نصر لها ..! لا فقد للعربية ..!

القســم الثــانــى
المعــــارف
وطــريــق ملــىء بالأشــواك ..!

●● رفضت الإغراء المادى والأدبى حبًّا فى دار العلوم ..

● تعددت المحاولات لنقلى من دار العلوم الى وزارة المعارف على غير رغبة منى ، ففى سنة ١٩٢٨ عندما خلت منطقة الاسكندرية من مفتش التعليم ، وعلى فكرة أنا أتكلم فى عصر لم تكن أنشئت فيه مناطق التعليم ، مناطق التعليم أنشئت بعد هذا بعشرين سنة ، ويكون لكل منطقة هيئة ، ورئيس منطقة الى آخره ، إنما كانت هناك بعض المناطق لأسباب خاصة بها . كأن تكون نائية جدا ، أو كأن تكون لامتياز خاص بها .

والاسكندرية لها امتياز خاص ، وهو وجود المدارس الأجنبية بها ، وفى ذلك الوقت لم تكن الامتيازات الأجنبية قد ألغيت . وحضرتك كسياسى تعلم جيدًا مصائب الامتيازات!! فكانت الوزارة حريصة على أن يقوم بالتفتيش فى هذه المنطقة من يجيد التعامل مع نظار المدارس الأجنبية ، لأن الحق ، ولا أقول غير الحق ، لأن القانون كان فى أيديهم ، وإن يكن الحق فى أيدى غيرهم ، فَلأَمْرٍ من الأمور خلت هذه المنطقة من المفتش الذى كان يشغلها ، - وأنا أتذكره جيدًا - لأنه كان من أصدقائى - المرحوم د / ابراهيم سلامة أشهر خطيب فى دار العلوم ، وخلت بنقله منها ، لأنه سافر الى باريس ليجلب الدكتوراه من هناك ، وكانت المحاولة المستميتة لنقلى إلى وزارة المعارف .

●● فجأنى الخبر وأنا أخطو خطواتى الأولى فى التدريس فى دار العلوم ..

حدث أن صديقا لى يشغل وظيفة كبيرة فى وزارة المعارف كما كانت تسمى ، واتصل بى فى يوم من الأيام وأنا كنت فى ذلك الوقت ضمن هيئة التدريس بدار العلوم ، وقال لى: أرجو أن تمرّ علىّ قبل أن تذهب الى بيتك .

هذا الصديق يشرفنى أن أذكر اسمه : المرحوم نجيب بك حتاتة – علم من أعلام التربية والتعليم – فمررت به وأنا أحمل له كل إجلال وكل إحترام ، خصوصًا وأنه كان ناظرًا لمدرسة كنت أتمرن فيها على التدريس ، وأنا طالب فى دار العلوم .

هذه المدرسة ، هى مدرسة المنيرة الابتدائية ، فى ذلك الوقت كان ناظرها يشارك فى تدريب طلاب المدرسة على التدريس ، وكان لنا جدول مختصر ، ندرس جزءًا من الزمن ، ونواصل محاضراتنا فى جزء آخر ، بالاختصار فقد أزعجنى بأنه ذكر لى أننى مرشح لأكون مفتشًا للإسكندرية ، وولا أنكر أنه كان مبتهجًا بهذا ، ولا أنكر أننى كنت مبتئِسًا بهذا !

بغضّ النظر عن عنصر المفاجأة ، فأنا أخطو خطواتى الأولى للتدريس فى دار العلوم ، وهو أكبر شرف يستطيع ابن دار العلوم أن يفكر فيه . ولم يكن مضى علىّ أكثر من سنة ، وأنا أدرس فى دار العلوم ، فكيف أنقل ؟! وإلى أين أنقل ؟ أنقل الى التفتيش وأنا كنت أعتقد أن المفتش رجل فى معظم الأحيان كريه على الأقل من الطائفة التى يفتشها . فأنا أظهرت لنجيب بك اندهاشى ، وقلت له لماذا أنا أنقل ؟ فقال : هناك درجة مالية ، وهناك كذا ... وكذا ... فقلت له : إنى لا أتطلع إلى هذا ، ولا أريده . قال : هذا سيكون من الخير لك وأنت تعلم مدى حبى لك .

قلت له : أعلم . وأعلم تقديرى لنفسى أيضا ، هو لم يَعْنُتْ وإنما تَلَمَّسَ وسيلة التحريض اللين ، فقال لى : لا تستقل برأيك ، هو كان يعرف والدى ، فقال : اعرض الأمر عليه . فقلت له : إن والدى فى مثل هذه الأمور سبق أن كرر لى أننى أنا أعلم بظروفى منه ، ولم يتدخل فيما يتعلق بالأعمال الرسمية ، لأنه ليس رجلاً حكوميا ، ويفهم فى مثل هذه الأمور وربما يسئ الحكم ، فأنا أعلم أننى إذا طلبت منه الخيار قال : الخير فيما تختاره أنت . فقال نجيب بك : لا . أنا مع هذا ، أفضّل أنك تعرض الأمر عليه . ومع ذلك عدنى أنك تعرض الأمور عليه ، والمسألة كلها أربعة وعشرون ساعة ، وبلغنى بعد ذلك رأيه . **قلت** : هذا لك بالتأكيد وقمت . وصدقا عرضت الأمر على والدى ، وكما تنبأت قال : ماذا تريد ؟ أتقبل قلت له : لا . قال : لك هذا .

● ● قلت للعميد : هذا الكلام كذب وافتراء فان لم يكن كذب وافتراء فهو باطل .

وفى اليوم التالى : ذهبت الى دار العلوم أولاً ، لكى ألقى محاضرتى هناك فى الصباح ، وعندما أنتهى منها أمرُّ على نجيب بك حتاتة فى الوزارة ، ولكن عند دخولى دار العلوم وجدت أحد السعاة يقول لى : إن العميد يطلب مقابلتك . كان العميد أحمد بك برادة ، فذهبت اليه ، فاذا به غاضب مستشيط متزمر . فقلت له : ماذا جرى ؟ ما الأمر ؟ فقال : ألم تطلع على الجرائد ؟! فقلت لا . فأعطانى الأهرام ، ولم أكن قد قرأته فى الصباح وفيه نقل الاستاذ / مهدى علام مفتشا لدائرة الاسكندرية ، قال لى : أنت تعمل من ورائى ! ألا تدرى أن قانون دار العلوم يقضى بأن لاينقل اليها أو منها إلا من يوافق عليه مجلس إدارتها ؟ قلت : أعلم ذلك ويكفى أننى أعلم ذلك كى لا أخالفه : وماخالفته . وقال : ماهذا الكلام ؟ قلت : هذا كذب ، فان لم يكن كذبا ، فهو باطل .

والحقيقة أننى بالأمس ذكر لى نجيب حتاتة كذا ، وكذا فقال : ماذا أنت فاعل ؟ **قلت :** باق معك باذن الله . قال : والوزير كان لطفى السيد باشا فى ذلك الوقت ، وأخبر الوزير أنى غضبان وغير راضٍ عن هذا التصرف ، إلى جانب غضبك أنت وعدم رضائك .

● ● لقد اخترتم للاسكندرية ولم تختاروا لمهدى ..

ذهبت الى نجيب بك حتاتة ، ووجدت الصورة اختلفت تماماً . لم يكن ليّن اللّمس كما كان بالأمس . كان أقرب الى العنف واستخدام السلطة . **وقلت له :** أنت تخبرنى بالأمس أن أختار ، وأجد فى الصباح أن اختيارى قد تم من غير رأيى ! إلى درجة أنه ينشر فى الجرائد . قال : وماذا أنت فاعل ؟ ! يعنى نهايته ! قلت له : أنا فاعل – باذن الله – ما أريد وهو أنى لن أبرح مكانى . قال : كيف ذلك ؟ بالاختصار كان الرئيس المباشر لهذه العملية المرحوم عبد العزيز جاويش ، وكان نجيب حتاتة المساعد له ، الشيخ عبد العزيز جاويش كان حبيبى جدًّا وكنت فخورًا أن يتبنانى ، وكنت أقول : إن الثقافة الرفيعة فى مصر ، يمثلها حلقات ذات اتصال بعضها ببعض ، على رأسها عبد العزيز جاويش خريج دار العلوم ، وخريج انجلترا ، وأنا آخر حلقة من حلقاتها .

وكان يعلم هذا هو ، وكان يحسن استقبالى ، استقبال الابن ، فذهبت الى حجرته أطلب الدخول فلم يؤذن لى ! فغضبت وقلت بما يسمعه هو لأننى كنت فى حجرة سكرتيره : بالأمس كان يرحب بى ويقول : إبنى وحبيبى ، لأنى كنت إبنه وحبيبه . واليوم يرفض أن يقابلنى لأنه

يعلم أننى أصبحت مرءوسًا له . غير أن هذه الرياسة لن تدوم .

وتركت حجرته ، وذهبت إلى نجيب بك حتاتة ، وقلت له ماحدث . فقال : اسمع . لا تركب رأسك ، ولنجتمع اليوم مساءً ونتحدث فى الأمر ، ونختار بعض زملائك وأساتذتك ونتكلم معهم .

كان فى شارع بولاق ، أو فؤاد (ش ٢٦ يوليو) محل أسمه (صولت) مقهى أرستقراطى لايجلس فيه إلا الرجال المثقفين ... شوقى أمير الشعراء ، وحافظ ابراهيم ، وا ... ، وا ... فقال : لنتقابل الليلة فى « صولت » وتحضر معنا فلانا ، وفلانا ، وأختار أربعة أو خمسة من خريجى دار العلوم الذين سبقونى إلى إنجلترا ، وعادوا . وهم يعملون فى ميدان التعليم ، فذهبت إليه وتحدثنا ، فكان رأى أعلاهم صوتا : **لقد اخترتم للإسكندرية ولم تختاروا لمهدى .** والذى قال : ذلك هو أحمد على عباس ، واذا بنجيب يقول قم بنا نتمشى قليلا ، كان الليل ساجيا ، شتاء هذا ... كان فى يناير ... تمشينا فى شارع جانبى وحاول أن يفهمنى بطريقة غير مباشرة أن هذا القرار يعتبر قراراً نهائيا فقال لى : أنت لست إلا جنديا فى ميدان التعليم ، والجندى يذهب ليحارب حيث يؤمر أن يذهب .

●● أعرف جزاء الجندى العاصى وأنا مستعدٌ له ...

وهذا كان كلاما عجيبا جدًا من نجيب حتاتة لى فقلت له : أنا أفهم جيداً ماقلته أنت ! ولكن هناك شيئا لم تفهمه أنت ، أنّ هناك جنديا يعصى فلا يذهب الى حيث طلب منه أن يحارب ، وجزاء هذا الجندى إطلاق النار عليه ، وأنا مستعد لهذا ماذا سيفعل لى ؟ أسوأ شىء يحدث أن أفصل وأنا أكون سعيدًا جدًا إذا فصلت ، لأنى كنت فى ذلك الوقت ثرّ الكتابة ، متعلقا بالصحافة ، آثار ثورة ١٩١٩ والتحرير باق فىّ قلت له : أنا يسرنى جدًا أن أترك التعليم وأشتغل بالصحافة ، فعاد الى رشده وأدرك أن العنف لاينفع معى فقال لى : إسمع أنا سأقص القصة عليك . هذه الوظيفة وظيفة مرموقة ، تتطلع اليها الأنظار من كل جهة ، وعندما سافر الأستاذ ابراهيم سلامة الى باريس للحصول على الدكتوراه ، تطلعت إليها الأنظار ، وكثرت الوساطات بخصوصها من الشيوخ والنواب . واثقلوا الأمر على الوزير ، وخشى الشيخ عبد العزيز جاويش أن يُقحَمَ عليه منهم من لا يقبل التعاون معه ، فاختارك أنت ، وذكر اسمك للوزير ، فأمام الاسماء التى كانت معروضة عليه مع الوساطة كان اسمك ! فقال الوزير : أنا طبعًا لا أفضل أحدًا على مهدى .

فقلت : إذن أنتم أخترتم لى ، ولم أختر أنا لنفسى . قال نعم . فنزل من كبريائه وقال لى : أرجوك أن تساعدنى على حلّ الإشكال ، إنك لو رفضت الآن تكون قد حللت الاشكال لنفسك ، لكن الاشكال لايكون قد حلّ لنا ؛ لأنه فى ذلك الوقت نحن مضطرون لملء

الوظيفة ، وستملأ بأحد البلاوى - أهل الوساطة - المقدمة للوزير . والوزير لما يحيله عليه نواب وشيوخ هم يقدمون إليه اسما ويعرف أن الذى اختاره لم يقبل فيقبل - أى مرضىّ عنه - أىّ واحد . فساعدنا على أننا لا ننكب إذا كان للتعليم قيمة عندك . قلت : وهو كذلك ، أنا لا أخذلك وإنما عدنى بأنّ هذا مؤقت بزمن ! قال : لك هذا ، وآخر موعد ينفذ فيه أمر النقل غدا ، الساعة الواحدة بعد الظهر ، إن لم ينفذ فأنت عارف شغل الحكومة وهو أن يقوم الشخص بتسلم الوظيفة ابتداءً من كذا ، وإلا سوف يكون هناك مسئوليات ! فقال : سافر غدا ، وقم بالعمل . وانتظر الفرج .

●● من أجل دار العلوم .. رفضت الهيلمان ، والسلطة ، وكل مغريات الدنيا !

قلت له : أعدك بأن أحلّ العقدة بالسفر ، وأتسلم العمل ولكن لاأبقى مدة . قال : ابق مدة حتى تشاور ونختار بديلا لك . قلت : سأسافر كما أنا بالبدلة التى علىّ . قال : ألا تغير قميصك ؟ قلت : سوف آخذ معى بعض القمصان . ولكن لا أغيّر بدلتى . وهو مقياس المدة التى أبقاها بالفعل .

فى اليوم التالى : سافرت الى الاسكندرية ، وذهبت الى المكتب . هيلمان ! سلطة .. ! لأن هذا مكتب الاسكندرية وهم يعظمونه ، ويفخمونه من أجل الأجانب الذين لهم المدارس والقناصل والمشرفين على المدارس بالاسكندرية . فاوقعت باسمى بأنى تسلمت العمل فى ذلك اليوم ؛ ولكن لم أفعل شيئا بعده سوى أنى فى اليوم التالى أطلب رقم عبد العزيز بك جاويش ، أو نجيب حتاتة تليفونيا وأسألهم : ماذا فعلتم فى بدلى ؟ يقولون انتظر ! وظللت كذلك .

ومضى أسبوع يئست فيه ! لم أقم بأى عمل رسمىّ عن أعمال التفتيش ، المفتش له جدول تفتيش ، اليوم الفلانى كذا ... واليوم الفلانى كذا ... لم أكتب شيئا من هذا ... ولكنى فتشت ... فأنا قمت بالعمل ، ولكن لم أقم رسميا بالعمل . وحدث أنى كتبت قصيدة لطيفة للشيخ عبد العزيز جاويش فلم يردّ علىّ فخلعت صدور الأبيات وأقلبتها ذمًا .

وأنتهى الأمر بعد ثمانية عشر يوماً وعدت ، ولى فى ذلك ثلاث قصائد ، قضيدتان لعبد العزيز جاويش ، **الأولى** تذوب رقة . **والثانية :** غضب وأى غضب . والثالثة وصف للمدارس التى ذهبت لأفتش فيها ، فوجدت الخناقات والمشاكل التى فيها .. كانت تستحق منى وقفة ، ولذلك عبرت عن ذلك بالقصيدة الثالثة .

قهَــرُوا رِضَــاىَ

●● بشىء من الخجل والاستحياء أذكر شيئا مما كتبته عن نفسى فى تلك الأثناء ، عندما كنت فى الاسكندرية فكتبت قصيدة بعنوان : « قهروا رضاى » مشيرًا الى الطريقة التى اتبعوها معى فى تبليغ الوزير أننى قبلت ، مع أننى كنت لا أعلم عن الموضوع شيئا .. فكتبت :

إنـى علـى مضض أقيم … فيمـا دعـوا دار النعيم
فلقـد خلقـت لغيـر ذا … ويمثـل ذا غيرى بهيم
مـاذا انتفـاعى فى قضـا … يـا كلهـا عمـل ذميم
قـوم يـسودون الخصـا … م وليس لى فيهم خصيم
وسلاحهم نسج الـدسا … ئس فى دجى الليـل البهيم
يتشـاحنـون وكلهم … فى الـزور آفّـاك أثيم
لهفى على الاخـلاق … فى جو ملىء بـالسموم
أمـا أنـا فتى جنيت … فـأقتـدى صنو الهموم
قـد كنتِ فى دار العلـو … م تروقنى دار العلـوم
وأحبهـا وتحبنى … حـب المتيّم للنـديم
حـب ابن هـانئ كـأسه … ملئت معتقـة الكروم
وأنـا فتـاهـا لا أحيـ … ـد عن الصراط المستقيم
فـإذا الجماعـة لم يكن … من بينهم قلب رحيم
قهروا رضـاى كـأنما … أنـا بينهم رجل مضيم
قـالوا رضيت ومـا رضيت … بذلك العمل الأليم
قدْ باعدُوا بينى وبين … بنىّ فى دار العلوم
حرمو هو هـذا الحمـا … س كـأنه نـار الحميم
لكنـه فى صدرهم … برد يسّر ولا يضيم
وكذاك قد حرموا الفريسة … مركز الرجل العظيم
كالبدر فى سط السما … ء وحوله زهر النجوم
أ إلى المحـاق أسير أم … أم أنى بطيات الغيوم
وبلجـة الأهوال أغر … ق لا أقاوم أو أعوم
أنـا مُـذْدَرِ تلك الحيا … ة فمن لِسُخرِيتى يلوم

أنـــا لا أريـــد ســوى الكتـــا ... ب ســوى الْبَــرَاعِ ســوى العلوم
أنـــا لا أريـــد ســوى الغَنَـــا ... ءِ لِخِـــدمـــة الأم الــرءوم
فلينقـــذونـــى مـــن حبـــاة ... دونهـــا هلـــك الجحيم
قـــالوا نبـــاغتــك التـــى قـــد ... أنطقـــت حـــق الخصـــوم
قـــد حببتنـــا فـــى الهجوم ... عليـــك ، فـــى يـــوم الهجـوم
تبًّـــا لتلك نبـــاغـــةً ... هـــى مصـــدر الشرّ الــوخيـم
واذا ذكـــاء المـرء أضحـــى ... شقـــوة الــرجـــلْ الحكيـم
فـــأنـا البليـــد ، أنـــا الغبـــىّ ، ... أنـــا الجهـول ، أنـــا النـــؤوم

● ● تحية من مهدى إلى جاويش ..

● وكتبت فيا كتبت فى ذلك الوقتت إلى المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش ، الذى كان رئيسا لهذه الادارة :

قـــد كنـــت اشكـــو لـــك الـــزمـــانـــا ... قـــد كنـــت أغـــزو بـــك الهـــوانـــا
كـــم ســـال دمعـــى فكنـــت تـــأســو ... جـــراح قلبـــى الـــذى استكـــان
أليـــس عبـــد العـــزيـــز فينـــا ... بـــدر السمـــاء الـــذى هـــدانـــا
ألســتَ مهـــدى الـــذى حبـــاه ... بعطفـــه والـــدحبـــانـــا
أتيـــت أرجـــو خـــلاص نفســـى ... ومـــن رجـــاكـــم فلـــن يهـــان

● ● عتاب إلى جاويش بعد ما فاض الكيل !

● ولما أهمل كتابى إليه ، وعلاقتى الشخصية قبل هذه الوظيفة به ، كتبت إليه بعد ذلك ما يأتى حيث أخذت صدور الأبيات السابقة ، وأضفت إليها سطورًا أخرى يؤسفنى أن أقول إنها كانت قاسية ، ولكن الموقف فرضها فرضا ...! ...

قـــد كنـــت أشكـــو لـــك الـــزمـــان ... فصـــرت أشكـــوك للـــزمـــان
قـــد كنـــت أغـــزو بـــك الهـــوان ... فصـــرت أغـــزو بـــالسنـــان
كـــم ســـال دمعـــى وكنـــت تـــأســو ... واليـــوم تقسُـــو بـــلا حنـــان
أكـــلُّ ظلمـــى لـــديـــك أنـــى فـــارس ... قـــومى لـــدى الرهـــانِ
لا كـــان ذاك النبـــوغ يـــومًـــا ... إنْ كـــان فـــى الأســـر قـــد رمـــانـــى
فكـــوا قيـــود الأسيـــر رفقـــا ... لا تتـــركـــونـــى لمـــا أعـــانـــى
دار العلـــوم التـــى أراهـــا ... خيـــرَ عـــروسٍ لـــذى قـــران

دار العلـــــوم التـى حبتـنى	حنـــان أم لهـــا حنـانـى
قـــد ارتضتـنى أقـود فيهـا	جيشـا مـن العلم والبيــان
أحـرر الفكـر مـن قيــود	أحُـلُّ مـن عقــدة اللســان
أنبّـهُ القـوم مـن سُبَـاتٍ	وأوقــظ الـرأى مـن ثـوانِ
وهبـتُ دار العلـــوم قلبي	وهبتهـا مهجتـى جنـانـى

● ولما قرأ الشيخ جاويش قصيدتى الثانية بالذات غضب غضبًا شديدًا ، فكان رحمة الله عليه سريع الغضب ، وقال : يقول عنى مهدى أغزوك بالسنان ، وظل مخاصمًا لى الى أن توفاه الله ، ولكنى لم أجاره فى خصامه ، وبقيت على ولائى له ، وإعجابى به وبشجاعته . وبعد وفاته أقمت له حفلة تأبين فى دار العلوم كنت على رأسها وأظن أن عندى قصيدتى التى قلتها فى حفل تأبينه ومنها :

●● رغم غضبه منى كنت أول من رثاه ...

مـــا للسمـــاء ظـلامٌ	قـــد غــاب عنهـا الضيــاءُ
مـــا للكـــواكب تبـدُو	وليـس فيهـا ذكــاءُ
مـــا لِلنّجـوم تهــاوَى	وبينهـــا الجـــوزاء
مـــا للسحـــاب سكـوُبٌ	ودمعــــــه لألاءُ
مـــا البيـــان سكـوتٌ	لســانـــه خـرسـاء
مـــا للكنـــانِـة ثكلـى	أسما لهـا ســـوداء
يـــاصـوتهـا رددّتـــه	يحـزنهـا الـورقـاء
تَنعَى الـى النيـل نجـدًا	قـــد كـــان فيـه الرجـاء
تنعى الـى النيـل عـزمًا	قـــد كـــان فيـه المضـاء
تنعى الـى النيـل رأيـا	كـم كـــان فيـه الكِفَـاءُ
تنعى الـى النيـل علمـا	هـــو الهـدَى والسنـاء
تنعى الـى النيـل تقـوى	بهـــا اقتـدى الاتقيـاء
تنعى بيـــانـا تـــوارى	ومَـــالّــه أجفــاء
تنعى لســـانـا زعودًا	إن حـمَّ فينـا القضــاء
ومِغـــولاً كـم تَمِغنـا	يَقـولُ أيـن الـوفـاءُ
إن قـــال : لـم يَبْــقَ	إلاّ لِقَــولِـهِ الإصْغَــاءُ
أوصـــال فـى الحـق يـومـا	فنطـــق لا هــراء
نُملِـى عليـه جنـانٌ	يقـــل فيــه الثنــاء

وكيف يوصف عقل ... يشتق منه الذكاء
ياويح مصرَ برُزْءٍ ... الكل فيه سواء
وطعنة الدهر فيه ... لطعنة نجلاء
والدَّهْرُ جدُّ فَنُّون ... والدهر فيه الرياء
إن كان يَبْسُمْ يومًا ... وثغره وضاء
فكم له من ليال ... قد ساد فيها البكاء
فزعزع كلّ يوم ... ورُبَّ يوم رُخَاءُ
كم ساء بالموت قومًا ... وما إليه أساءوا
كم راع بالبين أمًّا ... فعينها والعماءُ
كمْ يَتَّم الدهر طفلاً ... فريحه نكباء
وربّ شيخ بكاه ... أطفاله والنساء
ياعالى النفس ... تبكى لفقدك العلياء
قد يتم النيل فينا ... وعزّةٌ والإباءُ
يَابَانىَ الدين لمَّا ... يتمَّ عدُ البناء
ياغارس العلم مهلاً ... حتى يطيب الجناء
ياواهب النفس جودًا ... هل ضاق عنك الفضاء
من ذا يرجى لِكُرْب ... ينال منه العطاء
ياغازى الجهل أنىَّ ... يكون فيك العزاء
يامنقذ الطفل ... قل لى : متى يكون اللقاء !

- **●● العمل بوزارة المعارف واجب لا يجوز الهروب منه مهما كانت الأسباب ..**
- **●● وأخيرا قبلت .. بعد أن أمرنى أستاذى الجليل الذى لا أخالفه ولا أعصى له أمرا ...**
- **●● أنا أريد اصلاحًا للتعليم حتى لو كلفنى ذلك كل حياتى ...**

● أوضحت لك فيما سبق كيف كانت المحاولات المستميتة لنقلى الى وزارة المعارف على غير رغبة منى . وكيف حاولت أنا الهروب والتخلص من تلك المحاولات بشتى الطرق ، وعشت فترة ليست بالقصيرة خاصة عندما وجدت الحاحًا من كثير من أساتذتى الذين أكن لهم كل حب واجلال لاقناعى بقبول العمل فى وزارة المعارف – آنذاك – قائلين لى :

إن قبول العمل بوزارة المعارف واجب لا يجوز الهروب منه ، واستمر التفكير – وإن شئت سمّه التردد – فترة الى أن انضم الى تلك الأصوات صوت أستاذى الجليل الذى لا أخالفه ، بل لا أعصى له أمرًا ، وهو أستاذى الجليل ، العالم الموسوعى ، المرحوم الشيخ أحمد ابرهيم ، فقبلت نقلى – المؤقت – من دار العلوم الى وزارة المعارف ... ونقلت بالفعل الى الوزارة ، وبقيت فى الوزارة سنة أو سنتين ، إلا انه بعد مدة وجيزة جاء نجيب الهلالى وزيرًا للمعارف ، واستدعانى وأنا أفتش فى مدرسة فى الجيزة تليفونيا ، وكان الذى يكلمنى محمد العشماوى باشا ، الذى كان وكيلا للوزارة ، وأنا كنت فى داخل فصل من الفصول ، مع أحد المدرسين ، فاذا بسكرتير المدرسة يقول لى : إن وكيل الوزارة على التليفون ، وكلمته أهلاً وسهلا ، خيرًا إن شاء الله ، فقال : إن الوزير يريد مقابلتك ، فقلت له : شكرا ، وهذا شرف عظيم ، وقلت له : ألا يمكن أن أتمم الدرس الذى بدأته وأعود ؟ فقال : هذا أمر عجيب ! هل هناك أحد يطلبه الوزير فيقول له انتظرنى حتى أتمم الدرس ؟ ما الدرس ، وما المفتش ، عندنا آلاف المدرسين ، ومئات من المفتشين ، لكن الذى يطلبه الوزير ليحضر يؤجل كل شئ ! فقلت له : سأفعل – إن شاء الله – وقد حدث .

● انتقلت بأسرع مايمكن طبعًا فى سيارة . أو مركبة حنطور الى الوزارة ، وقابلت : نجيب الهلالى لأول مرة ، وعندما دخلت عنده حيانى تحية طيبة ، وأشار الى مجموعة من الكتب والمجلات على مكتبه ، وقال لى : أنظر الى هذه . فنظرت اليها ، فعرفت أنها كتب ومطبوعات منوعة لى فقال لى : أنا أريد إصلاحا للتعليم ، وأنا كنت سكرتيرا عامًا لهذه الوزارة سنوات طويلة ، وكان كل وزير يأتى يسأل الذين فى الوزارة ويقولون له : ليس فى الامكان أبدع مما كان اعتقادًا منهم أنهم لو أشاروا الى نقص أو عيب سوف يحاكمون عليه ؛ ولذلك لم يصلح شئ ، وأنا وجدت أن عندى ضمية كبيرة من كليات الجامعة – كانت الجامعة قد أنشئت سنة ١٩٢٧ وأنا الآن أتكلم فى سنة ١٩٣١ – فقال : شكاوى لا حصر لها من بعض طلاب التعيلم الثانوى الذين يدخلون الجامعة بالشهادة الثانوية ، وأنا أصر على أن أصلح التعليم الثانوى .

ولو فعلت هذا وعدت الى بيتى لكان هذا خير ما أختم به حياتى .

سألت الموجودين فى الوزارة من ترشحون ليكون يدى اليمنى فى العمل ؟! وأجمعوا جميعاً على أنه لايوجد غيرك لهذا العمل ، لأنك فى العمل لاتجامل أحدًا مهما كان !

●● كل من فى الوزارة أجمعوا على أنك تقول كلمة الحق ولو كانت ضد مصلحتك .

● وسألت ثانية هل له مؤلفات أو كتب ؟ أو أى أثار مكتوبة ؟ فأتونى بهذا فأطلعت على علمك ، ومن خلاله - أى علمك - حكمت على عقلك . وأستغفر الله أن أذكر هذا .. والله على ما أقول شهيد .

وقال : أما الناحية الاخلاقية فلا تنم عنها كتاباتك هذه ، لأن هذه كتابات علمية .

فسألت الذين فى الوزارة ، فأجمعوا جميعاً على أنك تستطيع أن تقول كلمة الصدق ولو كانت ضد مصلحتك .

وكان المعروف فى ذلك الوقت أن الوزارة فيها أشياع وأحزاب ، ويتناحرون ! فعجب هو من أنهم على اختلاف مشاربهم لم يقولوا شيئا فىّ ! وقال لى : تقبل أن تعمل معى ؟! قلت : أنا سعيد جدًا بهذا ، فقال حسنا .. اختر لك حجرة قريبة من حجرتى . وقال لى أيضا :إقطع الخيط الأحمر The red tape ، وهو رمز إنجليزى لما كانوا يلفون به الوثائق ، عندما كانت تكتب وتلف ، وهو الذى يمثل الروتين . وقال لا تستعمل الروتين معى ، وتطلب مقابلتى عن طريق مسجلى ، أو سكرتيرى ، وإنما وصّل تليفونك معى مباشرة ، وخطواتك بحجرتى مباشرة ، وقال اتفقنا على هذا ! قلت : اتفقنا على هذا .

●● عكفت على الإصلاح وكنت لا أذهب الى بيتى سوى ست ساعات فقط .

فقال : سأتفق مع زميلى وزير الخارجية أن يعطى تأشيرات للسفارات ، والقناصل المصرية فى جميع أنحاء العالم أن يردوا على خطاباتك ، لأنى لا أريد أنك تطلب الكتب الخاصة أو التقارير الخاصة بالتعليم الثانوى ، وتطلبها رسميا من الوزارة ، والوزارة تحيلها للسفارة ، والسفارة تحيلها على السفارات ، فينتهى الأمر ولا تأتيك ! فأنت تكتب مباشرة لسفارة كذا ... وهى عندها خبر أن ترد علىّ مباشرة .

فشكرت له هذا ، وبالفعل كتبت الى كل السفارات والقناصل والجهات التى ليس فيها سفارات شرقا وغربا ، ووصلتنى مجموعات من التقارير - كما طلبت طبعا - من فرنسا ، ومن انجلترا الكتب اللى عن التعليم الثانوى ، وكنت أطلب فى هذه الحالة ثلاث نسخ - فيما يتعلق بالكتب - وأعطى الوزير نسخة ليقرأها ، لأنه صاحب المشروع ، وأنا أقرأ نسخة ، ونسخة

ثالثة لمكتبةالوزارة ، فبقيت ستة أشهر ، انقطعت طبعًا عن التفتيش ، وعكفت فى حجرتى لا أكاد أنقطع عنها الى بيتى أكثر من ست ساعات فى الأربع والعشرين ساعة .

وأقمت أرشيفا ، وبدأت من التعليم الأولى ؛ لأننى لا أستطيع أن أبنىالدور الثالث ولا أدرى ماهو الوضع فى الدور الأول والثانى ! فدرست التعليم الأولى أولا .. وأقمت له أرشيفا ، والتعليم الابتدائى وأقمت له أرشيفا آخر ، وبدأت فى التعليم الثانوى أعدّ ما أصل اليه فى الدراسة خاصة كل أسبوعين ثلاثة أو أربعة ، إلى أن أكوّن فكرة .

وتكون لدىّ للوزير شىء أعرضه عليه ، فأذهب اليه وأعرضه عليه ، ويناقشنى فيه ، ومن الحق أن أقول ان هذا الرجل كان قرّاءً لدرجة أننى كنت أعطيه الكتاب وبه أربعمائة صفحة وفى اليوم الثانى أو الثالث أقابله فيخبرنى عن محتويات الكتاب . وكنت أسأله : كيف قرأته؟ فيقول البركة فيك . فأقول : أنا عندى نسخة ولا أستطيع أن أدعى أننى قرأتها فى يومين ، على كل حال هو كان مسئولا فى آخر الأمر عن سياسة ماسأقرره ، وكنت لابد أن أعرضها عليه ، وقبل أن أكتب كلمة فيها .

وانتهى الأمر بعد ستة أشهر تمامًا أنى قدمت له تقريرًا مكتوبًا ، قرأناه فى ليلة من الليالى، وأمر بطبعه ، وقال : اكتب لى نسخة انجليزية ، وكتبت له نسخة انجليزية ، وطلبت من مسيو ليرت الذى كان عميدًا لمفتشى اللغة الفرنسية فى الوزارة أن يكتب نسخة بالفرنسية أيضا ،كان هذا عملا عظيما وجميلا .

وسوف ننشر هذا التقرير كأحد الملاحق لهذا الكتاب إن شاء الله .

انتشر الأمر وكتبت الجرائد ، وخصوصا الجرائد الانجليزية والفرنسية فى مصر ، ومدح التقرير مدحًا عظيمًا جدًا ، وإذا بالوزر يدعونى ويقول لى : أنا كنت وسيطا بينك وبين أمتك فى يوم من الأيام ، فى أن تؤدى لها خدمة ، وقد أديتها . فأنا أريد أن أكون ذلك الوسيط مرة أخرى ، بينك وبين أمتك ، فى أن أقدم لك مكافأة على هذا .

قلت له : أشكرك كل الشكر ، وينبغى أن أقول : أننى لا أشعر بأنى دائن للأمة بعمل عملته لها ،فأنا لا أريد أن أمنع الخير الذى يأتى على يديك ، وإنى أريد أن أقرر مبدأ وهو أنى فى الستة أشهر التى مضت كنت أتقاضى مرتبى ، ولا أعمل عملا آخر سوى الاعداد لهذا .

فقال : هل كنت تقبض مرتبك على سهرك الى الثانية بعد نصف الليل فى حجرتك هذه ؟ فقلت له : ومن أين كنت تعلم هذا ؟ قال : أنا كنت أعلم هذا وأنا كنت أحضر للوزارة أخيرا وأرى حجرتك هى الوحيدة المضيئة .

فقلت له : أنا أشكرك . فأنا لا أمنع الخير الذى يأتى على يديك . واذا سمحت لى ،

وأرجو أن يغفر الله لى ماسأقوله ؛ لأننى قلما ذكرته . الذى حدث : قال : إذن بناء على هذا أنا كتبت مذكرة بترقيتك الى الدرجة الثالثة ، فقلت له : لاتستطيع . والرجل كان فى غاية الذكاء ، وفهم أنه ليس المقصود مجرد النّفْى . فقال : إذن أنت لست فى الدرجة الرابعة . قلت لا . قال : هل فى وزارة المعارف مفتش فى غير الدرجة الرابعة ؟! فقلت له : لاتستطيع . قال يعنى أنك لست فى الخامسة ؟! قلت : لا . قال : لماذا ؟ قلت : ليس عيبًا علىّ . إنما إذا أردت أن أقول لك مافيه خير لبلدى ، ورفع لشأن الموظفين الذين معى من صنفى ، فهو أن الوزارة لا تربط بين الوظيفة والمرتب . وأنا أشكو من كثرة الوظائف التى عرضت علىّ منذ عدت من انجلترا ، فقدت تقلدت عدة وظائف ، واعتذرت عن عدة وظائف ، ولكن ولا واحدة منها عندما قبلتها قيل مرتبها كذا ! . قال : يعنى انت فى الدرجة السادسة التى تخرجت بها ! والتى يشغلها معك مدرسى المدارس الابتدائية الآن ،ياسبحان الله ، هذا كان يعنى أن هناك من يحمل دكتوراه ، ويدرس للابتدائى ؟ لم تكن هناك ضوابط ، وجاءت المراكز الكثيرة والأجهزة المتعددة التى أنشئت حديثا ، مثل الجهاز المركزى للتنظيم والادارة ، وجهاز المحاسبات ووضعت الضوابط .

وهذا لم يكن له وجود – على أيامنا – ولذلك كانت المسألة اجتهادية ! وأنا قلت له : إن الذى يحصل على الدرجات التى يستحقها فى وزارتنا هذه ، هو الرجل الذى يطرق كل الأبواب ، ويبذل ماء وجهه ، ويتردد على الأبواب ، وأنا أتحدّى أى إنسان ، أن يجد فى ملف أوراقى ورقة واحدة تقول : إننى لو كنت فعلت هذا ، وصرفت وقتى مترددًا على الأبواب لنلت الدرجة الرابعة التى كنت تريد أن ترقينى إليها ، ولكن ماكنت أجد أمامك يوم أن دعوتنى مجموعة الكتب والمجلات التى صَرَفْتُ فيها وقتى .

● ● كيف تعيش إذا كان الأمر كذلك ؟!

فانتهى فى أسف وقال : إذن لا مفرّ من أضعف الايمان ، وهو ترقيتك الى الدرجة الخامسة . وقد حدث مع أسفه الشديد ! إلا أنه إذا سمح لى أن أقول ذلك أيضا ، قال لى : كيف تعيش إذا كان الأمر كذلك ؟فأنا لاحظت عليك أنك تعيش عيشة محترمة ، وصادف أننى كنت مرضت فى أثناء الستة أشهر ، فمرّ على بيتى فى تلك المدة ، كان قد مضى أربع سنوات من حكم إسماعيل صدقى ، ذو الطابع الاقتصادى الذى منع العلاوات والترقيات ، وكانت هناك حقبة فى الثلاثينات لا ترقيات ولا علاوات بل يوجد نقص ؛ وأن كل مرتب ينقص منه شئ باسم رسوم دمغات هى فى الحقيقة سرقات الحكومة .

وكانت العلاوات ممنوعة ، فلم أحصل عليها منذ أربع سنوات أنا ولا غيرى ! إلا من لا أعلم من أمره شيئا ! كذلك لم تكن الترقية تمرّ روتينية عادية .

وقال لى أيضا : فى أثناء ذلك إنى أنا أعجب كيف قضيت كل هذه المدة واحتملتها ؟!
فقلت له : هذا أمر يسير ، لأن مطالب الانسان لابدّ أن تكون فى حدود مقدوره .
قال : أنا لم الحظ عليك مظاهر الفقر .
قلت له : الفقر هو الشعور بالحاجة ، فإذا أردت أن أبوح لك بكل شىء ، وقد بحت بما لم أبح به لإنسان آخر .
فقلت له : أولا : عندما رزقت بأول طفل كان لابدّ لى من علاوة ، وفى العالم كله الأطفال يكون لها علاوات ، وقد درست ذلك فى انجلترا حيث درست النظام الاجتماعى هناك بجميع فروعه ...
فقلت له : أنا احتجت الى علاوة عند ولادة أول طفل . فأعطيت لنفسى العلاوة .
قال لى : كيف ؟
فقلت له : كنت ساكنا فى بيت بمبلغ كبير ، وكان يوجه الىّ لوم كثير عليه ! ويقولون ليس هناك أحد يسكن بربع مرتبه فى بيت إلا الوزراء ! ولكن أنا كنت أفعل ذلك .

وعندما ولدت الطفلة الأولى نقلت الى بيت أقل أجرة بجنيه ونصف ، وشعرت بحنين الى مسكنى القديم .

فقال لى : وماذا فعلت فى الطفل الثانى .
قلت له : قطعت من ثمن تدخينى جنيها فى الشهر . وكانت هذه هى العلاوة لولدى الثانى ...

●● نريد أن نحول هذا التقرير الفلسفى الى خطة وبرامج ..

وما أردت أن أصل اليه بعد هذا : أنه وقد أطلع على التقرير ، قال هذا التقرير : فلسفة .. « فلسفة التعليم » نحن نريد أن نترجمه الى خطة : « تعليم وبرامج » طبعا الذى قلته نظريات .. وبعدين نريد أن نقول : الخطوات العملية بالتدريج .. فقال لى . اقترح علىّ مكتباً فنيا يأخذ هذا التقرير ويدرسه ويترجمه إلى خطة تعليمية وإلى مناهج . اقترحت عليه : خير الرجال الذين فى الوزارة للمواد المختلفة . وأنا أستطيع أن أذكر أسماءهم وهم : الأستاذ / الشيخ أحمد السكندرى ، أستاذى العظيم الذى لا أنساه أبدًا . وقد كان بالمعاش ومنتدبا – ومن سخرية القدر – مساعدًا لى أنا . أنتدبته ليمثل جانب اللغة العربية والدين ، وانتدبت للغة الإنجليزية : « مكدونالد » وكبير مفتشى اللغة الفرنسية « لبرت » وللرياضة « الشيمى » وللكمياء والطبيعة « إبراهيم كحيل » وللتاريخ الطبيعى — ولهذا أهمية خاصة — الدكتور عبد الحميد البنان . وكان هذا عائدًا من إنجلترا عقب تخصصه فى هذا الفرع . وللتاريخ محمد بك

رفعت . وللجغرافيا : محمود بك قاسم . أيضا كان كبير مفتشى الجغرافيا .

ومن المهم جدًا بهذا الصدد أن أول جلسة دعوت اليها ، بعد أن كنت قد وزعت نسخ التقرير على الأعضاء . بدأت بمقدمة نتيجة دراساتى أنا – أهل مكة أعلم بشعابها – أنا عارف ماعرفته من مواضع ضعف ومواضع قوة ، فقلت لهم أنا أستطيع أن أقول إن هذا التقرير يتلخص فى معرفة الداء الذى شكا منه كل كليات الجامعة ، ألا وهو الضعف العام ، وأنا أعزو هذا الضعف الى عدة أسباب ، وهو ما أريد أن أضعه أمامكم الآن . ذلك أن لدينا ست ساعات فى خمسة أيام ، وخمس ساعات فى اليوم الخامس ، وهو الخميس . فلدينا ستة فى خمسة بثلاثين ، وخمسة الخميس خمس وثلاثون ، نظرت الى اللغات ، فوجدت أنّ عدد دروس اللغة ، ويدخل فيها الدين ، ست ساعات ، فى كل سنة ، التعليم فى ذلك الوقت : كان خمس سنوات . اللغة الانجليزية تسع ساعات ، تسع ساعات ... اللغة الفرنسية خمس ساعات ، فأنا جمعت الست ساعات العربية وتسع ساعات الانجليزية ، خمسة عشر درسًا ، وخمسة فرنسيين ، عشرون من : خمسة وثلاثين ... فمنهجنا الذى نسير عليه الآن ، كما يقولون : « من ده على ده.» يعنى من أولى الى خمسة ، فى قلب بعضه ، فأن المتوسط من عشرين ساعة يتعلم فيها التلميذ كل شئ ! سواء كان حسابًا أو جبرًا ، أو هندسة ، أو كمياء ، أو طبيعة إلخ : المتوسط أنه : اللغات استغرقت عشرين ساعة من ٣٥ ساعة ! فالنسبة نسبة مضطربة !! هرم مقلوب ! كان ينبغى انها تستعمل عدد فى القمة ، لها فى القاعدة . إذا كان هذا ماتسغرقه اللغات !!! فما ذا بقى من ألأزمنة ليوزع على بقية المواد ؟ هذه هى المشكلة الحقيقية ، التى أعرضها عليكم ، والتى أرجو أن نجد لها حلاً ، والتى أرجوا أن يسمح لى أن أبدى فيها رأيى»... وبعد ذلك تكلموا : أنا لا أريد أن أتشيع للغة العربية فأزيد عدد ساعاتها ، ولا أريد أن أضل الطريق فأنقصها . فلتبق ست ساعات للغة القومية . اللغة الانجليزية وأنا درست التعليم الثانوى فى جميع أنحاء العالم : من انجلترا الى تشيكوسلوفاكيا ، فلم أجد لغة أجنبية تزيد أوقاتها على أوقات اللغة الوطنية .

إذا تسع تنقص الى ستة . كذلك اللغة الثانية : قليل جدًا من المدارس الثانوية فى العالم الذى يدرس فيه الطلاب لغتين أجنبيتين ...

إقتراحى أنا : أن العربية ست كما هى : تنقص الانجليزية الى ست ! لا أريد أن تنقص أكثر من اللغة القومية !! إنما أنا أرضى أن تكون ستا .

الفرنسية تحذف من أولى وثانية وثالثة ، فلا داعى لها . وفى الرابعة والخامسة : تدخل اللغة الفرنسية للذين سيدرسون فى الجامعة دراسات تقتضى معرفة اللغة الفرنسية .

بهذا تقريبا الجلسة الأولى تكون قد انتهت . لأننى قد اقتصرت المناقشات التى جرت .

●● أزمة سياسية بسبب اللغات !

بعد أربعة وعشرين ساعة ، استدعانى نجيب الهلالى وقال لى : لقد أوجدت لنا أزمة سياسية !! فقلت ماهى تلك الأزمة يا معالى الوزير ؟ فقال : احتج علىّ عن طريق وزارة الخارجية ، المندوب السامى – لم يكن هنا سفارة فى ذلك الوقت – ووزير فرنسا المفوض وقالا : إن أىّ مساس بعدد الساعات التى تدرس فى المدارس المصرية ، من اختصاص الامتيازات الأجنبية .

وهى بمعنى أن شارعًا تريد الحكومة أن تخطه ، وتنزع ملكية مافيه ، فتشترى الأراضى أو المحلات أو الدكاكين أو البيوت ، وتدفع ثمن المتر لما يحدث من استيلاء ، إلا أنه إذا كان فى هذا الشارع خمارة لواحد يونانى وكنت تريد أن تعطيه ثمنها لاتستطيع إلا إذا حصلت على موافقة جميع الدول صاحبة الامتياز . وأنا درست الامتيازات دراسة جيدة ، أصل الدراسة فى أول الأمر كانت تظهر أن الامتيازات هى للدول التى لها بالفعل امتيازات ، يوم قننت هذه الامتيازات ، وفى هذه الحالة تكون انجلترا ، وفرنسا وإيطاليا مثلا ... وقد نشأت بعد هذا ! كيف ترث هذا ! إنما هناك قاعدة للتوسع فى الامتيازات ، وفرشها على أوسع مايمكن ، لدرجة ان كان هناك تنازع الاختصاص فى المحاكم المختلطة ، والمحاكم الوطنية – التى كانت تسمى المحاكم الأهلية آنذاك – فكانوا يقولون إن فى تنازع الاختصاص يرشح على الجانب الاجنبى .!! وهذه قاعدة ... وبناء على هذا دخل فى أصحاب الامتياز : يوغوسلافيا ، تشيكوسلوفاكيا.. واليونان إلخ ..

وهذا جعل على الأقل صعوبة فى أنك لاتستطيع أن تجمع العشرة أو الاحدى عشرة أصحاب الامتيازات من الدول على أن يوافقوا ... يكفى أن يختلف واحد منهم ويقول لا أوافق . فينهى بذلك القضية . فقال لى الوزير : إنهما المندوب السامى ، ووزير فرنسا المفوض يقولان : إن إنقاص عدد الساعات ، سينقص عدد المدرسين ، الذين يندبون لها من انجلترا ، ومن فرنسا – كان الذين يقومون بتدريس اللغات الاجنبية أجانب – وهذا مساس بالامتيازات الأجنبية ، فلا يصحّ أن يقدم عليه إلا بموافقة الامتيازات الاجنبية . بالطبع سخرت من هذا ! كما سخر الوزير نفسه ! وهو يعلم . وانتهينا إلى أن نترك هذا الموضوع ، وأن نسير فى تنظيمنا للتعليم الثانوى ، مع بقاء هذه الساعات .

وصدق أو لا تصدق أن هذا حدث سنة ١٩٣٥ م . وطبق النظام الذى اقترحته ، والذى

سمى الأربع سنوات الأولى شهادة الثقافة العامة . والسنة الخامسة التوجيهية . والذى عرف الشهادة ، باسم شهادة التوجيهية . وكلمة شهادة التوجيهية : إحقاقًا للحق أنا مترجم لها ، من كلمة انجليزية « ORINTATION » لأن انجلترا فيها نظام التعليمSEHOOL EERTEF SEAT » تكفى فى التعليم الثانوى المطلوب لأى جهة ، من زاد سنة فيها : « على سن معينة » يعنى توجيه ، لسبب خاص ، الكلية خاصة ، أو لوظيفة خاصة ، يأخذ شهادة إسمها شهادة التعليم العالى – التعليم الثانوى العالى – فأنا أدخلتها ، وقلت : أن هذه تكون السنة الخامسة ، بعد سنة ١٩٣٦ معاهدة « مونترو » الغت الامتيازات ، عقب معاهدة انجلترا ومصر وافقت عقب إلغاء الامتيازات .

بعد إلغاء الامتيازات عادت الوزارة فصححت أوضاع اللغات الثلاثة ، وتقليل مافيها من جور على المواد الأخرى ... !

وأضرب لك مثلا : التاريخ الطبيعى : وأنا عن عمدٍ ذكرت التاريخ الطبيعى ، وتذكرت الذى مثله وهو « عبد الحميد البنان » لأن له أثرا فى هذا ! التاريخ الطبيعى كان يدرس فى السنة الخامسة فى النظام القديم ، التاريخ الطبيعى ، يعنى : النباتات ، نشأة الحيوانات ، البذور ، إلخ ... حتى تصل إلى أقصى درجات التطور الحيوانى .

أنا بدأت بالسنة الأولى ، بناء على معرفتى بطبيعة الطفولة ، أنا رجل متخصص ، حيث بدأت حياتى تخصصًا فى علم النفس ، وأثبت لهم : أن الطفل أحوج مايكون للعب بنشأة الأشياء نشأة النبات ، نشأة الحيوان ، وأنه إذا بدأ بهذا ! أصبح مفكرًا كبيرًا فى يوم من الأيام . أو أصبح منه عدد يصلح لهذا ، والرأى السائد : للعشرة الذين كانوا موجودين معى إلا إثنين أعلنوا مخالفتى . واقرار ماكان قبل هذا ... التاريخ الطبيعى يدرس لأجل الطب ، والزراعة والبيطرة ... فاذن لا يتعرضون له ؛ إلا يوم يصبحون على وشك الدخول فى هذه الكليات .

أنا لم أنظر إليه من هذه الناحية ..! نظرت إليه على أنه تكوين : عقلى ، نفسى ، للانسان ! ناصرنى على هذا : أحمد على السكندرى ، هذا الرجل العظيم ، الشيخ الكبير ، تكلم فى هذا كلامًا عظيمًا جدًّا ، واحتكمنا الى عبد الحميد البنان ، المتخصص الوحيد فى هذا الفرع . فقال : كذا ... وكذا ... وكذا وأقرر ماقترحه مهدى علام ، وأحمد على السكندرى .

● أين كانت ثقافة هذا الشيخ الجليل ؟!

ومن الطف ما يمكن أنه عقب هذه الجلسة التى أقررنا فيها نقل التاريخ الطبيعى من الخامسة الى الأولى ، استوقفنى عبد الحميد البنان ، وقال لى : هو لم يتعجب أنى أنا قلت هذا :

لأنه هو يعرف أين كانت ثقافتى ، ولا بد أن يكون قد سمع عنى وهو فى إنجلترا : فقال لى : أين كانت ثقافة هذا الشيخ ؟ وعجب من ثقافة الشيخ السكندرى !! **وقال : أتدرى وهو يحدثنا دفاعًا عن نظريتك كنت أراه كأنه يرى التاريخ الطبيعى مرسومًا على خريطة أمامه فينقلها من جهة إلى جهة ، كما تنقل المسافر فى رحلة من بلد إلى بلد .**

هذا كان شهادة عبد الحميد البنان للشيخ الجليل أحمد السكندرى . وقلت له : أنا أعرف السبب فى هذا : إنه كان من كبار خريجى دار العلوم السابقين ، وكان قرّاءً، ومتطلعا ولا يعلم عن شىء له علاقة بالمعرفة إلا اتصل به ، ولو كان بلغة أجنبية أحضر الكتاب الأجنبى وكلف من يترجمه له ، وله كثير جدًّا من المترجمات التى كان يختارنى ويختصنى بكثير من أعمالها ، هذا هو الذى جعله على تلك الدرجة العالية من المعرفة الموسوعية .

●● « السفير » حضر من العراق للتعاقد معى أنا والدكتور السنهورى ...

وبعد هذا الاستطراد : جددت العراق الطلب الذى كان قد مضى عليه أكثر من سبع سنوات . وهى لم تنقطع فى كل سنة أن ترسل إلىّ هذا الطلب . فى ذلك الوقت ، كنت بدأت أميل إلى أنى أسافر . فأولادى مرّوا بمرحلة الطفولة ، وسألت فوجدت أن هناك علاجًا كبيرًا : « لأخت بغداد » فى صيانتها للناس من آثارها ، فرددت بأنى قبلت . فجاءنى خطاب من وزير المعارف : بأن فلانا وكيل المعارف – لتسمح لى ألا أذكر الاسم صيانه لناس رحلوا عنا ولاذنب لهم – قالوا : إن فلانا سيحضر إلى مصر ليتعاقد معك على ما اتفق عليه معك : السيد رشيد الخوجة ، والوضع هو : مستشار لوزارة المعارف ، بمرتب مائة دينار ، وبيت على دجلة ، ومحاضرة فى دار المعلمين العالية بمكافأة خاصة . وأنا قبلت ، وسيتعاقد مع الدكتور السنهورى ، ليكون عميدًا لمدرسة الحقوق .

فى ذلك الوقت كان قد انقضى شهر أو شهران على عملية التصحيح الثانوى ، وجلسات المجلس المعاون لى ، وانتهينا من كل شىء .

●● قرأت فى الجرائد : أن فلانا وكيل الوزارة ، وزارة المعارف بالعراق ، حضر إلى مصر. انتظرت أن يتصل بى ، لم يتصل بى ، وهناك نقطة ثانوية ، وهى أنه عقب انفضاض المولد ، وهو مولد التعليم الثانوى وإصلاحه ، طلب منى الوزير أن أبقى ولا أذهب للتفتيش ، وأن

أبقى فى المكتب الفنى على أنه سيأتيك ألف استفسار . ممن لم يعهدوا للإصلاح معنى ، ويقولون لك :- بتعبيره - قطار الساعة الثامنة يقوم الساعة كام ؟! .

فالبديهيات التى فى التقرير وفى الخطة سيأتيك الاستفسار عنها ... كيف ندرس أربع سنوات ؟ كيف أفعل كذا فى الجغرافيا ؟! كيف أبدأ ذا ..! إلى هذا ..؟! فلا يستطيع أحد أن يرد على هذه الاسئلة إلا أنت . فبقيت .

فى ذلك الوقت : شاع فى النفوس أن مهدى علام أصبح أثيرًا لدى الوزير. وأنه كافأه أولاً - وهذا نشر فى الجرائد - وأنه إلى جانب ذلك استبقاه وظنوا أنفسهم - أعضاء هذا المكتب - أنهم شركاء فى العمل ، مع أننى قضيت ستة أشهر وحدى أقدم التقرير ، وأنهم كانوا للتقييم فقط .

على كل حال جميعًا انصرفوا الى وظائفهم لأنهم كانوا منتدبين إلا اثنين : أصرا على البقاء فى حجرتى ، حيث ان الحجرة كانت واسعة جدًا تتسع للاجتماعات وغيرها ، كما أبقى أنا .. يبقيان ، وأظن أنها نوع من الضعف البشرى فى الغيرة ، وفى أنّ هذا الشاب الصغير الذى هو أنا ، فأنا بالنسبة اليهم كنت شابًا صغيرًا ، يستمتع بتلك المميزات ، التى لم تكن بالنسبة لى مميزات إلا ميزة الدرجة ، فحمدت الله تعالى عليها ، وانتهيت . أنا علىّ شغل أعمله ، بدل ما أعمله فى المدارس من القاهرة الى أسوان ؛ لأن التفتيش فى ذلك الوقت كان يشمل القطر جميعه . لم يكن مناطق كما هو الآن .

وشىء آخر : كان من بين المقترحات ، التى وضعتها أنا كبدائل ، فيما يتعلق بالسنة التوجيهية . أتلحق بكل مدرسة سنة التوجهية أم أن التعليم الثانوى إلى أربع سنوات هو الذى يعطى مايساوى البكالوريا القديمة ؟ ويكفى لدخول المدارس العليا ، أو الجامعة أو أى عمل من الأعمال الحكومية أو غيرها . وأما الذى يأخذ الشهادة العليا ، يكون له ميزة أخرى إذا دخل الجامعة . وهذا هو النظام الانجليزى School Certificate And Higher] [School Certificate

●● إذا دخل الجامعة معه يخصم له سنتان فيلحق بثالثة ، أنا إزاء هذا لم أضع حدًا فاصلاً ! أين توجد السنة التوجيهية ؟ ووضعت مقترحات وبدائل : إما أن تلحق بكل مدرسة ثانوية سنة توجيهية . ويحسن اختيار المدرسين الذين يدرّسون لها ، ويحسن أن يكون بعضهم من الجامعة ، إلى آخره

●● وصل بى الأمر أن ضقت ذرعًا بالدسائس والحسد على غير محسود !

واقتراح آخر: لتكن هناك مدرسة واحدة فى القطر اسمها المدرسة التوجيهية . وكل الذين يريدون أن يزيدوا فى سنوات دراستهم الثانوية سنة يأتون إليها من أىّ جهة من جهات البلاد المجاورة . وتكون داخلية ، ويكون فيها كذا .. وكذا .. وكذا ... درسنا هذا فى أثناء الجلسة ... أى درسنا البديلين . وتركنا للوزير أن يختار . لأن الاختيار النهائى ليس من شأننا نحن ، فكان هناك إثنان : تلوح لهما نظارة المدرسة التوجيهية ! إذا أنشئت كمدرسة مستقلة هدفا عظيما . وظن كل منهما لامشتركين ؛ بل متصارعين ؛ . وأنا جالس أرقب الموقف بكل دقائقه ، وأنا لا أمل لى فى هذا ولا أريده مطلقا ، وإنما أنا شعرت بأن بقاءهما كان موضع السخرية بين موظفى وزارة المعارف – آنذاك – لأن كلا منهما له إدارة كبيرة ... لأنهما موظفان كبيران ، فكانوا يتندرون عليهما فى أنهما لا يريدان أن يبرحا مكتب مهدى علام ، حتى يكافأى كا كوفئ مهدى علام ، لأن العلاوة – بصرف النظر عن كونها علاوة شحاتين – كانت شيئا كبيرا جدا بالنسبة لى . دعنى من هذا ... أحدهما يئس ؛ فانقطع وعاد الى عمله . والآخر لم ييأس وصادف أن حضر وكيل وزارة المعارف العراقية ، وقابل وزير المعارف المصرى : نجيب الهلالى ، وقال له : إن لديه مهمة ولم يذكرها ؛ لأنها لا تخص الوزارة ، والتى هى التعاقد مع السنهورى ، ومع مهدى علام ؛ لكنه كلف أن يزور المدراس المختلفة ، ويكتب عنها تقريرا إلى بلاده . فقال له : وكان حلاّل المشاكل هذا النجيب ! كان مرهقًا ! خجلاً من هذا الذى بقى ولا يريد أن يعود إلى عمله ! لأنه كان قريبا من أقربائه .. أنا لم أُحدد هذا الشخص ، ولن أحدده ، كل منهما مات – فأراد بذكائه وحسه العجيب قال له : ليذهب معك فلان بك – وهو كان صاحب رتبة بك رسمية – ليريك المدراس بأنواعها ، وكلف فلان بك هذا بأن يذهب مع وزير المعارف العراقى فى الزيارات المدرسية ، وهذا كان ينشر فى الجرائد ، ويعلن من مكتب الوزير ، وأصبح فلان بك لا يحضر الساعة التاسعة صباحًا معى للمكتب ! وإنما يحضر الساعة الواحدة . واستمرّ هذا نحو أسبوع ، ولم يتصل بى هذا الوزير وكنت قد ضقت ذرعًا بالدسائس !! والحسد على غير محسود أنا ما كنت أظن أنى أنا نعمة فاضت علىّ لم استحقها حتى أحسد عليها ، فأنا أخذت بعض حقى متأخرا خمس سنوات أو ست سنوات ، ومع ذلك أحسد عليه .

والذى حدث : أنى تنحيت عن وقارى مرة ! وسألت هذا الفلان بك وقلت له : بعد أسبوع مع فلان وكيل الوزارة أما حدث أن تحدث لك عن أنه جاء ليتعاقد معى ؟ على أن

أكون مستشارًا لوزارة التعليم ؟! قال : آ .. آ .. آ .. بسّ هوّة. قال لى : أنت صغير فى السنّ على هذه الوظيفة ، قلت له شكرا . وبعدها فهمت كل شىء . فالرجل لايملك إلا أن ينفذ أوامر ، وعشرات الخطابات التى وصلت إلىّ من وزارة المعارف على مدار عدة سنوات ... وعندى نسخ منها .. هو لايملك أن يقول صغير السنّ على الإطلاق ... وأنا فهمت أن الذى قال له : صغير السن هو فلان الذى يطمع فى هذا المكان »، وخصوصا أنها كانت « مغمسة !! .

●● لو عرضتم علىّ ضفّة دجلة لأحضر الى بغداد فانى لن أفعل .

وفى اليوم الذى حدث فيه الحديث بينى وبين فلان بك ، الساعة الواحدة « روحت بيتنا » تغديت ونزلت على فندق شبرد ، وقد كان هذا الوكيل ينزل فيه وذهبت إلى الاستقبال ، وسألت فلان موجود ؟ فقيل لى : نعم . فقلت : أعطِ له خبرًا بالتليفون ، وقل له إن فلانا تحت بالاستقبال ينتظرك . ونزل على الفور ، ورحب بى ، ورحبت به وانتظرت أن يقول لى شيئا هو ، فلم يقل .

وكما حدثتك أنا أريد أن أقف على أبعاد الموضوع ، وأصل فيه إلى نتيجة ! فقلت أنا أكمل لك القضية : أنا علمت .. أنا كنت انتهيت بقة ... خلعت برقع الحيا ، بدليل إن أنا سألت هل كلّمك فى هذا ... فقلت : أنا أكمل القضية ، قلت له : أنا علمت بخطاب من وزيرك ، أنك مرسل للتعاقد معى ! هل لديك هذه التعليمات ؟! قال نعم .

قلت له: لماذا لم تتصل بى ؟ قال : إن فلانا أخبرنى بأنك أصغر سنًّا وأقل خبرة من أن تتولى هذا العمل ! قلت حسن . وهل أنت تملك القضاء فى هذه الدعوة ؟ قال على كل حال هذا الرجل كان موضع سرّ الوزير ؛ لأنه أرسله معى أنا فى محاولاتى . فقلت : انتهينا . فى ذلك الوقت جاء شاى . قال اتفضل شاى . قلت له الشاى تشربه أنت ! أنا لا أقاسمك قطرة شراب ! ولا لقمة طعام ! إنما أريد أن أحدثك بما أفكر ، فى الموضوع الذى نحن بصدده ، « بلغ وزيرك أنه بعد إلحاحه ، والحاح الذين تعاقبوا عليه ، لأن الوزارة لم تتغير سياسة ، مايأتى : **لو عرضتم علىّ ضفة دجلة نفسها ، لا بيتا على دجلة ، لأحضر اليكم . فانى لن أفعل »** السلام عليكم .

قوة الحقد أرغمتنى على ترك بلدى والانتقال منها .!

ففى اليوم التالى : ذهبت الى نجيب الهلالى فى مكتبه وليس على أنا أن استأذن . فمن أول الأمر قال لى : « اقطع الشريط الأحمر » سلمت عليه ، وقلت له : أنا آت إليك ، لا شاكيًا ،

ولا مستعطفا ، وإنما مخبرا بحديث يجب أن تعلم به ، أنا لا أشتكى لأن الشكوى تدل على نحو من الحاجة أو الضعف ، ولست ولله الحمد فى حاجة ، ولا فى حالة ضعف . أنا أقوى ما أكون الآن ، وأنا أحدثك ، قال لى : تفضل فقلت له : فلان . كان حاضرا ليتعاقد معى ، على وظيفة كذا .. بعد عرضها علىّ والإلحاح فى قبولها طوال عشر سنوات المتوالية ، وكل سنة أعتذر الى أن قبلت . فأرسلوه إلى لتنفيذ هذا التعاقد . فلما قابل فلانا الذى عهدت إليه معاليك برافقته فى زيارة المدراس وتحدث إليه فى هذا الموضوع ، قال له : إن فلانا أصغر سنا ، وأقل خبرة من أن يتولى هذا المنصب .

وعند ئذ : تأتى حصافة نجيب الهلالى ، وسرعة بديهته ، وقدرته على الحلول الارتجالية ! فقال لى : ولماذا تريد أن تهجرنا وتتركنا ، أنت مللت منا ! قلت : لا . قال : لا . لا . لا . إذا كان لابد أن تسافر غاضبا منا ، فلتذهب الى بلدتك القديمة ! وفتح درجه ، وأخرج خطابًا ، وقال : لدىّ خطاب من وزير الخارجية ، يطلب منى اختيار أستاذ للانتداب لجامعة « مانشستر » عليك وعلى بلدك القديم ، انت طول عمرك تحب انجلترا ، وعيشتك فى إنجلترا عيشة طويلة ، وثقافتك ثقافة انجليزية ، روح بلدك القديم .. تحب تروح ! تحب تروح ؟ قلت : نعم . أحب أروح . قال لى : ماشروطك ؟ قلت لا شروط. ألا تريد شيئا ؟ القوم يطلبونك ونحن الذين سنوافق ! فنحن الطرف الآخر ! ألا نكتب شيئا ! – أنا كنت فى منتهى التعجب ، وعجبت أن الله سبحانه وتعالى ينقذنى بهذه الطريقة – فحمدت الله ولم أطلب شيئا !

●● حياتى كلها فى عملى .. فاذا كان عملى كله هذه الدسائس فلا .

وقد حدث أنه فى يوم الأربعاء التالى لذلك اليوم من نفس الأسبوع – الأربعاء من كل أسبوع كان موعد اجتماع مجلس الوزراء دائما – صدر قرار مجلس الوزراء بانتداب مهدى علام أستاذا بجامعة « مانشستر » بدون أىّ شروط ، بعد ذلك دعانى وقال لى : أنا أخذتها فى حموتها ، عشان انته عارف أنك كنت زعلان، وأنا حبّيت أرضيك ، لكن نقدر نعمل ماتريد طلبه ، قلت له أبدًا أنا يكفينى أن أترك مصر الآن بعد ما حصل لى فيها ... مصر ليست إلا وزارة المعارف ... هوه أنا لى (نادى كلوب) أو عزبة ثانية ... ودى أنا حياتى كلها كانت فى عملى ... فاذا كان عملى كله هذه الدسائس « فلا » ...

●● بعثتى الى انجلترا لم تكن مغنما كما يتصور بعض الناس !

وبهذه المناسبة أريد أن أقرر : أن انتدابى إلى جامعة « مانشستر » كان له صورة غير التى

يعهدها الناس . فأنا لم أكن مأجورا من إنجلترا ، ولم أجمع مليما واحدًا من انجلترا . إنما كان انتدابى تبادلا ثقافيا ، جاء عن طريق المجلس البريطانى ، حيث يرسلون أستاذًا انجليزيا يدفعون له مرتبه ، ليقوم بنشر الثقافة الانجليزية فى المعهد الذى نختاره نحن ، ونرسل لهم نحن أستاذا مصريا ندفع له مرتبه ليقوم هو بنشر اللغة العربية والتاريخ الاسلامى بهذا المعنى ! فأنا أقرر هذا ، لأن الناس يظنون أن فى إقامتى فى إنجلترا ، خصوصا بعد هذا الذى حدث كان فيها مغنم مالى ،نعم فيها مغنم كبير جدا أقل مغنم فيها أنى كشفت الدنيا المثقفة على أولادى الذين ذهب أحدهم ابن سنتين والأخرى بنت ثلاث سنوات ، وحصلا على ثقافة رفيعة جدًّا وزوجتى كملت ثقافتها هناك ، وعشنا محبوبين مسرورين سعداء . والحمد لله .

بينى وبين علوبة

طرف بعضها فكاهى والآخر جاد جدًّا

الموضوع الذى رأيت أن أتحدث فيه اليوم : يرجع الى سنة ١٩٣٦ ، عندما كنت مديرًا للمكتب الفنى لوزارة المعارف ، عقب صدور القرار بندبى لجامعة « مانشستر » ولكن كان هناك متسع من الزمن ، لأن ذلك الوقت الذى يكون فيه العمل فى جامعة : « مانشستر » هو اكتوبر ...

أنا أتحدث الآن عن شىء فى نحو إبريل من سنة ١٩٣٦ م . فى ذلك الوقت كان هناك : وزارة توفيق نسيم باشا ، وكان عضو وزارة المعارف هو المرحوم محمد على علوبة باشا ، وكان بينى وبينه طُرَفٌ ، بعضها جاد ، وبعضها فكاهى ، ذلك أنه عندما أتى الى الوزارة كان المفروض ؛ أن الوزارة جاءت لترجع الدستور القديم دستور ١٩٢٣ محل دستور إسماعيل صدقى ١٩٣٠ .

وبمجرد أن جاء هو إلى الوزارة تدفقت المدارس الى وزارة المعارف مُضْرِبَةً لترحب به ، فكان يخرج إلى منصة الوزارة على السلاملك المطل على فناء الوزرارة ويخاطبهم ، وطبعًا كنا نحن فى الحجرات التى حول حجرته نخرج تبعا له . فكنت اسمعه لابتهاجه بحضور هؤلاء الطلاب ، الذين كانوا مبتهجين بأنهم مضربون ، كانت تغلب حماسته أحيانا – مايصح أن أقول – حكمته ، فى أنه كانت تبدو منه ألفاظ تشجع على الإضراب للحضور لتحيته ، وأنا أشفقت عليه من هذا ؛ لأنى أعلم بعملى المتواصل فى وزارة المعارف ، أنه لايمكن أن نسمح للطلاب أن يظلوا مضربين إلى أجل غير مسمى . ففى أول يوم تدفق فيه عدة مجموعات من الطلاب الذين حضروا مدرسة تلو الأخرى ، عندما انتهى ودخل الوزير حجرته ، وجدت مندوبى الصحف فى أيديهم أوراق فيها هذا الارتجال : فدعوتهم وسألتهم أين تذهبون بهذا المكتوب فى أوراقكم ؟ فقالوا للنشر طبعًا فى صحفنا !! فقلت لهم : لم يجر النظام على أنّ الوزير كان يرتجل شيئا يكتب

دون أن يطلع عليه ، فلا بد أن يطلع عليه ليقره . ولم يكن يعلم شيئا ، ولم يكن قابلته مطلقا ! وهم كانو يظنون أن مهدى علام فى ذلك الوقت له شأن كبير فى الوزارة ! فقالوا : ماذا نفعل ؟ قلت لهم أعطونى هذه الأوراق وتعالوا بعد ساعة ، وأخذتها أنا وعدت الى حجرتى وخففت منها ... وعدلت فيها بما يليق أن يقال : وأعطيتها لهم بعد ساعة ، واستمر هذا العمل عدة أيام . إلى أن شاء القدر أن محمد بك على علوبة باشا يتحدث فى بيته ، فاذا ابن له كان تلميذا فى انجلترا ، فى فرقة الأسطول الذى ذهب إليه عدد من تلاميذنا فى سن الحادية عشرة ، والثانية عشرة ، ولا يعودون إلا بعد سبع سنوات ، أو ثمانى سنوات ، وكان لهم شهر فى كل الصيف إجازة من المدرسة البحرية التى يتعلمون فيها ، وأرادت الوزارة حرصا على هؤلاء الأطفال ألا ينسوا العربية ، أن يكون معهم فى أثناء الشهر أحد الطلبة الكبار ، الذين يتصلون باللغة العربية ، وشاء الحظ أن أكون أنا أحد الذين جلسوا إلى هولاء التلاميذ ، وكانوا يدعون بعمّى فلان . وكانت الظروف تتناول اللغة العربية كتابة ومحادثة الى آخره .. وكان لعلوبة باشا ابن منهم ، فذكر هذا الابن لأبيه فى ليلة من الليالى – بعد أن تولى هو وزارة المعارف – اسمى فسأله أبوه : وأين يوجد هذا ؟

فقال : عندك فى الوزارة ، ففى اليوم الثانى دعانى ، وعاتبنى عتابا لطيفا ، على أنى لم أحضر اليه لأعرفه بنفسى .

فأنا قلت له : أنا فى الحقيقة ، فى مركز ليس دائما فى الوزارة ؛ لأنه عقب صدور قرار تعديل نظام التعليم الثانوى ، طلب منى الوزير السابق الذى أصدرت التعديل فى عهده ؛ وهو نجيب الهلالى ، أن أبقى لكى أؤدى الفتوى لمن سيأتون إلى يسألوننى عن أشياء كثيرة جدًّا مما استحدثته فى نظام التعليم الثانوى ...

ولكن الحقيقة أنى أنا صدر قرار مجلس الوزراء بانتدابى لجامعة « مانشستر » أستاذا زائرا فى نظام التبادل الثقافى .

فقال لى : ولهذا لم تحضر تقابلنى وتحيينى ؟

قلت : لا . لأنى أعتقد أنى لم أكن أهلا لهذا !

قال : أنا أريد أن أراك أكثر من هذا ! وأنا علمت أنك أستاذ لابنى ، ولذلك أرجو أن تتصل بى أكثر من ذلك .

فقلت : أنا فى خدمتك . ثم انتهزت هذه الفرصة واعترفت له : بما كنت أفعله بخطبه .

وقلت له: أنا أرجو أن تصفح عما ارتكبته فى غيبة عنك ، فإننى عندما رأيت تفضلك

وسماحتك ، وتدفقك ، وأنت خطيب مصقع ؛ لأنك محامى مشهور ، فكانت بعض الألفاظ تدل على تشجيع الطلبة على الاضراب والحضور ، وأنا لا أشكّ أن هناك هيئة معارضة ، وجرائد معارضة ، ستحضر لك يوماً من الأيام هذه العبارات التى صدرت عنك ، عندما تصدر أنت أوامر بفصل هؤلاء الذين يضربون . وهذا أمرٌ لابد منه ، لايمكن أننا نترك الأولاد هذه المدة . من أجل ذلك فعلت أنى ادعيت أن من حقك أن تطلع على هذه الخطب المرتجلة وتعدل فيها ، وفى الحقيقة أنت لم تطلع عليها . والذى فعلته : هو عملى أنا ! فقال لى : هذا عجيب حقيقة خصوصا أنى كنت أقرأ فى اليوم التالى : كلامًا ناقصا ، فكنت أجد فيه تغييرا كثيرًا ، وكنت أنسب ذلك الى الصحافة .

قلت له : أنا فعلت هذا : وأنا اعترف لك بهذا .

قال : حسنا فعلْت . لأنى فى الحقيقة ، أدركت فيما بعد أنى كنت كثير الحماس فى دعوتى ، وقد حدث .

بدأ الطلاب يستمرئون هذا الاضراب ، وقال لى : هو فى يوم من الأيام لا بد أن نهددهم بالفصل ! **فقلت له :** لا سيدى الوزير إذا أذنت المسألة تأخذ ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نصيحة ممن كانوا يسمونه أبا للتلاميذ وكانوا يسمونه بالفعل أبا للتلاميذ . فنصيحة منك فى أنهم يلتفتون الى دروسهم ، والذين لاينتصحون هذه النصيحة ، قرار بالتهديد ، بأن من لايحافظ على هذا أو يغيب ، لابد أن يحضر خطابا فيه اعتذارا وتعهد من ولىّ أمره لناظر المدرسة .

ثم تأتى الخطوة الثالثة : للذين يغيبون بدون عذر مقبول يفْصلون .

●● مهدى يكتب ، والوزير يوقع فقط .!

●● قلت لزوجتى : « ورثى هذا الخطاب لأولادى ، أنا لم أورثهم شيئا له قيمة : لكن هذا الخطاب له قيمة عظيمة ، ورثيها لهم » .

حدث أن كان للوزير ولد تلميذ فى مدرسة القبة الثانوية ، وانطبق عليه المنشور الذى أرسلته للوزارة فى أنه لا يعود إلا بعد أن يوقع والده على تعهد أن لا يجاوزها مرة أخرى . كان ناظر هذه المدرسة محمد عبد الهادى ، الذى كان أخيرا وكيلا لوزارة المعارف ، فأرسل من ضمن الذين أرسل إليهم خطابا إلى وزير المعارف باعتباره والدا وولىّ أمر هذا التلميذ .

ففى صباح يوم عندما دخلت لحجرة الوزير قال لى : انظر ماذا فعلت . هذا ناظر المدرسة

يطالبنى بأن أكتب تعهداً بأن لايُضْرِبَ إبنى والا كنت أنا المسئول عنه .

قلت نعم . هذا حسن جدًا . والذى أنصح به إذا تفضلت أن تكتب له هذا التعهد ، لأن هذا مما يصلح شئونه .

وقال لى : تولّ أنت الأومر واكتب له التعهد وادعنى لتوقيعه فقط ، وقد حدث هذا .

ليس خطابا
ولكنه وسام شرف لى ولأولادى

بعد هذه المرحلة دعانى إلى أن أقبل أن أكون مديرًا لمكتبه وكان فى ذلك العهد مدير مكتب الوزير لايتسم بصفة علمية رفيعة ، وإنما كان من شأنه أن ينظم حضور الزائرين ، عتبت عليه وقلت له : أبعدما قلت فىّ ما قلت تطلب منى أن أكون مجرد مشرف على مكتب ينظم مواعيد الوزير وأنسى ماحصلت عليه من مراتب علميه رفيعة جاهدت من أجلها عمرًا كاملا ...

قال لى : لا . لا . لاأريد هذا . أنا أريد أن تكون صلة بينى وبين الوزارة !

حقيقة الأمر أن محمد على علوبة باشا لم يكن له عمل قبل الآن بالحكومة مطلقا ، وإنما كان محاميا حرًا . من أجل ذلك لم يكن يعرف نظم الوزارات ولا ما يشبه ذلك ، وكان فى ذلك الوقت كلام كثير عن الدسائس فى وزارة المعارف ، وكان يخشى ذلك .

فقال : إنى لا أعرف الوكلاء ولا مديرى العموم ، وأنا أرجو أن تكون بينى وبينهم ، كل شىء يريدون أن يعرضوه علىّ يعرضوه عليكَ وأنت تأتى بعد أن تدرسه وتعرضه علىّ . فقلت له : أشكرك على هذه الثقة . ولكن أنا أعتذر عن قبولها لعدة أسباب ، أقل مافيها أنك ستعزل نفسك عن رجال الوزارة ، وهذا ليس من شأن الوزير ، من شأن الوزير أن يكون متصلا بكلّ الوكلاء ، ومديرى العموم ، والرؤساء الذين يعرضون هذه المسائل عليه .

ثانيا : أننى لايمكن أن أكون فنيا فى كل مسألة من المسائل حتى أستطيع أن أبدى فيها رأيا ، وإنما آخذ آراء الذين يعرضون علىّ وأقدمها إليك على أنها رأيى ! وهذا ليس سليما و مقبولا من وجهة نظرى .

ثالثا : هذا النظام إذا كنت قد قبلت أن يقوم به شخص لك فيه ثقة سواء كانت حقيقية أو غير حقيقية ، فإن الوزارة ليست دائمة ، وأبقى الله لك حياتك ، وأبقى لك كل شئ تريده .

فإذا جاء وزير وعلم أنك كنت تفضل هذا الفعل واختار هو رجلا سلمه قيادة الوزارة ، فإن هذا الشخص ربما لايكون على المستوى المفهوم ، أى المطلوب ، فيحكم الوزارة باسم الوزير وأنا أرجو من أجل هذا أن تعفينى من هذا الاقتراح .

فقال لى : أنا علمت أنك منتدب لجامعة « مانشستر » وأنك بناء على ذلك ترفض لأنك تريد أن تعتمد على هذا القرار الصادر من مجلس الوزراء ، وتنسى أن مجلس الوزراء من الممكن أن يصدر قرارًا أخر بعدم سفرك !

قلت له : أعلم ذلك تمامًا ، ومستعدّ لأن أتقبله ؛ لكن لا أقبل أن أكون مديرًا لمكتب أى وزير من الوزراء ... فضحك وقال : إذا نتوسط الأمور التى يعرضها على هؤلاء الوكلاء ، أعرضها عليك أنا ونتدارس فيها قبل أن أفصل فيها .

قلت له : هذا تحت تصرفك. لأنى أنا مازلت موظفا فى الوزارة قال : إذن تحضر لى فى البيت تتعشى معى ، وبعد العشاء نتدارس هذه المسائل .

قلت له : فى أى وقت تتناول معاليك العشاء ؟

قال : فى الثامنة مساءًا .

قلت : حسنا جدا . أظن نصف ساعة يكفى ، وبعدها تشربون القهوة ، فاذا أذنت لى أن أحضر لأشرب القهوة **معك** :

فقال : ولماذا لاتحضر للعشاء ؟

قلت : لأن لى أسرة شبيهة بأسرة معاليك ، وأريد أن أتعشى معها .

قال : وهو كذلك . وانتهى الأمر بقبول هذه الفكرة ، إلا أن شاءت الانقلابات السياسية أن تعرّض الوزارة للاستقالة ، لأنها لم تنجح فى إحضار دستور سنة ١٩٣٠ فعلم بذلك وقال : إننا سنقدم الاستقالة بعد أيام ثلاثة ، أو أربعة ، فقلت له : طبعا هذا عمل يسرك أنك قمت فيما قمت به، وأنه يكون فى سبيل خدمتك ، فقال أنا أريد أن أفعل لك شيئا .

فقلت له : حسنا شكرا . شكرا . ماذا تفعل بعدما تترك الوزارة ؟! **قال :** أذهب الى مكتبى .

قلت له : حسنا . لقد عاملتنى وأنا معك فى الوزارة معاملة الأب لابنه ، فاذا أذنت لى أن أزورك أحيانا فى مكتبك . لتعاملنى معاملة الأب لابنه ، فان هذا أكبر شرف لى .

قال : أنا أريد أن أفعل شيئا ! فهمت أنا منه : أن الوزارة فى ذلك الحين عندما يعلمون

أن الوزارة على وشك أن تستقيل يأتون بالمأثورين بالخير عندهم ، ويعطونهم درجات أحيانا مرتين ، أو ثلاثة ، أعلى مما يستحقون .

مما فعله نجيب الهلالى فى آخر وزارة له قبل الثورة ، طلب إعادة جميع الاستثناءات التى حصلت مهما كان تاريخها ، وقرأنا أيامها فى الجرائد ، بعض الذين فى درجة وكيل وزارة ، وعادوا الى الدرجة السادسة أولى درجات الوظائف ، وقرأنا فى الجرائد أيامها أشياء مخجلة !!

فقلت له : أنا أشكرك وأنا لا أطمع أن معاليك تضع اسمك على ترقية فيما تسمونه فى القانون فترة الشك ، وهى الفترة بين تقديم الاستقالة وقبولها . وأرجو الا تزج باسمى أنا أيضا . لقد شرفتنى فى معاملتك لى طوال المدة التى قضيتها معك ، فدعنى من هذا الشرف .

فقال لى : أنا أشكرك وأنا أمدح فيك هذا . ولن أفعل شيئا أكثر من ذلك .

ثم أرسل خطابا فى نفس اليوم الى مايسمونه مجلس شئون الموظفين خطاب يحفظ فى سجلىّ ، وطلب إرسال نسخه منه لى : واطلعت عليها ، وأنا أقول هذا مع الاستحياء : ذكر فيها : بعد أن كتب كلمات طيبة قال : وجدت فيك حكمة الشيوخ ، وحماس الشباب ، وأرجو أن يحفظ الله عليك نعمة أخلاقك ،

محمد على علوبة

وأنا خجلت أن يظهر هذا الخطاب ، لأنه لو ظهر لظهرت أحقاد كثيرة ، لأنه لو كان دون ذلك من قبل فى أيام نجيب الهلالى أثار أحقادًا كثيرة ! فسكتّ على هذا ولم أعلنه لأكثر من والدى ، ووالدتى ، وزوجتى .

وقلت لزوجتى : ورثى هذا الخطاب لأولادى ، أنا لم أورثهم شيئا له قيمة ، لكن هذا الخطاب له قيمة عظيمة ورثيها لهم .

حدث بعد هذا ، أن جاء الوقت الذى سأسافر فيه الى انجلترا لأن اكتوبر قَرُبَ فكان هناك نادى دار العلوم ، وأنا طبعا كنت عضوًا فى النادى ، ونائب رئيس تحرير الصحيفة ، فأقاموا حفلة متواضعة فى باخرة من البواخر ، فيها غداء وتكلم أحدهم بما شاء أن يتكلم عنى فى توديعى .

من بين هؤلاء الذين تكلموا الاستاذ نجيب بك حتاتة أحد كبار رجال وزارة

المعارف ! وطلب الكلمة ، فلما تكلم أخرج من جيبه صورة هذا الخطاب وقال أنا أريد أن أتلو عليكم خطاباً بخل مهدى علام بأن يعلنه للناس ، وتلا هذا الخطاب ، وطبع فى أعمال الحفلة ، فى ذلك اليوم فى صحيفة دار العلوم .

هذا كان آخر أعمالى مع محمد على علوبة باشا ، وبعد ذلك سافرت لمدة تقرب من سبعة عشر عاما ... ولما عدت فى أواخر سنة ١٩٤٩ . فى ذلك الوقت كانت باكستان قد استقلت . وكانت مصر تريد أن تقيم علاقة معها دبلوماسية ، واختير محمد على علوبة باشا ، أول سفير لنا هناك ، علم هو من الجرائد أنى عدت فى الاسبوع الأول من عودتى ، كلمنى فى التليفون ، وقال لى : أنا مسافر سفيرًا فى باكستان . أتسافر معى ؟! فشكرته ألف شكر ، وقلت له : عدت بعد غياب سنين طويلة . وأنا أريد أن أرعى أولادى فى مدارسهم الآن ، شكرا لك . وهذا آخر ما كان بينى وبين محمد علوبة باشا رحمة الله عليه .

●● وزير التربية والتعليم وفضيحة لم تتم بعد !

● قد تضعف الذاكرة الآن بعد مضى رحلة طويلة ، ولكن بعض الحوادث – التى حدثت أثناء عملى بوزارة التربية والتعليم حاليا – لها من العمق مايبقى على الرغم من طول الذكريات ، ومن ذلك مثلا :

● **إشرافى على امتحان الثانوية العامة حاليا ، والتوجيهية من قبلها .**

كنت بحكم عملى عميدًا لكلية الآداب أختار الرئيس العام لهذا الامتحان المهم : الثانوية العامة ، ومن قبلها التوجيهية بضع سنوات . وكانت تحدث فى هذه المرحلة أحداث كثيرة جدًا ... منها مثلا : أنه كان هناك نظام اسمه نظام « الثلاث سنوات » المقابل للـ : « خمس سنوات » عندما كان الامتحان فى خمس سنوات ، امتحان الثانوية العامة وامتحان التوجيهية ، كان يشمل الـ : « خمس سنوات » بعض الذين لايكونون قد أدوا امتحان الكفاءة الذى كان يشغل ثلاث سنوات من هذه السنوات الخمس ، كان يضطر فى أثناء الامتحان الأخير أن يأخذ مقرر سنتين فى سنة واحدة .

فمن ذلك مثلا : أنه كان هناك نظام القسم العلمى للذين حصلوا على دبلومات صناعية ولم يتقدموا للامتحان ، وأن يؤدوا الامتحان فى مقررات مضاعفة فى السنتين .

●● رئيس اللجنة أخطأ لأنه لم يوجه الأسئلة للحاضرين معه !

كانت اللجنة فى بنها ، وقبل يوم الامتحان المخصص للمادة التى يكون الحديث عنها جاءنى تليفون من رئيس اللجنة ، يطلب منى أن أرسل له مندوبا من قبلى فسألته لماذا ؟! فوجه الحديث وجهة أخرى ... يبدو منها أنه لايريد أن يصرح لى عما حدث فى التليفون ، فقدرت له هذا ، وأرسلت له نائب رئيس الامتحان - أستاذ فاضل - هو المرحوم الاستاذ إمام ناصف ، وكيل الوزارة قبل وفاته ، وكلمنى فى التليفون بعد ذلك وقال: إنه سيحضر بنفسه ، وفهمت من هذا أن أمرًا خطيرًا قد حدث ولا يُريد أن يذيعه على السنة الناس من عمله بالتليفون .

فلما جاءنى أخبرنى : أن ستة من الطلاب الذين يؤدون أمتحان القسم العلمى كان عليهم أن يؤدوا امتحان اللغة الفرنسية فى ورقتين ، ورقة للسنة الأخيرة ، وورقة للسنة السابقة ، وأن الذى حدث أن رئيس الامتحانات عندما ذهب للدولاب الذى فيه الأسئلة - كما تعلم - وفتحه واستخرج فى هذا اليوم - الذى حدث فيه هذا - ظرف ورقة الاسئلة على اعتبار أنه للسنة الثانية لهذه الفرقة ؛ ولكنه أخرج ورقة السنة الثالثة ، وأسوأ من هذا أنه أخطأ فى أنه لم يوجه الأسئلة للحاضرين معه .

القانون يقضى بأن رئيس الامتحان لايفتح الدولاب الذى فيه الأسئلة إلا بحضور لجنة فيها وكيل اللجنة ، وأستاذان من المراقبين ثم انه عندما يفتح الدولاب ويأخذ الظرف - قبل أن يفتح الظرف - لابدّ وأن يعرض لما هو مكتوب عليه على اللجنة ، وكذلك بعد أن يفتحه ، وذلك خشية أن يكون فى الظرف أوراق خطأ ، وهو لم يفعل شيئًا من ذلك ، فى عجلة أخذ هذا ووزع الأسئلة على هؤلاء الستة الذين كان عليهم أن يؤدوا امتحان السنة الثانية فى الفرنسية ، ووزع عليهم أسئلة السنة الثالثة ، ومن سوء الحظ أن الذين كانوا يراقبون على هؤلاء الستة، كانوا وحدهم، لأن اللجنة كبيرة جدًا، ولكن هؤلاء الستة — لأنهم يعاملون معاملة خاصة لظروفهم ، لأنهم حاصلون على دبلومات المدارس الصناعية - كانوا فى حجرة مستقلة ، وكان الذى يراقب عليهم اثنان : أحدهما مدرس لغةَ عربية . والآخر مدرس رسم .

أذكر هذا لسبب وهو أن الأولاد وجدوا صعوبة فى الأسئلة فاستشاروا المراقبين الموجودين ، ومن سوء الحظ أن هذين المراقبين لا علم لهما باللغة الفرنسية . هذا مدرس لغة عربية ، وذاك مدرس رسم . فلما تحرج الأمر ذهبوا إلى رئيس اللجنة ، فجاء رئيس اللجنة وظهر أن الامتحان للسنة الثالثة لا السنة الثانية .

فجمع الأوراق منهم على الفور ، ولكن كان قد مضى نحو نصف ساعة - وشمّعَها وأدخلها المظروف مرة أخرى ، ووزع عليهم أوراق السنة الثانية . وكلمنى فى التليفون إلخ . وهو طبعًا

كان لايريد الإفصاح عن هذا ؛ وذلك لأن ورقة السنة الثالثة ستكون للغد ، وليست لهم ، وإنما لمئات فى بنها . وللآلاف فى الجمهورية من أولها إلى آخرها .

●● كل مايهمنى أن اتعامل مع الخطأ نفسه :

وكان لابد من عمل شىء لأنه لو فضح الأمر ، وعلم أن الامتحان قد كشف لأُجّل امتحان اللغة الفرنسية فى اليوم التالى ....

هذا إلى جانب أنه رابك ربكة شديدة جدًا ، أقل مافيها أنه يقتضى أن جميع المراقبين فى جميع أنحاء الجمهورية وخارجها – فى أيامها كان فيه هناك امتحان خارج الجمهورية أيضا فى الأردن وفى السودان – كل هؤلاء لهم أيام محدودة بمكافأة محدودة ، وبدل سفر محدود ، وكان لابد من تأجيل بقائهم يومًا ، الى جانب هذا كان لابد من تأليف لجنة فنية لوضع أسئلة جديدة فى اللغة الفرنسية وطبعها ، ثم توزيعها على ثلاثين أو أربعين لجنة فى أنحاء الجمهورية من أسوان إلى الأردن .

فكان علىّ أن أتصرف بما يصون حرمة الامتحان وكرامة الحكومة ، وكرامة الدولة ؛ لأن هذا تهديد سيادى ... لم يهمنى أن أتعامل مع هذا الذى أخطأ – ليس هذا وقت هذا التعامل – ولكن أتعامل مع الخطأ نفسه .

ومن حسن الحظ أنه كان لى صديق عزيز – رحمة الله عليه – وهو الاستاذ إمام ناصف ، الذى كان مديرًا لكثير من المناصب ، وأخيراً كان وكيلا لوزارة التربية لمنطقة دمياط ، وهو رجل يعتمد عليه ، لمعرفتى به معرفة وثيقة قديمة ، فطلبت منه أن يسافر إلى بنها بسيارته وأن يتخذ الاجراءات التالية :

أولا : يستوثق من أن ورقة الأسئلة التى كانت قد كشفت لم تكشف لغير هؤلاء الطلاب الستة .

ثانيا : أن يحتفظ بهولاء الستة على أنهم جواهر غالية لايتصلون بأحد – وهذا أمر عسير – واتفقت معه على أنه يستبقيهم ليلة الامتحان فلا يخرجون من اللجنة ، فالمدرسة فيها مبيت على شرط أن يحتاط ، ويأخذ على كل منهم إقرارًا فى أن بقاءهم فى اللجنة كان بناء على رغبتهم ، لأنى طبعًا أعلم قانونا بأن ليس من حقى وليس لى سلطة وكيل النيابة فى التحفظ عليهم ، فأنا أخذت هذا التعهد على كل منهم ، وذلك لأنهم نظرًا لرغبتهم فى البقاء فى المذاكرة مع زملائهم فضّلوا البقاء هذه الليلة فى المدرسة .

ثالثا : أن يتصل بأهل هولاء الستة ليبلغهم بأن أولادهم يرغبون فى البقاء حتى لايقلقوا عليهم لعدم مبيتهم معهم . فَجنّد رجَالاً من الموظفين وأخذ عناوينهم وأرسل لكل عنوان خطابا منه باسمى ، طبعًا الرئيس العام له سلطات كبيرة جدًا حتى فى الوزارات غير التربية والتعليم ، لأن سير الامتحان لابد وأن يسير سيره الطبيعى ، وأنا كلما كنت أقع فى أزمة وأريد أن أوكل فيها من يسمع كلامه ، أعطيها لنائب الرئيس ، وأن يكون له السلطة التى لى ، وأنا أعطيت للمرحوم : إمام ناصف لقب ناب الرئيس ، وهو قد كتب الخطابات اللازمة ، واستوثق من أن الأهالى مطمئنين على أبنائهم .

ومن حسن الحظ أن هؤلاء كانوا شبانا كبارًا لأنهم من خريجى المدارس الصناعية ، فكانوا ساروا مدة طويلة فى التعليم الصناعى . ثم أرادوا أن يلتحقوا بالتعليم الجامعى ، فتقدموا لامتحان الثانوية العامة ، ففيهم رجولة ، وتحمل للمسئولية ، وزيادة على هذا طلبت منه أن يوفر طعامهم غذاء وعشاء وفطورًا فى اليوم التالى ، وأن يوفر لهم كل شىء وكل وسائل الراحة بما فى ذلك كتب المادة التى سيمتحنون فيها فى اليوم التالى – إذا لم تكن جاهزة عندهم – حتى يذاكروا فيها فى أثناء المساء – وحقيقة كان إمام ناصف نموذجيا فى هذا العمل ، وهو ساعدنى فى عدة امتحانات فى الثاوية العامة ، والتوجيهية عندما كانت تقوم الأزمات ذهب الأستاذ / إمام ناصف والتقى بهؤلاء الستة ، وطلب منهم مايسمى وعد الشرف .

بأنهم يحتفظون بما جرى على أنه خطأ حدث ، وعدم هدم الامتحان فى ثلاثين أو أربعين لجنة فى الجمهورية وخارجها . وعدم إعادة الامتحان والأسئلة خدمة عظيمة لهم ولزملائهم وللوطن ، وطلب منهم ألا يتصلوا بأحد ، وأن يبيتوا فى حجرة وحدهم . وفرش لهم الفرش اللازم لهذا ، وأعدّ لهم الأطعمة على أفخم مايمكن ، وأعلمهم أنه أرسل إلى أهلهم ليطمئنهم على أنهم سيبيتون بالمدرسة ليستكملوا المذاكرة . الى جانب هذا رجوته ، أن يتصل بى تليفونيا كل نصف، ساعة ، لأطمئن على ماتم فى نصف الساعة السابقة . إلى أن ينتهى اليوم الذى نحن فيه ، ويبدأ اجراءات التحفظ عليهم ، وكلفته أن يأمر رئيس الامتحان الذى تصادف وأن اطلع على أسئلة اليوم الآتى – لاأدرى أيفهم شيئا أم لايفهم – ولكن لابد بما أنه اطلع عليها فلا بدّ من التحفظ عليه أيضا .

طلبت من إمام ناصف أن يتحفظ عليه، وأن يبيته فى المدرسة ، الى جانب هذا طلبت منه أن يكونّ ثلاث فرق من المراقبين ، كل فرقة من أربعة أفراد وهؤلاء مهمتهم السهر طوال الليل ، كل فرقة ساعتين ، ويتبادلون ليتأكدوا من الستة المحجوزين هم وحدهم . ومن أنّ الناظر المحبوس موجود وحده ، وبعد انتهاء الساعتين ينصرفون .... وهكذا ... إلى أن يصبح

الصباح . وأن يبيت هو هناك أيضا ليشهد الصباح الثانى الذى فيه توزيع الأسئلة المشئومة ؛ لأننا نريد عندما تفتح هذه الظروف أو يعاد فتحها ، لأنها كانت قد فتحت ، وتوزع على الناس جميعا ولا تحدث ضجة خصوصا فى الأرياف ، لأنه لو حدث هذه الضجة فى الأرياف وانتشرت لكانت كارثة كبرى ، وبالفعل بقى هناك .

وقلت له أيضا : لا تعد من هناك إلا بعد أن يتسلم المراقبون أوراق الإجابة عن ورقة اللغة الفرنسية الأولى واطمأننا عليها ، بعد ذلك بيوم ، كان آخر امتحان يوم واحد ، فسافرت أنا إلى بنها، وطلبت مقابلة هؤلاء الستة ، فوجدتهم – وجدت فيهم هذه الرجولة – وشكرتهم على تعاونهم مع الأزمة التى قامت ، ووعدتهم أننى على استعداد لمعاونة أى واحد منهم فى أىّ شىء أستطيع أن أعاونه فيه . هم طبعًا بالقسم العلمى ، وأكثر آمالهم إما أن يلتحقوا بكلية الهندسة ، أو بكلية العلوم . والذى حدث فعلاً أنى أعطيتهم عنوانى ، وكنت عميدًا لكلية الآداب فى ذلك الوقت ، وحضر الىّ بعد ذلك منهم اثنان وشاء الله سبحانه وتعالى أن يمكننى من أن أساعد كلا منهما فى الكلية التى طلبها ، حيث قابلت عميدها وأخبرته بأننى أهدى إليه رجلاً فيه أخلاق ، واعتمدت عليه فى أزمة كانت هناك ، ومن مصلحة الدولة أو الأمة أن يشجع مثل هذا الرجل .

●● لما فهم الوزير ... واقتنع شكر لى حسن تصرفى !

وعندما انتهت هذه اللجنة حمدت الله تعالى ، ولم أخبر وزير التربية والتعليم بذلك إلا بعد يومين ، وكان السيد كمال الدين حسين هو وزير التربية والتعليم فى ذلك الوقت . وانتهت هذه الأزمة بعد أن علم بها وزير التربية والتعليم – بعد يومين من حدوثها – وكأنه غضب لأنه لم يعلم بما حدث فى نفس اليوم ، ظنا منه أن ذلك يصلح الأمور ، فأفهمته أن هذا الأمر لو بلغه أو بلغ أىّ إنسان آخر لافتضحت المسألة ، وكان كل مايهمنى أن ليس فقط كرئيس للامتحان فقط ! بل ماوراء ذلك من أمور كثيرة مثل كذا.. وكذا . ولما فهم واقتنع شكر لى حسن التصرف .

معركة أسوان كيف ؟ ولمـــاذا ؟

وأزمات الامتحانات والتعليم كثيرة كثيرة قد لاتنتهى ، وأذكر أزمة تحضرنى الآن ، وهذه الأزمة بالذات كنت أطلق عليها : معركة أو موقعة أسوان ! ذلك أنه كان هناك نظام يقتضى أن الطلبة الذين يمتحنون إذا كانوا منقولين من مدارس حكومية يمتحنون فى مقرر السنة الثالثة

فقط . وأما إذ كانوا قد درسوا السنوات الثلاث التى تؤهل لامتحان الثانوية العامة فى مدارس حرّة استيفاء من أنهم لم ينطبق عليهم نظام السنة الثالثة ، وإنما كانوا قد درسوا فعلا ... وكانت ورقة الامتحان الخاصة بالسنة الثالثة – الثانوية العامة – تشتمل كل ورقة فى كل مادة على سؤال من مقرر السنة الثانية ، يرفع سؤال من الاسئلة ، التى وردت بالورقة ، ويوضع مكانه سؤال من السنة الثانية ، يعنى مثلا فى الجغرافيا : يوضع سؤال ، فى التاريخ ، فى الكمياء ، فى الطبيعة فى كل مادة .

حدث فى أثناء سير الامتحان بعد مضى يومين أو ثلاثة أن خاطبنى هاتفيا رئيس لجنة أسوان ، وقال لى : بأنه بمراجعة الأظرف التى كان قد تسلمها ، وجد أن يوم الجغرافيا لديه ثلاث ورقات فى الأظرف ناقصة أسئلة فى السنة الثانية .. يعنى بعبارة أخرى لديه ثلاثة طلاب يتسلمون يوم الجغرافيا الذى كان هو كما أعتقد كان يوم الأربعاء ، كل منهم ورقة فيها الأسئلة العامة ، محذوف منها سؤال ، وموضوعًا بدله سؤال آخر من مقرر السنة الثانية . وقال لى : أنا ينقصنى الورقة التى فيها هذا السؤال !

●● فى تلك اللحظة بالذات أتعامل مع الخطأ نفسه لا مع المخطىء !

هذا تقصير منه هو فى تسلم الأوراق من المطبعة السرية ، أو تقصير من مدير المطبعة السرية عندما سلمه الأوراق ، على كل حال كما ذكرت لحضرتك من قبل : أنا كنت لا أهتم بمسئولية المخطئ ، إنما أهتم بمعاملة الخطأ الذى وقع منه .

ففى الأحوال التى يحدث مثل هذا فيها ، وكثيرًا مايحدث ، لدىّ أنا من الأعضاء الاحتياطيين من أرجوه القيام بالمهمة الى المنصورة ، أو الى الأسكندرية أو الى سوهاج ، لكن الوصول الى أسوان فى ذلك الوقت لم يكن ممكنا فى نفس اليوم ! كان القطار يصل فى اليوم التالى ، بعد الساعة الحادية عشرة التى هى بدء امتحان ورقة الجغرافيا ، أخذت أدبر الأمر ، فمن حقى أن ألجأ لوزارة الحربية لتعطينى طيارة .

●● الأستاذ / غيث أنقذ ماعجزت وزارة الحربية عن إنقاذه !

اتصلت بوزارة الحربية ... وزارة الحربية على استعداد أن تعطينى طيارة ولكنهم قالوا لى : ليس هناك مكان تهبط فيه الطيارة فى ذلك الوقت ، فلا نستطيع أن نعطى طيارة لتهبط فى مكان غير معد للهبوط .

اشتدت الأزمة فعلا ، ولم يكن هناك باق غير اليوم الذى أنا فيه ، واليوم الذى فيه الامتحان .! فكرت .! وأجهدت فكرى ! ووفقنى الله سبحانه وتعالى إلى مايأتى :

اتصلت برئيس التليفونات ، وكان اسمه الاستاذ غيث - بارك الله فيه - إذا كان موجوداً . ورحمه الله إذا كان قد سبقنا إلى العالم الآخر ، وقلت له : أنا أريد خدمة فى التليفون غدًا .. خاصة جدا جدا ، وذلك للقيام بعمل يخص الامتحان العام . وطلبت منه أن يضمن لى أن الخط ما بين تليفون المطبعة السرية ، تليفون اللجنة فى أسوان يكون خاليا غدًا من الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق ، الى الحادية عشرة وخمس دقائق ، ولا يكون هناك من يشغل هذا الخط فى تلك الفترة على الاطلاق . وسأتولى أنا فى هذه الفترة عمل التصحيح اللازم ، فتفضل السيد رئيس التليفونات وقال : هذه خدمة عامة لا أشك فى أننى مستعد بحكم القانون أن أنفذها ؛ ولكن هل لى أن أسأل من المتحدث معى ؟

فقلت له : مهدى علام . فقال فى سعادة غامرة أنا من تلاميذك يا أستاذى الجليل وأنا مستعد لأن أفعل ذلك ولو مجاملة لك أنت شخصيا . وتأكدت منه أنه سيبقى لى الخط من الحادية عشرة إلا عشر دقائق إلى الحادية عشرة وخمس دقائق .

واتصلت أنا برئيس اللجنة فى نفس اليوم فقلت له : أنت فى الساعة العاشرة وخمسين دقيقة تكون فى حجرتك ومعك ثلاثة من الأساتذة ، وفى يد كل واحد منهم ورقة الاسئلة التى ستوزع على الطلبة فى الحادية عشرة، وتعمل بهذا محضرًا رسميًا بأنك فتحت الظرف واستخرجت منه ثلاث ورقات ، وأعطيت ورقة لكل من فلان ، وفلان ، وفلان ويجلسوا معك فى الحجرة ، وسأخاطبك أنا فى الحادية عشرة وأقول لك : ارفع السؤال رقم كذا .. من الورقة . فتعلن أنت للجالسين معك : نرفع السؤال رقم كذا ... من الورقة .

وأقول لك : أكتب مكانه فتقول بصوت مرتفع يسمعه الثلاثة الجالسون معك : واكتب مكانه : ثم أملى عليك السؤال الوارد من مقرر السنة الثانية تكتبه مكانه .

وأقول : أغلق المظروف ، تغلق المظروف - عندئذ - تكون الساعة لا تتجاوز الحادية عشرة وخمس دقائق . ثم تأخذ هذه الأوراق وتعطيها للثلاثة الذين تلزمهم هذ الأوراق .

والحكمة فى اختيار سلامة الخط من الحادية عشرة ألا يكون هناك من يعطلنى أو يطلع على ما سأقوله . وأيضا بقاء سرية الأسئلة إلى الحادية عشرة وخمس دقائق . هذا مضمون لأنه لايسمح لأى طالب فى أىّ لجنة من لجان القطر أن يدخل بعد الحادية عشرة بخمس دقائق ،

وأقصى ما يسمح به : دقيقة أو اثنتين . أما بعد خمس دقائق فيمنع الطالب من الدخول نهائيا . فلو فرضنا أن أحدًا استمع على التليفون من أى جهة من الجهات نص هذه الأسئلة وأعطاها لأى شخص يدخل الامتحان لايمكن أن يسمح لهذا الشخص أن يدخل اللجنة التى يدخلها أيا كان إذا مرّ عليه خمس دقائق بعد الحادية عشرة .

فأنا كنت ضامنا سرّية الاسئلة فى الدقائق الخمس المشروعة . فقد حدث هذا فى الحادية إلا عشر دقائق ، ظلّ معى رئيس اللجنة أتحدث معه لأضمن أن الطريق خالٍ تمامًا – نتحدث فى أى شأن من الشئون – الى أن حانت الساعة الحادية عشرة أخبرنى أنه أعدّ الاساتذة الثلاثة ، وأجلسهم إلى جانبه على مسمع منه ، عند ما يسمع منى ما أقول وأكرره ، وبتوفيق من الله العلىّ القدير تم كل شىء حسبما رتبت وأردت ، والحمد لله أولاً وأخيرًا .

ضيق أفق الرئيس سبب الأزمة !!

كان أيضا من أزمات الامتحان الكثيرة والمتكررة ، أزمة أسيوط ، هذه الأزمة كانت بسبب أن لجنة مدينة أسيوط كانت فى مكانين . فى كل مكان لجنة ، ولها رئيس ومساعدون إلى آخره ؛ ولكن فى بدء الأسبوع ومن حسن الحظ أن هذه الأزمة بالذات ، كان لى متسع من الزمن فى التصرف فيها ، وبلّغت من أحد الرئيسين أن لجنته لا تتسع لعدد التلاميذ الذين أرسلنا القائمة بأسمائهم، فهناك نحو عشرين تلميذًا ليس لهم أمكنة ، وأنه عرض على زميله فى اللجنة الأخرى أن يقبل نقل هؤلاء الطلبة العشرين – لايزال الامتحان لم يبدأ بعد – كل هذا كان قبل يوم السبت ومن السبت عادة تحدث الأزمة .

عندما حدث هذا فمن حسن الحظ كان فى الأسبوع السابق للامتحان . قال لى : إنه تحدث مع زميله فى أنهم ينقلون اليه أسماء هؤلاء العشرين ، وهذا تصرف حميد ، ولكن زميله رئيس اللجنة الأخرى رفض التعاون .

وهذا شىء لا أريد أن أعلق عليه بأكثر من أنه نوع من ضيق الأفق ... أو بالأحرى عدم التعاون ، من ذلك الرئيس الثانى ، الذي لديه مكان يتسع لكل هذا ، ولكنه آثر السلامة فى أن يكون نشاطه خاصا بالعدد الذى عنده ، وألا يزيد مسئوليته باضافة عشرين تلميذا آخرين . فلجأت إلى صديقى المنفذ الاستاذ / إمام ناصف رحمه الله – مرة أخرى . هذا كان حلال المشاكل ، المنقذ من الأزمات ، فطلبت منه أن يسافر إلى أسيوط ، وأن يحاول نقل هؤلاء

الطلاب إلى اللجنة الأخرى بأىّ وسيلة ، وأنه سيكون معه خطاب أنه القائم بعمل الرئيس العام كى يستطيع أن يفرض سلطته على أى انسان .

ثم قلت له : إن أمامك ثلاثة أيام ستسافر الأربعاء ويكون أمامك بقية الأربعاء والخميس كله والجمعة قبل بدء الامتحان - يوم السبت !! - وفى هذه المدة نَقْلُ عشرين اسمًا من جهة الى جهة أخرى ليس مشكلة، المشكلة نقل العشرين تلميذًا الذين وصلتهم الخطابات الرسمية أن يكون امتحانهم فى هذا المكان ، وأن يصبحوا يوم السبت فيكونوا في أماكن امتحانهم .

فقلت له : مهمتك فى بقية الأربعاء والأيام التالية حتى يوم السبت أن تنشر بجميع الوسائل الممكنة ، فى المدينة والقرى التى حولها ، أن عشرين طالبا أسماؤهم كذا سيمتحنون فى المكان الفلانى ، بدلا من المكان الفلانى ، وستكون تحت تصرفك جميع أجهزة وزارة الإعلام والاذاعة المحلية ، ثم تقيم المنادين - كما كان فى النظام القديم - فى كل حىّ وفى كل قرية ، وفى كل نجع . وقد يتسع الوقت لكتابة لافتات بالمدن ، ولكن فى القرى لابد من الاستعانة بالمنادين !

● ● ضيّق الأفق ادعى أن لديه المكان وليس عنده مقاعد .!

وتفضل أنه نفذ كل شىء ، وكان على اتصال بى كل ساعتين ، أو ثلاث ساعات ، فيقول : فعلت كذا إلى أن أقنع رئيس اللجنة الأخرى أن يوجد كراسى أجرها لهؤلاء العشرين ؛ لأنه كان يدّعى أنه لديه مكان ، وليس لديه المقاعد ، فأجر المقاعد ورتب كل شىء ، ثم كتب قائمة بأسماء هؤلاء العشرين على لوحة ، ووضعها أمام اللجنة التى كانوا سيمتحنون فيها ، وكتب عليها أسماء هؤلاء الذين سيكون امتحانهم فى الشارع الفلانى ، فى الجهة الفلانية ، والطلاب عادة يحضرون قبل الامتحان بيوم ليطمئنوا على أسمائهم وأماكنهم خصوصًا فى الأرياف ، فيجدون أسماءهم قد نقلت إلى أماكن أخرى ، ثم كتب قائمة بأسماء هؤلاء العشرين على الوجه ووضعها أمام اللجنة التى كانوا سيمتحنون فيها . وكتب عليها هؤلاء سيكون امتحانهم فى الشارع الفلانى فى الجهة الفلانية ، والطلاب عادة يحضرون قبل الامتحان بيوم ليطمئنوا على أسمائهم وأماكنهم - خصوصا فى الأرياف - فيجدون أسماءهم قد نقلت إلى أماكن أخرى ، ومثل هذه الأسماء توضع أيضا فى لافتة كبيرة على الجهة الأخرى، واتخذنا كل الوسائل اللازمة والممكنة للإعلام بشكل جيد عن عرضنا .

●● كيف حضر الأتوبيس وبه طالب واحد من العشرين أصحاب الإشكال ؟!

ويبقى أخونا المنقذ الأستاذ إمام ناصف فى أسيوط إلى يوم السبت صباحًا ، وفى يوم السبت صباحًا اتفقت معه على أنه يستحضر معه أتوبيسا يحمل حوالى عشرة من الناس ، ويقف به أمام اللجنة التى كانوا سيمتحنون فيها ، بحيث لو أخطأ أحد ، ولم تصل إليه المعلومات فعاد إلى اللجنة القديمة ، قلت له : تجمعهم فى هذا الأتوبيس وتنتقل به فى الثامنة وخمس دقائق وهذا من حقنا مادام سيذهب إلى اللجنة الأخرى، ليس بعد الثامنة وخمس دقائق . وتذهب وفى صحبتك أنت الذى تسلم هؤلاء . فحدث هذا ، ومن حسن الحظ حضر الأتوبيس ولم يحضر إلا طالب واحد كان فى قرية نائية ، ولم يعرف فأخذه فى سيارته وسلمه للجنة بنفسه !

واتصل بى تليفونيا وقال : إن كل شىء تم على أكمل وجه - بتوفيق الله سبحانه وتعالى - ولم يحدث أىّ اضطراب فى هذا .

أما ما اتخذته من إجراءات بعد هذا بشأن الذى تسبب فى الإشكال ، فهذا عمل إدارى محض لا يعنينى الغوص أو الخوض في تفاصيله !

أزمة ستات وغش بنات !

واستنفد هذا الجزء من الذكريات - الخاصة بالتعليم وأعمال الامتحانات - خصوصا أنه موضوع لم يطرأ مرة أخرى ، فمن الحظ ، ومن فضائل السنّ علىّ أننى أعفى من إعداد الامتحانات أو الاشتراك فيها .

والأزمة التى أتعرض لها الآن هى أزمة بنات ! فقبل بدء الامتحان التحريرى بنحو عشرة أيام ، وبالطبع أنا أجتمع فى مقر عملى فى مدرسة الابراهيمية فى: « جاردن سيتى » ومعى نائب الرئيس ، والكنترول، والهيئة التى تتعاون معى ، فوصلنى خطاب مسجل مستعجل بدون توقيع معروف ، ويقول : إن بنتا اسمها كذا ستؤدى الامتحان فى لجنة شبرا الثانوية التى فى أول شارع شبرا خلف مخزن الترام ، وهى معدّة لمجموعة من الاساليب غير المشروعة للغش ، ووجدنا من الأمانة أننا نخبرك باعتبارك رئيسا عامًا للجان لهذا الامتحان والسلام عليكم ورحمة الله ، تتبعت الأمر ، الخطاب كان موقعًا باسم فاعل خير ، طلبت اللجنة طبعًا، اللجان فى ذلك الوقت توجد رؤساء الامتحانات للاستعداد ، طلبت رئيسة الامتحان وقلت لها : سأحضر للتحدث إليك فى أمر يخص الامتحان .

قالت : تفضل . استصحبت معى نائب الرئيس لأننى من عادتى أنى لا أسمح بأن حجرة يغلق بابها علىّ ويكون فيها سيدة دون أن يكون هناك شخص آخر . أيّا كان هذا الشخص ، أو هذه السيدة ، حتى وأنا عميد تحضر لى فى حجرتى إمّا طالبة ، وإما مدرسة ، أو أستاذة ، أو ولية أمر ، فكان على سكرتيرى بتعليمات منّى أنه بمجرد أن يسمح لشخصية كهذه أن تدخل إلا ويكون هو فى الحجزة نفسها ! وينشغل فى بحث أوراق أو نحو ذلك ، حتى لا يظهر أنه حضر خاصة بحكم الرقيب ! لأن هذا لايليق بمقام الحاضرة ولا بمقامى أنا ! .. ولكن الموضوع فى ذاته ، وإنما عليه بشغل نفسه بأىّ شىء آخر ، وأتذكر أنه مرة اعترض علىّ أنه كان من تلاميذى العظماء ، قال لى : ألا تدرى من أنت ؟ وما سمعتك ؟ حتى تحتاط كل هذا الاحتياط .

● **فقلت له :** نعم أدرى تمامًا من أنا وما سمعتى ، وهذا هو الذى جعلنى اتخذ هذا الاحتياط ، لأنها لو كانت سمعة غير ذات أهمية لما ساءنى مايجرى فى شأنها ، أما لأنها بهذا الذى تعتقده أنت ، فمن أجل هذا أدفع أى ثمن فى سبيل المحافظة عليها .

● ● سوف أقابل رئيسة الامتحان منفردًا !

ومن أجل هذا ، وفى هذه المرة بالذات أخذت معى نائب الرئيس وأفهمته السبب الذى من أجله اصطحبته وقلت له : أنا سأقابل رئيسة الامتحان منفردًا ، وأنا لا أريد أن أفرش هذا الموضوع ، أريد أن ألمه ، فلا يعرف به أحد سواى ، وأنت معى ، وهى فقط ؛ لأنها هى التى سأتفق معها على الإجراء اللازم فى حدود تصورى ... فذهبنا واستقبلتنا وطلبت منها أن ندخل إلى حجرتها ، وطلبت إليها أن تطلع على الخطاب ، وقلت لها : أنا أريد الآن أن أتخذ كل الاجراءات التى تمنع هذه الجريمة – لأن هذا تبليغ عن جريمة قبل وقوعها – واجراءات منع وقوع مثل هذه الجريمة واجبك أولا . فقلت لها : بحسب اسم هذه التلميذة فى كشف الاجلاس أين يقع مكانها ؟ طبعًا عندها رقم جلوسها ، واسمها ، والخريطة التى فيها مكان الجلوس – قمنا فعلمنا أن هذا الاسم سيكون مكانه رقم كذا ، على هذا الكرسى .

● ● المسألة أكبر وأخطر من أن تنشر .!!

فقلت لها : أريد أن تختارى إحدى المتحنات ممن يكون لك فيهن ثقة ، وتبلغيها أنها تلتزم مكانا يطل على هذا الكرسى الذى تجلس فيه هذه الفتاة ، وأن تظل تراقبها ، فإذا كان سيرها سيرًا عاديًا لا تمسّها بشىء حتى لاتسبب لها اضطرابا – قد يكون هذا الخطاب كيديا أو خطأ – أما إذا وجدت أىّ شىء أو اشارة تتحرك على أن هناك محاولة للغش ، وعليها تبليغك فورًا ، وعليك أن تتصرفى وتبلغينى بعد هذا .فقالت أشكر لك وأقترح أن توافقنى على تعديل

قليل فيه . ماهو ؟ قالت : أن أكون أنا القائمة بهذا العمل ، لا مدرسة من عندى . المسألة أكبر وأخطر من أن تنتشر .

وبالنسبة للمدرسة ربما مدرسة تعلم أخرى ، ومدرسة أخرى تخبر غيرها وهكذا ... وهكذا ....

ويجتمع الكل على النظر إليها ، وتشعر البنت أن العيون مسلطة عليها ، وقد تكون هذه البنت بريئة ، من أجل هذا قالت : أنا كرئيسة الامتحان من حقى أن أمرّ أو أقف فى أىّ مكان ، فأنا سأتخذ المكان الذى اخترته أنت لأراقب ، وأتصل بك يومًا بيوم – وقد حدث – ولم يحدث أن هذه الفتاة ظهر منها أىّ شىء يثير الشبهة ! فأغلقت أنا القضية بهذا ولكنى علمت فيما بعد أن هذه كانت مكيدة من بعض زميلات البنت يردن الإساءة إليها ففعلن هذا .

فحمدت الله تعالى على نتيجة احتياطاتنا ، وإذا كان هناك شىء يمكن أن يضاف الى هذا ، فهو أن هذه الناظرة أو رئيسة الامتحان عندما انتهى كل شىء جاءت إلى وقالت لى : اسمح لى أن أقدم نفسى إليك أنا فلانة ... وفلانة هذه فى حكم من أكون أنا عمها وأن والدها من أعزّ أصدقائى ، صحيح أنه مضت مدة منذ صغرها ولم أعرفها .

فقلت لها لماذا لم تبلغينى هذا عندما ذهبت إليك ؟ فقالت : أردت أن أعمل تحت إشرافك باعتبارك رئيسًا لاعلاقة لى بك ، والآن أردت أن أشرح لك أننى تلقيت تعليماتك كمرءوستك !!

● ● خطاب توجيه .. لا خطاب إذلال !!

من الأشياء التى أحب أن أذكرها بمناسبة الامتحانات فهو أنه يوجد للكنترول رئيس تحت إشرافى أنا ، ففيما يتعلق بالكنترول أول عام انتدبت فيه رئيسا عامًا للامتحان للتوجيهية ، اختير لى من ضمن الطقم الذى اختير لى رئيس للكنترول ، فأنا لم يكن لى خبرة ... فأنا نفسى كنت جديدًا على العمل ، وهذا شىء لا اعتراض لى عليه ، وطبيعى العمل متواصل مشترك ليس يوميا فقط ، ولكن كل ساعة مع رئيس الكنترول ، لأنه هو الذى تصل إليه كل الشكاوى من ناحية الأسئلة ، لاحظت عليه أنه مفتون بمركزه كرئيس للكنترول ؛ لأنه بصفة عامة يكون ناظر مدرسة أو مفتشًا فى الحالة العادية ، فهذا العمل أو الموقف له فى تصوره سلطة — لم تكن تعنينى إلا فى أحيان — إذا حدث من أىّ عضو من أعضاء الامتحان — غالبا رؤساء الامتحان — أى هفوة أو خطأ قد يكون تقصيره فى الإعلام عن غش فى لجنته فى وقتها أو تقصير فى نص التقرير الذى يكتبه ، أو أى شىء من هذا القبيل ! وهذه كلها أمور طبيعىّ أن

تحدث ! أنا أتعامل مع مئات من أعضاء الوزارة ، فكنت ألاحظ مثلا لو أن رئيسًا من رؤساء اللجان ضبط حالة غش يقضى القانون أن يكون قد حذر الفاعل مرة قبل أن يقبض عليه ، وأن يثبت هذا التحذير السابق فى التقرير الذى يقدمه لى ، وأن يأخذ إقرارًا منه بأنه حذِّر ، ولم يحذّر .

هذا إجراء طبيعىّ أحيانا يصادف أن أحد رؤساء الامتحان فى عجلة عندما كتب التقرير وأرسله مع أوراق الغش ، نسى أن يذكر أنه حذر الطالب من الغش ، فإذا برئيس الكنترول يأتينى مبتهجًا ويحرر له خطاب لفت نظر ، أو يحرر له محضر لفت نظر ، أو رفد من الامتحان ... لا . لا . ويعد الخطاب بعبارات عنيفة ! ويوقعه ويعده لكى أوقعه أنا ... أو أعتمده لأننى الذى أملك أن أوجه الخطاب ، فأنا قلت أستبقى هذا الخطاب ولا أرسله ..

ولما تكرر هذا منه فى خطابات أخرى خمسين أو سبعين رئيس كل يوم يأتى ثلاثة أو أربعة ، أو خمسة ، منهم يحدث مثل هذه الهفوات ... ولما سألنى لماذ لم ترسل خطابك ؟! قلت له لأنها خطابات لا تليق بالمرسل اليهم .!

●● كيف يكون التنبيه فى خطاب رسمى ؟!

فالمرسل اليهم هذه الخطابات زملاء لى ، وأنا مازلت أحد رجال التعليم ، ووضعى فى هذا المكان لايمنحنى سلطة أن أستعلى على زملائى ، هؤلاء نظّار مدارس ثانوية ، أو كبار مفتشين . وهؤلاء لهم سطوة كبيرة . فكونه يقع تحت سطوتى أنا فى فرصة من الفرص فأنبه فى خطاب رسمىّ كيف يكون هذا ؟! لايمكن أن يحدث منى مطلقا . فقال : لكن لابد أن ينبهوا . قلت : هذا من حقك . لابد أن ينبهوا ، أما طريقة التنبيه فتختلف عما اقترحته أنت .

ثم اخترت أنا صيغة مهذبة رقيقة تليق بمقام هؤلاء الاساتذة ، وسميتها : « خطاب توجيه » وفى أرق مايمكن من الألفاظ والعبارات بين المتساوين ، وأكاد أعتذر له عن أنّ شيئا كهذا ندّ عنه ، وليأذن لى بأن أوجه النظر فى هذا راجيا أن يكون على احتياط فى المستقبل .

وكتب الخطاب « خطاب توجيه لا خطاب إذلال » ، واشتهرهذا بينهم لدرجة أن كثيرًا منهم كان يأتينى ويقول : أنا أريد خطاب توجيه ، لأنى وجدت الصيغة بتاعته صيغة جميلة جدًّا ويسرنى أن يصلنى خطاب توجيه منك كهذا !!

الشىء الآخر بل الأمر الآخر الذى يخص الكنترول ، أنى أحطت - بعد المرة الأولى - فى السنوات التالية أن أختار أنا رؤساء الكنترول . كنت أختاره أنا ويكون غالبا نوعا من المستويات الرفيعة .

•• نظام وضعته من ثلاثين سنة ودكتور سرور يفتخر أنه استحدثه اليوم !

كانت هناك قاعدة مثبتة – فى نظام الامتحان وأوراق الاجابة – أن الورقة التى تضيع يعطى صاحبها الدرجة النهائية فى المادة .

هذا عمل سمعنا به فى الابتدائى ، والثانوى ، وفى العالى ، فأنا لم أقبل هذا ، واتفقت فى سنة من السنين ، أول سنة بعد هذا الرئيس للكنترول ، لأن هذا كان من النوع الذى لايتفاهم معه .

اتفقت مع رئيس الكنترول على أن الأحداث التى منها أوراق ناقصة ، ماذا يحدث ؟ بعض التلاميذ يتعمد أن يعدم ورقته أو **كذا الدكتور** حتى يضمن أنه يحصل على الدرجة النهائية ! ولذلك شُرِعَتْ مسألة أن الطالب عندما يسلم ورقته يوقع أمام المراقب أنه سلم الورقة أمام المراقب ، حماية للمراقب أولا فى أنه تسلم الورقة ، وكبحًا لمن يريد أن يسلم الورقة ويخرج . واتفقت مع رئيس الكنترول على أنه فى الحالات التى تكون فيها أوراق ناقصة أننا ننتظر حتى يتم تصحيح المادة التى فيها هذا النقص ، تفرض أن ولدًا ورقته فى الجبر ، أو فى الكيمياء لم تحضر ، لأى سبب من الأسباب ، وأنا فى هذا الوقت الحرج لاأهتم بالأسباب .. فكنت أرجو من رئيس الكنترول أن يحضر لى كشفا بدرجات الفرقة التى منها هذا الاسم ، كل الطلبة فى فرقته فى الجبر ، فأختار أعلى درجة وأعطيها له ، أما أنه يأخذ الدرجة العليا فلا . وأما أنا فأعطيته أحسن فرصة ممكنة ، وهى أنه أحسن فصله ... فاذا كان فصل منه من أخذ تسعين فى المائة من الدرجة يأخذ هو ٩٠ ٪ أما أن يأخذ ١٠٠ ٪ فهذا مالا يمكن أن أوافق عليه .

ولقد سرنى وقد مضى على هذا التقرير أو تلك القاعدة ثلاثين عامًا ، ومنذ أسبوعين أو ثلاثة كنا فى اجتماع ، وكان فيه وزير التعليم ، دكتور فتحى سرور ، وكان يفتخر أنه استحدث نظاما لم يكن معمولا به . فسألته ماهذا النظام ؟! فقال : إن صاحب الورقة الضائعة لايحصل على النهاية العظمى ، وإنما يحصل على أعلى درجة فى فرقته ، فقلت له : أنا أتشرف بأن هذا النظام استحدثته أنا منذ ثلاثين عامًا ، وأنا رئيس الامتحان .

الفضيحـــة الكبـــرى !!

●● هم يهتمون بك مادام معك مايهمهم ...
●● عندما ينتهى التحقيق لن تجد من يهتم بك ...

أتذكر الآن من قبيل العمل فى امتحان الثانوية العامة والإشراف عليها ، أنه فى إحدى السنوات الأخيرة ظهرت الأسئلة ، وحدثت ضجة كبيرة ، وكان وزير المعارف ؛ أو التربية والتعليم فى ذلك الوقت الزميل الكريم الاستاذ / نجيب هاشم ...

الذى حدث أنى فى تلك المرة كان معى فى الكلية أحد المعيدين ، وقال لى هذا المعيد ان ولدًا من أقاربه يؤدى امتحان الثانوية العامة ، وأنه يحضر له الأسئلة ، وكان ذلك فى أسبوع الامتحانات ، فأنا قلت له ليس لطالب ، أو لأىّ أحد فى إحضار الاسئلة بعد أن تكون قد ظهرت أى فضل فى إحضارها ؛ إنما إذا كان يريد أن يقول إنه يطلع على الأسئلة قبل أن تعرض فى الامتحان فليحضرها لى قبل ذلك التاريخ ، وأنا أتخذ إجرائى ...

فقال : موعدنا اليوم مساءً ، وفى المساء كلمنى فى البيت تليفونيا **وقال لى :** غدًا امتحان الكيمياء ، وورقة امتحان الكيمياء معى الآن ..

فقلت له : سوف أقابلك فى الوزارة وأعطيها للوزير بنفسى ، وطلبت الوزير فى التليفون ، وأخبرته أنه من الممكن أن أسلمه الآن ورقة الكيمياء التى ستعرض غدًا ، وهى فى يدى الآن ...

فقال لى : أرجوك أن تحضر أنت بنفسك ، ولاترسل إلىّ الورقة فقط ، فأنا أعلم مدى جهدك مع مثل هذه المشاكل .

فقلت له : سأحضر .

فقال : سوف أرسل لك سيارة ، وبالفعل بعد دقائق كان أمام البيت عندنا سيارة ، وبها اثنان مهمان جدًا على مايبدو من شكلهما ، وطلبت لهما شيئا يشربانه ، حتى أجهز أنا للخروج ، ولكن حسام ابنى طلب منى أن يذهب معى **قائلا :** أنا لا أتركك فى جنح الليل وحدك . وشىء آخر اقترحه حسام **فقال :** لاتركب فى سيارتهم ، نذهب فى سيارتنا ، فهم الآن يهتمون بك أشد الاهتمام ؛ لأن معك مايهمهم . وعندما ينتهي التحقيق فى آخر الليل فلن تجد سيارة ، لأنهم يهتمون بك مادام لديك مايهمهم ! وبعد أن تسلم لهم مايهمهم وينتهى التحقيق فلن تجد

من يهتم بك فحمدت له هذا الرأى .

وأثناء استعداد حسام للخروج ، جلست أنا معهم فى حجرة الجلوس ، فقال لى أحدهم: مشيرًا الى حسام ، هل هذا هو الذى معه ورقة الامتحان ، ظنًا منه أنه هو الطالب الذى وقعت الأسئلة فى يده ؟!

فقلت له لا . هذا طالب طب فى السنة النهائية ، وقلت لهما سوف نذهب فى سيارتنا ، وأترك لهما سيارتها . وذهبنا إلى نجيب بك هاشم .

فقال اجلس معى ولا تتركنى ، فبينى وبينه من الصداقة مايجعلنى أستجيب لكل رجاءاته فى مثل هذه المواقف ، وأول شىء فعلناه ، طلبنا مدير المطبعة السرية ليحضر ، ومفاتيح المطبعة السرية معه ، فحضر . وأرسلناه الى المطبعة السرية ليحضر صورة من ورقة امتحان الكيمياء التى ستعرض غدًا فى جميع أجزاء اللجان، وبالطبع بالمطبعة صورة من جميع أوراق الامتحان ...

والذى حدث أن الصورة التى جاءتنا تتفق تمامًا مع الورقة الموجودة لدينا.

فقلت له : الآن اتضح أن الذى يحضر هذه الأسئلة ويبيعها ، أو يفعل بها مايشاء ... مطلع على الأسئلة لا شك فى ذلك .

ومرة أخرى أردت أن أنصرف حيث أن كل عملى قد انتهى .

فقال لى : لا . اجلس . فجلست . قال : الآن أنا سألغى الامتحان ، فقلت له طبعًا ألغه . **فقال :** سأرسل تلغرافات الى رؤساء اللجان فى جميع أنحاء الجمهورية بالغاء امتحان اليوم .

قلت له : هذا لا يكفى .

فقال لى : لما لا يكفى ؟ **قلت له :** أنا لو كنت رئيسا للجنة من اللجان ويأتى تلغراف أن ألغى الامتحان فأنا لا ألغيه، أنا أستبقيه خوفا من أن يكون فى هذه البرقية خطأ، أو دسيسة ؛ أو أى شىء . وأنا لا أخسر شيئا أنا ولا الدولة إذا مشينا الامتحان فى خطئه ونلغيه فيما بعد .

وقال لى : ماذا نفعل الآن ؟ الم أقل لك إنك لا تتركنى الآن قبل أن نصل الى حل .

فقلت له : نتصل بوزير الشرطة (الداخلية) ونطلب منه أن يرسل فى جميع نقاط الشرطة ، فى جميع أنحاء الجمهورية يكلف واحدًا من كل شرطة ، أن يقوم برسالة منه هو مباشرة تؤكد الاشارة البرقية التى سترسل من قبل وزير المعارف خاصة بإلغاء الامتحان ، – عند ئذ –

عندما يأتى أى رئيس اللجنة ، مندوب من الشرطة ، وبرقية من الوزير بالبريد ، يكون مصدران على الأقل أمامه ، فيجب عليه فى هذه الحالة أن يمتنع ويلغى الامتحان .

فقال : حسنا جدا . أشكرك .

فقلت له : هناك شىء آخر تستطيع أن تعمله ؛ بل يجب أن تعمله ، وهو أن وزير الحربية له اتصال تليفونى بجميع أنحاء الجمهورية ، وهذه ميزة خاصة بوزير الحربية ...

قلت : اتصل به ، وارجوه أن يتصل بكل هذه النقاط فى جميع أنحاء الجمهورية التى فيها تليفونات تبع الحربية ، تتلقى رسالة تطلب إلغاء الامتحان ، وترسل الى اللجان .

وعندئذ يكون لدى رئيس كل لجنة برقية منك معززة بإشارة مكتوبة من نقطة الشرطة ، وتليفون مكتوب ومرسل من وزير الحربية ، أظن بعد ذلك لايكون هناك أدنى خلاف لوجوب إلغاء الامتحان .

فقال : أشكرك جدًا .

فقلت : الآن أذهب .

قال : لا . وقد بقيت معه حتى اتخذنا كل الاجراءات اللازمة واطمأن تمامًا ...

وكان ذلك حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... وعندئذ حضر حسام وقال لى : هل تستطيع الآن أن تجد السيارة التى كنت ستحضر بها الآن ...

فقلت له : لا .

فقال : سيارتنا معنا أضمن من سؤال وزارة التربية !! فشكرت له بعد نظره ، وحسن تصرفه !

واتضح فيما بعد أن الأسئلة كانت مسروقة بدسيسة مقصود بها إحراج الوزارة ... وكانت فضيحة كبرى !

●● ليس فينا مثقف إلاّ وقد خرج من بين يدى معلمى التعليم الأولى ....

●● إذا أخرجت الكلمة عن مناسبتها فقدت قيمتها ...

●● مع احترامى لرأى الكبار ، فأنا أفضل رأى الصغار ....

« بسم الله الرحمن الرحيم » أشكر لك الجهد الذى تبذله ، فى سبيل ما لا يستحق منك هذا الجهد . وأستغفر الله تعالى عن كل ما يزلّ به لسانى فى نسيان أو تغيير .

وأذكر أننى عندما حاولت أن أتذكر شيئا ، قد يكون له قيمة تاريخية فى حياتى ، ذكرت ماكان يُسمّى بالتعليم الأولى .

كان هناك نظامان للتعليم . التعليم الأولى : وكان يتجه نحو تعليم ابتدائىّ خال من اللغات الأجنبية . وغالبا كان يتجه إليه الذين يريدون أن يتجهوا إلى بعض المعاهد الدينية التى لاتحتاج إلى تعلم لغات أجنبية ، أو الذين يريدون التعلم والانقطاع عن مواصلته والاشتغال بعمل مناسب من أعمال الدنيا .

أما التعليم الثانى : الذى كان يسمى التعليم الابتدائى فهو كان نفس هذا التعليم ؛ إلا أنه كان يضاف اليه لغة أجنبية ، وطبعا هذا النوع الأخير يوصل الى التعليم الثانوى بعده .

وللحقيقة فانى أقول : إن خبرتى بالتعليمين جعلتنى فى وقت من الأوقات أرجح نظام التعليم الأولى ، فيما يتعلق بمتانة الدراسة ، وجهد المدرسين ، وأثره فى التلاميذ .

أقول هذا : بمناسبة أنى عندما عدت من بعثتى من انجلترا ، كنت عينت عميدًا لتفتيش اللغة العربية ، فى وزارة المعارف – كما كانت معروفة فى ذلك الوقت – وكنت أعقدمؤتمرًا كل عام للمفتشين لنتدارس شئون اللغة ، وشئون التفتيش ، وما ينبغى أن نعمله بخصوص هذا .

ولقد صادف فى تفتيش اجتماع من اجتماعات هذا المؤتمر ، أننا كنا نتكلم عن ضعف التلاميذ فى اللغة العربية . وكان هذا ظاهرًا جدًّا إبان تلك السنوات . وكانت هناك أسباب له منها : التوسع فى عدد المدارس ، مع عدم وجود المدرسين الكافين ، فكانوا ينقلون إليهم من مدرسى المدارس الأولية ، من قاموا بتدريس اللغة العربية وظن كثير من الناس أن هؤلاء لم يقوموا بالتدريس على الوجه الأكمل . فهذا طبعًا خطأ . الذى حدث : أننا فى أثناء المؤتمر ، كنا نتدارس هذا الموضوع ، ونتلمس أسبابه ، فذكر بعض المفتشين الأعضاء فى المؤتمر : أن وجود عنصر مدرس التعليم الأولى مكان خريجى دار العلوم هو السبب فى هذا . فأنا نفيت هذا الزعم بصدق وقلت : إن هناك أسبابا أخرى ، منها : انتشار الأعداد بما لايتفق مع مصلحة التعليم ؛ أمّا مدرس التعليم الأولى فإنه رجل مخلص ، وخبرته أنه من أشد الناس حرصا على تعليم تلاميذه ، صادف أن قام أحد المفتشين فى ذلك الوقت ، وقال : كلمات بذيئة فى حق هؤلاء المدرسين ، انتقصتهم انتقاصًا كبيرًا جدًّا وأنهم لايصلحون للتعليم ، وأنهم هم المسئولون عن فساد

اللغة العربية ، وهؤلاء المدرسين كانوا من خريجى مدارس المعلمين الأولية وكان لها شأن عظيم ، وليتها تعود مرة أخرى ، وبصورتها التى كانت عليها – آنذاك – ليتها تعود مرة أخرى . ليتها تعود مرة أخرى .

وعندما بدت منه هذه الاهانة ، لهؤلاء الزملاء فى الحقيقة نفيت أنا هذا ، وقلت : إنه ليس فينا مثقف إلاوقد خرج من بين يدى معلمى التعليم الأولى . لم يقبل هذا . وكان من طراز غير متزن ، وقد بدت منه سفاهات فى حقهم ، وأنا طلبت بعدم إثبات هذا فى محضر الجلسة ، وطالبته بمغادرة الحجرة ؛ لأنه أهان ناسًا نحن نحترمهم ، وانتهى الأمر بأنى أصْرَرْتُ على إخراجه من الحجرة .

هذه الحادثة ما كنت أعلم أنها سيكون لها صدى كالذى حدث . الذى حدث أنه كان هناك جيش كبير جدًا من رجال التعليم الأولى . وكانت لهم نقابة ذات رأى محترم . وكان لهم نقيب اسمه الشيخ رمضان ، عملاق ، طويل ، وأقول هذا بمناسبة ماحدث بعد ذلك ، ولم أكن أعرف من هذا شيئًا وقتئذ . أنا كنت أتكلم فى حدود خبرتى بهؤلاء الناس ، ولقد حدث بعد ذلك أنهم التقطوا الحديث الذى دار داخل المؤتمر – بطريقة أو بأخرى – والكلمات التى قلتها فى حقهم . وأعتقد أن الذى نقلها إليهم بعض السكرتاريين الذين كانوا فى الغالب من بين خريجى هذه المدارس ، فاذا هم يطبعون العبارات فى كليشيهات كبيرة جدًا ويضعونها فى جريدة المعلمين التى كانت تصدر عن نقابتهم ، وأرسلوا إلىّ نسخة منها .

أنا لم أفرح بهذه التحية لأنه بدا أنها ستستعمل فى دعاية لهم ؛ لأنه كان بينهم وبين الوزارة مقاضاة بخصوص مرتباتهم ونحوها ، فخشيت من ذلك ، ووصل الى علمى أن هناك مايقرب من مائة ألف من هؤلاء المدرسين يأتمرون بأمر الشيخ رمضان ، انه إذا قال لهم : شرقوا ، شرّقوا . وإذا قال لهم : غربوا غربوا . وترامى الىّ أنه استخدم من بين أدلته شهادة عميد مفتشى اللغة العربية . واستخدم تلك الشهادة ضد الوزارة ، وما كانوا يطلبون أكثر من هذا . وفى يوم من الأيام وصلتنى نسخة مرسلة من النقابة ، وكنت علمت بمطالبتهم بحقوقهم ، ووقوفهم وراء هذه الحقوق فى صورة جمهرة من الرجال بخصوص مجلس النواب ، ذلك أن مجلس النواب فى ذلك الوقت كان يعتمد على الانتخابات ، ويعتمد على الذين يؤيدون الانتخاب ، وأن نقيب معلمى التعليم الأولى يوزع هؤلاء الجنود ويأمرهم بمن يؤيدون ، وكانت لهم وقائع كثيرة تثبت ذلك .

فعندما علمت ذلك ، توقعت أن اسمى سيستخدم فى ذلك المكان الذى لا أرضاه لنفسى . وحدث فى يوم من الأيام ، وكان فى شهر رمضان وفى يوليه ، وكنت أشتغل بعد الظهر ، لأنى

ماذا أفعل إذا عدت وكان لدىّ أعمال كثيرة جدًا ، خصوصا وأنى كنت حديث عهد بالوظيفة ، ونفس الوظيفة تحتاج الى عمل كثير لما لها من أهمية . فكنت أفضل قضاء جزء من الظهيرة حتى نحو الثالثة أو الرابعة فى مكتبى ، ثم أعود الى المنزل قبيل المغرب . فاذا بسكرتيرى دخل علىّ فى يوم نحو الساعة الثالثة ، وفى حرّ رمضان ، حرّ يوليه !! ولم يكن هناك تكييف فى ذلك الوقت ، وقال لى : إن الشيخ رمضان يريد أن يقابلك . فقلت له : اعتذر له ، لأنى لا أستطيع الآن أن أقابل أحدًا ؛ لأنى علمت أن هذا الرجل له سلطان ، ويظن أن الناس تخشاه ، وأنا فضلت أن أخشاه من بعيد بدل أن أخشاه مجاملة . وهو لم يعبأ بهذا ودخل ، وأناجالس على كرسىّ ووقف عملاقا طويلا ، فقال : السلام عليكم .

فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله ، ولم أقف ، ولم أمدّ يدى للسلام ، فقال : لماذا لا تسلم علىّ ؟!

فقلت : لأنى اعتذرت لك أنى لا أستطيع أن أقابلك ، وأنت أبيت إلا أن تفرض علىّ مقابلتك . وأنا لا أسلم على من يفرض علىّ مقابلته . فقال : كلام يجب ألا يقال ، وكان مُحْضِرًا معه صفحة الكليشيه التى فيها تقديرى أنا لرجال التعليم الأولى .

وقال : أنا أتيت لكى أحدثك بشأن كلمتك هذه .

فقلت : أنا أرفض أن أتكلم فى أى موضوع . وأن كلمتى هذه قيلت فى مناسبة خاصة ، واذا أخرجت عن مناسبتها فقدت قيمتها !

هذه قيلت فى وقت صدرت إهانة لقوم أردت أن أحترمهم ، فقلت هذا . قد أكون زدت فى احترامهم ، كما زاد الذى ازدراهم فى ازدرائهم . فخروج الموضوع عن المجال الذي قيل فيه ، يخرج معناه الى شىء آخر .

فقال : ولكن نحن الكبار يبقى لنا رأى آخر . **فقلت له :** مع احترامى لرأى الكبار ، أنا أفضل رأى الصغار ، الذى هو رأيى أنا . فقال يعنى أنت ترفض أن أتحدث معك !! فقلت له : نعم .. أنا أرفض ذلك . وكادت تقوم أزمة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى – بسبب هذا – لولا أن بعض ذوى العقل ، قابلوا الرجل وحده وأفهموه أنى أنا لست من المتكبرين ، إلا أنى لم أشأ أن أكبّر المسألة ، وأجعل منها خصومة بين خريجى دار العلوم ، وخريجى مدارس المعلمين . وانتهت عند هذا الحدّ والحمد لله ، وقد أنصفهم القضاء .

نقابة التعليم الأولى
تتعهد ببناء جامعة إبراهيم باشا

ولقد علمت بعد مضى بضع سنوات على تلك الحادثة عندما نشأت جامعة إبراهيم باشا الكبير، التى تسمى الآن : جامعة عين شمس ، وعينت أنا رئيسا لقسم اللغة العربية فيها ، اجتمعنا فى أول اجتماع لمجلس الجامعة ، ولم يكن لنا جامعة تربطنا ؛ إنما كانت أمكنة مختلفة ، عرض علينا مدير الجامعة وقتئذ ، أن عرضًا قدم إلى الوزير ، وكان الوزير - حينذاك - د . طه حسين من نقابة المعلمين الأولية بمليون جنيه ، ومليون جنيه فى ذلك الوقت ، كان يتحدث الناس عنه ليبنوا الجامعة ، وأن طه حسين قبل ذلك ، وبعد مناقشة اتضح لنا : أن هذه مأربة لا حفاوة ، لأن لابد لهم من أرب يطلبونه نظير تقديم هذا المبلغ فى نظير خدمات يطلبونها ، ولم أشأ أن الجامعة الناشئة التى تشرفت بانشاء أول لبنة فيها تقوم تحت رعاية وحماية نقابة التعليم الأولى.

ولما أخذ الرأى على قبول هذا القرض أبديت رأيى برفضه ، ورفض والحمد لله .

ولقد ساءنى أن أحد إخوانى قد أساء اليهم ، كما أساءنى أن رئيسهم أراد أن يستغل دفاعى عنهم فى قضية غير القضية التى قصدت الدفاع عنهم فيها .. بجانب استغلاله ذلك فى الدعاية لهم .

● وأصبحت حسنة من الحسنات ..

● فى وقت من الأوقات : كنت مديرا للمكتب الفنى لوزارة المعارف ، وهى السنة التى أخرجت فيها إصلاح التعليم الثانوى، وفى هذه الموجة : وقد كانت موجة رفعت من شأن التعليم والقائمين عليه ، وكان وزير التعليم فى ذلك الوقت ، نجيب الهلالى ، وكان سبب الدعوة لى أن أكتب تقريرًا عن إصلاح التعليم ، شكوى الكليات الجامعية ، من ضعف الطلاب الذين يأتون اليها بالشهادة الثانوية التى كانت تسمى فى ذلك الوقت : « البكالوريا » ومن بين الجهات التى اشتكت : كانت « كلية فيكتوريا » . كلية فيكتوريا كانت فى ذلك الوقت معقلا كبيرًا للثقافة الانجليزية ، والاستعمار الانجليزى ، لا أظن أنك تتذكر سطوة مديرها فى ذلك الوقت : « مستر ريد» الذى ناسب فيها بعد . عثمان باشا الذى قتل .. والقسم السياسى لا يعنينى ، ولكنى أذكره بمناسبة أن مدير المدرسة التى كانت قمة - من غير شك - من قمم التعليم الثانوى كانت كتبت أنها ترى فى مناهج التعليم ضعفًا ! وهى كانت تصطنع مناهج تعليمها ، وتتبع نظامًا

إنجليزيا ، أراد الأستاذ نجيب الهلالى رحمه الله - أننا ننتهز هذه الفرصة ، ونلقى بشباكنا فى هذه المصيدة ، فما داموا يردون أن يتصلوا معنا فى شئون التعليم قد لا تظهر ، عن المسائل السياسية ، فلا بأس . ولما وصله خطاب شكر وتقدير عن النسخة ، التى أرسلها له عن التقرير بعد أن طبع ووزع على الجهات المعنية . ذكر مستر ريد أنه يأسف لأن الجامعات ، أو بعبارة أدق الجامعة ، إذ لم يكن فى ذلك الوقت أكثر من جامعة واحدة .

ان الجامعة المصرية لا تقبل الحاصلين على الشهادة الثانوية من فيكتوريا لأنهم يأخذونها من انجلترا [G.C – E. S . C.] والتى عليها الاشكال القائم الآن – فقال : إن جامعتكم لا تقبل الحاصلين على شهادتنا ؛ ولذلك كل الحاصلين على شهادتنا إذا أرادوا تكميل التعليم فانهم يذهبون الى انجلترا ، وقال : ربما يكون بعضهم أقل مقدرة مالية على ارسال ابنه الى انجلترا ، وقد لايقبل العمل الآخر ، أفلا تستطيعون أن تقبلوهم ؟

وتكلم معى معالى نجيب الهلالى فى ، وقال : مارأيك ؟ انهم يريدون أننا نقبل خريجى كلية فيكتوريا ، فقلت له : ولم لا ! هذا لون من التعليم ، يجدر بنا أن نقدره ، غاية مافى الأمر أننا يجب أن نستوثق أن المواد القومية ممثلة فيها ، فهل دراسة اللغة العربية مثلا : ممثلة بالمقدار الذى يساوى تمثيلها فى المدارس التربوية ، فقال لى : أنا أذكر هذا مع مدير فيكتوريا ، وتكلم معه . وقال له – مدير فيكتوريا – نحن الآن اقتبسنا منهج التعليم الثانوى وندرسه ، ولك أن ترسل مفتشا يفتش على المدرسين الذين عندنا ، والمناهج التى تدرس . وعاد معالى نجيب الهلالى وقال : أنا أخى أن أرسل أحد المفتشين فيضيق صدره بالحالة الانجليزية ، وهو لايعرف الإنجليزية ، كمفتش اللغة العربية ، أنت ابن وجدتها ، والانجليزية لغتك الثانية ، إن لم تكن الأولى مكرر ، فاذهب أنت فى أسبوع من الأسابيع ، وفتش على كلية فيكتوريا ، وأعطنى تقريرًا عنها . وقد حدث . وأنا لم يكن لدى أىّ عمل آخر ، أكثر من المكتب الفنى . فذهبت وكان مقرها الاسكندرية – آنذاك – لأنها هى نشأت فى الأسكندرية ، ولم تنتقل الى القاهرة إلا إبان الحرب العالمية الثانية ، خوفا من الهجمات الألمانية على الأسكندرية . فذهبت وبقيت هناك أسبوعًا قابلت « مستر ريد » وقابلت الذين يقومون بالتدريس ، ومن حسن حظى ، أنهم جميعًا كانوا من تلاميذى فى دار العلوم الخريجين حديثا ، وحمدت لهم مايقومون به ، من نشاط عظيم جدًا ، فيما عدا المدرسة التحضيرية ، الروضة فانهم كانوا يكلون لبعض خريجى المعاهد الكنسية تدريس اللغة العربية فيها والتى قمت بالتفتيش عليها ، وأعطيت رأيى

فى هذا ، وفيما يتعلق بسنوات الثانوية كل الذين كانوا يدرسون كانوا على أعلى مستوى ، وكل الكتب هى الكتب التى كانت مقررة على التعليم الثانوى ، وترتب على هذه أنه من ذلك التاريخ قبلت الجامعة خريجى : « كلية فيكتوريا » وأصبحت حسنة من الحسنات التى نتحدث بها . وأشكر الله تعالى على أنى جئت بالموافقة .

•• القسـم الثالث :

البعثة الأولى إلى انجلترا
وحياتى العلمية فى إكستر

●● ... أنا متأسف أنا أقصد « الرّايت » الصواب ، وأنت تقصد « الرايت » اليمين .

●● ... قبل أن تحدث لنا المتاعب هنا ، عد إلى وطنك ، أو إلى بيتك !

● عندما وصلت إلى مقرّ بعثتى فى إنجلترا لم أسأل عن أماكن اللهو أو ما شابه ذلك كما يفعل بعض الشرقيين .

ولكن عندما قابلنى أصدقائى المصريون الذين كانوا فى هذا البلد كان أول شىء فعلته فى الصباح التالى : أنىّ طلبت منهم أن يأخذونى إلى محلّ لأشترى درَّاجة ؛ لأنى كنت متعودًا أن أركب دراجة – وكانت هذه وسيلة المواصلات المثالية لمن فى مثل ظروفى – فذهبت معهم الى محل الدراجات ، واشتريت دراجة ، وركبتها عائدًا الى البيت ، وفى العودة ، أوقفنى شرطىٌ ؛ وقال لى : أنت لست على RIGHT SIDE « كلمة رايت » بالانجليزية ذات معنيين ، رايت معناها الصواب أو الصّح ، ورايت معناها اليمين ، فأنا لم أفهم منه أنه يقصد : الصواب . بل فهمت أنه يقصد : اليمين ؛ لإنى كنت فى الطريق ، والذى يهم السائق هو اليمين أو الشمال . فقلت له : « THE RIGHT SIDE I`AM ON » أنا على الجانب الرايت قاصدًا اليمين ، وبقينا فترة هو يقصد الصواب ، وهو ينفى ، وأنا أقصد اليمين ، وأنا أثبت . إلى أن لاح أمامى ترام ، يقطع الطريق ، فوجدته يسير على الجانب الشمال . فعندئذ أدركت أن النظام الانجليزى الطريق فيه الى اليسار، على عكس ماهو عندنا . فقلت له : أنا متأسف ، أنا أقصد الرايت الصواب : وأنت تقصد الرايت اليمين : فقال لى : من أين جئت ؟

فقلت له : من مصر . فقال لى : العبارة الآتية : « جو هوم » GO HOME .

وكلمة هوم : مرة أخرى ، ذات معنيين ، إما أنها تقصد البيت . أى عد الى البيت ، أو إلى الوطن . فعندما قال لى : « جو هوم » ربما كان يقصد فكاهة : قبل أن تُحْدِثْ لنا المتاعب هنا ، عد الى وطنك ، ! أو عد إلى بيتك .

●● العجيب فى إنجلترة أن خطأ الصباح يصحح فى المساء .

● وحادثة ثانية بعد حادثة الدراجة ببضعة أشهر ، فى نفس المدينة كان مدخل الجامعة فسيحًا جدًا ويتفرع من جوانبه عدة شوارع تصب فى جوانب مختلفة من المدينة ، ولم أعرف كل هذه الشوارع ، وعرفت اثنين أو ثلاثة فقط .

وفى يوم وأنا خارج من الجامعة وبدّراجتى ، رأيت أحد هذه الشوارع الضيقة ، ومكتوب عليه : « غاندى أستريت » واسترعانى اسمه لأنى كنت معجبًا بغاندى ، فركبت دراجتى ، وسرت فيه ، إلى آخره ، فإذا آخره ينتهى بشارع عمومى مزدحم بالمرور وينحدر الى ذلك الشارع العمومى برصيف مرتفع لو اجتزته بدراجتى لانقلبت و انقلبت أنا من فوقها . وإذا بشرطىٌ يكاد يكون فى انتظارى ، بمجرد أن نزلت من على دراجتى ، وأنا اضطررت ! – عندما وجدت هذا الرصيف المرتفع الفاصل بين الشارعين – للنزول عن الدراجة ، فقال لى الشرطى : ألا تعلم أن الدراجات ممنوع مرورها فى هذا الشارع ! قلت له : لا أعلم ، فأخذنى من يدى وبمجرد أن رفع رأسه وجدت « لافتة » مكتوبة : ركوب الدراجات ممنوع فى هذا الشارع . فقلت له : صدقت وأنا متأسف ! لكنى أريد أن أوجه نظرك الى أن النصف الآخر من الشارع الذى منه بدأت أنا ليس فيه مثل هذه « اللافتة » . فأنا عندما بدأت فى شارع « غاندى استريت » من باب الجامعة ، لم أجد مثل هذا .

قال : كيف ذلك ؟

قلت له : المسافة قصيرة فاجتزناها مشيًا ، ووصلت الى النقطة التى بدأت منها ، فلم يجد لافتة . فاعتذر لى على الفور ، وذهبت الى بيتى للغداء ، ولما عدت بعد الظهر وجدت اللافتة مقامة بمدخل الجامعة .

● بعد حصولى على الشهادة العالية فى دار العلوم ، وكنت ثانى المتخرجين حصلت على منحة دراسية الى انجلترة لدراسة التربية ، وعلم النفس ، والأدب الإنجليزى .

وكان ذلك فى عام ألف وتسعمائة واثنين وعشرين ميلادية أثناء بعثتى الأولى ، ففى الأسبوع الأول أعطيت جدول دراسة ، وفيه المحاضرات الخاصة بكل مادة من هذه المواد ، وفى يوم السبت : فى العاشرة صباحاً الذهاب إلى مبنى فى فناء الجامعة . فذهبت الى هذا المكان فإذا به ورشة نجارة ، فدخلت . ووجدت الأسطى النجار شخص عليه سيما الاحترام ، فقلت له : هل تريد أن أكون هنا اليوم ؟

فقال : أنت فلان ؟ ! **قلت له :** نعم . قال : لقد حدثنى الأستاذ « وورتلى WORTLEY » استاذ فروع التربية وعلم النفس عنك . شكرًا .

وماذا تريد منى ؟ لا شىء . أنت تعمل ماعمله إخوانك هنا ؛ وسألته عن السبب فى أنى أذهب إلى ورشة النجارة . قال تتعلم النجارة . إنّ هذا من العلوم التى أصبح من الضرورى أن يتعلمها أستاذ التربية ، وأنت تُعَدُّ لتكون أستاذ تربية ، ولابّد أن تعلم هذا .

قلت له : سيدى أنا أحد تسعة من مصر ، هم الممثلون لتسع مدارس عليا ، طالب من كل مدرسة عليا قد تم اختياره للبعثة لتميزه العلمى ، وأنا أحد تسعة ، إذا أذنت لى أن أسميهم الصفوة ، فهل من هذه الزاوية يصح أن أضيع وقتى فى أن أتعلم النجارة ؟ قال لى ؟ هذه ليست نجارة . هذا فرع من فروع التربية وأظن أنه يجب عليك مستقبلا أن تدخله فى مدراسكم عندما تشرف على التعليم ، وأنا أتصور أن مثلك سيكون من بين أعماله مستقبلا الاشراف على التعليم . اكتفيت بهذا .

● وفى السبت التالى : ذهبت وسألت الأستاذ ، أو الأسطى ماذا أفعل ؟! قال : اقطع قطعة من الخشب ، ألواح من الخشب كلها جديدة ، موجودة بالورشة ، وبقية الطلبة الانجليز موجودون ، وكل واحد منهم يعمل ، وأخذت لوحًا ومنشارًا ، وحاولت أن أقطع قطعة فلم أنجح مطلقا ، فلا هى مستقيمة ، ولا هى سائرة فى طريقها ، جاء الأسطى برفق وقال لى : اسند لوح الخشب على المنضدة هكذا ... واجعل المنشار يسير على حافة المنضدة ، ليكون هو الهاد إلى المنشار على خط مستقيم ، ففعلت ذلك ، وأحضرتها له وهى نحو متر فى متر ، أو شىء من هذا القبيل ، وقلت له : ماذا أصنع بها الآن ؟ قال : امسحها بالمسحاة لكى تنعم . طبعًا أظهرت من الجهل فى هذا أكثر مما أظهرت فى العملية الأولى ؛ لأنى كنت أضع أصبع الفارة تقريبا على زاوية قائمة فتأخذ قطعه كبيرة من الخشب ، وبعد أن جاء ولاحظنى قال لى : لا تحاول أن تأخذ القشرة التى تريدها مرة واحدة ؛ بل خذها على عدّة مرات ، كل مرة شىء قليل جدًّا ، واستعمل كلمة : « SHAVING » أى حلاقة ، أى يجب أن تتم بيسر ، وأنا على عناد من العمل ! عملية لا أحسنها من جهة ، وكنت مُعْرِضًا عنها ، وكان هذا من أهم الأسباب فى عدم نجاحى فيها ، إلى أن وصلت الى تسوية قطعة من الخشب المطلوبة ، فقلت له : ماذا أفعل بعد ذلك ؟ **قال لى :** أحفر مجرى فى جانب منها ليكون مجرى أقلام ، فنحن نريد أن تصنع لنا مقلمة لها ثلاث عيون ، على شكل المقلمة القديمة المعروفة ، حاولت هذا أيضا ، وبعناءٍ شديدٍ جدًّا ، فأخطأت لأننى كنت عَجِلاً ! أريد أن أسرع ، فآخذ الحفرة على مرة أو مرتين ، وهى تؤخذ على عشرين مرة أصلا ، وأخيرًا خضعت للمهنة ، واضطررت لأن أسمع كلام الأستاذ وأن أعمل ، وبعد حوالى أسبوعين ، أو ثلاثة ، كنت قد انتهيت من صنع الأجزاء التى تتألف منها المقلمة ، **فقال لى :** الآن تركبها بالتعشيق . فركبتها بالفعل ، فظهرت فى صورة مقلمة جميلة جدًا .

وإذا بالأستاذ « وورتلى » رئيس القسم يأتى مبتسما ، ثم نظر إلىّ وقال : ها ... علام ! هذا شيء حسن جدًا ، أنت فعلت هذا ؟ قلت : نعم . وإذا أذنت لى أنا تعلمت الحفر فى الخشب ، وسأحفر اسمك عليها لأنك هديتنى لهذا الطريق . قال : لا . هذه لك أنت . **قلت** : لا . سأفعل الثانية لى ، وستكون أيسر فى عملها . وبالفعل حفرت إسم الاستاذ / وورتلى وأهديتها له ، وفعلت الأخرى وأحضرتها معى الى القاهرة ، وأخذها ابن أخ لى ، وكان من أثر ذلك بالذات ، أننى ساهمت فى إدخال مايسمى بالهوايات المدرسية التى كان فيها التصوير والرسم ، والرسم على الخشب الأبلكاش .

بالطبع لها فائدة كبيرة ، أقل ما فيها أن تتعلّم ضبط الحركات باليد ، والتحكم فى العضلات والتحكم فى القوة ، والصبر ، وقوة الاحتمال ، والتأكد من أن الانسان إذا صبر وثابر فمن الممكن أن ينال كل مايتمناه .

هذا بغض النظر عما فيها من أثر على هذه المصنوعات ، وأثره فى الترفيه العقلى ؛ ولكن من حيث إننى كنت عجلا للوصول الى نتيجة بسرعة ... ولعلك تعلم أنك لاتصل إلى نتيجة إذا كنت متسرعًا فى الوصول إليها .

●● .....عمليًّا ثبت نجاح تلك التجربة :

.... كان لى أخ شقيق ، توفاه الله ، وترك لى ابنا له ، وكان صبيًا فتكفلت به – والحمد لله – وأحسنت توجيهه وتربيته ، حتى جعلته أستاذًا عظيما فى فن الرسم على الخشب ، وكنت أشترى له مايمكن أن يشتريه ، وأبذل كل ما فى وسعى لاشباع هوايته ، وبالفعل نجح فى هوايته نجاحًا عظيما ، الى جانب أنه كان أستاذًا فى الكلية الحربية للكيمياء ، وترك لنا من آثار يده تحفًا عظيمة تسعدنا وتريح أنفسنا كلما نراها .

●● أنت تعرف عن : « جان ستورت مل » أكثر منى فكيف أقدمه لك ؟!

●● ... هناك مسألة حدثت لى وأنا طالب فى لندن مع أستاذ اسمه : دكتور « هيلد » كان يدرس لنا تاريخ أوربا الحديث ، هذا كان فى فترة من الفترات التى تعبت فيها جدًا وأنا أدرس فى لندن ؛ لأننى فى ذلك الوقت كنت ملحقا بثلاث أو أربع كليات فى وقت واحد ، وجامعة لندن تبيح مثل هذا . فى أن الطالب يدرس مادة فى كلية من الكليات ومادة أخرى فى كلية

أخرى ، وكل كلية تستطيع أن تجمع ما يساوى مناهج جامعة ، لكن مع هذا فالنظام معمول به هناك ، ففى حياتى أنا فى لندن كنت أدرس العبرية والفارسية فى : كلية الدراسات الشرقية ، وأدرس الاقتصاد فى : « كلية الاقتصاد السياسى » وأدرس المنطق فى : كلية الملك » وأدرس تاريخ أوربا الحديث فى كلية الدراسات الحرة » وتتبع تبعية شرفية لجامعة لندن ، ومن شأنها أنها تعين الطلاب على اختيار مواد الامتحان ، وخصوصا فيما يعرف بـ : « امتحان ١١٦ أو مايقابل البكالوريا عندنا .

وكان هذا مفروضا علينا ، لأننا كنا طلبة ، مدراس عليا ، لأن الجامعة المصرية ، لم تكن قد نشأت إلا فى سنة ١٩٢٧ ، فى حين بعثتى كانت فى سنة ١٩٢٢ .

وعلى كل حال الذى حدث أننى كنت مرهقا جدًا مدة سنة كاملة ، هى التى كنت أتبادل الحركة فيها بين هذه الكليات الأربع مع صعوبة المواصلات ، ومع عدم انتظام الطعام ، لأن مواعيدها ، لا بد أن أحافظ عليها فى وقتها . فأنا أدرس فى : « كلية الملك » المنطق فى الساعة التى يدرس فيها المنطق ، وأدرس الأقتصاد فى كلية كذا . وهكذا ، الذى حدث أنه كان فى الكلية » « الحرة » أستاذ اسمه الدكتور : « هيلد » رجل طيب ملتح ذو منطق رتيب ، وكان يدرس لنا تاريخ أوربا الحديث ، ووصل إلى بدء حركة الثورة الفرنسية ، وكان درسه يبدأ فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وهى ساعة غير محببة ، ولم يكن كثير من الطلاب حريصين على حضورها ، فكثيرًا ماكان الأمر يكتفى بالحضور ، على أربعة أو خمسة منا ، وكنت أحيانا ، أكون أنا الطالب الوحيد تقريبا الذى يحرص على الحضور ، وكان فى هذا الوقت عندما أكون وحدى ، لا أجلس أمامه ؛ بل يدعونى لأجلس بجانبه ، ويأخذ صوته سمتا ، وسمتا رتيبًا ، خصوصا عندما يتجلى فى الأسباب الأدبية ، المؤدية الى قيام الثورة الفرنسية ، يقصد بذلك : كبار الفلاسفة وأعمالهم والأدباء الذين حرضوا على الدعوة إلى الحرية إلخ .

وبدأ فى هذا المشروع كلما كان عدد الطلاب قليلا ، فقد كان فيما أعتقد يعز عليه أن يأتى بموضوع جديد لطالب أو اثنين ، فاذا كان عددنا قليلا نقل إلى أسباب الثورة الفرنسية ، واستمعناه منه غير مرة ، وفى مرة من المرات ، وأنا جالس الى جانبه لا أواجهه وكنت مرهقا جدًا ، وكانت ساعات نومى قليلة أيضا ، وبينما كان يقول إن من بين الأسباب التى دعت إلى قيام الثورة الفرنسية يرجع الى جهد ومؤلفات « جان ستورت مل » كنت أنا قد أغفيت فى سنة من النوم فعندما سمعت « جان ستورت مل » إذا بى أقول له : ألا تتفضل بأن تقدمه لى ، فكان هذا أشبه بحلم لأنه ستقدمه لى ، سبب هذا أنى كنت قد درست جان ستورت مل وعهد الثورة الفرنسية باللغة الانجليزية سابقا ، وعندما قلت له :: « Well you imtrodmce me to

him » هل لك أن تقدمه لى : عقب أن قلت هذه تيقظت ! ووجدت الرجل مندهشًا ، فأدركت نفسى بأنى أخطأت فقلت له : أرجوك تقدمه لى عن طريق بعض مؤلفاته فإننى قرأت له كتاب : « الأديوكيشن » وكتابه فى كذا وكتابه فى كذا. فالرجل صدق حيلتى ، وقال لى : إذا كنت عرفت عنه هذا الذى قرأته فأنت لا تحتاج أن أقدمه إليك ، أنت بالفعل على علم كثير جدًا مما كنت سأقوله . فشكرته وانتهى الأمر عند هذه المسألة !

●● أستاذى اليهودى حرم العمل أيام : « الجمعة ، والسبت ، والأحد » كيف هذا ؟

● وفيما يتعلق ببعض الذكريات مع الأساتذة الذين درَّسوا لى فى انجلترا أذكر الأستاذ :

وارتسلى « EARTSLE » فى جامعة لندن عندما كنت أدرس فيها العبرية والفارسية ، هذا الأستاذ كان يدرس لنا العبرية ، وهو يهودى من أصل بولندى كان الأستاذ من المهاجرين الأوربيين الذين لجئوا الى انجلترا ، وكان يدرس اللغة العبرية وهو يهودى ومتخصص فيها .

فى ذلك الوقت كنا أربعة أو خمسة من المصريين ندرس العبرية ، فاجتمعنا على هذا الأستاذ . الأستاذ / حامد عبد القادر رحمه الله ، الذى كان من أفاضل العلماء والاستاذ محمد محمود جمعه الذى كان فى آخر أيامه أستاذا مساعدًا بكلية دار العلوم ، وكامل المهندس رحمه الله ، وهو أيضا انتهى أن كان أستاذً مساعدًا بكلية دار العلوم ، وأنا . وإذا بالاستاذ اليهودى يقول : أنتم مسلمون ، ولا يصح أن تشتغلوا يوم الجمعة ! وأنا يهودى ولا يصح أن أشتغل يوم السبت ! والجامعة مسيحية ولا يصح أن تشتغل يوم الأحد ! فلابدَّ أن جدولنا فيما بين الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس . وتحكم فى أن الجدول يقع فى أربعة أيام فقط ، ولا يستغرق الأسبوع كله .

ومهما حاولنا بأن نقنعه بأن المسلمين لا يحرمون العمل يوم الجمعة إلا ساعة صلاة الجمعة فقط . والقرآن صريح فى هذا حيث يقول جل ذكره : **« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض .... »** [سورة الجمعة ــ الآية : ١٠] لكنه هكذا أراد .

●● كيف انتصرت على أستاذى اليهودى وحصلت على الجائزة ؟

ولى معه حادثة أخرى ... وهو أن شركة يهودية فى لندن أعلنت فى سنة من السنوات وأنا أدرس معه أن مكافأة كبيرة – كان مبلغا لا بأس به – ستكون لأول الطلاب ، وسواء كان

غرورًا أو صدقا منىّ كنت آمل أن أحصل على هذه الجائزة ، لأن عملى وإصرارى كانا يرشحانى لهذا ، وأن أكون الأول فى هذه المسابقة ، إلا أنه وقبل الامتحان بثلاثة أسابيع تقريبا يحضر الأستاذ « وارتسلى » بنتا يهودية من أقاربه أو معارفه ويلحقها معنا فى الكلية ، ويلحقها بتلك الكلية بأساليب غير شرعية ، لأن التحاق الطلاب لا بد أن يكون من أول العام ، لكن هذا كان فى آخر العام ! وإذا بها يحضر معنا فى هذه الأيام الأخيرة ، فأنا أدركت توًّا ! أن حضورها لم يكن لتتعلم العبرية ، لأنها كانت تعلم بالعبرية طبعًا أكثر مما نعلم نحن . لأنها لغتها الأصلية ، ففهمت أنها إنما حضرت لتحجب الجائزة عنى عندما تكون الأولى فى الامتحان . فاذا بشجاعة الشبان ، وحب انتصار الحق ، يدفعنى لأن أواجهه وأقول له : حضور هذه الطالبة غير شرعى ، وأنا سأتصل بادارة الجامعة ، وأسأل كيف حصلت على الموافقة بأن تحضر قبل الامتحان بعدة أسابيع قليلة . فلا شك فى أنك تريد لها أن تحصل على هذه الجائزة ! التى أعدت لنا . فما لا شك فيه أنه جبان ، خصوصا وأنه لم يكن فى جانب الحق ، فتقهقر بطريقة يهودية ! حيث ذهب الى تلك الشركة ، ولا أدرى ماذا قال لها . ولكن كانت النتيجة أنها أعادت الإعلان وأن الجائزة ستكون مضاعفة لاثنين من أوائل الناجحين ، يعنى أنها ستأخذ مثل ما آخذ أنا حالة توفيق الله لى وحصولى على المرتبة الأولى . ورجَانِى أن أكتفى بهذا ... وبكل أسف حصلنا عليها سويا ، وأحمد الله أن انتصرت أولا على المعاملة اليهودية غير الأخلاقية . وثانيا : على أنى وفقت وحصلت على الجائزة .

●● أنا ساحرة ، وسحرى أقوى من سحر المصريين القدماء !
●● ... أنا لست روح مهدى أنا مهدى بشحمه ولحمه !
●● لماذا رفض « أبو العلا » دفع فاتورة الحمام ؟!

بسم الله الرحمن الرحيم أرجو من الله تعالى أن يوفقنى فى أن تساعدنى الذاكرة ، على تذكر أحداث مضى عليها أكثر من خمسين أو ستين سنة ، وفى هذا المقام أريد أن أذكر صديقا ، وزميلا ، رافقنى مدة طويلة ، فى أيام الدراسة فى مصر ، وفى انجلترا .

ولقد حدثت حادثة ، كانت فى بدئها مفزعة ، وانتهت بسلامة الله .

الزميل هو : المرحوم الدكتور أبو العلا عفيفى ، كان أستاذًا للفلسفة فى جامعة القاهرة والاسكندرية . وعميدًا فى وقت من الأوقات لكلية الآداب فى جامعة الاسكندرية . وقد جمعتنى الدراسة معه أولا : فى دار العلوم . وثانيا : فى انجلترا ، وكنا فى وقت من الأوقات ندرس فى جامعة واحدة هى جامعة الجنوب الغربى (إكستر) .

كان من عادة البعثات أن تكلف الطلبة المصريين الذين يدرسون فى انجلترا ، أن يختاروا إحدى مدارس الصيف ، المنتشرة فى أنحاء انجلترا شمالاً ، وجنوبا ، وشرقا ، وغربا ، ويختاروا أى مادة يشاءون أن يدرسوها ، وليس من الضرورى أن تكون هذه المادة هى مادة دراستهم التى فى الكلية ، ففى سنة من السنوات - أعتقد أنها سنة ١٩٢٤ أو ١٩٢٥ اخترت أنا وزميلى الدكتور أبو العلا عفيفى أن ندرس فى « سمر اسكول » التى كانت مقامة فى « أدنبرة » عاصمة « اسكوتلاندا » فى ذلك الوقت ، وكان موضوع الدراسة ، أعمال « شكسبير » ذهبنا وبعد أن انتهت مدة الدراسة التى تشمل عادة حوالى أسبوع ونصف ، أو أسبوعين ، بقينا نحن نستكمل الرحلة فى أننا ندرس هذه البلاد دراسة جغرافية واجتماعية ، لأن هذه كانت أول زيارة لنا فى « اسكتلاندا » . وقررنا أننا نقوم بهذه السياحة على طريقة هى أننا فى كل أسبوع نذهب الى منطقة ندرسها ، ونأخذ صورا لها ، إلى أن جاء يوم من الأيام ، وجاء الدور على أقصى شمال اسكتلاندا وكنا نريد أن نذهب اليه ، لأننا درسنا أقصى جنوب انجلترا ، وقررنا أن ندرس أقصى شمال « اسكتلاندا » . وصادف هذا طبعًا بتدريب منا أن يكون فى أول الشهر ، حتى يكون معنا النقود التى ننفق منها فى أثناء الرحلة ، وكان هذا يأتى عن طريق شيك يرسله لنا مكتب البعثات بلندن على العنوان الذى نتركه ، فقررنا أن تكون الرحلة فى أول يوم فى الشهر ، غالبا كان هذا الشهر هو أغسطس — وانتظرنا وصول الشيك بالطريقة المعهودة ونمر على أىّ مصرف ونتقدم له الشيك فيصرف لنا المبلغ ، وكان هذا فى يوم السفر ، وكنا نسافر على : « موتوسيكلات » .

وذهبنا بعد أن أعددنا حقيبة السفر التى تكفى مدة عشرة أيام ، وربطناها فى شنطة الدراجة ... وأنا الذى كنت محتاجا لأن أصرف الشيك ، وأبو العلا ليس محتاجًا لصرف شيك ، وأعطيت الشيك الى البنك فنظر فيه وقال : أرجو أن تحضر بعد يومين حتى يصلنى إخبار أن لك هذا الرصيد فى البنك . وكانت هذه أول مرة عوملت فيها هذه المعاملة ، وفى العادة كانوا يصرفون الشيك بمجرد تقديمه فخشينا أن يعطل هذا الرحلة ، فاقترح أبو العلا أننا نسافر ، وقال أنا معى النقود كافية . وهو ربنا يسهل له ، كان حريصا على مرتبه بحيث يبقى منه ما يكفى . فاتفقنا على هذا وسرنا عدة مراحل ، وكنا نقف نشترى ، بعض الأشياء ، ونتناول بعض الأطعمة إلى آخره. الى أن حدث فى أثناء الطريق أن « الدبرياش » الخاص[1] « بالموتوسيكل » التى لى « عطل » وكنا نصلحه ، فى ذلك الوقت كنا قد وصلنا الى مدينة « جلاسجو » وهى العاصمة الثانية « لاسكتلندا » وسألنا عن جراج أو ورشة ، لنصلح فيها هذا العطب فقيل لنا : إن نظام « جلاسجو » يجمع الصناعات فى منطقة واحدة على نظام ماكان موجودًا فى القاهرة من شارع النحاسين والمغربلين ، والسروجية ، والصاغة إلخ .

كان هذا النظام لايزال قائما ، فقالوا إن جميع الصناع والورش فى شمال « جلاسجو » ونحن كنا فى الجنوب فكان لابد أن نسير الى هذا الشمال ، أبو العلا رحمه الله كانت سيارته سائره ، فكان راكبا ، ويسير ببطء حقيقة لكنه يتقدم - وأنا خلفه أزج براحلتى عسى أن تصعد ، والمنطقة جبلية ، معظم الشوارع مرتفعة ومنخفضة ، وبالطبع كان من أشق مايمكن على أن أزج بدراجتى وخصوصا أن عليها حمل ثقيل ، حيث توضع حقيبتى فى آخرها ، فكان هذا أمرًا شاقا علىّ ، ولكن كان لابد منه ، وكان هذا فى الصيف ، وكان الصيف شديدًا جدًّا ، وإلى جانت هذا كنت مرتديا معطفًا من الجلد احتياطيا ، لأنا كنا لا نخرج على الدراجات إلا ونحن مرتدين معاطفنا ، خشية أن يصيب الإنسان أى ضرر ، وأبو العلا أمامى ، من حين لآخر ينتظر ... إلا أن الشوارع تتفرع جنوبا وشمالا ، وشرقا وغربا ، فكنت أرجو إنه ينتظرنى عند المفارق حتى لايأخذ مفرقا غير الذى أسير فيه أنا .

الذى حدث أن بعد مضىّ أكثر من ساعة ، ربما ساعتين ونحن فى هذه الكفاح ، أنه انحرف يمينا ، فلما وصلت أنا الى المكان الذى أظن أن انحرف فيه ، سألت عسكرى الشرطة هل رأى راكبا لسيارة [دراجة بخارية] وقد اخطأت تلك التسمية لأنها ليست بخارية حيث انها لا تسير بالبخار . فكنت أسأله وأقول له : وهو يرتدى معطفا من الجلد فيقول : نعم رأيته . فأسير حتى أصل الى مفترق طريق آخر فأسأل العسكرى : هل رأيت راكب دراجة بالشكل الفلانى فيقول نعم وهو كان يسير فى هذا الاتجاه فأسير وراءه ، وهكذا ظللت حتى غربت الشمس ، وهبط الليل علينا ، وأنا كنت فى تعب وإرهاق شديدين ! وقلق أشد لعدم وجود أبو العلا وانغلاق أمامى فيما ستؤول إليه هذه الرحلة ، وأسوأ من كل هذا أنه ليس معى نقود ، لأكمل بها الرحلة ، أو حتى لأعود لأنى لم يكن معى سوى جنيهين أو ثلاثة ... وعندما وصلت إلى الشمال دخلت فى ورشة وطلبت منهم إصلاح الفتيس ، فقالوا لى : هذا لا يصلّح الآن . نحن نغلق مبكرين ! فانتظر حتى الصباح فقلت لهم : شكرا ، أنا لابد أن أنتهى الليلة ، تركت المحل ودخلت تقريبا ثلاثة أو أربعة محلات (ورش) كل واحد منها أدخل فيه فيقولون انتظر حتى الصباح ، فأخرج حتى وجدت أنه لا حيلة إلا البقاء حتى الصباح ، ففى آخر ورشة دخلت فيها تركت الدراجة ثم سألت مدير الورشة : قلت له : ماأقرب فندق فى هذه المنطقة ؟ لأنى لا أريد أن أمشى أيضا حتى أصل إلى فندق !! فوصف لى فندقا لا يكاد يبعد دقيقة أو دقيقتين عن هذه الورشة ، فذهبت إليه مرهقا متعبا ، قلقا ، وبعد أن قيدت اسمى فى دفتر النازلين ، ذهبت الى حجرتى وغيرت ملابسى لأنى كنت لابس « ملابس السفر » ونزلت فتناوت العشاء وصعدت الى حجرتى لأنام وأستريح وأدبّر أمرا ما - عن طريق مكتب موجود فى ذلك الوقت - وهو أنى أرسل برقية إلى ربة البيت التى أقيم في بيتها فترسل لى مبلغا من المال

بالتلغراف أيضا ، وكان هذا يصل فى ساعات،كان هذا معروفا ، فاطمأننت على هذا ، وقلت : أنا أبقى فى الفندق إلى أن يصلنى المال الذى أدفع منه للفندق وأكمل به ماسوف يأذن الله به سواء تصليح الدراجة أو تكميل الرحلة أو العودة بعد أن ضاع الوقت فى فقد أبو العلا ، إلى جانب فقد المال ، ولكن بعد أن انتظرت فى حجرتى ، واسترحت بعض الشئ وتناولت العشاء ، قلت لا بد إن أبو العلا وصل إلى هذه المنطقة يعلم اننا نقصد المنطقة التى فيها الورش !! فلابد أنه يكون قد وصل ، ولعله يبحث عنى الآن ، ولابد أنه يعلم أنه متى هبط علىّ الليل سأبيت فى « جلاسجو » إذن هو سيبحث عن فندق وينزل فيه . فلماذا لا أنزل أنا وابحث عنه فى الفنادق القريبة من هذه المنطقة ، والطريقة المعقولة لهذا البحث هى أن أطلب تليفوناتها ، فنزلت الى مكتب الاستعلامات ، وطلبت من سكرتيرة الاستعلامات أن تعطينى أرقام الفنادق القريبة من هذا الفندق ، فبنوع من المزاح قالت لى : ألا يعجبك هذا الفندق ، فتريد أن تنتقل الى غيره؟! فقلت لا . متشكر ، الواقع أننى متورط فى مشكلة . ذلك أننى فقدت صديقى بعد أن قطعنا نحو ساعتين ، وهو راكب وأنا ماشى على قدمى ، حتى وصلت الى هنا ... وقصصت عليها القصة .

فانتظرت قليلا ثم قالت لى : أنت تأتى من مصر ؟ قلت : نعم . قالت بلد السحر من قديم . قلت : أرجوك أنا لست فى حالة تسمح لى بتبادل الحديث : أنا أريد أن أصل بأسرع وقت ممكن الى مكان صديقى ، فاذا تفضلت بأرقام تليفونات الفنادق القريبة من هنا . أكون شاكرًا . قالت : اسمع أنا ساحرة ! وأنا ضجرت من مزاحها ، (ويل الشجىّ من الخلىّ ! » قالت : أنا . أنا ساحرة ، وسحرى أقوى من سحر المصريين . أنت رقم حجرتك كذا . قلت : نعم . قالت : أنا آمر الآن صديقك هذا أن يكون فى الحجرة الملاصقة لحجرتك .. فقلت لها : أنا أشكرك وأشكر مزاحك . ولكن أرجو أن تعطينى أرقام الفنادق لأنى أنا لست فى حالة تسمح لى بأن أمازح .. !

قالت : أنا آمرك كما أمرت صديقك أن يكون الآن فى الحجرة الملاصقة لحجرة صديقه ! اذهب وأنت تجده .

لم أجد بدًا من أن أفعل هذا ... فذهبت والحجرة فى الدور الثالث أو الرابع ، وطرقت الباب فسمعت صوتا كأنه صوت أبى العلا ، ففتحت الباب ودخلت وأدرت النور ، فاذا بأبى العلا فى سريره ينظر الىّ ويقول : أنا لا أعتقد فى الأرواح ، ولكنك أنت لابد أن تكون روح مهدى ! من أين أتيت ؟ فقلت له : قم . أنا لست روح مهدى ، أنا مهدى نفسه ! وقصصت عليه قصة السكرتيرة ! وقلت له : لابد أن تقوم الآن لأننا مازلنا فى أول الليل ، نذهب الى

السينما ، نتفرج على المدينة ، نرى معالمها وقبل أن ننتقل من هذه الحجرة أبلغنى كم معك من المال ونقسمه لكى أتصرف فى نصيبى كما أشاء ولا أظل عالة عليك ، وبالفعل اقتسمت المبلغ الذى معه ... وقضينا الليلة فى فسحة فى المدينة ، ثم توجهت الى السكرتيرة وقلت لها : من أين لك أن صديقى كان فى الحجرة التى بجوار حجرتى ؟ قالت : المسألة فى غاية البداهة ، أنا عندى دفتر النازلين ، أنت حضرت ، اسمك غريب ! ليس من الاسماء الانجليزية ، مكانك الذى تدرس فيه مكتوب ، جامعة إكستر ، آخر عنوان كنت موجودًا فيه فى « أدنبره » مكتوب . جنسيتك مصرى جهتك التى تقصدها ، شمال اسكتلندا ، وهذه المعلومات تدون فى دفتر الفندق ، وبعد دقائق من حضورك أنت وذهابك إلى هذه الحجرة حضر واحد اسمه غريب مثلك ، يدرس فى إكستر ، حاضر من أدنبره ، يقصد شمال اسكتلندا ، هل هذا يحتاج إلى ذكاء شديد فلابد أن يكون هذا هو الصديق الذى تطلبه ! خصوصا أنه حضر بعدك بدقائق فكان طبيعيا أن الحجرة التى شغلتها أنت . يشغل هو الحجرة التى تليها.

بعد ذلك – طبعا – استمرينا فى رحلتنا إلى أن وصلنا الى آخر نقطة تقريبا ، ولكن حدث بعد هذا أننا كانت طريقتنا أن نسير على الدراجات التى معنا ، حوالى مئة ميل ! أو مائة وعشرين ميلا على الأكثر . وهذا يجعلنا على مقربة من المغرب ، ونحن نقترب من إحدى القرى التى نمرّ بها ، وكان من سياستنا أن نتجنب المدن الكبيرة ، لأن الفنادق فيها غالية ، لكن القرى الصغيرة فيها ما يسمى « البنسيونات » وهذه من أنظف وأجمل مناطق السكن ، والطعام فيها طعام ريفى : اللبن ، والبيض كله طازج ، فكنا دائما نجعل آخر رحلة اليوم تنتهى قبيل المغرب وتنتهى فى قرية من القرى التى نمرّ بها ، وطبعا يوجد جدول عند مدخل كل قرية فيها عناوين البنسيونات ، وأسعارها ، كنا نفعل هذا .

فى هذه المرة شاء القدر ، وكنا فى أغسطس ، وقمة الإجازات الصيفية ، فى إنجلترا ، كنا نذهب فى قرية من القرى قبيل المغرب ونسأل فنجد أن جميع « البنسيونات » مملوءة ! ليس هناك مكان أبدًا ، معنا الدراجات السريعة نركب الى قرية بعدها ، بعشرة أميال ، أو عشرين ميلا ، وهذا ممكن ، ويأخذ بضع دقائق ، فنذهب فنجدها مثل سابقتها مغلقة ، وفعلنا هذا ثلاث مرات أو أربعا . فلا نجد مكانا ، حتى أطبق الليل علينا ، وقلنا لا مفرّ إذن من أن نسلك سبيلا يوصل الى البيات ، ودخلنا فى مدينة اسمها « بيت لوخرى » مدينة كبيرة جدًا من مدن اسكتلاندا ولا تعجب للخاء التى فيها ، فالاسكتلنديون ينطقون الخاء ، وبمجرد أن وصلنا الى المدينة ، وجدنا عنوان « فشر هوتيل » فذهبنا وكانت الساعة بعد الحادية عشرة ، يعنى قبل نصف الليل بنصف ساعة – فكم بتصوركم كنا متعبين – فسألنا هل يمكن أن نبيت فى

حجرة بسريرين ؟، فذهبا ، وكنا جائعين فقلنا لهم هل لديكم طعام فقالوا طبعًا موعد العشاء انتهى ولكننا سنطلب من المطبخ بعض الأشياء لديه تسد ألم جوعكم ! وبالفعل ــ وعلى عكس ماتوقعنا – أحضروا لنا طعامًا فاخرًا جدًا ، والفندق فاخر جدًا ، فدخلنا وتناولنا الطعام ، وصعدنا إلى الحجرة ، ونمنا ، وفى الصباح قمنا ، وبعد الاستعداد للنزول نزلنا لنتناول طعام الإفطار ، فإذا بحجرة الطعام تتسع ل ٤٠٠ شخص فى وقت واحد ، فتناولنا الفطور وذهبنا لندفع الحساب، الحساب كان بسيطا جدًا ، فى ذلك الوقت ، أظن أنه كان « سبعة شلن ونصف » للبيات والفطور ، وشلن ونصف للعشاء ، ووجدنا على كشف الحساب وشلن للحمام !!

وكان هذا نادرًا أن يحدث بالفنادق الانجليزية ! فأبو العلا وهو حريص على ماله ، قال لى : أنا لم أستحم ، فأنا لا أدفع هذا الشلن ، فقلت له : لاتفضحنا ... أمام هؤلاء الناس ويظنون أننَا من الزنوج الذين لايهتمون بالنظافة ، فقال لا . فقلت له : أنا سأدفعه ، فدفعت له الشلن ضمن الحساب ، واستمرينا بعد هذا الى أن وصلنا الى منطقة الحدود ، وعدنا بعد ذلك إلى المقر الذى نقوم منه فى أدنبره ، وأعدنا الرحلة بعد ذلك بطرق أسعد من هذا ....

●● لماذا غضب المسئولون لعدم احترام رجال الكنيسة والجيش ؟!

● وهناك حادثة أخرى لا تمسنى شخصيا ؛ ولكنى عاصرتها وهى : عندما ذهبت الى « اكسترا » وهى عاصمة الجنوب الغربى فى انجلترا ، وبها جامعة عظيمة جدًا ، علمت أن هناك مشكلة كبيرة قائمة بين الطلبة والبلدية ، حدثت فى الصيف الذى ذهبت أنا فى آخره ، ذلك أن الجامعة كمعظم الجامعات البريطانية لها يوم تقيم فيه مهرجانا هزليا وتسير فيه فى شوارع المدينة بملابس تاريخية ، والغرض من هذا جمع أكبر قدر من المال لمستشفى المدينة ، التى تكون فيها الجامعة .

وحدث فى السنة السابقة لذهابى الى إكسترا ، أن الطلبة فى يوم مهرجانهم قام فى ذهنهم أن يدهنوا تماثيل المدينة بلون الجامعة ... الجامعة لون الكرافتة أو البليذر – التى هى سترة الألعاب – فكان لونها فى ذلك الوقت الأحمر والأسود .

قام فى ذهنهم أن يطلوا تماثيل المدينة بلون الجامعة وفعلوا هذا ليلاً ، وأصبحت المدينةترى هذه التماثيل فلا بد أن أحدهم ضحك ، والبعض سرّ وابتهج ، ولكن رجال الحكومة ، البلدية غضبوا غضبًا شديدًا جدًا ؛ لأن من بين التماثيل التى طليت وصارت نموذجًا للسخرية فيها

تماثيل لرجال الكنيسة ! بعض القساوسة الكبار ! ورجال الجيش الكبار الذين لهم بطولات فى تاريخ الحروب ... فقامت ضجة شديدة ! وظلت هذه الضجة قائمة .

وبعد مضى سنتين أو ثلاثة ، وأنا موجود هناك نقل أستاذ بالجامعة مديرًا – أو بعبارة أدق ، نقل أستاذ مكان أستاذه فى أدنبره : ولهذا قصة صغيرة أذكرها فيا بعد . أقمنا له حفلة توديع ، فاذا به يقول فى هذه الحفلة : واسمه « د . هذرنجتون » ما أزال أذكره وأذكر فضله ولطفه فى معاملتنا نحن المصريين ، فكان كثير العناية بنا ، والسؤال عن دراستنا .

قال : إنى حضرت هنا منذ ثلاث سنوات معكم ، وكانت هناك أزمة شديدة بين الجامعة والبلدية ، ذلك أن رجال البلدية أصروا على محاكمة طلبة الجامعة ، وبالفعل رفعوا عليهم قضية ، كان من نتائجها الى جانب العقوبات التى طلبوا من الجامعة أن تنزلها بالطلاب ، أن يغرم الطلاب (اتحاد الطلاب) نفقات غسل جميع التماثيل ، وأن يقوموا هم بذلك حتى يعيدوها إلى ماكانت عليه .

قال : وجدت هذا أنا ، فطبعا حاولت جهد استطاعتى أن أخفف من غضب البلدية – رجال الحكم المحلى – ومن الغريب أن غضبهم هذا كان غضا أدبيا ، ماكانوا يريدون بقضيتهم التى رفعوها على الطلاب إلا أن يعلموا الطلاب درسًا فى احترام رجالهم القدامى ، من أمثال القساوسة ورجال ضباط الجيش ، **إن الأموال التى دفعناها للمحامين** – وأجور المحامين فى انجلترا باهظة – قال : إن رجال البلدية كانوا يدفعون لى : سرًا المبالغ التى أقدمها للمحامين دفاعًا عنكم ، وانما كان غضبهم ليعلموكم أن تحترموا رجال الكنيسة ، ورجال الجيش ؛ حضرت أنا جزء الصلح فى تلك الحفلة التى أقمناها للبروفيسور : « هذر نجتون » .

وبمناسبة أنه نقل أستاذًا / قد تظن أن مدير جامعة إذا نقل أستاذًا يكون تنزيلاً لمقامه ، لم يكن الأمر كذلك ، الذى حدث أن هذا « الاسكتلندى » وهو « هذر نجتون » كان اسكتلنديا وتخرج من جامعة « أدنبره » على يد أستاذ / الفلسفة ، قال : لنا فى تلك الحفلة ، إن أستاذى هذا ، كان فى نشأته صبىّ إسكافى ! وليس له بيت يبيت فيه ، وإنما كان يبيت فى محل الاسكافى ، ولكنه كان مولعًا بالعلم ؛ فعلّم نفسه ، وظل يتعلّم فى مرحلة ، البدء ، والمرحلة الثانوية ، ودخل الجامعة ، كل هذا وهو صبىّ إسكافى ، ويبيت فى محل الاسكافى ، وكان يقرأ ليلا على ضوء فانوس الشارع ! وأحيانا كان يجمع « دود الحباحب » ودود الحباحب هذا هو دود فسفورى ، يضىء ليلا اسمه بالانجليزية « GLOW WORM » وبالعربية : حباحب أى سراج الليل ، لأنه يضىء حقيقة ، وهو يوجد بكثرة ، فى انجلترا وفى اسكتلاندا بالذات ، فكان يجمع مجموعة من « الحباحب » ويضعها فى « برطمان زجاج » وفى الليل يضىء مجموعها ، فكان

يقرأ على ضوئها ! إلى أن تخرج ووصل الى أستاذيه الفلسفة فى نفس الجامعة التى تعلم فيها ، وهى جامعة أدنبره . ثم تُوفى بعد شيخوخته ، فأوصى فى وصيته أن الذى يتولى مكانه هو : « هذر نجتون » تلميذه الذى كان مديرًا لها ، فقال : أنا قبلت هذا سعيدًا جدًا بأن أشغل مكان أستاذى .

وهذه أيضا من الأحداث التى أتذكرها عن إكسترا .

●● ماذا كانت النتيجة ؟! ٣ - ١ وسبورة !!

● **وبمناسبة جامعة اكستر أذكر شيئا آخر :** فى المدينة كلية أخرى غير جامعية ، كلية دينية ، اسمها : « القديس لوقس » وهى تخرج قساوسة ، وكان بين الكليتين كليتنا فى جامعة إكستر ، وكلية « القديس لوقس » منافسات رياضية ، تتبادل المباريات ويغلب هذا ، وينغلب ذاك ، الى أن حدث أنه فى مرة من المرات ، بعد المباراة غلبت **« اكستر سانتلكس »** فكتبوا النتيجة على سبورة ، مثلا : ٤ - ١ وملاعب الكرة خارج المدينة ، وكانت عادة يوم السبت تعود الأفواج من هذا المكان الى المدينة كما نراها الآن ، عندما تعود من الاستاد وتسد الطريق أمامنا ! فكانوا فى كثير من الأحيان ، كان الطلبة يعودون ماشين فى أفواج ، وفى تلك المرة التى غلبت فيها إكستر كلية القساوسة ، حملوا السبورة التى كتبوا عليها النتيجة ٤ - ١ وظلوا طول الطريق يهتفون ويغنون كعادتهم وفى أثناء انضمام مجموعة لهم يهتفون ويرددون ماذا كانت النتيجة فيرددون جميعا وفى صوت واحد ٤ - ١ . وكان هذا الى جانب الآخرين وهم يسمعونهم يضايقهم ، وظلت هذه المنافسة ، وأنا أدركت جزءا من هذا ، وأنا كنت لاعب كرة فى اكستر .

وهذى السبورة التى وضعوا عليها هذه النتيجة وضعوها فى حجرة من حجرات الجامعة فى الاستقبال بالدور الأول ، وظل الهتاف فى كل مباراة : ماذا كانت النتيجة يقولون كذا .... تدبر أهل الكلية الأخرى الأمر فى أنهم انتظروا يوم سبت ، وتقريبا هناك هجرة كاملة الى الملاعب ، وذهبوا الى تلك الحجرة ، وسرقوا السبورة ! وظلوا هم إذا كسبوا يرددون بأفواجهم ومن حين لآخر يقولون : وماذا كانت النتيجة ؟! يقولون مثلا : ٢ - ١ وسبورة !

وأخذ طلبة الجامعة فى البحث عن هذه السبورة ، وبالطبع كان أهل الكلية أحرص منا نحن فى أن يتركوها معروضة فى الحجرة ، إلى أن علمنا - وأنا حضرت هذا أيضا- أنهم من شدة حرصهم على استبقاء هذه السبورة ، أن فتحوا جزءًا فى الحائط ، ولكن أولاد الجامعة ، أصروا

على الوصول إلى هذه السبورة بأى شكل ؛ أتدرى ماذا فعلوا ؟ طبعًا الجامعة كانت مختلطة فيها أولاد وبنات ، لكن كلية القسسين ليس فيها بنات ! فصادف أنه بعد لقاء ... طلبوا أنهم يدعون فريقا من بنات الجامعة فى حفلة فى الكلية ففعلوا فسلطت البنات أو بعضهم على أن يعرفن مكان هذه السبورة ، وبالفعل هذا هو الذى أرشد من باب التفاخر أن أهل الكلية وبالتفاخر أيضا أخذنا سبورتكم وهل تعلمون أين هى ؟! هل تستطيعون أن تصلوا إليها .. ؟ ونقلوا هذا إلينا فجند فريق بأن يقتحم الكلية من الخلف ، ويدخل ويهدم هذا الجزء من الحائط ويسحب السبورة ، ولكن هذا أغضب رجال الدين ! على اعتبار أن اقتحام الكلية كان اقتحامًا لمكان مقدس ! وطلبوا ترضية لهم : إرجاع السبورة ، وأرجعناها إليهم .

●● سياسة الانجليز كانت تحرم على المبعوثين المصريين الحصول على الشهادات العليا لماذا ؟!

●● أستاذ الاقتصاد كان يهوى استعراض ذكائه ... وكان هذا لائقاً بِهِ ..

● يحضرنى الآن ذكرى أحد أساتذتى فى انجلترا ، فى مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية فى لندن سنة ١٩٢٥ م فقد كنت أدرس الاقتصاد وهناك ، ولى مع هذا الاستاذ قصة ، لأن رئيس البعثات أو المسئول عن البعثات فى لندن ، الذى كان مشرفًا علينا – نحن المصريين – وهو رجل ليس طيب العشرة ، ولا حسن المعاملة مع المصريين خاصة ! فقد كان ناظرًا لاحدى المدارس الثانوية هنا ، وهذا كان هو النظام المتبع ، فان نظار المدارس الثانوية الثلاثة الكبيرة : التوفيقية ، السعيدية ، الخديوية ، عندما كانوا يخرجون على المعاش ، كانوا يكلفون بالاشراف على البعثات فى لندن ، وهناك يكافأون على هذا من مدة ، ولم يكن منهم من كان حسن المعاملة معنا . لعدة أسباب : مستر « هيبرد » هذا كانت سياسته وهى السياسة التى كانت متبعة مع غيره من المشرفين على أعضاء البعثات ألاّ يسمحوا لنا بالحصول على شهادات أعلى من شهادات الموظفين الانجليز فى مصر .. والذين عندما نعود نحن فى الغالب سنكون لمدة على الأقل مرءوسين لهم ، فلا يصح أن تكون شهادتنا أعلى من شهادتهم !

ولذلك كانت هناك عقبات كبيرة جدا ، تقف فى طريقنا وكنا ندخل فى مناقشات حادة جدًا بينى وبين مستر : « هيبرد :

ومن بينها : عندما أردت أن أختار المواد الأربعة التى أمتحن فيها ، لمعادلة : « الماتركوليش » اخترت طبعًا – لم يكن لدىّ فضل الاختيار – اللغة الانجليزية والتى كان لابد من اختيارها ، ثم المنطق أو الرياضة ، ثم أى مادتين أختارهما . فعارضنى هو فى المنطق ، وقال

لى : المنطق لا يمكن أن يدرسه وينجح فيه بلغة أجنبية إلا النادر جدًا ! وخريجى الحقوق الذين يحضرون هنا ، والذين يدرسون المنطق بالانجليزية فى مصر ، يرسبون فى المنطق ؟! ومع إعجابى الشديد بلغتك الانجليزية !! كان هذا ترجمة ماقاله : فلا أنصحك أن تأخذ المنطق ! فأنا تمسكت على أن آخذ المنطق ، الى أن وصلنا إلى مايشبه (العوم !) فقلت له : « مستر هيبرد »! أنت الذى تتقدم الى الامتحان أم أنا ؟! أنا أعلم بنفسى ، وأنا أعلم أنك على حق فى النصيحة وقد بذلتها .

الشىء الذىبعد هذا أنى اخترت تاريخ مصر ، وتاريخ أوربا الحديث ، المادة الثالثة والمادة الرابعة ، اخترت الاقتصاد السياسى ، وهنا تقريبا فجع !! وقال لى : ماذا تعرف عن الاقتصاد السياسى ؟! قلت له : ولا كلمة . فقال : فكيف تجرؤ على أن تأخذه ؟! قلت : لأتعلم . أنا لا أريد أن أنجح فى الامتحان فقط . هذه فرصة أتيحت لى لأنى أنا أختار مواد أتعلم فيها . واضطر آخر الأمر أن يوافق . فكانت أياما سعيدة جدًا فى الدراسة فى كلية الاقتصاد السياسى هذه !

وكان الذى يدرس لنا هذه المادة أستاذًا عظيما جدًا مشهورًا – فى ذلك الوقت – اسمه دكتور : (هيو والتون) كان وزيرًا للمالية ، وكانت القواعد فى لندن وأظن أنها لاتزال قائمة ، تسمح بأن يجمع أستاذ الجامعة بين الوظائف الحكومية كالوزارة ونحوها ، هذا كان شابًا ! يكاد يقارب الخمسين ، ولكنه كان مشهورًا جدًا ! متلألئًا ! متوقدًا .

وكانت من المتع الحقيقية أن يحضر الانسان محاضرته ، وكان له طريقة ، أنه بعد كل أسبوعين ، أو ثلاثة ، يجعل إحدى محاضراته للأسئلة ، من يشاء أن يسأل ويتقدم هو بالرد على هذه الأسئلة .

وكانت له طريقة عجيبة ؟ وهو كان لا يتلقى السؤال ويجيب عنه ، وإنما يدعو الطلبة إلى القاء أسئلتهم سؤالين أو ثلاثة ، ثم بعد ذلك يبدأ فى الاجابة ويقول السؤال الأول كذا . والاجابة عليه كذا . والثانى والثالث كذا .

ولا شك أنه كان يحب الاستعراض ! وكان هذا لائقا به ، لأنه كان فى بحبوحة الشباب ، وتدفق ، وشهرة عالمية ! فى الاقتصاد وفى البرلمان أيضا ، فكان يبدأ ويقول : السؤال الأول : لم يكن سائله حاضرا هنا ، يوم حاضرت فى الموضوع الفلانى ! لأنى عندما حاضرت فى الموضوع الفلانى ، تكلمت عن هذه النقطة ! ويتضح فعلاً أن صاحب السؤال لم يكن حاضرًا ... ويرد على السؤال التالى :

أما صاحب السؤال الثانى : فلو أراد صاحبه إجابة شافية عنه يرجع إلى كتابى صفحة كذا ، أو كتاب فلان صفحة كذا ، وسيجد فيه ما يعّن له .

والسؤال الثالث كذا ، وهكذا كان يتبادل هذه الأسئلة ! وفى كل مرة لا يقنع إلا بمجموعة من الأسئلة ، ليظهر أولا فيها ذاكرته القوية فى عدد من يحضر . مع أننا كنا أكثر من مائتى طالب « محاضرة عامة » فى الجامعة الى جانب اضافاته اللطيفة .

●● « هيبرد » كان فظًّا غليظ القلب مع المصريين خاصة !

ومما تجدر الإشارة إليه أن اختيار رُؤساء البعثات أو المشرفين على البعثات من قبل الانجليز كان يرجع الى فرض سياسة استعمارية بغيضة على مصر ، وعلى الدارسين المصريين بوجه خاص .

وبالنسبة لأعضاء البعثات المصرية التعليمية فإنهم كانوا لايسمحون للمصريين الذين يدرسون لديهم على شهادات أعلى من الشهادات التى يحصل عليها الانجليز المقيمون فى مصر ، لأن المفروض أن هؤلاء المصريين عندما يعودون يعودون ليكونوا مرءوسين لهؤلاء الانجليز . وليس من المعقول بأن يكون مرءوسًا يحمل شهادة أعلى من رئيسه . فهذا كان هو السّر فى عرقلة أى عمل يكون من شأنه الحصول على درجات أعلى مما كان فى أيدى الموظفين الانجليز الموجودين فى مصر .

وبهذه المناسبة كان هولاء الانجليز الموجودين فى مصر لايحصلون على شهادات عالية ، فمعظمهم فى درجات أقل من العالية ، لأن هذا كان متنفس المستعمرات ! متنفس انجلترا هو المستعمرات ! تعين فيها هؤلاء الخريجين بالمئات ؛ أما الذين يمتازون بالشهادة يكون لهم وظائف خاصة .

ومن أجل هذا كان النظام يجعل رئيس البعثات أحد كبار الموظفين الانجليز فى مصر ، وأنا فى المدة التى كنت طالبا فيها – فى إنجلترا – عاشرت أول ماذهبت كان هناك رئيس اسمه : « إيليوت » وكان من قبل ناظرًا لمدرسة التوفيقية الثانوية ، ولم يقم طويلا ، بل ذهب الى المعاش ، وجاء بعده : « مستر هيبارد » وكان ناظرًا للمدرسة السعيدية . وكان نظار المدارس الثانوية عندنا من الانجليز ، وكانت تعتبر هذه وظيفة كبيرة جدًا ، وبقى نحو ثلاث سنوات ونصف فى المدة التى كنت فيها طالب بعثة – ثم غُيّر بعد ذلك بمستر : « فرنس » وكان ناظرًا للخديوية ، ومع اتباعهم جميعًا للسياسة العامة فى عدم التصريح بدراسة شهادات عليا ، أعلى مما

أقرّه المجلس فى مصر ، فانهم كانوا يختلفون فى معاملتهم .

فأولا : « إيليوت » لم أقم فى مدته إلا مدة وجيزة ، وكنت أسمع عن شراسته ، ولكنى لم أر شيئا منها ، لأننى لم أقم معه سوى بضعة أشهر ، فلم أكن فى حالة اتصال به .

أما « هيبارد » فأقام نحو ثلاث سنوات وأنا فى البعثة ، وهذا الذى حدث بينى وبينه احتكاكات كثيرة جدا ، ثم جاء « مستر فيرنس » وكان يسمى : « جنتلمان »

ولسوء الحظ كان فى آخر مدته . أما هيبارد فقد حدثت احتكاكات كثيرة جدًّا لأنه كان يتدخل فى كل شىء .

فأذكر مثلا أن نظام لندن يقتضى أن الطلبة غير الحاصلين على بكالوريا « E » يحصلون عليها ، ولم نكن نحن خريجى جامعة ، لأنه لم يكن فى أيامنا جامعة ، لأن الجامعة أنشئت سنة ١٩٢٧ وأنا متخرج سنة ١٩٢٢ ، وبعثتى سنة ١٩٢٢ ، فكان لابّد من الحصول على بكالوريا انجليزية ، لأنهم لا يعتبرون أن الذى لا يخرج من الجامعة أهل لأن يدرس فى الجامعة ، نظام هذه الشهادة الانجليزية اختيار مواد ، والاختيار فى حدود محدودة ، مثلا لابد من اللغة الانجليزية أولا .. ثانيا ... اختيار بين المنطق أو الرياضيات ... ثالثا : له بعد ذلك اختيارات فى أىّ شىء يريد . فاخترت اللغة الانجليزية لأنه لابد منها ، واخترت المنطق لأنى كنت درست المنطق فى دار العلوم دراسة جيدة جدًّا ، ثم اخترت تاريخ أوربا الحديث ، والاقتصاد السياسى ، والذى حدث أنى وأنا أعرض هذا على هيبارد — وكان لا بد من أن يعرض عليه كل شىء — أخذ يناقشنى فى كل شىء ، فبدأ بالمنطق وقال : لماذا تختار المنطق ؟! فالمنطق مادة صعبة وشاقة على من يدرسها باللغة الانجليزية . **وبعبارته هو لى : ومع إعجابى الشديد بإجادتك للغة الانجليزية فاننى أرى أنها لاتساعدك على دراسة المنطق بالإنجليزية وأنا - يقول هو - كرئيس للبعثات طالما وجدت طلبة مدرسة الحقوق الذين يحضرون للبعثات هنا ويدرسون المنطق يرسبون فى المنطق ، مع أنهم درسوا المنطق فى مصر : ولأنهم يدرسونه هنا بالانجليزية يحصلون فيه على ملحق .**

فقلت له : أنا الذى سوف أمتحن . ثم انتقلنا إلى الاقتصاد السياسى فقال لى : وماذا تعرف فى الاقتصاد السياسى ؟ فقلت له : لاشىء . وكان هذا حقا . فقال لى : لماذا لاتختار مادة تعرف فيها الكثير ؟! .

فقلت له : أنا لست أقصد مجرد الحصول على النجاح فى هذا الامتحان ؛ لكن لأتعلم شيئا جديدا فى نفس الوقت ، فأنا باختيارى مادة جديدة أستفيد منها ، ناقشنى مدة طويلة الى أن

قلت له آخر الأمر : **هل أنت الذى ستؤدى الامتحان ؟! وكان هذا غريبا أن أقول مثل هذا الكلام ، ولكن أنا كنت أتجرأ عليه لأنه كان عنيفا وأنا صاحب حق .**

●● أول مصرى نجح فى المنطق بامتياز ...

وإحقاقا للحق أقول : إنه عندما ظهرت النتيجة ونجحت فى جميع المواد بامتياز وبلّغ هو ذلك قبل أن أبلّغ أنا به طبعا ، فهو كما يقول الانجليز « SPORT » فكتب لى خطابا قال فيه : « اسمح لى أن أهنئك على سبيل الخصوص بأنك أول مصرى نجح فى المنطق فى المرة الأولى ، ومن عاداك لابّد أن يأخذ فيه ملحقا » .

واذكر بعد هيبارد المستر فِرْنس الذى كان ناظرًا للخديوية . وهذا كانت له معاونة أخرى لطيفة ... وكان ألين جانبا فى معاملة المصريين .

هذه هى العلاقة التى كانت بيننا وبين رؤساء البعثات ، الى أن تحولت فيا بعد الى رؤساء مصريين . وأنا متذكر بعد أن سافرت إلى انجلترا للمرة الثانية جاء أستاذ زائر كان رئيس المكتب المصرى ، زميلا من زملائى ، فكنت أطلب منه أن يطلعنى على ملف أوراقى ، لأنه كان صورة عظيمة جدًا ورائعة للمراسلات ، لأنى كان مابينى وبين هيبارد مراسلات تصلح لأن تكون درسًا للعلاقة ، ومن المشادات التى حدثت بينى وبين : « هيبارد » مسألة المصحة التى طلبت منى أجرًا كبيرًا وقال لى : أزْج رئيسة التمريض لتقوم بتخفيض هذا ، فقلت له : أنا لست فى انجلترا لأقوم بعمل المساومة ، وإن كان لابّد من المساومة فى هذا الشأن فعليك أنت بها . وقد قام بذلك فعلا .

●● د . على مشرفة الحالة الوحيدة النادرة أيام « هيبارد »

وعندما تولى مصرى أمر البعثات تغير الحال تمامًا ، وبدأت الشهادات ترتفع - من ذلك التاريخ - وبدأنا نسمع عن الدكتوراه ، وكأنها كانت قبل ذلك من المستحيل ، ولعلى أتذكر أن هناك شخصًا واحدًا عاشرنى وسكن معى فى بيت واحد ، وهو المرحوم « د . على مصطفى مشرفة » كنا نسكن فى بيت واحد ، وهو عندما انتهى من بعثته بناء على تعليات الحكومة المصرية ومكتب البعثات فى لندن ، بقى ليشتغل بالدكتوراه ، ففصل من وظيفته فى الحكومة المصرية طبعا !

وأنا أعرف هذا السّر لأنه كان معى فى بيت واحد . وربّة البيت كانت سيدة فاضلة ، وكانت معجبة بذكاء على مشرفة وتطلّعه للمستقبل .

فقالت له : لاتحزن لن أكلفك شيئا حتى تحصل على حقوقك وتدفع لى بعد ذلك .

وبالفعل بقى مشرفة حتى حصل على الدكتوراه ، وعندئذ ردوا إليه حقوقه - وهذه حالة نادرة وحيدة أيام هيبارد - وعين فى مدرسة المعلمين العليا ، ثم عين فى كلية العلوم بعد فتح الجامعة المصرية . وكان - رحمة الله عليه - فى فترة البعثة التى عشتها معه عضوًا مثالا للعبقرية الفذة النادرة .

● لماذا صرّح رئيس حزب العمال البريطانى أن المسألة المصرية تحلّ على فنجان شاى ؟! ولماذا تنصّل من هذا الوعد أثناء محادثاته مع سعد ؟!

● وأذكر من أساتذتى أيضا : أتذكر أننا كان علينا بحكم دراسة التربية وعلم النفس ، أن نقوم بالتدريس العملى شهرًا فى إحدى المدارس ، ننقطع عن الجامعة ، ونأخذ جدولا فى مدرسة من المدارس ، وحدث هذا ، وكان المشرف علىّ من أساتذة الجامعة : أستاذ اسمه : « مستر أوين » وكان فيه شىء من الشباب وحبٌ للرياضة ، وأنا كنت محبًا للرياضة .

وقد قربنى هذا منه ، وكان لدىّ دراجة آلية ، أو مايسمونه هنا خطأ سيارة بخارية ! لأنها لا تسير بالبخار (موتوسيكل) .

من اللطيف : أن مستر أوين » كان يهتم بشئون الدراجة ، وأحيانا كان هو الذى يقوم بتزييتها ، وإصلاحها لى ، مساعدة لى ، يعنى العلاقة بينى وبينه كانت علاقة طيبة جدًا . وكانت استمرت نحو عشرين يومًا من الشهر المخصص .

هذا كان فى أواخر سنة ١٩٢٤ ، حدث أنه فى ذلك الوقت كان سعد زغلول : رئيسًا للوزارة ، وجاء إلى لندن ليتفاوض مع مستر « رمزى مكدونالد » الذى كان رئيسا للوزارة ، أنا طبعًا لعلاقتى بسعد والحركة السياسية قديما من سنة ١٩١٩ ، معروفة فكنت أعلم أنه فى يوم من الأيام حضر مستر « رمزى ماكدونالد » كان رئيسا لحزب العمال ، وقبل أن يتولى الوزارة ، وقبل أن يتولى حزب العمال أية حكومة فى انجلترا ؛ لأنه لم يحدث هذا إلا فى سنة ١٩٢٥ . وهو يزور مصر ، وزار سعد زغلول - فى تلك الأوقات كنت دائم التردد على سعد زغلول - فعلمنا أنه بعد أن زار سعد زغلول ، قال تصريحا له : « إن المسألة المصرية تحل على فنجان شاى » فهى أبسط من أن تعقد كل هذا التعقيد ، وهى تحل فى جلسة واحدة هادئة ! وطبعًا تكلمت الصحف ، وتكلمنا كلنا عن هذا الفنجان وعن غرور هذا الرجل فى ظنه أن المسألة من البساطة بهذا الشكل .... إلى أن حدث وتولى هو : رياسة الوزارة ، وصادف أن سعد زغلول قد تولى رياسة الوزارة ، وعملاً بهذه النصيحة - فيما أعتقد - وعلى كل حال كان لابد أن تقوم

مفاوضات فقامت مفاوضات بين سعد زغلول وبين « رمزى ماكدونالد » فى لندن .

الذى يخصنى فى هذه المناسبة : أنى علمت وأنا أقوم بالتدريس فى أثناء شهر التمرين الذى أقوم فيه فى المدرسة بأن سعد زغلول وصل الى لندن ، وأيا كان الوصف الذى تصفنى به ، قد يكون حماقة ! وقد يكون عدم مسئولية ! إنما أعرف أننى فى أول يوم سمعت فيه هذا : سافرت – وأنا كنت فى مدينة بعيدة عن لندن – فسافرت الى لندن وحضرت تباشير المفاوضات ، الى أن انتهت المفاوضات ولم تسفر عن شىء – وهذا شىء آخر أذكره لك بعد هذا – إنما تضمن هذا غيابى ثلاثة أيام ، عن التدريس فى هذه المدرسة التى كنت أدرس فيها ، لم يكن يخطر ببالى أن « مستر أوين » وهو صديقى وأستاذى الذى يعنى بتصليح دراجتى ! لم أكن أتصور أنه يغضب كالغضبة العجيبة ! عندما عدت فى اليوم الرابع الى المدرسة . فتنكر لى ولامنى لوما شديدا ، فى أنى أغيب دون استئذان ، وعاقبنى على هذا بمدد إضافية أقوم فيها بالتدريس .

وأنا اعترف بأن هذا كان خطأ ، ولم أكد أظن أن ذهابى لسعد زغلول يوقعنى فى هذا ، ولكن الاستاذ طبعا لم يستطع أن يدرك معنى العلاقة التى تربطنى بسعد زغلول .

فيما يتعلق بهذه المفاوضات إذ كان لابد ببيان ماوصلت اليه من نتائج ! فهى لم تنجح طبعًا ، والسبب فى هذا – كما علمت – أن « رمزى ماكدونالد » عندما قال : « المسألة المصرية تحل على فنجان شاى » لم يكن تولى الحكومة ، أو الوزارة فى أىّ شكل من الأشكال ، هذا كان رجلاً من العمال . وصعد فى النظام الاشتراكى الذى كان قائمًا فى ذلك الوقت فى حزب العمال ، الى أن وصل الى رياسة العمال ، وبحكم الدستور تولى رياسة الحكومة ، ولكنه بمجرد أن تولى رياسة الحكومة ، جاءه مايعرف فى انجلترا بالوكيل الدائم لوزارة الخارجية .

فى انجلترا نظام وكيل الوزارة الدائم الذى لايتغير مع الوزارات ! ولذلك يكون رجلاً دقيقا ، عالمه ثبتا ، فأتوا بهذا الرجل ، وكيل الوزارة الدائم روبرت ڤانسيتاوت ولقّنَ : « ماكدونالد » درسا قبل أن يقابل سعد زغلول ، فأفهمه مامعنى مصر[1] وما معنى قناة السويس ومامعنى الهند ! ومامعنى أن يكون فى الامبراطورية !!! فاذا بالمناقشة التى دارت بين سعد زغلول « ورمزى ماكدونالد » تكاد تكون صورة واحدة من المنافشة التى تحدث بين رؤساء الوزراء المصريين السابقين « ولورد كرزون » ولورد كزون هذا كان أعتى وزير خارجية فيما يتعلق بالشئون الخارجية !

هذا كان من نتيجة هذه المقابلة .

●● كيف خرج النحل من باطن الأرض بكميات لا حصر لها ؟ ولماذا تمكن منى وافترسنى ؟!

●● المؤمن لايلدغ من جحر مرتين ...

● **بسم الله الرحمن الرحيم** : تحضرنى حادثة هينة فى ذاتها ، لكنها تركت فى نفسى أثرا عميقا ، فى مدى الحرب العالمية الثانية كنت فى انجلترا أنا وأسرتى ولشدة الظروف الاقتصادية وضيق أحوال المعيشة فى انجلترا فى ذلك الوقت ، فرضت الحكومة البريطانية على كل القادرين ، أن يتخذوا لأنفسهم قطعة أرض صغيرة ، يزرعونها بالمحصولات التى يستغنون عن شرائها ، إذا لم تكن موجودة بكثرة كافية فى السوق . وفعلت مافعل غيرى ، واتخذت قطعة أرض ، لم تكن مزروعة من قبل ، على مقربة من البيت ، وعملت فيها أنا وزوجتى ، تسع سنوات ، من بدء الحرب الى أن عدنا ، وكانت مصدر خير عظيم من عدة نواح ، فقد كانت مجلبة للنشاط البدنى فى مزاولة الزراعة ، وأثمرت محصولات كثيرة ، لدرجة أننا كنا نوزعها على جيراننا .

كان هناك على تقدير مشكلتين فيما يتعلق بهذه الزراعة .

الأولى : التربة ، فإنها لم تكن خصبة خصوبة كافية ، إذ أنها لم تكن أرضا زراعية ، وأن لابد لها من السماد .

المشكلة الثانية : الماء ، وعلى الرغم من أن الأمطار كافية فى انجلترا إلا أنها أحيانا تأتى فى غير الموعد المطلوب منها .

أما المشكلة الثانية : فقد احتلنا لحلها أنا وعدد كبير من أصحاب المزارع الأخرى ؛ لأننا كنا مجتمعين فى جمعية تجمع نحو ثلاثين شخصا ، من أصحاب هذه المزارع . رجونا البلدية فى أنها تحتفر لنا بئرًا ، فاحتفرت لنا بئرًا ، استعملناها – احتياطيا – عند غرس النباتات .

أما الأمر الثانى فالى جانب شراء السماد الصناعى كان لابد من سماد اخر عضوى يتألف اساسًا من مخلفات الحدائق عندما تختمر ، بما يسمى مايشبه السماد !! فكانت وزارة الزراعة توزعه علينا من حين لآخر مساعدة للقائمين بهذا العمل ، على مزاولة عملهم ومن ذلك ، وفرت لنا مايسمى : « الدّوبال » وهو تلٌّ صغير تتجمع فيه بقايا الخضر وكل مايمكن الاستغناء عنه

من المخلفات ، ويغطى بطبقة رقيقة من التراب ، ويترك حتى يتعفن ، ويتحلل ، ويصبح سمادًا عضويا صالحا ، المدة التى يحتاجها : « الدوبال » لوصوله إلى المادة الصالحة لاستخدامه ، تختلف حسب درجة حرارة المنطقة – على مافهمن فيما بعد – ففى مصر يكتفى فيه احتواؤه لمدة شهرين على الأقل ، فين حين أنه فى انجلترا بالنسبة لدرجة البرودة كان يحتاج الى ستة أشهر على الأقل ، على كل حال المدة التى كانت أمامنا ولم ندر متى نحتاجه أو متى نستغنى عنه ، فكما نعد دائما ، مكانا فى المزرعة تتجمع فيه هذه البقايا وكل مايتخلف أيضا من المنزل ، كنا نحضره معنا على الدراجات ، ونضيفه الى بقايا المزرعة . سبق أنه كان الى جانب المزرعة التى أحتلها أنا ، ناد رياضى كبير ، وكان هذا النادى يقص أرضه الزراعية ، بالآلات المكيانيكية وينشأ عن هذا حصيلة كبيرة جدًا من بقايا الحشيش الأخضر ، ولايدرون ماذا يصنعون بها ، فعلمت أنها تستغل فى « الدوبال » بل إنها من أصلح المواد التى تخزن ، ويضاف إليها بعض الكيماويات التى كانوا يبيعونها لنا ، فسعدت بهذه الكمية الضخمة ، فبنيت مايشبه التل الصغير ، من كمية من هذه الحشائش ، وغطيتها بكمية من التراب وتركتها لما قدرت أن يكون صالحًا لاستعمالها ، نحو ستة أشهر أو أربعة أشهر ، وجاء الصيف وأردنا أن نبدأ بزراعة محصولات فقررت أن الوقت قد حان لاستخراج محصول « الدوبال » أو السماد من هذه الكتلة أو التل فأحضرت آلة زرع وضربتها فيه لافتحه واستخرج منه ما أسمد به الأرض .

فحدث ما لا يمكن أن يتصوره انسان ! كان هذا المكان فى خلال ستة أشهر أو أربعة أشهر مأوى كبيرا وخطيرا لنحل العسل ؛ لكن المشكلة التى واجهتها أنا لم تكن العسل ، وإنما كانت النحل ، فبدون أىّ مبالغة خرج من هذه الفتحة التى فتحتها مئات من النحل ! مئات بدون مبالغة ! وغطوا جسمى كله، وأنا طبعًا كنت نصف عارٍ فى الجزء الأعلى ، ملابس العمل للزراعة ، إلا أن الجزء المهم وهو الوجه غطّى تماما بالنحل ، وأغمى علىّ لأن الهجوم كان كثيرًا فى العدد ، قويا فى الأثر . أتذكر أن زوجتى كانت حاضرة ، فأخذتنى الى البيت واتصلت بطبيب العائلة ، فحضر وأعد العلاج اللازم لهذا ، وإنما الذى حدث أنه حدث نتيجة لهذا الهجوم النحلىّ الشرس ، أن حدث تورم ، وخصوصا حول فمى ، لدرجة أنى أتذكر أنه لنحو أسبوع لم أكن أستطيع أن أتناول طعامًا ، أو شرابا إلا عن طريق ملعقة صغيرة ، يمكن أن تسمح بمرور كم صغير من بين شفتى !

وكانت الأزمة شنيعة جدًا ، وعلم بها أهل المنطقة لأننا كنا نقيم فى بيت صغير على البحر ، ويعرف الناس بعضهم بعضا ، وخصوصا أهل المزارع ، الذين يجمعون المزارع ، وتركنا المزرعة ، مدة حتى ظننا أن النحل سيغادرها ، وزدنا على ذلك أننا القينا عليها بعض المواد المشتعلة ، وأشعلنا فيها النار ، إحراقا لهذا النحل ، لابعاده عن هذه المنطقة ، واستمر هذا مدة

طويلة ، إلى أن آمنا أنه لن يكون فيها نحل بعد هذا ، وبالفعل لم نجد سوى نحلتين اثنتين بالذات ، وجدنا أنه مع مرور المدة ، كانتا لا تزالان تحضران دائما ، للبيات فى هذا المكان كأنما كان هناك حنين للمأوى ، واحتجنا الى محصول من « الدوبال » فخشيت من شدة الذعر من هاتين النحلتين ، فاعددت استحكامات شديدة جدًا ، فى إحضار ملابس واقية استعدادً لمهاجمة النحل إذا ظهر بهجوم علىّ وفتحنا المكان لأخذ : « الدوبال » فوجدنا به آثار شمع العسل بكميات كبيرة ، وبكل أسف كانت فاسدة .

أذكر أنا بمناسبة أن أحد المزارعين من جيرانى فى هذه المنطقة ، بعد أن شفيت ونزلت الى المزرعة مرة أخرى جاءنى يحدثنى ومعه برطمان فيه بعض النحل من عنده ، وقال لى : إنهم يعرفون طريقة يتقون بها لسع النحل ، وهذه الطريقة إذا جاءت نحلة على جسمهم ، يحبسون أنفاسهم فلا يتنفسون أبدًا فعندئذ لا يلسعهم النحل ، **فقلت له : لك ماتشاء أما أنا فلا أقرب النحل ، ولا النحل يقربنى ، ولكنه أخرج بالفعل بعض النحل من الاناء الذى معه ووضعه على يده وقبض نفسه فلم يحدث شىء فقلت له لك هذا ، والمؤمن لايلدغ من جحر مرتين .**

●● أنا طالب عادى ... أنا مهدى ولست أميرًا من أمراء العرب !

● .. اليوم تعود بى الذاكرة من نيف وأربعين وتسعمائة عندما حدث موضوع النحل وهجومه الشرس علىّ ، إلى سنة نيف وعشرين وتسعمائة عندما كنت طالبا فى انجلترا ، فى مدينة فى أقصى الجنوب وكان لدىّ « دراجة » أى موتوسيكل .

وحدث أنى أصبت فى حادثة ، اضطررت من أجلها أنى أعالج ... بالمستشفى لمدة يوم أو يومين ، إلى أن ظنوا أن الجرح لايحتاج الى التغيير إلا مرة فى اليوم ، فكنت أفعل ذلك بالذهاب إليهم ؛ إلا أنه حدث فى يوم من الأيام أنه اشتد الألم ، اشتدادًا شديدًا ، وصادف فى ذلك الوقت أنه كان فى ذلك البيت ، الذى أسكن فيه أخو صاحبة البيت ، وهو طبيب يزورها فى كرفان كانوا يتخذون من السيارات الكبيرة ، مأوى للنوم والطعام ، يسمونه « الكرفان » يسيرون به فى البلاد التى يشاءون ، ويختارون المكان الذى يبيتون فيه ليجدوا ماء ومساعدة الماء وهذا الطبيب كان يقيم فى بلدة أخرى إلا أنه جاء لزيارة أخته ، والبيت الذى نحن فيه ، كان به حديقة كبيرة ، فكان يقيم فى الحديقة فى : « كرفانه» .

وفى مساء ذلك اليوم كان الألم شديدًا جدًا ، وكان يسكن معى صديقى وزميلى المرحوم كامل المهندس ، فطلبت إليه ، أن يسلك سبيلا لمساعدتى ، فكان أقرب شىء وصل إليه أنه

ذهب الى هذا الطبيب فى الحديقة ، وقال له : أدرك مهدى ، فإن حرارته مرتفعة ، ويتألم بشدة ، فجاء ونظر الى الجرح ، إن القانون يمنع أن يمس المريض فى حالة كهذه ، إلا الطبيب المعالج ! وليس لطبيب آخر أن يمسه إلا إذا كانت الحالة حالة إنقاذ من موت ، والحالة ليست إنقاذاً من موت . الحالة التى انصح بها أن تتصلوا بالمستشفى ليأخذوه تحت رعايتهم . وقد حصل بالفعل ، فى منتصف الليل حضرت سيارة المستشفى ، وذهبت وبقيت هناك نحو أسبوعين ، الى أن تم العلاج والحمد لله .

عقب الأسبوع الأول جاءنى فاتورة من المستشفى تطالب بنفقات الإقامة والعلاج للأسبوع الأول ووجدت أن المطلوب منى ، أكثر من عشرين جنيها ، عن الأسبوع الأول ، كانت هذا سنة ١٩٢٣ هذا مبلغ فظيع جدّا بالنسبة لهذا التاريخ . فكنت أستطيع التحرك ، فتحركت الى أن وصلت الى السكرتارية ، وسألت لم كان هذا التقدير ؟ فكان الردّ أنت طالب شرقى تتعلم فى انجلترا ، وهذا مظهر من مظاهر الغنى ، فلابد أن تدفع مايقابل الذين لايدفعون نفقات المستشفى ، والمستشفى قائم على هذا النظام أن القادر يدفع ، وغير القادر يعفى . **فقلت لهم من أنى لكم أننى قادر . قالوا نحن نتصور أنك أحد الأمراء العرب . فقلت لهم لست أميرا من أمراء العرب ، أنا طالب عادى ، وتستطيعون أن تعرفوا ماليتى من مكتب البعثات فى لندن : لأننى أحصل على مرتبى عشرين جنيها فى الشهر من هناك ، وبالطبع عدل الرقم إلى جنيهين فقط .**

●● حضرت الى انجلترا للدراسة وليس للقيام بالمساومة مع أهلها ..

● وبهذه المناسبة حدث شيء يشبه هذا مرة ثانية أخرى ، لكن هذا كان فى سنة ١٩٢٦ وفى لندن اضطر الأمر الى عملية جراحية ، وطبعًا اتصلت بمدير البعثات مستر « هيبارد » لأن رؤساء مكتب البعثات كانوا دائمًا من الانجليز ، الذين خدموا فى مصر ، وعندما يحالون على المعاش يعطون هذا المكتب لرياسته والاشراف على الطلبة ، واحداث كل مايلزم من مضايقتهم - كما سبق وحدثتك آنفا - قليلاً ماكانوا يساعدوننا ، ذهبت أنا إلى مستر : « هيبارد » وأخبرته بأنى محتاج الى عملية ، فقال لى : اسأل زميلك الدكتور عبد الله الكاتب ، كان يدرس معنا فى لندن فى ذلك الوقت فقال لى : اسأله ليخبرك عن الطبيب اللازم لهذه العملية ويرتب لك كل شيء .

وبالفعل سألت الدكتور عبد الله الكاتب وأخبرنى باسم واحد ، اسمه : **« لوك هارت**

مارتى » أتذكر اسمه جيدًا ، وذهبت إليه ، وبعد الكشف قرر أننى يلزم أن ألزم دار علاج !!

وهى مؤسسات علاجية خاصة تتسع لثلاثين أو أربعين شخصا فقط ، وغالبا يكون على مستوى عال يتخذه بعض الأطباء مقرا لعملياتهم ، فقال لى : أنا عمليتى أعملها فى مستشفى كذا فى شارع كذا . كن هناك فى يوم كذا ، فأنا أحضر لعمل العمليات هناك ، وبالفعل أعددت نفسى وذهبت الى ذلك المستشفى ، وأخبرتهم أننى قادم من طرف الدكتور فلان ...

وحدث أن جاء فى موعده وقام بالعملية التى كانت ناجحة والحمد لله ، وبعد مضىّ بضعة أيام ، وصلنى من إدارة حسابات المصحة ، كما يمكن أن يسمى : هذا ... بمبلغ فظيع جدًّا عن الإقامة فى كل يوم ، تكاد تصل الى نحو عشرين جنيها فى اليوم ، فضلا عن أى تكاليف أخرى ، فبالطبع كان هذا غير معقول بالمرة ، وتذكرت ماكان قبل ذلك بسنتين ، أو ثلاثة فى اعتقاد المستشفى الذى كنت فيه يومئذ أنى أمير شرقى ، فاتصلت بمدير البعثات فى لندن ، فكتبت اليه خطابا وقلت له إن هذا طبعا مبلغ غير ممكن . ولايتصور أنى أدفعه ، لأن القانون كان أننا ندفع مايساوى مدة إقامتنا فى المنزل الذى نسكنه ، وكنت أسكن فى المنزل فى حدود ثلاثة جنيهات فى الأسبوع ، فهذه كل ماعلىّ ومايمكن أن أدفعه .

الذى حدث أن هذا الرجل كان فيه حماقة ، ولم يكن يتعاطف معى ، لأنى كنت أطالبه بمطالب كثيرة فى خدمة العلم ، لم يكن يرضاها هو ، لأنه كان يريد أن يضيق علينا ، حدود الدراسات ، وكتبت اليه خطابا ، فرد علىّ بخطاب يقول فيه : « **إنه لم يخطر بباله فى يوم من الأيام أن يدفع مبلغا كهذا ، وعلى هذا كان علىّ أنا أن أدفع هذا المبلغ .**

ولما وصلنى هذا الخطاب – على فكرة البريد فى لندن التوصيلات فيه تحدث ست مرات فى اليوم – كتبت أنا له فى نفس الوقت أو فى نفس اليوم ووصله ، وكتب الىّ فى نفس اليوم ووصلنى فى نفس اليوم ، وكان يقول بنغمة أقل عنفوانا من الأولى؛ نظرا لأن هذا المبلغ مبلغ كبير جدًا ولايمكن أنه تدخله فى حساب الحكومة ، فعلىَّ أنا أن أتصل **بالميترون** رئيسة المصحة وأطلب منها أن تخفف هذا المبلغ نظرًا لظروفى ، فرددت عليه بما أشعر به نحوه قائلا له : لست فى انجلترا لأقوم بالمساومة مع أهلها ! فاذا كان لابد من المساومة فهذا عملك أنت ، أما أنا فعلىّ أن أمرض وأن أعالج ، وأن تدفع الحكومة مازاد على مبلغ ثلاث جنيهات فى الاسبوع ، فتنازل هو بعد المفاوضة وخفضت تخفيضا معقولا !

•• القسم الرابع :

البعثة الثانية للندن
ومفاجآت وطرف مانشستر

●● هل تعلم أن انتدابى الى جامعة مانشستر لم يكن مغنما كما يتصور البعض ؟!

سافرت إلى انجلتره فى المرة الأولى عام ١٩٢٢ لدراسة أصول التربية ، وعلم النفس ، والأدب الانجليزى ، وانتهت بعثتى الدراسية هذه ، عام ١٩٢٥ ، وحصلت - بتوفيق الله - على ما ابتعثت من أجله بتفوق ، وانتقلت الى بعثة ثانية فى لندن لدراسة اللغة العبرية واللغة الفارسية من ١٩٢٥ الى سنة ١٩٢٧ وعدت إلى مصر فى أكتوبر ١٩٢٧ .

وتقلدت العديد من المناصب منها : التدريس فى دار العلوم وجامعة الأزهر الشريف بقسم التخصص ، ووزارة المعارف المصرية - آنذاك - وقد منّ الله سبحانه وتعالى علىّ بالنجاح العظيم فى كل مكان عملت فيه ، وكانت لى اللمسات المضيئة الواضحة لكل ذى عينين .

وأثناء عملى مستشارًا لوزير المعارف بضعة أعوام ، كان مما أنجز على يدى بنجاح عظيم خطة تطوير التعليم الثانوى والنهوض به ، وكان هذا النجاح العظيم السبب المباشر فى العديد من المشاكل وإثارة الحسد ضدى ، مما جعلنى أعيش فى جوّ لا أطيقه ، ووسط دوامة التفكير فى كيفية الخلاص من هذا الجوّ الشائن ، عرض علىَّ وزير المعارف أمر انتدابى أستاذا للغة العربية فى جامعة « مانشستر » فقبلت على الفور - وبلا أدنى تردد أو تساؤل - وكان ذلك فى الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤٩ . وبهذه المناسبة أرجو أن أذكر - وأظن أنى ذكرت لك هذه من قبل - أن انتدابى لم يكن فيه منفعة من حيث وجودى فى بلد أجنبى ، بل أنا ذكرت لك السب الذى من أجله فضلت أن أسافر - عندما غضبت - نتيجة تصرف أحد الزملاء :إلا أن هذا كما ذكرت لك من قبل كان تبادلاً ثقافيا حقيقيا ، بمعنى أن مرتبى طوال هذه المدة كان من مصر ، وأن مرتب الأستاذ الذى جاء إلى مصر كان من إنجلتره ، وكان هناك مبلغ ضئيل يعد بدل اغتراب حوالى مائة جنيه فى السنة لتمكننى أنا وأسرتى من العودة إلى مصر فى الصيف ، والرجوع مرة أخرى عن طريـق البحر . أنا استطردت فى هذا لأن كثيرًا من الناس يظنون أنى قد كنزت أموالاً طائلة أثناء سفرى فى إنجلترا .

●● ... يخافون الحرب وللحرب فائدة !

ولا أخفى عليك أننى كنت سعيدًا جدًا على ضيق ذات اليد التى كنت أعانى منها فى إنجلترا ؛ لأن الذى أعاننى على هذا الاحتمال أن الحرب جاءت ، وأن الأشياء قد سعّرت ، ولم

يكن من الممكن أن تشترى شيئا أكثر من ثمنه ؛ أو أن يشترى شيئا يقع فى حيز الترف أو النعيم .

●● التونى ... تلميذ لايؤدى واجبه !

وبينما كنت موجودًا فى كلية الآداب ، وكان بعض الطلبة المصريين يدرسون مع الطلبة الأنجليز فى السنة الأولى جاء أحد الطلبة لأول مرة ، وأعرف أنه كان أحد المصريين الثلاثين ، أو الأربعين الذين كانوا موجودين فى : « مانشستر » فى ذلك الوقت ، وأعطانى بطاقته لاضع عليها توقيعى بأنه يحضر محاضراتى . وبعد عدة مرات من حضوره محاضراتى ، وجدت أنه لا يعرف شيئا أبدًا ! فأخذت أنبه الى هذا بغير ذكر أسماء وبتلميح فقط ، وذلك مراعاة لشعوره أمام زملائه المصريين ، وزملائه الانجليز ؛ إلا أنه لم يبد أى تقدم على الاطلاق !

ولما تكرر منه الاهمال وعدم الاستعداد للتحصيل أو أداء الواجب ، اضطررت إلى مصارحته بهذا ، وقلت له : إننا هنا نعمل ، ومن أراد أن يكمل معنا فليعطنا من جهده وعمله مايؤيد ذلك . وانتهت المحاضرة ، وخرجت من المدرج ، وكانت حجرتى قريبة من المدرج فدخلت إليها ، ودخل ورائى هذا الشخص ، وهو عملاق طويل جدًّا ، ووضع يده على كتفى وقال لى : أتدرى لماذا أحضر أنا إلى الجامعة ؟! قلت له : لتدرس اللغة العربية . ألم تحضر لى بطاقتك لهذا ؟ قال لى : لا . دعنى أوضح لك الأمر ، أنا أدرس فى كليات التعاون ، والعب للجامعة وأكسب لها مباريات كثيرة ، وفطن اتحاد الرياضة إلى أنّ شخصًا أجنبيا عن الجامعة يلعب لها ، وأرادوا بهذا أنى أستبعد ، فنصحونى فى اتحاد الرياضة بالجامعة أن أبحث عن مادة من المواد وألتحق بها لأصبح طالبا فى الجامعة ولايمكن - بعد ذلك - الاعتراض علىّ إذا لعبت للجامعة .

●● أرأيت كيف يعرف الناس هنا مقامى ؟!

وهذا هو السبب الذى من أجله جئت إليك ، وأنت تريد منى أن أكون متخصصا فى اللغة العربية ، وهذا لايهمنى أنا .. وسألته من أنت ؟! فقال : أنا أحمد الدمرداش التونى - بطل مصر - (الذى كان فى وقت من الأوقات رئيسا للجنة الأولمبياد) فقلت له : لماذا لم تخبرنى بهذا من قبل ؟ وأنا كنت سأتغاضى عن عدم إجابتك .. وأكتفى بالحضور . ثم قال : فى

الخامسة من بعد ظهر اليوم أرجو أن تقابلنى فى : « الليدو » والليدو أكبر مسبح أو حمام سباحة فى مانشستر . وقال : أرجو أن تقابلنى فى الخامسة هناك ، فذهبت فى الخامسة الى هناك ، فوجدت منضدة على حافة المسبح وعليها أدوات الشاى ، فجلست أنا وهو ، نتناول الشاى فى هدوء وسرور . ثم قال : انتظرنى قليلا هنا ، وذهب هو وغير ملابسه فى حجرات تغيير الملابس وارتدى : « تبانة » وهذه كلمة - على مااعتقد - إسلامية عربية معروفة ، وهذه تطلق على الملابس القصيرة : « الشورت » أى « التبان » وذهب صاعدًا الى المنط ، وعندما وقف على المنط إذا بجميع الذين فى الماء وهم يعدون بالعشرات يخرجون من الماء ، وانتظروا وثبته التى وثبها فى صورة فنية دقيقة ! وانتهى من هذه الحركة الى المكان الذى أنا فيه فى وسط المسبح وانحنى أمامى ، وصعد مرة أخرى عدة مرات ، وكل مرة يقوم بالعاب رياضية إما فى الهواء وإما فى الماء ، وتنتهى فى كل مرة من المرات بمجيئه أمام المكان الذى أجلس فيه وينحنى أمامى محييًا . وجاء بعد هذا وقد ارتدى ملابسه وقال : أرأيت كيف كان الناس يحيوننى ، وكيف يعرفون مقامى ، ولم يجرؤ أحد أن يدخل الماء وأنا فيه ؛ وأنت تريد منى أن أدرس وأكتب الواجب ! وظلت هذه الصداقة بيننا مدة طويلة الى أن ترك هو مانشستر قبل الحرب ، وأنا بقيت مدة الحرب .

●● كان مرعبا يوم وضع يده على كتفى وقال لى : أتدرى من أنا ؟

وبعد سنوات التقينا فجأة ، وعرفته وعرفنى . وتبادلنا التحية ... ومرة أخرى التقينا فى مجلس الشعب حيث كنت حاضراً فى لجنة مالية خاصة بميزانية المجمع ، وكان التونى أحد الحاضرين فى هذه اللجنة . وجاء الىّ وسلم علىّ وانتظر حتى انتهينا من اللجنة فصاحبنى فى النزول بالمصعد ، وصاحبنى فى الوصول الى السيارة ، وأنا أذكر له هذا . وأذكر له ماحدث يوم وضع يده على كتفى وقال لى : أتدرى من أنا !

●● كنت نائبا عن الحكومة السعودية فى اجتماعات انشاء هيئة الأمم واختيار اسم لها :

فى سنة ١٩٤٥ م كان هناك رحلة لطيفة ، وأنا لا أزال فى مانشستر وكانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت ، وكان زعماء الشعوب يفكرون فى إنشاء بديل لعصبة الأمم ؛ لأنها قد ألغيت نتيجة قيام الحرب العالمية الثانية .

وفى يوم من الأيام اتصل بى سفير الحكومة السعودية وكان رجلاً عظيما ، هو الأستاذ / حافظ وهبة ، رحمه الله ، وهو مصرى الأصل ، وكان قد تجنس بالجنسية السعودية - فيما بعد - لأنه كان يعمل معهم وأحبوه وقدروه ، وطلب منى أن أحضر نائبا عن الحكومة السعودية فى الاجتماع الذى سيعقد لإنشاء هيئة تحل محل اليونسكو وقال لى : إن هذا الاجتماع سيحضره عدد من ممثلى الأمم ، وأنا عملى لايتصل بمثل هذه الشئون ، ففوضونى أن أنيب عنى أحدًا وأحضر أنا لمجرد الشكل ، وبحيث يكون السفير موجودًا ومعه القائم بالأعمال ، وأردت الاستئذان من الحكومة المصرية ، فقال لى : أنا استأذنت منها فأذنت لى أولا . فوافقت ، وذهبت وبقيت فى الاجتماعات صباحًا ومساء عدة اجتماعات نتناقش فى ماهى الموضوعات التى نتحدث فيها ؟! أى إعداد جدول الأعمال - إلى أن أنتهى الأمر بإنشاء هيئة اليونسكو وأن يكون لها فرع - من فروع الأمم المتحدة - وهذا الفرع يختص بالثقافة .

●● ... فجأة تحولت أكبر هيئة علمية من كلمة قبيحة الى كلمة علمية .

وفى صبيحة يوم تال عقد الاجتماع وأخذنا نفكر فى المواد التى يهتم بها هذا المجلس ، فوجدنا مثلا يهتم بالتربية « EDUCATION » ويهتم أيضا بالثقافة بصفة عامة « CU TURE » وبعد مناقشة استمرت من الصباح حتى الثانية ظهرًا وجدنا أننا وصلنا إلى أننا نسمى هذا الجهاز DUCATION & UNITED NATION U. N. & ORGANIGATION O & CU TURE I .

ووقع الاختيار على أن المواد التى تعنى بها هذه الهيئة ، هى علوم التربية تحت اسم التربية « EDUCATION » والثقافة « CUITURE » وأضيفت كلمة بدء الحروف الهجائية لهذه الكلمات مع كلمة « UNITED NATION » يعنى الأمم المتحدة « ORGANISQTIONG » يعنى هيئة . ولما وضع هذا فى صورة حروف عربية ، وكان لابد أن نفعل هذا لأننا كنا نضع هذه الحروف بكل اللغات الممكنة ، واللغات الأوربية اكتفت بـ .:U. N. E. C. O .

وفى الحروف العربية طلعت : ياء . واو . ن . كاف . واو . واتضح أنها تنطق نطقا قبيحا وغير لائق ؛ ولكننا لم نجد بدًا من قبول هذا . وقنا لأنه كان هناك ٤٥ دولة ممثلة فى ذلك الوقت ، وكانت مصر ضمن هذه الدول ؛ ولكن لم أكن أنا ممثلا لمصر ، إنما مثل مصر السفير المصرى فى لندن ، بينما كنت أنا ممثلا للسعودية . وتواعدنا على أننا نعود بعد الظهر لتنظيم طريقة العرض الخ ...

ومن حسن الحظ أننا بعد الظهر ونحن نناقش هذا الموضوع جاء ذكر « العلم » وفى أن هذه

الهيئة ينبغى أن تعنى بالعلم : « SCIENCE » وقلنا ندخله ، وفى أول الأمر كانوا أقرب الى القسم الأدبى . وبعد ذلك ظنوا أن الثقافة ليست مقصورة على القسم الأدبى ، بل يجب أن تشمل العلوم أيضا .. ووضع حرف S هناك ، وأصبحت « U. N.E.S. C. O » وتحولت أكبر هيئة علمية دولية من كلمة قبيحة الى كلمة مقبولة .

●● كانت زوجتى تتبرع ببعض كتبى فى الصباح وأعود فأشتريها فى المساء .!

●● تعففت عن شراء بعض التحف النادرة بأثمان زهيدة لأن زوجتى شريكة فى المعرض !

« **بسم الله الرحمن الرحيم** » قبل أن أبدأ معك حلقة اليوم من الذكريات يطيب لى أن أذكر شيئا من كلام العرب ، خاصة ماحفظته من أشعار العرب ويقال خشية أن يكرر الانسان مايقوله ، والانسان عادة مولع بتكرار مايقوله لأنه من الميسور . ولذا فأنا أذرع عند سرد تلك الذكريات بما حفظته قديما من قول الشاعر العربى :

إذا جلست الى قـــــوم لتخبرهم ـــــ بمـــا حـــدث من مـــاض ومن آتى
فــلا تعيــدن حـــديثـــا إن طبعهمـــو ـــــ مـــوكل بمعـــاداة المعـــادات[1]

وأما الموضوع الذى أرجو أن يوفقنى الله فى أن أنقل أحداثه الى هذه الذكريات فهو : ماحدث فى أيام الحرب العالمية الثانية وأنا مقيم فى انجلترة ، فقد كانت الحكومة البريطانية استنفدت كل وسائل التجنيد حيث جندت الرجال ، وجندت أيضا النساء ، غير ذوات الأطفال الذين يقل سنهم عن أربعة عشر عامًا ، وجندت الشابات كذلك ، وبعد مضىّ مدة اشتد الأمر على الحاجة فين يعمل فى المصانع . ففكروا فى ربات البيوت اللائى أعفين من أى تجنيد بسبب وجود أطفال لهن ، يمكن أن يتبرعن ، وطريقة التبرع فى إنجلترا كطريقة الالزام ، إنما هذا تعبير مهذب ! بساعتين أو بثلاث ساعات كل يوم ، فى أقرب مصنع لبيوتهن ، وبذلك تحصل الحكومة على ملايين الساعات ، فى الأسبوع عملا ، دون أن يضروا صاحبات البيوت .

علمت هذا طبعًا كما علمه اثنان من أصدقائى الإنجليز جيرانى ، وكنا نسهر فى بيتنا ليليًا ،

---

(١) يرجع لهذين البيتين فى كتب البلاغة باب الجناس ، عداء المكرر .

لأننا كنا ملزمين بحماية الشارع ، وكان هذا أيضا عملا آخر ، لأن كل إنسان قادر على أىّ عمل لابد أن يقضى بضعة أيام من كل أسبوع فى رعاية الشارع الذى يسكن فيه ، حماية من القنابل والتنبيه عليها ، وكذلك مقر العمل الذى يعمل فيه ، فأنا كنت أقضى بعض الليالى ساهرًا فى الجامعة وبعض الليالى فى بيتى .

عندما حدث الأمر الخاص بتوزيع العمل التطوعى على الزوجات ، جلس معى هذان الجاران فى إحدى الليالى عقب سماع هذا الخبر عن أن الزوجات المعفيات من العمل يستطعن التطوع بساعتين أو ثلاث من كل يوم للعمل فى أقرب مصنع من بيوتهن ، وعبر هذان الصديقان عن رأيهما ، بأنهما لن يكونا مرتاحين لأن تخرج زوجاتهما الى المصانع ، وطبعا من باب أولى كان هذا شعورى من ناحية عمل زوجتى ، وخصوصا أنها ليست إنجليزية ، ففكروا فى الأمر إلى أن هؤلاء الزوجات الثلاث يحصلن على دكان قريب من المدينة التى كنا فيها ، ويطلبن من الأهالى أن يتبرعوا بما يستغنون عنه ، من أىّ شىء ، ويأخذن هذه الأشياء ويقدرون لها ثمنا ، ثم يعرضنها للبيع ، وحصيلة هذا يقدم للصليب الأحمر .

فمن حسن الحظ أن زوجتى وزوجتا الصديقان لاحظن محلاً مغلقا ، فسألن عن سبب إغلاقه فعلموا أنه ليس مؤجرا ، وصاحبه لا يهتم بإيجاره من جهة ، ولعدم وجود من يستأجر محلات الآن ، من جهة أخرى ليس هناك حركة تجارية تقتضى زيادة المحلات على المحلات المفتوحة .

الناس لايقبلون على فتح محلات جديدة غير المحلات المفتوحة . فطلبن منه استئجاره لهذا السبب الذى يردنه ، فقال وأنا من ناحيتى أتبرع لكم بايجار المحل مادمتم أنتن متبرعات بعملكن ، فبدأ هذا بحركة طيبة جدًا من حيث توفير المال .

●● تحف لا تخطر على البال يتبرعون بها .

ثم أعلن عن أغراضهن فى هذا المحل ... وتعجب ياسيدى لما تقدم به أهل المدينة من هدايا ، بما يسمونه مايستغنون عنه فى بيوتهن . أشياء لاتخطر على البال من كل شىء ، وتعجب كيف سمحت أنفسهم بأنهم يتنازلون عنها ! يعنى من هذا البند مثلا ، الساعات ، وفى الغالب أن بعض البيوت الانجليزية يكون فيها أكثر من ساعة ، إما ساعات يد ، أو ساعات حائط ، أو ساعة مكتب ، فكان يأتى كثيرا جدا من هذه الساعات لدرجة أنه فى مرة تقدم هدية للمحل ساعة سنوية لاتملأ الا مرة فى السنة ، وهى شىء فاخر جدًا ، وتحفة من أكبر التحف ، ومع ذلك تعففت أنا عن شرائها ؛ لأن زوجتى فى حكم صاحبة المحل ، أعنى أحد الشركاء ، ولكنها

بيعت بثمن بخس ! وعلى كل حال انتفع بها من أراد ، وانتفع المحل بثمنها .

●● زوجة الأستاذ تتبرع بكتب الأستاذ وماذا يصنع الأستاذ ؟!

الظاهرة الكبيرة فى تعامل هذا المحل إلى جانب البضائع الأخرى وأشياء المنازل ، ففيها أدوات السفرة ، أشياء المطبخ ، أى شيء تريده ... حتى الكتب ! كثير من الناس كان يحضر مجموعة من الكتب ، وتعرض للبيع بثمن مقبول ، وساهمت زوجتى فى هذا - خشية أن يظن أنها تبخل بالكتب - وهم يعلمون أنها زوجة أستاذ . وطبعا بيتنا لا يخلو من الكتب . تعاونت فى هذا بأن أخذت بعض الكتب التى لاتتعلق بعملى ، إنما بعض الكتب العامة مثل الروايات ، المسرحيات ، المسائل العامة ، وكان يعز علىّ بعضها ، لأن الكتاب الذى أقرؤه أعتبره صديقا لا أفرط فيه ، ويكون أعز على من أى كتاب لم أقرأه ، فكنت أعود من الجامعة وأمر على زوجتى فى آخر النهار لأحضرها معى الى البيت ، وأشترى مرة أخرى بعض الكتب التى قدمتها هى هدايا فى الصباح !

وحدث فى مرة من المرات ، والمحل كان له مدخلان ، مدخل يتعامل فيه من يريدون شراء الأشياء ، ومدخل فيه عرض الكتب ، ومن أراد أن يشترى الكتب يدخل فيه ، فأنا كنت أصل فى وقتى حتى تكون زوجتى مستعدة للعودة معى .

●● هل أنا بحضرة أستاذ بالفعل ؟ « بروسفر » ؟!

وفى مرة من المرات وجدت رجلا يقلب الكتب ، وقلب بين يديه كتابا ، وأمعن النظر فيه ، ثم أعاده إلى الرف ، وبعد لحظة استعاده ونظر فيه ، وفعل ذلك عدة مرات ، وعندما حان وقت عودتى تركته أنا فى الجزء الخاص بالمكتبة ، وذهبت الى الجزء الثانى فالباب كان مفتوحًا ، وأردت أن أستصحب زوجتى الى البيت ، وصادف أنى ذكرت مارأيته من هذا الرجل ، وقلت إنه يظهر أنه متعلق بهذا الكتاب الذى نظر فيه ، فاحدى السيدات ذهبت إلى الرجل من الباب الآخر الذى به المكتبة ، وبعد قليل جاءت وقالت : هذا الرجل أصله سائق قطارات فى السكك الحديدية ، وهو الآن فى المعاش ، والكتاب أعجبه جدًا ، لكن ثمنه غال عليه ، والكتاب مهم جدًا ، والثمن الذى من أجله ينظر فيه ويفكر ، فقلت لها مادام الأمر كذلك فاذهبى إليه وأعطه هذا الكتاب هدية وأنا سأدفع ثمنه على شرط لا تذكرى له من أين جاء ثمنه ، وقولى له إن هذا الكتاب هدية من المكتب اليك . فذهبت ووقفت أنا على

باب المكتبة أنظر إليه ، فاذا به ينظر إليها ويطلب منها معرفة ثمن الكتاب ليدفعه ،

وهى تقول له فى الحقيقة إن الذى دفع ثمن الكتاب هو « **البروفسير علام** » فنظر اليها الرجل وخلع قبعته وظل رافعًا قبعته لايضعها على رأسه قائلا : هل أنا بحضرة أستاذ بالفعل وهذا إن كان دليلا على شيء فإنه يدل على مركز الاستاذ / فى انجلترا . فهو لم يكن يحترمنى أنا شخصيا ، إنما هو يحترم اللقب . حقيقة أنا ... أنا ... أنا ... فى حضرة أحد الأساتذة ! ولم يضع قبعته حتى ذهبت إليه وسلمت عليه ، وشكرته على شعوره ، وهنأته على حصوله على الكتاب الذى أراده .

●● الإنجليز رغم كل شيء فانهم يحسنون حل المشاكل !!
●● رغم قرارات الحرب ... رفضت أن يقيم أجانب معنا ...

● وتلك حادثة أخرى تتصل أيضا بالحرب . فى مدة الحرب صدر قرار بأن الجنود عسكرا كانوا أو ضباطا ، عندما يعودون من الميدان فى إجازات ، لا يعودون الى المعسكرات ، المفروض أن يعودوا إلى بيوتهم ، لكن فى معظم الأحيان لم يكن لهم بيوت باقية ، لأن معظم الذين خرجوا فى التجنيد أغلقت بيوتهم ، فأصدروا قرارا ، بأن كل من لديه حجرات خالية ، يأخذ عن كل حجرة اثنين من هؤلاء الحاضرين فى اجازات قصيرة ، وتتكفل الحكومة بنفقات معيشتهم .

هذا أيضا : أزعجنى أنا وزوجتى ، لأن بيتنا كان فيه ثلاث حجرات خالية ، كنت مستأجرًا بيتا كاملا ، من ثلاثة أدوار، ولم يكن فيه سوى زوجتى وأنا والطفلين ، وحتى عندما كانت تقيم شغالة ، فكانت تشغل حجرة واحدة ، وبالطبع طلبوا إحصاءًا وتم الاحصاء ، واثبت أن ثلاث حجرات خالية ، وخشينا عندئذ لو حضر لنا ستة جنود أو ضباط إنجليز يتناولون الخمر ، ويتناولون لحم الخنزير ، ويحضرون فى أىّ وقت من الليل أو النهار ، فكرت أنا وزوجتى سويا فى وسيلة تمنع تلك الكارثة ! فقلت لزوجتى هذا الموضوع حساس بالطبع ، وأنا سأذهب الى مايسمونه « بالستى كلارك » وهى وظيفة تشبه عندنا رئيس المدينة ، فذهبت الى رئيس المدينة ، وكنت أظن أنه موظف معتدل المركز ، فاذا به له نفوذ كبير جدًا ، والمنطقة شاسعة جدًا ، والموظفون يعدون بالعشرات ، والإدارة كبيرة جدًا ، فعرّفته بنفسى فقال : أنا أعرف ، وأعرف الأماكن التى يشغلها الأجانب ، ومن هم فقال لى : بماذا تأمر.. فقلت له بمناسبة طلب الحكومة الخاص بتسكين الجنود والضباط أثناء إجازاتهم أردت أن أشرح لك أن ديننا الإسلام وهو يحرم الخمر ، ويحرم أكل لحم الخنزير ، وأخشى أننا لو جاءنا هؤلاء الذين تسمح

الحكومة تحت النظام المسمى : « بلتنج » وهو أن تأخذ كل أسرة مايشغل كل حجرة باثنين ! فقلت أنا أخشى أن هذا يحدث نوعًا من الاضطراب فى معيشتنا كما أنه لن يناسب – لو فرضنا أننا أخذناهم – طعامهم ، لأن زوجتى لن تستطيع أن تقوم بأعمال الطهى ، لعدد غير أهل البيت ، وهم غالبا لن يأكلوا من أكلنا ، وبالتأكيد نحن لن نأكل من أكلهم ، ذلك الى أنهم لو حضروا وتناولوا الخمور ! فنحن لن نقرّ هذا . فقال : يكفى ماقلت . لن يحضر اليكم أحد ، وكان فى غاية الاقتناع ، لأن الانجليز على الرغم من كل مالديهم يحسنون حل المشاكل باحتمال ، وأعفينا من هذا ، وكان شيئا عظيما جدًا أن البيوت ، يحضر إليها الجنود والضباط تحت نظام : « البلتنج » ونحن لايحضر الينا أحد . فحمدنا الله تعالى .

●● ساعة « بك بن » ظلت سليمة لم تسكتها القنابل ...

● والحادثة التى أتذكرها الآن عجيبة جدًا ، وماتذكرتها إلا اليوم ، ذلك لأنها تتعلق بقصاصة ورق ضاعت منى ، ووجدتها اليوم فى أحد أدراج مكتبى هنا – بالمجمع – وأخذتها وصورت منها صورة ، لأنها كانت بالية جدًا ؛ ذلك أنه فى أشد أيام الحرب نزلت طائرات وقنابل الألمان على البرلمان الانجليزى ، وهدمته ، وكنت أسمع من الاذاعة وأنا سهران فى إحدى ليالى الحرب، أن القنابل دكت البرلمان ، وأنه تقريبا هدم من أوله الى آخره إلا ساعة – بكْ بنْ – الساعة الشهيرة ، فإنها لاتزال تدق ، فأوحى الىّ هذا بقصيدة قلتها ارتجالا ، وكتبتها على ورقة ... وكان هذا حوالى سنة ١٩٤٢ وبالطبع بقيت فى أوراق ، وذهبت ، واختفت إلى أن عثرت عليها اليوم فأحضرتها وصورتها .

والقصاصة التى وجدتها اليوم تقول :

« ساعة بك بن »

أصابت قنابل الألمان دار البرلمان الانجليزى فحطمته ! ولكن ساعته المشهورة « بك بن » ظلت سليمة ، فأوحى هذا المنظر بالقصيدة ارتجالاً ، وكتبتها بين أوراق التى كنت أشتغل فيها فى تلك اللحظة : تقول القصيدة :

بقيتْ على : « التايمز » ترفع صوتها ... وتدق ، دقات البشير وتنذر
فتبشر المكلوم أن جراحه ... تَبْرأ ، وبعد جراحه قد يفخرُ
ولتنذر الجبار أن سيوفه ... مغلولةٌ منكودةٌ لاتقدرُ
بقيت على « التايمز » تعلن أنها ... رمز الحياة ، ورمزها المتسيطر

تقوى يد الطاغى على ماحولها ... فتهده ، وتمسها فتكسر
دقاتها فوق الأثير نذيرة ... أن الشجاع من القوى سيثأر
النهر يجرى تحتها سلساله ... عذب ، كأخلاق الأهالى سكر
لكنه يجرى فيعلو صوته ... ويصب فى بحر يفور ويزخر
وإذا التقى نسْرٌ وسبع فى الفلا ... وظننت أن النسر أصبح يفجر
فلترتقب طيرانه متواريا ... إذ يبدأ الأسد الهجوم ويزأر
النسر طاغية ويخطف جيفة ... والليث مرهوب الجناب غضنفرُ

●● أخرتنى الحرب عدة سنوات أثناء دراسة الدكتوراه لصعوبة الحصول على المراجع ..

●● ترجمت خار ، ومار ، وأما طلب الأبقار ، فكان فيها الحرج !!

● وحول أحداث الحرب العالمية التى عاصرها أستاذنا الدكتور محمد مهدى علام فى جامعة مانشستر أثناء عمله وأثر تلك الحرب على عمله ونشاطاته العلمية قال سيادته :

الذى ينبغى أن أذكره أن تلك المدة ، لم تكن مدة بعثتى التعليمية ، وإنما كانت مدة إعارتى أستاذًا زائرًا للأدب العربى والثقافة الاسلامية فى جامعة : مانشستر وقد بدأت فى سنة ١٩٣٦ . وجاءت الحرب فانقطعنا عن مصر — وطبعًا — كما انقطع كل أجزاء العالم بعضه عن بعض .

ومن حيث العمل الذى كنت أقوم به : بوصفى أستاذًا فى الجامعة ، لم يتأثر أكثر من أن عدد الطلاب فيه ، كان أحيانا يقل ويزيد بحسب ظروف الحرب . لكن كان هناك عمل جانبى الى جانب هذا ، كنت أشتغل به ، فى ذلك الوقت وهو إعدادى رسالة الدكتوراة .

وهذا هو الذى تأخر حقبة طويلة ؛ لأن معظم المراجع كانت خارج انجلترا ، ولكن الله سبحانه تعالى سهل لى الحصول عليها . واستطعت أن أحصل عليها ، عن طريق مايسمونه : « انتر لايبرارى سيستم » وهو النظام المسمى: « تبادل المكتبات » فالمكتبات المصرية الكبيرة ، تستطيع أن تستعير من مكتبات أخرى مماثلة من بلاد أخرى عن طريق الحقيبة الدبلوماسية ، ليبقى المخطوط فى حوزة المكتبة ، لايمسه الدارس ، ولا يأخذه الى بيته .

هناك حجرة ، وفيها مايعرف « بالريدر » يعنى مكبر أصول المخطوطات ، استطعت أنا والحمد لله ، أن أحصل على العديد من المخطوطات ، من عدة بلاد ، عن طريق المكتبة ، فكنت

أطلب من مكتبة جامعة : « مانشستر » اسم الكتاب أو المخطوط ، ورقمه ، والمكتبة التى هو فيها ، وهى تراسل ، فيأتى اليها ، ويودع فى أمانتها ، وأنا أذهب فى أىّ وقت أشاء إلى حجرة خاصة بهذا .

هذا – بدون شك – تأخر عدة سنوات ، لأنه لم يكن ميسورًا لى أن أحصل على المصادر التى أريدها خصوصا المخطوطات ؛ لأنى أنا حققت مخطوطة على سبع صور ! كانت مابين الهند ، وإنجلترا ، والدانمارك ، والمغرب وغير هذا أيضا ، وهذا هو الذى تأثر .

أما فيما يتعلق بالدراسة نفسها ، فطبعا كانت تتعطل أحيانا ، بسبب القنابل إذا نزلت فى معظم الأحيان كانت تتعمد محطات السكك الحديدية ، وهذا مكان استراتيجى معروف فى الحرب لأنه يعطل المواصلات ، ففى بعض الأحيان كان لايحضر من الطلاب اثنان أو ثلاثة ، لأن الباقى تكون مواصلاتهم قد قطعت .

وأتذكر بهذه المناسبة : وأنت الذى ذكرتنى اياها بسؤالك فى الحقيقة ، عندما كانت القنابل تنزل ، لم تكن الدراسة تنقطع ، ونظم رجال الجامعة أنهم عندما تنزل القنابل ، يترك الاساتذة أوراقهم على مكاتبهم ، كما هى ، وينزلون ، وينزل الطلاب إلى المكتبة – فى الدور الأرضى وهى مؤسسة على أعمدة قوية جدًّا بحيث أنها تتحمل الأدوار الثلاثة والأربعة ، لو أن القنابل هدمتها ! ماكنا نفعله . وفى مرة من المرات ، كانت القنابل الليلية فى الليلة السابقة ، قد أحاطت بعدد كبير من محطات السكك الحديدية الموصلة إلى « مانشستر » لأنى أنا كنت مقيما وأدرس فى جامعة « مانشستر » .

وفى صبيحة اليوم التالى : لم يكن حاضرا سوى ستة أو سبعة من الطلاب . وعلى كل حال كنا لا نتأثر بالعدد وكنا نسير ، فسرنا . وفى أثناء التدريس ، جاء النذير ! فتركنا كل أوراقنا ، ونزلنا إلى المكتبة . الطلبة الذين كانوا معى – مصادفة – حوالى ستة أو سبعة بنات ، الجزء الذى وجدنا فيها – قضاء وقدرا – قسم عربى ، ووجدت فيه نسخا كثيرة من كليلة ودمنة ، وقلت للطالبات نشتغل فى كليلة ودمنة ونحن ننتظر فك الأزمة التى أوجدها صوت النفير ! والذى يقول أيضا إن الغارة قد انتهت . فكنا لا نصعد إلى حجرة الدراسة إلا بعد اعلان انتهاء الغارة بسماع صوت النفير ! – الانذار – ففكرت ماذا نقرأ فى كليلة ودمنة ؟! فقلت خذوا الكتاب جزء الأسد والثور ، فأخذن يقرأن واحدة تلو الأخرى ، فالقصة شائقة ولطيفة ، ومسلية فى وقت الهم الذى نحن فيه !

●● ماهى العبارة التى مازالت بنصها ولم تترجم حتى الآن ؟!

ولعلك تذكر أن صاحب العربة ، كان له ثوران أحدهما : أسمه : « شتربه » والآخر اسمه « بندبة » وهم فى الطريق وحل شتربه فلم يستطيعوا السير به فتركوه ! وتستمر الحكاية مع شتربه ، فى أنه ظل فى الوحل الى أن جف ، فقام وأكل واسترد صحته ، وصار قويا جدًّا . فجاءت عبارة « فَخَارَ » و « مَارَ » وطلب الأبقار !

هذه العبارة مازالت بكل الترجمات بنصها . فترجمت : فخار ، ومار ، وأما طلب الأبقار !! فكان فيها الحرج كل الحرج ؛ لأن الطلبة جميعهم فتيات ، ولو كان فيهم رجال ، لقلت طلب الأبقار الإشباع الجنس ! لكن بما أن المصادفة أن الموجودين ستة أو سبع بنات فقط . منعنى الحياء أن أذكر كلمة إشباع الجنس ! فقلت طلب الابقار . يعنى طلب الثيران ليناطحها !

وقلت بينى وبين نفسى ليغفر لى الله هذا الكذب فى أن أسمىّ البقر ثورًا ، وانتهت المشكلة .. وانتهت الغارة ، وعدت الى البيت ، قلقا بعض الشىء كان يهتز قليلا فى أنى قلت : أن الأبقار . يعنى الثيران !

وفتحت لسان العرب فاذا بلسان العرب يقول : والبقرة : الثور .

فحمدت الله على أن صان لسانى عن أنطق بالخطأ فى اللغة العربية .

●● عملا بالشريعة الاسلامية تعان الزوجة مادامت تحتاج إلى ذلك .

●● الإنجليز يريدون السلامة ولايحبون المقاضاة مهما كانت !

● هذا كان صديقا مصريا ، عزيزًا علىَّ ، زميلا فى الدراسة فى مصر ، وفى انجلترة . ولما جاءت الحرب العالمية الثانية ، حول نفسه الى موظف فى الـ « بى . بى . سى » .

وحدث أنه جاءنى فى يوم من الأيام ، وقال لى : انى نويت أن أتزوج . فباركت له فيما نوى ، ولكنه قال : إن هناك إشكالا كبيرا جدًّا! هو كان متزوجا من مصرية ، من مدة سابقة من بضع سنوات قبل الحرب ، وطلقها ، وعادت إلى بلدها ، والإشكال القائم ، أنه باعتباره موظفا فى الـ « بى بى . سى » يقتضى قانون الـ « بى . بى . سى » أن من يكون على وشك الجواز ، يملأ استمارة بعدة معلومات ، وأعطى هو هذه الاستمارة دون فيها بعض الأسئلة التى يوقعه فى الحرج الإجابة عنها ! وهذا هو ماجاءنى يشرحه لى : خلاصة الأمر : أنه فى خلال السنوات الماضية ،

منذ عادت زوجته الأولى إلى مصر ، كان يثبت فى إقرار الراتب أنه يدفع لها نفقة ، وتسقط هذه النفقة من مبلغ الضرائب .

واتضح فى الأسئلة المحكمة التى فى هذه الاستمارة ، أنه إذا كان هذا هو الذى يحدث إذ فهو لايزال متزوجًا . مادام يدفع نفقة زوجة ، فهو لايزال متزوجًا ، ويقضى القانون الانجليزى بوحدة الزواج . فلا يجوز له أن يتزوج مرة أخرى ، قانونا فى حكم القضاء الانجليزى .، فقال لى : ماذا أصنع ؟! وكان فى غاية الاضطراب ! أولا : لأن سيمنع الزواج من السيدة التى يرغب فى الزواج منها . ويوقعه فى اشكال كبير مع الضرائب بسبب سنوات متعدده اعترف فى كل منها أنه يدفع نفقة شرعية ، فى حين أنها لم تكن نفقة شرعية !

فكرت فى الأمر ، وقلت له ، إننا نكتب خطابا للضرائب نشرح فيه الموضوع بالصورة الآتية ، أن الزوجة السابقة عملا بتقاليد الاسلام ، تعان مادامت حالتها المالية تحتاج الى ذلك . وفعلا حالتها المالية كانت تحتاج الى تلك الاعانة . وأن المبلغ الذى كان يرسل اليها لم يكن نفقة شرعية ، وإنما كان إعانة عائلية ، ويقرر هذا الخطاب – وأنا الذى أحرر الخطاب – أنى عندما شرحت موضوعى لصديق لى ، أعلم بالانجليزية منى ، عرفنى أنى استخدمت فى الانجليزية للراتب : كلمة فى غير موضعها ، وسميت هذه الإعانة نفقة ، فى حين أنه ينبغى أن استعمل لها كلمة كذا ... التى تدل على إعانة .

فلما واجهت الأمر الآن . شرحت له هنا ، فشرح لى الأمر وقال لى : إننا نصحح الخطأ المادى فى أنك استعملت كلمة بالإنجليزية لم تكن تعرف معناها . وبالفعل حررت الخطاب ، ولكنه امتنع عن توقيعه ، قال : لا . هذا غير معقول ولا يقبل . أنت تريد منى أن أوقع هذا ! واعترف بأنى .... فقلت له : أؤكد لك أن هذا سيكون فيه كل اطمئنان للضرائب ، واطمئنان لك . فلا تخش شيئا . اقبل ولا تتردد ، وبقى هذا الخطاب بينى وبينه يومين الى أن حملته على توقيعه وأرسلته . وبقى هو فى حالة اضطراب ، منتظرا أنه سيطالب بالحضور والمحاكمة ، وكذا . وكذا ..

وأنا لطول معاشرتى للانجليز فى بلدهم ، ومعاملتى مع الضرائب بالذات ، أعلم أنهم يريدون أسلم طريق ، ولا يحبون المقاضاة مهما كانت ، ويطلبون سبيل السلامة دائما . على كل حال جاء الوقت ووصله خطاب : بأن محصل الضرائب الخاص به ، تسلم خطابه ، وأنه مستعد للتاريخ الذى يحدده هو ، لملاقاته ومناقشة الموضوع . فحررت له خطابا بتحديد الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم كذا ، يوم قريب ، غدًا أو بعد غد . لأن البريد يتبادل عدة مرات فى اليوم الواحد ، وفى الموعد المحدد ، ذهبت معه ، وهو ينتفض ويقول ، الآن سيحق الحق علىّ . فلما

ذهبنا ، قدمت نفسى أنا ، وقلت : أنا فلان صديق فلان الشخص المطلوب . ولكن لعدم علمه بدقائق اللغة الانجليزية ! دعانى كى أحضر معه – مع العلم بأنه كان طالبا فى جامعة لندن فى ذلك الوقت وموظف فى الـ « بى . بى . سى » – فقال مفتش الضرائب لنقرأ الخطاب وكل شىء ميسور ، والمبلغ عندما حسبناه ، وجدناه كذا مائة جنيه فى السنوات الماضية ، فهل هو مستعد أن يقسطها على أقساط ، هذا أول سؤال من جانبه . أنا قبل أن آخذ سألته : هل معك هذا المبلغ كله ولو طلبوه تدفعه ؟ قال : نعم . فاذا هم يعرضون التقسيط . فقلت : أنا فهمت من صديقى أنه مستعد أن يدفع نصف المبلغ ، ويقسط النصف الآخر . ودفعنا نصف المبلغ ، وقسطنا النصف الآخر على سنتين .

●● معى أنا ... والضرائب موقفان لهما العجب كل العجب !

● **الموقف الأول :** بعد أن بدأت الحرب الثانية ، بسنة أو سنتين . وجدت أن ثمن الكتب مرتفع ارتفاعًا فظيعًا ، والضرائب تحسب لكل مهنة مبلغا استهلاكيا ، يعفى من الضرائب . فللأطباء مبلغ كذا ، وللمحامين مبلغ كذا ، وللسمكرية مبلغ كذا . ولأساتذة الجامعة عشرة جنيهات فى السنة ، اعفاء من الضرائب ثمن كتب ، أنا وجدت فى تلك السنة كان ثمن الكتّاب أضعافًا مضاعفة .. ! فكتبت لمفتش الضرائب بأن عشرة جنيهات التى تعفى من الضرائب لأستاذ الجامعة كان بناء على القانون فى بدء صدوره فى عهد فيكتوريا سنة ١٩٠٢ وأن ثمن الكتب قد ارتفع ارتفاعا فظيعا جدًّا . وعشرة جنيهات لا تمثل مقدار ما كلفتنى من الكتب فى العام الماضى . فأنا أرجو إعفاء ثمن هذه الكتب من الضرائب . وأرسلت الخطاب . وجاءنى الرد : تسلمت خطابك الذى تقول فيه : كذا . وكذا . وكذا . وأريد أن أوجه نظرك الى الفقرة الآتية من قانون الضرائب ، وكتبها ، لى بالنص ونصها : « Books the paice of whicsh ds shich shoold rexempted

ومعنى هذا : أن الكتب التى تعفى أثمانها من الضرائب ، يجب أن تكون أساسية لعملك الأصلى – وهذه هى العبارة الآتية – والا تكون لتحسين عقلك ، كلمة معناها بالإنجليزية : ثقافة CULTURE وبالطبع أنا فهمت أن هذه لغة قديمة غالبا فى عهد فيكتوريا لم تكن كلمة ثقافة قد شاعت . وأنهم كانوا يستعملون بدلاً منها : أن الكتب التى يقرؤها الإنسان لغير غرض مخصوص تكون لتحسين العقل ، فرددت عليه وقلت له : أوكد لك أن الكتب التى اشتريتها كانت أساسية لعملى ، وأن أى تحسين لعقلى حصل منها إنما كان أمرا طبيعيا ! وكان من لطفه وحسن تدبره وتفهمه أن استجاب لمطلبى .!

●● الموقف الثانى أشد وأكثر صعوبة من الموقف الأول ...

● **أما الحادثة الثانية** : التي كانت بيني وبين الضرائب : قد كان هذا في أواخر سنة ١٩٤٥ . كنت خارجًا من مستشفى بعد عملية طويلة ، وجاء شهر يناير ١٩٤٦ . وهو الشهر الذى يكتب فيه العميل اقراره للضرائب . وكنت لا أزال ناقهًا فى بيتى ، لا أزاول العمل ، ولكنى فضلت أن لا أؤجل كتابة اقرار الضرائب ، فكتبت إقرارًا للضرائب ، ذكرت فيه : كل إيراداتى وما يعفى منها . وأرسلته. وبعد أسبوع أو نحو ذلك ، وصلنى خطاب يقول فيه : إنه يأسف ليوجه نظرى إلى أن هناك خطأ فى عملية ، الجمع والطرح ... يساوى مبلغا يقل عن العشرين جنيها ، وهو أعزاه – أدبًا – الى أنه مجرد خطأ فى العملية الحسابية .

فراجعت نفسى ووجدته صادقا ؛ لكننى فى ذلك الوقت كنت قد انتعشت كثيرًا عن الحالة التى كنت فيها حينما كتبت أنا الاقرار ، وأدركت أن هناك مبلغا كان قد وصلنى يزيد عن هذا المبلغ كثيرًا ، وأنا لم أذكره ، ولم يعرف عنه شيئا ، فذكرته له أنا آسف لحدوث هذا الخطأ . لقد كنت ناقها من مرضى ، وكان ينبغى ألا أتعجل الكتابة فى ذلك الوقت ، ومع ذلك لبيان أن هذا لمجرد خطأ أننى نسيت أن أذكر مبلغ كذا . وهذا جعلك أنت مدينا لى ببضع جنيهات ! وقد قبل ذلك .

●● ... مهدى كابتن كوره وله معجبون أيضا ...

● عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية : وصادف أنى كنت فى انجلترا فى ذلك الوقت ، فى الأسبوع الأول من الهدنة ، كنا فى إجازة ، وخرجت مع زوجتى – رحمها الله تعالى إلى إحدى الأماكن الترفيهية لتناول القهوة أو الشاى فى حوالى الحادية عشرة صباحًا ، ولم يكن وقتا طبيعيا ، لأن الناس فى مثل هذا الوقت **يكونون فى أعمالهم** ، وبينما نحن فى بهو كبير جدا أنا وزوجتى جالسين ، إذ دخل شاب ومعه فتاته ، رشيقة جميلة ، ومر علينا – طبعا الأماكن فاضية كلها ، ولم يكن هناك منضدة مشغولة غير التى نجلس عليها – وحدث أن الشاب وهو يمر أمعن نظره قليلا فى منضدتنا ، ولم أهتم كثيرًا ، ولكن زوجتى سألتنى وقالت : أتعرف هذا الشاب ؟! فقلت لها : على سبيل الفكاهة ، نعم . شاب معه فتاة جميلة ، هذه كل معلوماتى عنه ! وبعد نحو عشر دقاق ، جاء هذا الشاب ، ووقف على رأس المنضدة التى كنا جالسين إليها ، وقال :مهدى ! فادركت مباشرة أين يكون قد عرفنى ، وذلك متبعًا فى العادة التى كانت متبعة فى نداء الناس بعضهم لبعض ، وطبعا أنا فى ذلك الوقت كان قد مضى علىّ سنوات طويلة فى « مانشستر » ربما يكون قد عرفنى فى جامعة « مانشستر » التى كنت منتدبا فيها ،

لكن جرت العادة أننا فى جامعة « مانشستر » كقاعدة عامة ينادى بعضنا بعضًا بالاسم دون لقب . فلا يقال : بروفسيرعلام ، ولا دكتور علام ، ولا مستر علام . ولايقال هذا ، فادركت من أول الأمر أنه لاعلاقة له « بما نشستر » لأنه ذكر مهدى ، فانا على طول قلت له : [Uor are an old eseater bay] أنت لابد أن تكون من أولاد إكسترا . قال : نعم . وما الذى عرفك هذا ؟! قلت : أنا لا أتذكر صورتك ، ولكن استنتج أن الذى ينادينى باسم مهدى لابد أن يكون قد عرفنى ونحن فى « إكسترا » عندما كنا طلابا ، فأحضر زوجته وجلست معنا، وقال لى : إنه فى أول يوم فى إجازة من الجيش ، وقد جاء الى هذا المكان وهى المدينة التى كنا نسكن فيها ، فهى مصحة جميلة جدًا ، سعدنا بمعرفته وطفله الصغير ، وسألته أنا ؟! كيف تذكرنى ؟ فقال لى : أنت كنت كابتن كورة ! وأنا كنت أحضر لأتفرج عليك وأنت تلعب الكرة ، فأنا إعجابى بك يرجع الى أكثر من خمس وعشرين سنة ، عندما كنت تلعب الكرة وأنت فى الكلية فى إكسترا .

●● نقل أستاذًا بالجامعة بعد أن كان مديرًا لها وكان أسعد حالا لماذا؟

● ذكرتنى أحداث الحرب العالمية الثانية التى تحدثت عنها اليوم بأحداث شبيهة بها ، ذلك أن جامعة « إكسترا » التى فى الجنوب الغربى لانجلترا ، ككل جامعة فى إنجلترا لها ألوان خاصة فيما يتعلق برباط الرقبة ، فيما يتعلق بالليزر التى يلبسونها الى آخره .

وهناك شىء آخر اصطلح على القيام به فى جامعات انجلترا . وهى أن كل جامعة تختار يومًا يعتبر « كارنفال » تقوم فيه بأدوار مسرحية شعبية فى الشوارع ، يلبسون مسخًا ...

والغرض من هذا جمع أكبر كمية من المال لمستشفى المدينة التى فيها الجامعة ، حدث فى السنة التى سبقت وصولى أنا إلى « إكسترا » أن قامت الجامعة بعملها هذا . وكان من بين الأعمال التى قامت بها فى الليلة السابقة ليوم الكرنفال أن مرت على جميع تماثيل المدينة ، والمدينة مدينة تاريخية قديمة ، فيها تماثيل كثيرة جدًا ، فدهنوها بلون الجامعة : الأحمر والأسود وأصبحت المدينة فى الصباح ، فإذا الناس يشاهدون هذا المنظر ، انتهى الأمر ولم أكن موجودًا أنا ، إنما علمت أخباره فى اليوم المشابه له من العام التالى ، وعندما اشتركت فى الكرنفال بمنظر يمثل مارشال تركى بلبسه الطربوش وبدلته المعروفة وسلاحه إلخ . ليس هذا هو المهم فى الحقيقة وإنما الذى دفعنى الى الحديث عن هذا أنهم عقب هذا غيرت ألوان الجامعة ، من الأحمر والأسود . الى الأخضر والفضى ، وغيرت معها الكرافتات إلخ . ومضت سنة أخرى ، وبعبارة

أخرى أدق ، فى السنة الثالثة لوجودى فى « إكسترا » نقل مدير الجامعة وأتذكره بالاسم ؛ لأنه كان رجلاً دمث الأخلاق عظيما ، عطوفًا على المصريين . أقام الطلاب له حفلة توديع ، لم تزد على أن جلسنا فى المدرج الكبير ، وتكلم أحد الطلاب ، ثم تكلم هو . وفى كلامه هو جاء مايأتى :

قال : الجزء الأول أنه ماكان يخطر بباله فى يوم من الأيام أن يترك هذه الجامعة الحبيبة الى قلبه ، لولا أن مكانا حبيباً آخر الى قلبه قد دعاه ، ذلك أن أستاذه فى الفلسفة فى جامعة « إدنبره » تُوُفِّىَ وأوصى أن يحل محله هذا الاستاذ ، وهو وفاء لهذه الوصية قبل أن يذهب أستاذ هناك ، مع أنه كان مديرًا لجامعته ، هذه لفتة جميلة جدًّا أسجلها لـ « هاذر تجتون » فى نبله ...

●● يوم مُسّ رجال الكنيسة والجيش قامت الدنيا وكانت القضية الكبرى

والشىء الآخر لدىّ سرّ أريد أن أبوح لكم به . أنه عندما حضرت هنا منذ ثلاث سنوات كان بين الجامعة وأهل المدينة قضاء ، ذلك أنه على إثر ماعملتوه فى دهان تماثيل المدينة بلون الجامعة ، رفع المجلس البلدى قضية على الجامعة ، على مجلس الطلاب ، وجئت أنا والقضية قائمة ، فقال أريد أن أبوح لكم بسرٍّ قبل أن أغادر المدينة ، ذلكم أنكم أولا أخطأتم خطأً شديدًا جدًّا ، فى أنكم لم تستثنوا من التماثيل التى مثلتم بها ، تماثيل الجيش ، وتماثيل الكنيسة ، لو أنكم تركتم إنسانا ليمثل كبيرًا من كبار الكنيسة ، وقائدًا عامًا للجيش . لو تركتموهما الاثنين فقط دون هذا التهزئ ، ماكان أحد يغضب ؛ إنما الذى أغضب أهل المدينة أن مست الكنيسة ، وأن مس الجيش ، وهما نقطتان حساستان .! ومن أجل ذلك أظهرت المدينة فى حكم مجلس المدينة — غضبها ورفعت القضية وقال : إنكم لاتعلمون أن الأموال التى كنت أدفعها للمحامين الذين يدافعون عنكم — وأموال المحامين فى إنجلترا شىء لا يقدر عليه أحد — كانت تأتينى من مجلس المدينة نفسه، فإنه فى الوقت الذى أراد أن يربىّ فيكم احترام الجيش واحترام الكنيسة أعانكم دون علمكم . ولعلمكم أعلن هذا وأنا خارج أن جميع الأموال التى دفعناها لتبرئتكم ، ولتسوية القضية كانت من مجلس المدينة ، والحل الذى وصلوا إليه هو أولا : أن يكلف الطلاب بأن يقوموا بغسل هذه التماثيل جميعها وتنظيفها واعادتها الى حالتها الأولى . وقد فعلوا ذلك .

●● من هو الطبيب الوحيد فى انجلترا الذى لا يأخذ أجره إلا إذا أفلس !!

● تذكرت مرة من المرات التى مرضت فيها وأنا فى انجلترا أنى اضطررت لإجراء إحدى العمليات ، وكان لابد من الانقطاع عن العمل نحو شهرين ، والجامعة التى كنت ادرّس فيها لم يكن فيها أحد يقوم بتدريس اللغة العربية سواى ، أنا حاولت أن أؤجل العملية الى إجازة الصيف ، فأدهشنى أن رئيس الجامعة علم بذلك فغضب وعاتبنى قائلا لى : كيف يؤجل عمل كهذا ؟ فقلت له : أنا أمامى طلاب وعلىّ مسئولية لهم ، ولا أدرى كيف اتركهم لمدة شهرين وليس فى الجامعة من أستطيع أن أعتمد عليه ليحل محلى .

فقال لى : هل تظن أن ميزانية الجامعة تعجز عن أنها تنتدب أستاذًا من أىّ جهة ليقوم مقامك فى هذين الشهرين ؟! عليك أن تعجل فى هذا ، وليس عليك أى شىء فيما يتعلق بعملك الجامعى .

وبالفعل استدعوا الاستاذ الانجليزى الذى كان قبلى ، والذى كان متقاعداً فى ذلك الوقت . وغمروه فى هذين الشهرين كما علمت منه فيما بعد حتى قام بالعمل فى هذا الجزء ، يعنى أذكر على سبيل الاعتراف بالجميل لإدارة الجامعة ، وخصوصا رئيس الجامعة السير جون ستوپفورد فى تلك الأثناء انقطعت مدة شهرين عن المدينة الجامعية ، وفى هذه المدة أقمت فى المستشفى شهرًا منها ، وفى البيت شهرًا ، وهناك أمر طريف حسن ، وهو أن الطبيب الذى قام لى بالعملية على حسب الطريقة الانجليزية لم يكن قد تعاقد معى على مبلغ أو أىّ شىء ، العادة أن الإنسان يذهب ويعمل كل شىء ، وبعد ذلك الحساب فى آخر الشهر الأول عندما بدأت أتحرك فى المستشفى ، وطلبت كشف الحساب عن المستشفى أولا ، ثم عن الطبيب ثانيا ، لأن ذلك شيئان مختلفان ، فأعطونى قائمة الحساب الخاصة بالمستشفى . وقالوا لى : إن قائمة حساب الطبيب هو الذى يرسلها إليك . فى أثناء محادثتى مع المحاسب فى مكتبه هناك أحد المرضى الذين يحاسبونهم فتدخل فى الكلام معلقا بما يدل على أنه سيكون من العجيب إذا استطعت أن أحصل على كشف الحساب من الطبيب .

قال ذلك : فى صورة فكاهة ، فأنا ظننت أنها نكتة سخيفة أخطأ هدفها ، كيف أن طبيبا يمتنع عن إعطاء كشف بأجره فى عملية من العمليات ؟! لم أستجب للنكتة بما كان يتوقع المتحدث ، فأعاد حديثه بصورة جادة قائلا : ستكون ذا حظ عظيم من غير شك إذا استطعت الحصول على كشف الحساب من الدكتور فلان . سألته كيف يكون هذا ؟! فقال لى : هذا

الطبيب له عادة معروفة ، فقد عاملته مرتين قبل حضورى هذه المرة ، وعادته أن لا يوصل كشف الحساب لمرضاه إلا إذا احتاج هو إلى مال ، ذلك أن لديه كشوف حساب مرضاه السابقين مكدسة ، بعضها فوق بعض على مكتبه ، فاذا ما حدثت له أزمة ماليه تتمثل فى طلب دفع نفقات التليفون أو الكهرباء أو المياه أو ماشابه ذلك . فعندما يحس أن عليه التزامات مالية يطلب من السكرتيرة أن تأخذ إحدى الفواتير الموجودة وترسلها إلى صاحبها ، ولايذكر الأسماء ، وإنما هى موضوعة بعضها فوق بعض ، فتفعل هذا سكرتيرته ، ويرد المرسل إليه بمبلغ فى غالب الأحيان مبلغ كبير ، لأنها عمليات مكلفة ، ويفك به أزمته هو ويتصرف فى هذا فى حدود شهر أو شهرين ، وتأتى أزمة أخرى بأن يطلب منه مبلغ من المال لحساب من الحسابات ، فيطلب من السكرتيرة أن ترسل فاتورة جديدة وهكذا .. فحدثنى الذى كان يحدثنى وأنا فى مكتب الحسابات ، قال لى : هذا هو الذى يحدث لهذا الطبيب ! كدت أظن فيما يقول شىء من المبالغة على كل حال !

●● النكتة السخيفة التى أخطأت هدفها ... أصبحت حقيقة . !

قلت له: هذا أمر مقدور عليه – والحمد لله – وبمجرد أن خرجت من المستشفى أرسلت الى الطبيب خطاب شكر على العملية ورجوته أن يرسل لى كشف الحساب . لم يردّ علىّ وبما أنى أعلم التواريخ التى تدفع فيها الحسابات فى انجلترة عادة لأن هناك العام مقسم الى أربعة أيام ، كل يوم لمدة ثلاثة أشهر ، وهى التى تسدد فيها الفواتير ، سواء لحساب الماء ، أو النور ، أوالتليفون ، والمحلات التجارية التى يتعامل معها الناس ومرتبات الموظفين ، لأن مرتبات الموظفين الكبار تدفع كل ثلاثة أشهر ، لاتدفع شهريا . فكنت أتعمد مجىء يوم من هذه الأيام كيوم عيد رأس السنة الميلادية ، وكذلك يوم شم النسيم وهكذا ، وأكتب له أن يرسل لى كشف الحساب ، ولم أجد منه ردًا ، واستمر على ذلك فترة الى أن حان وقت عودتى الى مصر ، وجرت العادة أن كل من يترك البلاد ينشر فى الجرائد أنه هو وأسرته سوف يتركون البلاد نهائيا ، وعلى كل من له معاملة معهم أن يتصل بهم قبل التاريخ الفلانى إبراء للذمة .

وفعلت هذا وأرسلت الى الجرائد بأننى وأسرتى سنعود الى مصر وعلى كل من قد نسيت التعامل معه يرد علىٰ موضحا ماله على ، وبدأ الوقت ينقضى فى انتظار إعداد الأسرة للسفر ، فى هذه المدة كناقد بعنا البيت الذى كنا نسكنه ، والذى كنت أقتنيه فى أثناء وجودى بعد استئجار بيوت مفروشة عدة مرات ، وعدم الراحة فيها دائما إلى أن عثرت على فيلا واشتريتها ، وبقينا فيها عدة سنوات ، وبعتها كما يقولون لأول مشترٍ ؛ لأن الوقت كان لايتسع للانتظار لنحصل على أعلى ثمن لها ، ولن يقف هذا فى وسائلى وأنا فى غاية النشوة فى الرغبة فى العودة

الى أرض الوطن ، وفى سبيل ذلك يهون كل شىء.

وبالفعل اتفقنا على أن نبيع لأول عرض ، وكان أول عرض من سيدة انجليزية ، وكتبنا عقدًا ابتدائيا كان الشرط الجزائى فيه أن من يرجع عن هذا العقد قبل تسجيله نهائيا يغرم مائة جنيه فى أثناء هذه المدة ، ونحن فى مايمكن أن نسميه زهو الفرح بالعودة إلى الوطن ، فكرت زوجتى فى أمر دفايات الانجليز ، وهى عبارة عن إطار فى الحائط ، وشكلها يحيط بالحائط إطار على شكل حرف « U» مقلوبا ، صفّ فوق أعلى المكان الذى يوجد فيه الدفاية ، وضلع إلى اليمين ، وضلع الى اليسار ، طبعًا هناك أشكال مختلفة ، فأحيانا يكون مبنيا، وأحيانا يكون رخامًا ، وأحيانا يكون خشبا من الأرو ، ويوضع ويثبت على « قلاوظ » ، وكان الجهاز الخاص بدفايتنا من هذا النوع .

فقالت زوجتى : أنا أريد أن نأخذ هذا الإطار لنضعه على دفايته فى بيتنا الذى نبنيه فى مصر ، وذلك لأن هذا الاطار فى نظرى خير مايمثل الحياة الانجليزية ؛ لأن الانجليز يهتمون بالدفاية ، واشعال النار ، ويستقبلون ضيوفهم دائمًا حول هذه الدفاية ، وأعز الضيوف هو الذى يحظى بكرسى قريبا منها ..

●● .. زوجة مصرية تنقل المدفأة الانجليزية الى مصر ... هل هذا معقول ؟

فقالت : إن سنوات طويلة عشناها هنا استقبلنا ضيوفنا المصريين والانجليز انفسهم كانوا يتمعون حول هذه المدفأة ، فأنا أفضل أن آخذ هذه المدفأة رمزا للحياة التى قضيناها فى انجلترا فقلت لها لك ذلك. وأنا أعلم أن المسألة لا تزيد عن حل المسامير « القلوظ » وكان حسام فى مدرسة فيها تلميذ عمل بالصحافة ، وسمع من حسام فكرة والدته ، وحضر هذا الولد الصحفى مثل كل الصحفيين المبتدئين وأخذ صورة للمدفأة ونشرها تحت عنوان : « زوجة مصرية تنقل المدفأة الانجليزية الى مصر » وما نشعر الا وهذه السيدة قد حضرت وفى وجهها فزع شديد وقالت : تهدّون الحائط لتأخذوا المدفأة ! فأفهمتها الأمر وقلت لها : هذه رغبة زوجتى ولابد أن أحققها لها . وقبل التفاهم قلت لها المسألة بسيطة إذ كان ذلك يخالف شروط البيع فالحل بسيط جدًا هذه الورقة تحل ماييننا من عقد الشرط الجزائى قبل توثيق العقد الذى ينص على أن المخالف يدفع ١٠٠ مائة جنيه . هذه المائة جنيه !

قالت على الفور : لا . أنا لم أفهم حقيقة الأمر ، الذى خشيته أن تهد الحوائط .

قلت لها : كيف نجمع الحائط فى شكل مدفأة ونأخذه معنا ، وإنما الذى سوف نأخذه هذا الاطار الخشبى ...

فقالت : هذا أمر بسيط .

وقلت لها : أنا على استعداد لأن أعوضك عن ثمنها .

فقالت : أنت تفضلت على من قبل بأشياء كثيرة فى البيت ، مثل سجادة السلّم والستائر وغيرها وتركت كل ذلك لنا بدون ثمن ، فأنت كنت متفضلا من أول الأمر ، وانتهينا ، المسألة انتهت عند هذا الحد .

ولما عدنا الى مصر أردنا أن نبنى بيتنا هذا الذى فى المعادى الآن .

قالت : زوجتى إنها تريد هذه المدفأة لتضعها فى حجرة الاستقبال .

قلت لها : أنا أريدها فى مكتبى لأنها هى التى تشعل فيها النار مدة أطول ، وكان المقاول الذى يقوم بأعمال البناء رجلا طيبا وذكيا ، وأدرك أن هناك مناقشة ما حول وضع المدفأة ، وبعبارة أدق الاطار الخاص بها ، فطلب منى إعطاءه الاطار وهو يقوم بصنع مثيل له تمامًا ، وأتحدى أى شخص أن يميز بينها، أو يعرف الأصلى فيها ، وكل منكما يأخذ واحدة فى حجرته وقد حصل وحل الاشكال فى يسر وهدوء على يد المقاول الطيب الذكى بفطرته .

●● الحل فى يدك إن شئت أخذت هذه ... وإذا شئت أخذت حجرتك .

وما أردت أن أذكره بمناسبة غيابى عن الجامعة مدة شهرين أن قسم اللغات السامية الذى كنت أشتغل فيه كان فى ملحق من المبانى الخاصة بالجامعة ، وليس له مصعد ، وأنا كنت فى الدور الرابع ، وهو كان أربعة أدوار ، فلما عدت من المرض وذهبت الى هذا المبنى ، ويوجد فيه مايسمى حارس المبنى ، وهو شىء أرقى جدًا من البواب ، وله حجرة فى أسفل البيت فلما رآنى حضر الىّ وقام وسلم على مرحبا ، وقال لى :أستأذنك فيما أقوله : إن حجرتك فى الدور الرابع قد نقلناها الى الدور الأول الأرضى ، والذى فعل ذلك زميلك الأستاذ فلان – أحد زملائى الانجليز – عندما علم أنك ستعود بعد عملية جراحية قال : إنه لايكون من المستحسن له أن يصعد أربعة أدوار فى اليوم ، فأنا أعطيه حجرتى التى فى الدور الأرضى ، وآخذ حجرته فى الدور الرابع اللهم الا إذا رفض هذا فانه يأخذ حجرته . وعلى هذا نقلنا حجرتك بما فيها إلى

هنا ، ونقلنا حجرته الى هناك .

والأمر الآن إذا شئت أخذت هذه ، وإذا شئت أخذت حجرتك . وطبعا هذا من خير ما قوبلت به . وشكرت الاستاذ الزميل على هذا. وبقيت فيها حتى عدنا الى وطننا الحبيب ونبدأ مرحلة جهاد جديد .

•• القسم الخامس :

الأزهر الشريف وأنا
وقضايا علمية خطيرة ... !

●● الأزهريون لم يكفروك وحدك يامهدى ! ولكن سبق وكفرونى وكفروا من قبلى وقبلك الشيخ محمد عبده !

المراغى شيخ الأزهر السابق

●● إذا كانوا كفروك وكفروا الشيخ محمد عبده فهم منكم ومن جلدتكم وهذا ليس ذنبى !

مهدى علام

● ما أتحدث فيه اليوم موضوع جليل وخطير، وعجبت لنفسى أنى لم أتحدث عنه للزميل أبو بكر عبد الرازق فى المشروع الذى نسير فيه وهو تدوين بعض مايخصنى من ذكريات لنصف قرن مضى ، عجبت حقيقة لأن هذا الموضوع من الموضوعات الهامة جدًا ، وإن كنت لم أتحدث عنه منذ مضى !

لقد مضى عليه أكثر من نصف قرن ، ولكنه موضوع خطير جدًا ..

... ذلك أنه فى سنة ١٩٢٨ م كنت منتدبا للتدريس فى قسم التخصص بالأزهر الشريف ، هذا القسم الذى كان قد أنشأه المرحوم الشيخ المراغى ، وكان سبعة أقسام ، منها قسم للتاريخ والفسلفة ، وأنا كنت حديث عهد بالعودة من إنجلترا من البعثة ، فمن حسن الحظ أنه فى ظاهر الأمر اختارونى لتدريس تاريخ الفلسفة فى هذا القسم ، وبالفعل سعدت بهذا وإن كنت شعرت بأشواك كثيرة حقا حولى ، وأنا أقول هذا الآن بعد أن تغير الأمر فى الأزهر الشريف ، فلابد أن يُفهم أن كل الذى أقوله الآن فى جو ١٩٢٨ . عندما كان إخواننا فى الأزهر الشريف ينظرون الى غير الأزهريين بأنهم ليسوا أهلا – على الأقل – للتكلم فى شئون الدين أو فى أمور تتعلق بالأزهر الشريف شعرت بهذا ، لأن الطلبة الذين كنت أدرس لهم كانوا حاصلين على العالمية[1] ، ومضى عليهم سنتان وأصغرهم أكبر منى سنا ، وأنا لا ألومهم لأن مها لمتهم – يومئذ – فى نظرتهم إلى أن شخصا فى سنى ، وأنا فى ذلك الوقت لم أتجاوز الثامنة والعشرين ، وزيى غير زيهم ، لأن الأزهريين كانوا – يومئذ – ملتزمين بالزى الأزهرى . **الذى حدث هو أنى كنت أدرس لهم مايسمى فى علم النفس المقدمة النفسية ، والمقدمة النفسية ، تتألف مما يأتى :** أن كل كائن حىّ فى هذه الحياة له مايشبه الرغبة ، وقسم

---

(١) المقصود حصولهم على شهادة الاجازة العالية التى تعادل الليسانس .

العلماء الكائنات الحية فى ذلك الوقت ، إلى النباتات ، والحيوانات ، والآدميين ، وقالوا : وقولهم حق من غير شك ، إن النبات له ميزة ميل النبات الى الهواء فى أوراقه وفروعه ، التى تتجه إما إلى جهة هوائية ، أو إلى الظل ، أو إلى الشمس ، وجذوره فى احتياجه الى الماء تنزل الى الأعماق التى تستطيع أن تصل إليها ، لتحصل على الماء ، وقالوا إن هذا الميل يسمىّ : الحاجة . وقالوا الحاجة النباتية ، وهى هذا الميل الطبيعى الذى يوجد فى النباتات .

●● الحيوان يندفع نحو الماء والبرسيم بحكم الغريزة :

فى المرحلة الأرقى من النباتات وهى الحيوان ، يكون فيه ميل ؛ ولكن يكون مصحوبا بشعور ، والحيوان عندما يكون جائعًا يشعر بالجوع ، ويلتمس الطعام ، وبالعطش يلتمس الشراب ، وبالجنس يلتمس الجنس . وبكل الرغبات الحيوانية هذه يسمونها الرغبات ويسمونها ميولاً .

وتفرقة بينها وبين الحاجة النباتية سموها الشهوة الحيوانية ، وعرفوها بأنها مع وجود الميل لا يصاحبها إدراك لأن فيه منفعة ، الحيوان لايعرف أن البرسيم أو الذرة أو القمح الذى يأكله فيه منفعة له ، ولكنه يندفع بحكم الغريزة ، وكذلك يندفع الى الماء ليشربه ، والى كل عمل آخر يميل إليه ، بحكم الغريزة ، وليس هناك شعور ما ، بأن فيه فائدة له .

انتقل بعد هذا الى مرحلة الإنسان ، فالإنسان لديه ميول ، هذه الميول يسمونها الرغبة ، وتوجد عند الانسان ، فى مرحلة مشتركة فى معظم الأحيان ، فليس لدى الانسان ميل واحد ، فى وقت واحد ، وإلا كانت حياته تكون أبسط من هذا ، تكون أقرب الى حياة الحيوان ، وإنما عادة الانسان ، يكون لديه مجموعة ميول فى وقت واحد ، اثنان أو ثلاثة ، ولكل واحد مايسمونه عاله ، فهذا العالم الذى يحيط بهذا الميل يختلف عن العالم الذى يحيط بعالم آخر ، ويتصارعان ... فأنا أشعر بأن على واجبًا أن أكتب خطابا لصديق من الأصدقاء ، وفى الوقت نفسه ، أشعر بأنى أريد أن أقوم الآن للطعام ، وفى الوقت نفسه على مكالمة تليفونية هامة ، وأحب أن أقوم بها ، فأى هذه الأعمال الثلاثة يذهب فى قوة أحدها ، فاذا كان الجوع هو أشد قمت للطعام ، وإذا كان شعورى بأهمية هذا الخطاب قمت لكتابة الخطاب ، وإذا كان شعورى للمكالمة التليفونية أقوى قمت للمكالمة التليفونية .

●● ميول الانسان لابد أن تكون مصحوبة بالمنفعة !

يسمون هذا : بلغة الطبيعة البؤرة والضوء ، أو البؤرة والحاشية . فكل ميل من هذه

الميول في حاشية عالمه يترجح أو كما يقولون يتأرجح ! في هذه الحاشية قربًا من بؤرتها وبعدًا عنها ، ويختلف هذا باختلاف الظروف ، وباختلاف الناس ، وباختلاف العوامل ، وباختلاف هذه الميول . فإلى أن يستقل ميل من هذه الميول ، في حاشيته باحتلال البورة . عندئذ يكون عالمه كان أقوى العوالم المحيطة بالميول الآخرى ، فيقوم الى هذا العمل ؛ المهم أنه في كل حالة من هذه الأحوال ، متى كان إنسانا له ميل يشعر بأن فيه منفعة له . وإلا فان عالمه لايتحرك ، لايمكن أن يتحرك عالمه في الجوع إلا إذا كان يشعر أنه إذا أكل فيه فائدة ؛ أو إذا تكلم في التليفون فيه فائدة ؛ أو إذا كتب الخطاب يكون فيه فائدة .

المهم أن علماء علم النفس وطبعًا الفلاسفة ، يؤكدون أن الانسان ميوله لابد أن تكون مصحوبة بشعور بالمنفعة ، ومن ثم يقولون إن الانسان الذى ينحدر ويتهجم على ميل من الميول دون أن يتصور المنفعة التى فيه ، يقولون إنه عمل حيوانى . ولكن ليس من الضرورى أن يكون له فيه منفعة بالفعل . ويشبهونه أنه نزل عن درجة الانسانية ، شرحت أنا هذا كله بما اعتذر عما لاأستطيع قوله الآن ، لأنه من بديهيات العلم . وأعطيت عدة أمثلة : ومن بين الأمثلة التى ذكرتها؛ ، الحديث الشريف الذى يقول : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، الى آخر الحديث الشريف .

وشرحت : لهؤلاء الأبناء وهم كانوا أقرب الى الزملاء لأنهم أكبر منى سنا وقلت : إن الحديث الشريف لم ينف عن الزانى الإسلام ، ولم يقل إنه كافر ، وإنما قال : إنه في حالة قيامه بهذا العمل ليس مؤمنا ، لماذا ؟ ! لأنه بقيامه بهذا العمل في تلك الساعة يعتقد أنه له فيه منفعة وهو الشرط الذى اشترطه علماء علم النفس في أن الرغبة لابد أن تكون مصحوبة بالشعور بالمنفعة، وكذلك حين يسرق في أثناءارتكابه للسرقة لايكون مؤمنا ؛ لأنه يعتقد أن فيه منفعة ، وكذلك حين يقتل في كل الذنوب .

●● من هو المؤمن العاصى ؟!

ومعنى ذلك أنه قد أحل حرامًا عندما يزنى معتقدًا أن في الزنا منفعة قد أحل حراما ، ومن ثم ينفى عنه الايمان ، ينفى عنه الإيمان في تلك اللحظة ، إبان هذا العمل ، ولذا لا يسمى بعد ذلك كافرًا ، يسمى مؤمنا عاصيا ! عصيانه جاء من أنه أحل حراما ! فنفى عنه الايمان .

وانتهى الدرس على هذا ... ويظهر أن النوع من الشرح للحديث وضرب الأمثلة ... أعطى فرصة للذين يريدون التشويش علىّ أو الاساءة إلىّ ، وأنا كما قلت لك ... كنت محاطا

بأشواك كثيرة ! لأنى كنت أول شخص غير أزهرى اختير للتدريس فى الأزهر ، وفى معقله فى قسم التخصص . فكان هناك مؤمرات ، واجتماعات خارجية ، لم أشعر بها لأننى كنت أذهب هناك مرات محدودة فى الأسبوع ، ففى خلال الأسبوع الذى مرّ بعد أن شرحت هذا الشرح حدثت أحداث لم أعلمها ! فلما عدت – نحن كنا ندرس فى ذلك الوقت فى الرواق العباسى قبل أن يختاروا المكان الذى كان مدرسة للقضاء الشرعى سابقا فى البرمونى – شعرت بحركة غير طبيعية بين الطلاب ، هو أقرب ما يكون شعور فى التآمر !! فكان من النظام الموجود فى ذلك الوقت ، مايسمونه مراقب القسم ، وكان المراقب فضيلة الشيخ أبو دقيقة، وفى ذلك اليوم وفى قسم التخصص الذى كنت أدرّس فيه . كنا ندرّس بعد الظهر ، وكان رئيسه فضيلة المفتى – آنذاك – وهو الأستاذ الشيخ عبد المجيد سليم ، رحمه الله تعالى ، فكان يحضر ، ويجلس فى حجرة هناك ، وفى حجرات للتدريس لمن يريد الجلوس ، ففى طريقى على السلم من أسفل الى الدور الذى كنت أدرس فيه ، صعد إلى جانبى فضيلة الشيخ أبو دقيقة رحمه الله ، وإذا به يحاول أن يكلمنى فى موضوع دروسى ، فاستبشعت هذا !! أن أحدا يتصور أن يكلمنى فى دروسى ، فى ذلك اليوم على الأقل كنت المتخصص الوحيد فى مصر ، وإلا فإن الأزهر عندما طلبى من وزارة المعارف أن تختار أول أستاذ غير أزهرى ليدرس، اختارونى أنا ، وأكثر من هذا أنهم عندما عرضوا علىّ عدد المحاضرات ، وجدت أنها أكثر مما أستطيع أن أقوم به ، فقلت لفضيلة الأستاذ الشيخ المراغى وهو الذى كان يتخاطب معى ، قلت له ، هذه خمس عشرة محاضرة ، وأنا لا أستطيع أن أقوم بهذا كله ، فأقصى ماأستطيع أن أقوم به هو ثلاث محاضرات فى الأسبوع ، فقال : أنا لا أعرف من رجالكم أحدًا ليقوم بهذا ، فأنا أكل إليك لتختار من يقومون بباقى المحاضرات .

●● الغريب أن من لا علاقة له بالموضوع يزج بنفسه فيه !

وكان مما شرفنى أن اخترت من أساتذتى من يقوم معى بتدريس باقى المحاضرات ، لأنه لم يكن لى زميل فى ذلك الوقت . إنما كانوا أساتذتى هم الموجودين . فاذا كان الأمر كذلك ، وكان هذا هو شعورى ذلك أننى كنت شابا ويكون فيه جزء من المبالغة ! فى الاعتزاز بالنفس ، ووجدت أنّ من لا علاقة له بالموضوع يزج بنفسه فيما يشبه محاولة استكلام كلام منى ... **عجبت فقلت له :** ما شأنك فى هذا ؟ وأنا لا أعجب فيما كان فىّ من جرأة حينذاك ، فقال : أنا مراقب ، وكانت وظيفة المراقب فى ذلك الوقت تقال لاستاذ ، وأعلى من أستاذ !! ولم أكن أعرف هذا النظام ، بل كنت أظن المراقبة رجلا اداريا لا علاقة له بالعلم .

فغضبت وقلت له: ليس من شأنك أن تخاطبنى فيما أدرس . الذى أدرسه تخصص علمى بينى وبين طلابى ،!

●● أثناء درسك الماضى حللت ماحرمه الله لماذا ؟!

ودخلت القاعة غاضبا ! فكانوا يتسارّون بعضهم مع بعض وهم حوالى خمسة عشر فشعرت بتعصب وانصراف عنى ، وأنا كنت أعتز بنفسى ، إذاتكلمت سكتت الدنيا ، فناديت المراقب الشيخ أبو دقيقة ، قلت له : انظر ، ماشأن هؤلاء الطلاب ؟ وماذا يريدون ؟ فلكى لا نطيل الموضوع حول تلك المناقشات ، فقد انتهى الأمر بعد عدة مجادلات ... إلى أنه قال لى » إنك تحلل الزنا ..! وهذا هو الذى أغضب الطلاب ! فوقع على هذا وقع الصاعقة ! وقلت له : أنا أحلل الزنا ! من الذى قال هذا ! قال : أنا . قلت له : ومن الذى أعلمك أنت ؟ أتتجسس على عملى ؟! من الذى قال ؟ قال : أخبرنى أحد الطلاب . قلت له : أخبرنى باسمه ، فان هذه قضية لايمكن التستر فيها . قال الشيخ عبد الحافظ – وأنا لا أزال أذكر اسمه – رحمه الله تعالى – فدخلت المحاضرة وقلت : ياشيخ عبد الحافظ هل لك أن تذكر ماقلته أنا فى شرح الحديث الشريف لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن . فتلاءم .! وظهر أن هناك شيئا مبيتا . وظل يونون ويتلجلج ...! قلت له أنا أريد جوابا صرحا . اسمعت منى مايدل على أن الزنا حلال ؟ فأجاب بقوله هذا الذى فهمته .. قلت له : تكون أنت حمار ! إذا كنت قد فهمت هذا .. وليس معنى هذا أننى كافر وأحلل الزنا ! إذا أخطأت أنت الفهم ، فليست المسئولية مسئوليتى :

علىّ نحت القوافى من مواضعها
ومـــــا علىّ إذا لم تفهم الحمر

فتلجلج وونون ثانية وقال : هو ده اللى فهمته ... وسألت الباقى هل هذا هو الذى فهمتموه جميعا .! وقلت له : مادمت أنت الذى بلغت فضيلة الشيخ أبو دقيقة بأننى أنا حللت الزنا ! فأنا أدعوك الى الخروج من القاعة ، لأنى لايمكن أن أستبقيك وأدرس لمن تصل به الغباوة الى هذا الحد . فقال لا . لا أخرجّ

●● الشيوخ ملئوا الزمبرك والشيخ كان أذنا !

وطبيعى جدًا عندما أنظر الآن بعد مضى نصف قرن الى الشاب الصغير الرفيع المطربش الذى يجلس إلى خمسة عشر شيخا من الشيوخ الكبار ، كما أثبتت الأيام فيما بعد لهم ، ومنهم

اثنان على قيد الحياة ، والحمد لله ، فخرجت أنا ، وقلت إذا كنت لا تخرج فأنا أملك أن أخرج أنا ، فخرجت فاذا بالشيخ أو دقيقة يتسمع خارج الباب مما يدل على أنها كانت مؤامرة !! فقال لى : أين تذهب؟ فقلت أذهب الى بيتى ، لأنى أنا طلبت من أحد الطلاب أن يخرج فلم يخرج فأيقنت إذًا أن عملى لايتفق مع أفكارى ومبادئى . فأخرج أنا ، قال : لا . المسألة ليست بهذه البساطة تذهب الى الشيخ على الأقل – فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم – فذهبت إليه ... رجل عملاق ، وجيه ؛ إلا إنه كان أذنا !!! وكانوا قد ملئوا الزمبرك ! (أى الزمبلك) ! فخاطبنى خطابا غير ماكنت أنتظره ، لأن فضيلة الشيخ المراغى ، كان يخاطبنى باحترام شديد جدًّا فحصر موضوعة فى طلب خروج الشيخ عبد الحافظ من الفصل ، وقال : هذا ليس من حقك . قلت له : لا ياسيدى ، هذا من حقى . أنا أستاذ تربية تخصصى فى انجلترا كان فى التربية وعلم النفس والفلسفة ، ففى أصول التربية أن للأستاذ أن يبقى أو يخرج . فقال لا . **والشيخ عبد المجيد سليم – رحمه الله – رجل ذكى وجدل ويحسن مايسمونه ، قلب المنضدة على خصمه .**

فقال لى لا ، حتى إذا فرضنا أنه أخطأ فليس من حقك أن تعاقبه قبل إجراء التحقيق معه ، وهو كان يعتز بأنه كان رئيس المحكمة الشرعية قبل أن يكون مفتيًا ، وهو يعرف فى آداب القضاء طبعا .

●● هل الشيوخ فى حاجة إلى مخطىء ليثقف أبناءهم ؟!

فقلت له : عفوًا مولاى سيدى الأستاذ أنت سيد العارفين ، أنا لا أعاقبه بالخروج . أنا أمهد للتحقيق معه بالخروج !وقبل إنزال العقوبة لابد من تحقيق ، ويشترط فى التحقيق إجراءات ، ومن بين هذه الاجراءات انه يترك الفصل عندما أدرّس ، فقال : لا ، أنت فى هذا مخطىء فقلت إذن الأمر فى غاية البساطة أنتم لستم فى حاجة إلى مخطىء ليثقف شيوخكم !

●● أنت لست أول من كفره الأزهريون يامهدى !

وقبيل صلاة المغرب – لأننا كنا ندرس قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر – عدت الى بيتى ، وقصدت ألا أتكلم أو أهتم بالموضوع بعد ذلك ، إلا أن الأمر طبعًا وصل شيخ الأزهر ! فبأدب شديد وكريم منه، خاطبنى تليفونيا وقال لى : أريد أن أقابلك تتفضل ، قلت له : نعم . أنا فى خدمتك . فذهبت إليه وجلست ، فقال : ماهذا !؟ قلت له : أتأذن لى أن أشرح لك الموضوع ، وشرحت له الموضوع ... **فقال : ياسيدى إصفح . أنت ليس أول من كفره**

الأزهريون ! فقد كفرونى أنا ! وكفروا الشيخ محمد عبده ، فقلت له : اين أنا منك أو من الشيخ محمد عبده ؟ ليس مقامى من مقامكم ؛ ولكن بصراحة أقول لفضيلتك إذا كفروكم فأنتم منهم . فهذا عذركم أن تكونوا أبناء قوم يكفرونكم ! أما أنا فعنصر أجنبى ، التكفير فى حقى خطير جدًا جدًا .. ثم كيف يترك هذا يشاع عن شاب لايزال يستقبل الحياة ؟ كيف استقبل الحياة بسمعة من يحلل الزنا ؟

فقال الرجل : وماذا تريد ؟ أريد التحقيق مع الشيخ عبد الحافظ !

قال : لك هذا . وأصدر قرارًا بالتحقيق مع الشيخ عبد الحافظ .

وذهبت أنا بناءً على هذه الترضية طبعًا فى موعدى فوجدت الشيخ عبد الحافظ موجودا فى الفصل .

فقلت له : أرجوك أن تترك الفصل . فقال : لا . والمسألة أخذت دورًا عنيفا !

فقلت : حسنا جدًا ، أخرج أنا إذن . وظهر الشيخ أبو دقيقة مرة ثانية ، فقلت له : إنى طلبت من الشيخ عبد **الحافظ** أن يخرج فلم يخرج . وذهبت أنا والشيخ أبو دقيقة الى الشيخ عبد المجيد سليم ، ولا أعتقد أنه كان على علم **بما** دار بينى وبين الشيخ المراغى .

فقلت له : إن فضيلة الشيخ المراغى طلب أن يحقق مع الشيخ عبد **الحافظ**، وأنا أعتبر أنه إلى أن يحقق معه لايبقى معى فى الدرس ، لأن هذا ليس مؤتمنا على أمانة الغير ، فقال للشيخ أبو دقيقة أخْرِجْ الشيخ عبد**الحافظ**، وأنت تتفضل تكمل دروسك ، وسوف نحدد طريقة التحقيق . وأصدر أمرًا **بالتحقيق**، وحدد تاريخه ، وعلى أن يحضره شيخ من الشيوخ – من هيئة كبار العلماء كان ضريرًا ، وكان يقال عنه : أنه لو صلى مقبلا **يصلون** وراءه أعتقد أنه الشيخ الدجوى رحمة الله عليه .

●● من ثنايا حديث الشيوخ تظهر المؤامرة !

وحاول كثيرًا فى محاولة طلب الصفح عن الشيخ عبد **الحافظ** فى بدء التحقيق – لتدرك معنى المؤامرة – وهم كانوا يظنون أنهم رجال منطق وقضاء وأنا أستاذ منطق أيضا ! ومتعلم المنطق فى انجلترا ودرّست المنطق ، وكنت أدرّسه حتى أيامنا هذه .!

فأنا قلت له : عمّ أصفح وَلَمْ يثبت عليه شىء ؟ وتطلب الصفح عن جريمة .! هل تكلمت فى هذه الجريمة ؟! هل علمت عنها شيئا ؟ وهل **فضيلتك** سلمت بأنه قال : هذا ؟

قال : لا . لا . لا . ويجادل فى سفسطة عجيبة ... وأنا لا أصف لك جدل الشيوخ إذا أرادوا أن يجادلوا ...

●● هذا أمر يتعلق بمستقبلى كشاب مسلم كامل الإسلام ...

فقلت له : لاياسيدى . الشيخ عبد **الحافظ** موجود أهه ... اطلب منه أن يفسّر الحديث الشريف كما فسرته أنا . فاذا قال إن فى ألفاظى مايشعر من قريب أو بعيد بأن هذه هى الذنوب التى نفى عن المسلم الإيمان فيها حلال يبقى ده كلام ثانى .

فبعد لأى وجدل الشيخ عبد **الحافظ** قال : لا . لم يحدث أنك قلت ، فاعترف صراحة أن نفى الإيمان فى أثناء ارتكاب الذنب بالعبارة التى فسرتها أنا ، بأنه عندما فعل هذا أحل حرامًا . ومن أحلَّ حراما فقد كفر . لكن بعد هذا لم أذكر أن هناك شعورا بالمنفعة ... وكان .... وكان ..... كذا .... وكذا ... الى آخره .

قلت له : اكتب هذا . فهذا الشيخ قال : لا تطلب منه أن يكتب هذا . فقلت له : **وأنا مصرّ على أن يكتب لأنّ هذا شىء يتعلق بحياتى ومستقبلى كشاب مسلم كامل الإسلام ، شديد الحرص على الدين . لايتصور أن يستقبل حياته وهو محوط بهذه الشبهات ! فلا براءة لى منها إلاّ أن يكتب بخط بده أنه كذب علىّ وأنا الآن سأقترح أن الاعتراف لايكون بمجرد أنه قال : كذا ، ولم يقل كذا ، وإنما يقول وأنا كذبت عليه عندما أشعت عنه أنه قال كذا .**

وأنا مصر على هذا ، وهل تتصور أنى موظف لديكم؟ أو مكلف بالتدريس فى الأزهر ... أنا وأنتم تعرفون هذا جيدا أنى أستاذ فى دار العلوم . وحاول هذا الشيخ والشيوخ الذين كانوا معنا إقصائى عما أصرّ عليه فلم يستطيعوا ، وفزعوا من شاب فى مثل سنى يجادل شيخا جليلا بتلك الجرأة والصلابة وسلامة المنطق .

●● سيدى الشيخ أنت لست محايدًا ولست قاضيا لأنك تعطف على الجريمة !

وتحجرت الأمور وهو لايرضى . وأنا لا أرضى . وأخيرًا قال لى : أتدرى أنّ طلبك منه أن يكتب هذا بخط يده ، سيصيبه فى مستقبله ، قلت : أنا أعلم هذا تمام العلم ، ومن أجل هذا طلبته ، وأنت تخشى أن هذا يصيبه فى مستقبله ، أما أن أصاب أنا فى مستقبلى فلا يهمك من

أمرى شىء .

ياسيدنا الشيخ أنت تعطف على الجريمة . أنت تعطف على المجرم ، أنت لست محايدًا . أنت لست قاضيا . أنا أرفض قضاءك . وهممت خارجًا ... فقال لى . لا ، تفضل ، تفضل ، وبعد وجوم قليل قال : ياشيخ عبد العظيم أكتب مايمليه عليك الأستاذ / قلت له : أكتب : أنا عبد الحافظ الطالب بكذا ... وكذا .... أقر وأعترف فى هذه الورقة أن الأستاذ / عندما دَرَّسَ هذا الحديث قال فى شرحه إن الشرط الذى يشترطه علماء النفس فى أن الرغبة الانسانية لابد أن تكون مصحوبة باعتقاد المنفعة ، ولو لم يكن فيها منفعة ! ولقد قلت من ضمن الأشياء : مريض السكر يأخذ السكر لأنه يعتقد أنه له فيه منفعة فى الحياة . ناحية الاشتهاء مع أن هذا منتهى الضرر له ،مريض الزلال ، ينهاه الطبيب عن تناول المواد الزلالية ، ويشتهى فيطلبها ويأخذها معتقدًا أن فيها منفعة له . لكن ليس فيها منفعة ، فأنا قلت يعتقد أن فيه منفعة ، ولو كان فيه ضرر له ، فكتب هذا كله ووقع عليه .

●● بعد ظهور الحق أقول لك أنا متنازل عن حقى نحو الشيخ عبد الحافظ ...

وقلت للشيخ : هو جالس لايرى ، ولكن يسمع ، فأخذت الورقة وقلت ياسيدنا الشيخ ، الشيخ عبد الحافظ كتب كما طلبت منه أنا على مسمع منك ، اتفضل خذ أنت هذه الورقة ومزقها ، أنا كنت مطالبا بأنها تحفظ فى سجل أوراقه ، أنا متنازل له عنها الآن . ومزقها .

ومن هذه الدفعة يوجد الآن الدكتور على حسن عبد القادر ، والشيخ الدكتور شمس الدين وهو عضو فى مجمع البحوث ، وعضو فى لجنة أنا مقررها ، وهى لجنة إحياء التراث .

وهناك من تلاميذى فى تلك المرحلة وإن لم يكن فى نفس الدفعة الشيخ المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية .

واستمرت فترة عملى بالتدريس فى هذا القسم حوالى تسع سنوات .

أقول هذا واستغفر الله لى وللشيخ عبد الحافظ رحمه الله .

●● التربية الاسلامية وبماذا يكتمل إيمان المرء ..

هذا موضوع . خارج عن الخط الذى مشينا فيه مدة طويلة فى هذه الذكريات ، ولكنه فى تقديرى أنا أهم من أى خط فيها ؛ لأنه يتصل بناحية علمية دينية ، أعتقد أن رأيى فيها لم

يقابل فى مجتمع الأزهر الشريف بقبول ، وذلك أننى فى السّنة التى آلقيت فيها بحثى فى مؤتمر المجمع عن :« التربية الاسلامية » عرضت لهذا الموضوع ، وفى المناقشة : عورضت فيه ، وأنا ماأزال عند رأيى .

●● **الموضوع هو : اشتراط الاسلام فى حسن تربية المؤمن عملاً بالحديث الشريف** : أن يحب لأخيه مايحب لنفسه ... فى هذا المجال : شرحت معظم الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى وأن المقصود منها : أن يحب المرء ، وأن إيمانه لايكمل إلا إذا أحب لأخيه مايحب لنفسه . وفرّقت بين حب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، وتفضيل المرء لأخيه على مايحبه لنفسه .

وقلت : إن هناك فرقا كبيرًا بين هذا وذاك . وأن الحديث الشريف لم يقصد الاّ أحدهما ، وهو التساوى فيما ينبغى أنّ يحبه الانسان لنفسه ، بما ينبغى أن يحبه لأخيه المسلم .

أما تفضيل أخيه المسلم على نفسه فهى منزلة عظيمة – لاشك فيها – ولكن لم يرتبط بها اكتمال إيمان المرء ، كما اكتمل بها فى الجديث الشريف وفى غيره ، عندما يكون حب المرء لأخيه ما يحبه لنفسه .

وطبيعى أنى عرضت – عند ئذ – للآيتين الكريمتين فى نفس الموضوع ، ويبدو من ظاهرهما أنهما يختلفان مع الرأى الذى أقوله ، والآيتان هما : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا .... »[سورة الإنسان ، الاية : ٨] فالظاهر من هذه الاية أن هؤلاء القوم الذين يصفهم القرآن الكريم يذهبون أبعد مما ذهب إليه الحديث ، فى حب المرء لنفسه ما يحبه لغيره ، أنهم كلما أحبوا لغيرهم أكثر مما أحبوه لأنفسهم ، لأنهم يطعمون الطعام على حبه سواء كان الضمير فى حبه يعود على لفظ الجلالة ، أو يعود على الطعام ، وهما تفسيران : يحبون الطعام على حب الطعام ؛ أو يحبون الطعام على حب الله لمسكين ، أو يتيم ، أو أسير .

فرأيى أن هذا يؤكد حالة حسنة جدًّا ، ومرغوب فيها : ولكنها ليست مطلوبة . وبالتأكيد فى تقديرى أنا لايتوقف عليها اكتمال إيمان المرء الذى اشترط فى الأحاديث ، لايتم إيمان المرء أو لايكمل إيمان المرء حتى يحب المرء لأخيه مايحبه لنفسه .

وكذلك الآية الأخرى ، وهى قوله سبحانه : « ويؤثون عل أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[سورة الحشُر ، الآية : ٩] فالآية صريحة فى إيثار الغير على النفس ، لا مجال للشك فيها ، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم مجاعة واحتياج !

لامجال لإنكار هذا ، لكن دعواى التى أدعيها أن هذه منزلة ، يحبها الاسلام ، وقد يدعو إليها بطريقة أو بأخرى ، ولكنه لم يربط بها اكتمال إيمان المرء ، كما ربط إكتمال إيمان المرء بحبه لأخيه مايحبه لنفسه .

●● **رأيي أنــا** : أن هذين الفريقين اللذين يتكلم عنهما القرآن الكريم ، فى هاتين الآيتين ، يصف قومًا لهم منزلة عظيمة فى الاسلام ، والايحاء صريح فى أن **يقلدوا**، وأستعمل أنا كلمة إيحاء - عمدًا - لأن روح الإيحاء تسطع فى كل من الآيتين ، فى أن الاقتداء بها أمر محبوب ، واستعمل كلمة لايحاء عمدًا ، لأنى لا أرى فى الصيغ التى وردت فى الآيتين فى القرآن الكريم مايدعو الى أكثر من الايحاء ؛ لأن هذا وصف القرآن الكريم ، يصف قومًا بصفات فيهم . قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ولم يقل شيئًا أكثر من هذا . يعنى لم يقل ندعوكم الى اتباعه ، ولاهم خير منكم ، ولا يحمد إيمان المرء حتى يفعل فعلتهم . لم يأت شيء من هذا أبدًا ، ولكن القران الكريم وصف وطبعا لم يصفهم على سبيل التنكر أو الاستهتار ، وإنما على سبيل الاستكبار والتعظيم ، وهذا ظاهر من الاستيحاء . **ومن هذا** : أفهم ويغفر الله لى خطئى إن كنت مخطئا فيما أفهم . فأفهم من هذا أن القرآن يضع هذا الوصف أمام الناس على أنه نوع من المثل العليا ، والمثل العليا لا تُحقق ، وإنما تقارب . حتى أن الإسلام نفسه كمثل أعلى لم يحقق . بنص الحديث الشريف : « **وسددوا وقاربوا ، وأبشروا ، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ، ولا ظهرًا أبقى** » .

●● نقطة الأفق ةكلما قربت منها بعدت عنك ..

والحديث الآخر: « ..... سددوا وقاربوا ... والحديث لا أذكر نصه ولكن فى معناه نهى عن المبالغة ، واستغفر الله أنى نسيت النص ، ولكن أثناء القاء البحث كنت حافظا له ، ومدونه أيضا ... ويكفينى منه هذا الجزء : « ... فسددوا ، وقاربوا ، وأيسُروا بعد » سددوا لكى تصيبوا هدفا ، وقاربوا أقرب مايكون للهدف لكى تصيبه ، وأبشروا هذا ، قد تصيبه ، وقد لاتصيبه : إذن المثل الأعلى - وهذه نظرية معروفة فى علم النفس - المثل الأعلى عادة لايحقق . لأن الفرق بين المثل الأعلى والغاية ، أن المثل الأعلى يستهويك دائما ، **كنقطة الأفق ، كلما قربت منها بعدت عنك . وتستدعيك بأن تتابعها .**

أما الغاية : فانها فى نقطة مخصوصة ، وتصل إليها وتحققها . فهذا الإيثار نوع من الأدب الذى يمثل المثل الأعلى . قاربْه ما استطعت . على سبيل الايحاء ، يضعه الله تعالى أمامنا على

أنه نسيج حسن من البشر ، ويترك لنا ولحسن إيماننا أن نستهدف هذا المثل الأعلى إذا أردنا ، وإذا استطعنا ، فان لم نستطع فلا عيب علينا ، ولا ينتقص نصف ديننا الذى اشترط فى أحاديث أخرى : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » كلام صريح ، وفى صراحته استعمل مايحب لأخيه مايحب لنفسه . لا أفضل مما يحبه لنفسه .

أمّا يؤثرون على أنفسهم فمرحلة أخرى، وكذلك يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، حمّل هذه الإيثار ماشئت ، فأنا أمسه فيا يتعلق بممارسيه ، وأنا لا أتكلم عن ممارسيه ... وفى بحثى أتكلم عن مقلديه . ومقلدوه ، مقلدون لشىء حسنٍ جدًّا ، لكن لا على أنه يتوقف عليه نزع نصف دينهم منهم الوارد فى الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم ، هذه رغبة شديدة لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه . فاكتمال الايمان يشترط فيه حب المرء لأخيه « مـا ... » . أما الآخر ، فالإيثار من جهة ، وحبه والايثار على أنفسهم من جهة أخرى ، هذا شىء حسن جدًّا ، ولكن كما قلت : هو مثل أعلى يوضع أمام الناس، ليتشبهوا به ، وكل لأشياء الأخرى ، كما ورد فى الحديث الشريف : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » متين مثل أعلى ، فأوغل فيها برفق فان الممتد لا أرضا قطع ، ولا ظهرًا أبقى . وكذلك للحديث الشريف الذى يقول فيه الى آخره : « فسددوا(١) .

يدعو لاستكمال ماينبغى أن يتحقق فى المسلم بأنه يستعين بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة ... فى الظلام ، ويسددوا ... معنى التسديد : ينشن تنشينا سليما ، وسددوا، وقاربوا ، لامجرد رمية من غير رام ، سدد وقارب ، وبعد ذلك سواء أصبت الهدف ، أم لم تصب ، لأن الهدف كما قلت ، مثل أعلى، والإسلام فى أعلى درجاته مثل أعلى تقاربه ولا تحققه . وما أظن ان إنسانا يحقق هذا المنهج بدليل الحديث الشريف : وسددوا ، وقاربوا وأبشروا . وقبلها : واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة . واستغفر الله العظيم من كل ذنب إن كنت قد أسأت الرأى فيا قلت .

---

(١) عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال :

إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبسُروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىءٍ من الدلجة .

رواه البخارى

●● نحن نريد ممن يتصدى لترجمة معانى القرآن الكريم أن يكون سليم اللغة والدين .

●● الحمد كل الحمد لله أن أقضى بقية عمرى فى هذا العمل ..

● **بسم الله الرحمن الرحيم :** وأحمده سبحانه وتعالى على مابينى وبين القرآن الكريم من محبة قديمة ، ولست أدرى إن كنت تعلم أنى منذ أكثر من عشرين عاما ، شغلت بترجمة معانى القرآن الكريم ، - الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - الى الانجليزية ، وأنى ترجمت نحو الثلث للقرآن الكريم ، ثم شاءت الظروف أن تجمعنى بصديق دعاه إلىّ ما كان يعرفه ، ويعرفنى ، ومع انه طبيب فكان المجمع يجمع بينى وبين هذا الصديق المشترك ، فدعاه إلىّ بالمجمع القديم بالجيزة يستشيرنى فى شىء مما كان يعمله ، فيما يتعلق بترجمة معانى القرآن الكريم وجراحة،ويسرنى أن أذكر اسم هذا الأستاذ همت أبو شبانة ، الذى تخصص فى جراحة أمراض النساء ، والذى قضى عددًا من السنين فى مصر ، وعددا كبيرا من السنين فى انجلترا ، ونحو ثلاثين سنة أخرى فى أمريكا ، وأنه فى المعاش الآن منذ أكثر من ثلاثين عامًا ، ومن وقتها وهو يعتبر متفرغا لترجمة معانى القرآن الكريم .

وهذا هو الذى جعله يستمع لى ، وقد اجتمعنا عدة مرات واشتركنا ، واختلفت مناهجنا فى العمل ، بسبب مطالب الناشرين ، والشروط التى يشرطونها فى إقرار الترجمة ، انتهى الأمر بأن أخذ الدكتور شبانة ، أخذ جزءًا مما سبق أن ترجمناه وراجعناه سويًا الى الأزهر الشريف ، الى الجهة التى تختص بأن تجيز طبع أى ترجمة من معانى القرآن ، فقبلوا منه كل ماقدمه بشرط أن يكون عليه توقيعى أنا ؛ لأنهم — كرّمهم الله — قالوا : **نحن نريد من نثق فى سلامه عربيته ، وسلامه انجليزيته ، وسلامة دينه .**

واتفقوا على هذا آخر الأمر عندما قعد بى العمل أنا عن مواصلة الترجمة ، فاتفقنا على أنه يترجم وأراجع ، وأعطى على المراجعة توقيعى أنا ، واتفقنا أيضا إرضاء لجميع الاعتبارات ألا تسمى ترجمة لا للقرآن ، ولا لمعانى القرآن ، وإنما ترجمة لتفسير القرآن .

وقد اخترنا تفسيرًا وأرجو الله تعالى أن يوفقنا الى اكمال هذا العمل ، مع هذا الزميل العظيم الذى يصرف كل دقيقة من حياته فى سبيل هذا العمل الاسلامى الكبير . وأنا لا أدّخر جهدا فى مراجعة كل كلمة فى هذه الترجمة ويبطىء الزمن أحيانا ، وهو صبور ، وأنا أرجو من الله العلى العظيم أن أقضى مابقى من حياتى فى هذا العمل القرآنى العظيم .

●● لم أصلِّ إمامًا فى حياتى سوى مرة واحدة وكانت مع الهنود !

●● أنا لا أتناول طعام من يحرم ما أحل الله ....
●● إنهن حضرن للصلاة ومتى أتت الصلاة يفوت الطعام ...
●● أخيرًا أعلن الهندى على الملأ أنه مخطىء فقبلنا دعوته ..

● وهناك مسألة حدثت إبان الحرب العالمية الثانية ، ونحن فى انجلترا ، وأنا وأسرتى فى إنجلترا ، فى المنطقة التى فيها جامعة « مانشستر » عدد كبير جدًّا من الهنود ، يزاولون التجارة ، وفى يوم عيد ، وقبل حلول العيد بأسبوع أو نحوه ، قام أحد كبار التجار الهنود ، واسمه : « نظام الملك » بطبع دعوة إلى صلاة العيد بإمامة الدكتور محمد مهدى علام دون أن يستشيرنى ، ودون أن أعلم من هو ، وأنها تقام فى مدينة كذا . لا فى مانشستر نفسها ، لكن فى مدينة قريبة من « مانشستر » ودعوة للغداء بعد صلاة العيد ، وأرسل إلىّ الدعوة ! والح فى أن أجيب الدعوة والحضور إماما فى الصلاة ! وأنا شخصيا لا أأم فى الصلاة ، لأنى أخشى على من يأتم بصلاتى أن يصيبه مايصيبنى أنا من الأخطاء ! فأنا لا أريد أن أتحمل أوزار غيرى ، ولذلك ما فعلتها إلا مع الهنود .

وقلت الهنود – على كل حال – أنهم فى ذلك الوقت كان عندى فى العيد من السيدات المسلمات: زوجتى رحمها الله ، وبنتى ثريا ، وثلاث طالبات مصريات ، إحداهن كانت مخطوبة لابن أخى ، وأوصانى بها خيرًا ، بأن تقضى الاجازة عندنا ، واثنتان من فضليات المصريات ، يدرسن فى الجامعات الشمالية ، فاستأذنت أنا : « نظام الملك » فى أنى إذا حضرت سيحضر معى فريق ، **قال : أهلا وسهلا ، ورحب فذهبنا جميعًا ، وبعد أن أقمنا عدة صلوات فى مسجد قريب** من المطعم هناك ، حان وقت الصلاة ، فدخلنا الى الصلاة ، هو كان مما قام به مالا يثير شبهات ، بل قد يعد – فى رأى البعض – من الحسنات، حيث أخذ السيدات اللائى كن معى **إلى حجرة بمكتبة ، وبقين هناك بعيدًا عن الاختلاط ؛ لأن هناك كثيرا من الطلاب المصريين** والتجار الهنود . إلا أننى عندما أديت الصلاة ، لم أرهن ، وعلمت أنه حبسهن فى حجرته ، اعتقادًا منه ، أنه لايجوز لهن أن يحضرن صلاة العيد !

ولما خرجنا من الصلاة ، دخلنا إلى المطعم . فاذا بهن يخرجن من الحجرة، فسألتهن : فأجبن فى ألم شديد أن الهندى حبسهن ولم يستطعن أن يؤدين الصلاة ، مع حرصهن على تأديتها ! فأنا غضبت . ولما جاءنى يدعونى لتصدر مائدة الغداء. قلت له : أنا لا أتناول **طعامك** وأنت اعتديت على حرمات الاسلام فى تحريم الصلاة على مسلمات يردن أن يصلين . فبعقلية هندية قديمة جدًّا قال : هذا حرام ! فقلت له : يفصل فى الحلال والحرام ، أنا لا أنت . من أنت

حتى تفصل فى الحلال والحرام فى الاسلام ؟ على كل حال ، انقضت الصلاة، وأستطيع أن أعيدها بهن ، إنما انقضى الاتصال بك ! فسلام عليك ونحن نرحل باذن الله . فوقف حائلا دون ذلك ، واعتبر – بشعور شرقى عميق – أن رفض طعامه إهانة له . وقال : سيحضرن للطعام . فقلت إنهن لم يحضرن للطعام ، وإنما حضرن للصلاة ، ومتى فاتت الصلاة يفوت الطعام ، وربما كانت حرارة الشباب فى ذلك الوقت أعلا مما يستحق الموقف ! فرفضت نهائيا ، حاول أن يستعين علىّ بكبار رجال التجارة من الهنود ، ومن الشرقيين ومنهم تاجر سورى عظيم محترم وأعرفه ، وله فضله ، فجاء متوسلا ، فقلت له : لا. أنا لا أقبل شفاعة فيما يتعلق بالشئون الدينية هذا رجل يحل حرامًا ويحرم حلالاً . ومن فعل ذلك فهو غير مسلم . فهو يحرم صلاة هؤلاء السيدات المحجبات ، وخلاصة الأمر أن الغداء تأخر أكثر من ساعتين وأنا مصر ، وهو مصر ، وأغلق الباب بحماقة هندية ! وأخيرا توسطت زوجتى رحمها الله – وقالت ارضه ففى إرضائه مئات الهنود الذين يتبعونه وعلمه ، فقلت على شرط أن يقف فيعلن أنه كان مخطئا فيما فعل . فوقف وأعلن بصريح اللفظ أنه كان مخطئا ، وأنه استفاد من الدرس الذى أخذه فقبلنا دعوته ...

وهذه الذكرى تحيى فى نفسى أملاً طالما راودنى ، وطالما ناديت به أزهرنا الشريف وبأعلا صوت أن أعدوا الدعاة الذين يفهمون أمور دينهم فهما صحيحا وجيدًا مع إجادتهم للغة وعادات القوم الذين يتعاملون معهم ... فعندما يستجيب الأزهر الشريف لهذا النداء فسنجد اسلامنا الحنيف يعم ضياؤه أرجاء الدنيا ونكون بحق خير أمة أخرجت للناس . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

●● هل يعلم القائمون بأمر الدعوة أن معقل البهائية يوجد بأمريكا ؟

●● وهل يعلمون أن أمريكا هى التى بنت معبد مشرق الأنوار فى نيويورك ؟!

● هذا حديث عن ذكرياتى بدأت سنة ١٩٢٠ وأنا طالب فى دار العلوم ، وجاء إليها بعثات من الهند ، ومع الخجل أقول : ان إدارة دار العلوم عهدت إلىّ أنى أرعى هؤلاء الطلاب لما كان معروفًا عنى فى ذلك الوقت من الحزم ، والالتزام والجدية ، ونظرًا لأن لغتهم العربية كانت متخلفة ، فكنت أدعوهم إلى بيتى وأصحابى وأحدثهم الى آخرة .

كان من بينهم واحد هندى من أصل كردىّ اسمه عبد الكريم ، دعانى مرة أنا وزميلى

العزيز – عليه رحمة الله – عبد الجواد معوض الى اجتماع يجتمع فيه ، فى مساء كل يوم جمعة فى منطقة الظاهر ، وقال لى : إنها جمعية خيرية دينية ، وحدثتهم عنك ، فأرادوا أن يروك فذهبت أنا وعبد الجواد إلى هذا الاجتماع ، واتضح أنه اجتماع نصف مغلق ، لايكادون يبوحون بكل شيء فيه ، وإنما ظهرت ملامح الاجتماع . أن وراءه بطل يعبدونه فعلاً ، **اسمه بهاء الله الأبهى** ، وعندما أردنا أن نسأل عن حقيقة هذا البهاء الأبهى ! كان الجواب دائما : لايمكن أن تفهم معنى البهاء ، ولا معنى البهائية ، حتى تأخذ المذهب مأخذ الجد ، فكن بهائيا ، وأنت تفهم البهائية ! وهو منطق معكوس ! لكننا كنا شبانا وفينا نوع من العفرطة ، فقلنا لامانع من ادعائها ... فكانوا يجتمعون فى أمسيات الجمعة ، فى منطقة الظاهر ، ومعظمهم من الكرد ، أو من الفرس ، ولم أجد فيها إلا قليلاً جدًّا من المصريين ، وفى جلوسهم يتحدثون أحاديث فى ظاهرها شيء من الخير! ويتناولون الشاى ، وينصرفون بُعَيْدَ المغرب .

وأتذكر أننى تبينت بعد جلسة أو جلستين ، أن هناك حضرة عباس أفندى ، واتضح أن هذا هو القائم بعمل البهاء الآن ! وأن هذه قضية طويلة منذ ظهر الباب ثم البهاء الأبهى ، ثم حضرة عباس أفندى ، وكان فى ذلك الوقت فى عكا ، معتقلا من الحكومة التركية فى عكا، وهم كانوا على اتصال به ، وكانت تنزل عليهم الألواح ، والألواح هذه تشبه سور القرآن الكريم – فى عقيدتهم الباطلة – وأستغفر الله العظيم .

وبعد مضىّ جلستين أو ثلاث من ذهابى أنا وعبد الجواد ، نزلت فينا الالواح ! وقرأوا علينا اللوح ، وأتذكر : حبيب الفؤاد السيد عبد الجواد ، والشهم الهمام ، السيد مهدى علام والألواح كانت بعضها بالفارسية ، وبعضها بالعربية ، مسجوعة سجعًا يحاول تقليد سجع القرآن الكريم ، وبعد بضع جلسات ، فهمت روح البهائية ، وأنها تخريب للإسلام ، على الرغم من أنهم يدّعون أنها تقريب بين الاسلام والديانات الآخرى ، ولهم فى هذا أحاديث طويلة ، ولا أشك فى أنك اطلعت على تاريخهم ، وعرفت الكثير ، وكدت أيأس من هدايتهم طبعًا ، إنما حببهم فى بقائى للاجتماع فى أيام الجمع ، أنهم كان يزورهم عدد كبير من الامريكيين ، وهم لايعرفون من الانجليزية شيئا ، فكانوا سعداء بأنى كنت أقوم بدور المترجم بين البهائيين ، وهؤلاء الأمريكيين ،واعتبروا أننى ثروة عظيمة جدًّا لهم ، لأنهم هم ثقافتهم هى ثقافة فارسية ، عربية ، بهائية ، وحان بعد ذلك موعد سفرى إلى انجلترا فى البعثة ، فانهالت علىّ الدعوات منهم للتوديع قبل السفر ، قبلت واحدة منها ، وكانت من قاض مصرىّ لا أذكر اسمه الآن مع الأسف ، كان يقيم فى مصر الجديدة ، ودعانى لتناول العشاء فى بيته ، وأوصانى خيرًا ببهائه ! وأعطانى عدة خطابات ، لأصدقاء له فى انجلترا ، أما المجموعة الأخرى التى كانت تجتمع فى الظاهر ، فقد زودتنى بعددٍ من الخطابات لشخصيات كبيرة فى لندن ، أخذت هذه الخطابات لشخصيات كبيرة

فى لندن ، وأخذت هذه الخطابات ، ولاتزال مغلقة الى اليوم الذى أحدثك فيه فى أول حقيبة سافرت بها ، ورجعت بها ، لا تزال هذه الخطابات فيها .

إنما الذى حدث أنى يوم السفر أخذت القطار من القاهرة إلى بور سعيد ، حيث كانت تقوم البواخر إلى إنجلترا ، وكان معى زميل للبعثة اسمه عبد العزيز أبو علم ـــ رحمه الله تعالى ـــ لما وصلنا محطة بور سعيد بالقطار وجدت هيئة استقبال ، تسأل عن مهدى علام ، وذهبت فاذا بقوم بلَّغهم الذين كانوا بالظاهر بأنى سأسافر فى الوقت كذا بالباخرة فاستقبلوه ، وأذكر بكل صدق ، كان استقبالاً فاخرًا ويتألف هذا الاستقبال فى أنهم أراحونا من كل متاعب السفر ، فتولوا حمل الحقائب عنا ، وطبعًا كان فى ذلك الوقت رصيف السفن التى تبحر من بور سعيد فى داخل البحر، لم يكن الرصيف قد امتد لتركب منه الباخرة ، كان لابد أن تأخذ المعدية ، سواء كانت بموتور أو غير موتور لمسافة تقرب من نصف ميل أو نحو ذلك ، فكنا منتظرين أن نبحث عن طريق الحصول على بطاقة لهذه التوصيلة، فالذين كانوا معنا قالوا لنا كفوا عن طلب أىّ شىء ! وسلموا الحقائب واحضروا لنا عربية حنطور – لم يكن فى ذلك الوقت سيارات - وركبنا وركب معنا مندوبهم ، وذهبوا بنا إلى فندق من الفنادق وأعدوا لنا الغداء ، وقالوا : سنبحث لكم عن وقت قيام الباخرة ونتولى كل شىء بنقل أمتعتكم ونقلكم الى السفينة ، لأن هذا كان عملاً شاقا ، فى أنك تنتقل بالبحر الى داخل البحر حيث السفينة ، وبالفعل قاموا لنا بهذه الاجراءات الى أن أوصلونا الى الباخرة .

وهذا كان آخر علاقة بآخر شىء بهائى لأنى لم يخطر ببالى وقد وصلت إلى لندن أنى أستعمل هذه الخطابات ، لانى أعلم انه لابد أن يكون ولاؤها محاولة تجريح عقيدتى – وهذا مرفوض منى شكلا وموضوعًا، فقد كان هذا هو كل الذى يهمهم ، وأنا أصبح ليس لى أىّ أمل فى التطلع إلى أكثر مما علمته عن البهائية وسوءاتها ، ولذلك على عكس ما كان من الممكن أن أعيش فى نعيم متقلب بين هؤلاء الأعزاء، فهم جميعا من التجار أصحاب الثروات الكبيرة ، وبالمناسبة فقد علمت فيا بعد وأثناء وجودى فى انجلترا سنين أن سبب اهتمامهم بالأمريكيين أن هؤلاء الذين أسسوا لهم معبد « مشرق الأنوار » فى نيويورك وهو المعبد الرئيسى لهم ، تكلف ملايين الدولارات وحصلت بالفعل على بعض الصور له ، وذلك مما يوحى أن معقل البهائية يوجد فى أمريكا !

وكلمة أخيـرة : هل أزهرنا والقائمون بأمر الدعوة على مستوى الأمة الاسلامية ويعلمون خفايا وأساليب البهائية وغيرها كى يحصونوا أبناءنا والأمة بما يحميهم من مثل هذا ....

•• القســم السادس :

قضــايا عامة

وأحداث تاريخية

●● الأستاذ / أحمد أمين هل تحجّر نحوه ؟ أم ماذا ؟!

●● الأستاذ / ... يحقر من شأن دار العلوم فى أول عدد صدر لمجلة الرسالة للزيات !

●● هل الأستاذ / ... هو صاحب فكرة الهجوم أم أن له محركًا يدفعه من خلف ستار . ؟!

●● الإمام محمد عبده يقول :

« من أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، وجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى هذا المكان . « دار العلوم » .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلاة وسلاما على سيدنا محمد النبى الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد : فى خضوع ، وتواضع ، واستجابة لرأى الزميل أبو بكر عبد الرازق فى أن أتناول بعض الأحداث التى مررت بها فى حياتى ،ربما لا تستحق أن تذكر ، ولكنه رأى ذلك ، وأنا لا أذكرها تباهيًا بها ، وإنما مادامت قد سجلت للتاريخ فى وقتها ، فأنا أشير إليها بقدر ما أستطيع الآن . بعد مرور أكثر من نصف قرن عليها .

● والحادثة التى أتناولها الآن بدأت يوم ظهر العدد الأول من مجلة الرسالة للمرحوم الاستاذ / أحمد حسن الزيات ، طبعًا كلنا كنا نقرأ الرسالة يوم صدورها ، وكان هذا العدد الأول موضع انتظارنا ، فإذا به مقالة غريبة جدًا ، فتحت علىّ آفاقًا ، المقالة بعنوانها : « الحلقة المفقودة » ووجدت أنّ كاتب المقالة : المرحوم الأستاذ / أحمد أمين ، الذى كان أستاذًا مساعدًا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ــ وقتئذ ــ تناول فيها موضوعًا يلح عليه من قبل ، وهو : « دار العلوم » ذلك أنه لأسباب تتعلق بالمهنة ، كان هو : قد عيّن أستاذًا / مساعدًا بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفى ذلك التاريخ ، لم يكن قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة ، مزدهرًا ،

بل يكاد يكون مغمورا لأنه جديد ، ولا الحكومة لم تكن تعترف بالليسانس التى يحصل عليها الخريجون فلم تكن تعينهم ؟ فضاق الأمر على الدكتور طه من جهة ، باعتباره رئيس القسم ، وعلى الأستاذ أحمد أمين من جهة أخرى باعتباره يجتاز مرحلة جديدة فى حياته ، وهى التعليم الجامعى ، فشاء له رأيه : أنه يغضُّ من شأن المدرسة التى تخرج مدرسى اللغة العربية ، **والمعترف بها فى جميع الأقطار ، بأنها مصدر اللغة العربى ، والتى قال فيها الإمام محمد عبده ، فى إبان إشرافه على امتحان من امتحاناتها مرة : « من أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، وجدها تموت فى كل مكان ، وتحيا فى هذا المكان . (دار العلوم) .**

الذى آسف له أشد الأسف ! أن الأستاذ / أحمد أمين سلك مسلكا ، غير مرضٍ فى معالجة هذا الموضوع ، تفضل الأستاذ أبو بكر وسجل الكلمة التى كتبتها فى الردّ عليه وفيها العبارات التى وردت فى مقالته ، فأنا أقتصر ؛ ذلك فى أنه ركز على أن الذين تعلموا فى دار العلوم ، لم يتعلموا شيئا من الثقافة الحديثة ، وإنما تعلموا تعلّما متحجرا قديما ! وضرب لذلك أمثلة : **كانت موضع تندّرٍ فى عصر قبل ذلك بكثير ، وفى غير دار العلوم عندما قال : « تحجر نحوهم . فأصبح ضرب زيد عمرًا . وتحجّر منطقهم . فأصبح هذا حجر . وكل حجر جماد ، فهذا جماد . وتحجّرت بلاغتهم . فأصبحت واقفة عند رأيت أسدًا فى الحمام .**

واستمر على هذا المنهج ، ضاربًا أمثلة كثيرة مدّعيا فيها ، أن خريجى دار العلوم ، لم يتعلموا شيئا ، سوى هذه القواعد المتحجرة فعنَّ لى أن أردّ عليه . فكتبت مقالة ، وكنت أريد أن أنشرها فى الصحافة ، فراجعنى بعض الأساتذة الذين اطلعوا عليها فى المخطوط ، وقالوا لى : لا تجعل الموضوع موضوعًا صحفيا ، يتناوله الشعب ، لأن هذا موضوع أكاديمى ، وجدير بنا أننا ننشره فى أجهزة علمية رفيعة ، وكان هناك مشروع صدور جريدة لدار العلوم ، **وفى العدد الأول منها نشر هذا الحديث . وخلاصة الأمر الذى رددت به على الأستاذ / أحمد أمين ... أنه قد غَضَّ بصره عمدا عن كل انتاج من دار العلوم ، لأنه يريد من ذلك فكرة نحن وهو يعلمها ولم يصرح بها ، وهى الغض من شأن دار العلوم ، لرفع شأن خريجى كلية الآداب ، فأنا قلت له :**

إذا كنت تريد أن تعرف ماذا جرى لزيد وعمر فى النحو ؟ أفلم تطلع على كتب النحو التى ألّفها أبناء دار العلوم فى خلال نصف قرن .

(نصف قرن ...)

●● يا أستاذ العربية الا تعلم بأهم كتب اللغة العربية التى أغفلتها مصر ، ولم يغفلها أهل العربية !!

ومنها على سبيل المثال : النحو الواضح بأجزائه الأربعة للابتدائى ، وأجزائه الأربعة للثانوى ، أنت لو اطلعت عليه لوجدت أنه مزيج من النحو والادب ، لم يقف الاعتراف به على حدود مصر ؛ بل إنّ العالم العربى تناوله ويحرص على تعليم أبنائه عليه . وبهذه المناسبة فى السنة التى أتكلم فيها الآن ، بعد أكثر نصف قرن من هذا التاريخ ، هذا الكتاب لا يزال أهم كتاب فى النحو فى كثير من البلاد العربية الأخرى ، ولسوء الحظ أغفلوه فى مصر ، ولكن تمسك به أهل اللغة العربية ، فى البلاد العربية الأخرى ، كذلك كان أستاذى / الفاضل زكى المهندس ، وأستاذ / زميل آخر إسمه الأستاذ / محمود عبد اللطيف : أخرجا كتابًا سموه النحو المصور وهو أن الأمثلة كانت تعطى للتلميذ ، كانت تصور زيادة فى الإيضاح ! فأنا قلت : للأستاذ / أحمد أمين فى مقالتى فى الرد عليه : ألم يبغك النحو المصور ؟ الذى لم يقف عند ضرب زيدٍ عمرا ؛ بل إنه أخرج النحو الى عدسة المصوِّر فى أحدث ما يمكن أن يكون التأليف بالتصوير !

أما عن المنطق : فأشرت الى عدة كتب ، ومنها كتاب المرحوم الاستاذ / أحمد عبده خير الدين .

●● ألا تعلم أن الذى أطلق لسانك وجعلك تستطيع أن تتكلم هم أبناء دار العلوم ؟

وفى البلاغة : قلت له : إن الأسد الذى فى الحمام ، ترك الحمام منذ زمن طويل ، ويوجد الآن جزآن كبيران فى البلاغة الواضحة . تأليف مصطفى بك أمين ، وعلى بك الجارم .

وهذان الجزآن مزجا البلاغة بالأدب فقارئهما يتمتع بأنه يدرس الأدب العربى دراسة عملية فى ضوء نظريات البلاغة . وكذلك ... ماعدا هذا من الكتب الأخرى .

● أنا أريد أن أذكرك بشىء مهم ، أنت طبعًا تكتب هذا ... ما تكتب أنك أنت الذى جمعت الحلقة المفقودة التى هى الدراسة العربية الاسلامية والدراسة الغربية الحديثة ! ليس لك من الدراسة الغربية الحديثة أى شىء سوى تعلم قليل من اللغة الانجليزية فى منزلك ! ومع ذلك اسمح لى : أن أذكرك بمن ثقفوك فى مدرسة القضاء الشرعى ، من رجال دار العلوم ، وذكرت له : محمد بك المهدى ، وعبد الوهاب النجار ، وعبد الحكيم بن محمد ، والشيخ محمد الخضرى ،كل

هؤلاء هم الذين كانوا يقومون بالتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى عندما كان طالبا فيها .

فأنا قلت له : تذكر أن الذى أطلق لسانك وجعلك تستطيع أن تتكلم ، هم أبناء دار العلوم ، الذين ترى أنهم لم يصلوا إلى شىء من المعرفة حتى الآن .

●● لم يستطع الأستاذ الردّ لأنه وجد الباب مغلقا فى وجهه غلقًا محكما !

وحدث بعد هذا أنه بعد عددين تاليين من الرسالة : كتب ملحقا قال فيه : إنه معجب بالهنود لأنهم جمعوا الثقافتين الاسلامية والغربية فى الكتب التى كتبوها بالانجليزية ، فأنا لم أكن نشرت مقالتى – وقتئذ – فأضفت إليها : ملحقا : إن الله قد أنطق أحمد أمين بالحق ، عندما قال : فى مقالته الأولى لابد أن يكون التأليف فى الحلقة المفقودة باللغة العربية الفصيحة ، وفيها الآداب الأجنبية ، ممتزجة بالأدب العربى . وجاء فى المقالة الثانية : عند الهنود بعد أن مدحهم قال : **يؤسفى أن كل الذى فعلوه كان باللغة الإنجليزية ، ناقض نفسه هو فى هذا ، وأنا أحمد الله** تعالى أنه لم يرد لأنه فى الحقيقة الباب كان مغلقا إغلاقا محكما جدًا على مانطق به . إلا أنه اكتفى بأن أغلق نفسه علىّ ، فلم تقع عينه علىّ فى وقت من الأوقات إلا وكان يشيح بوجهه عنى ! **فكانت تجمعنا عدة لجان ، فكنا نجتمع فكان لاينظر الى الجهة التى أنا فيها ، وخاصمنى بهذا ، ولكن سامحه الله فالحق أعزّ وأغلى من كل شىء ومن كل شخص .**

وهناك شىء آخر : أستأذن فى أن أذكره وهو أنه بعد هذا بعشرين سنة ، كنت مستشارًا فى وزارة المعارف ، ورئيسا للمكتب الفنّى فيها ، عندما قمت باصلاح التعليم الثانوى، فى تقرير **لا يزال موجودًا إلى الآن ، نقل التعليم الثانوى الذى كان قائما حتى ذلك الوقت من نظام الكفاءة والبكالوريا .**

الكفاءة بعد ثلاث سنوات تليت المرحلة التى كانت تسمى بالبكالوريا . بسنتين . نقلته إلى ما كتبته أنا – ونفذ والحمد لله – الى مرحلة أربع سنوات ،. وكانت تسمى مرحلة الثقافة العامة . والذى يمتحن وينجح فيها يحصل على شهادة فى الثقافة العامة . وكانت هذه تساوى التعليم الثانوى ، وينتهى بعد ذلك بسنة خامسة ، للذين يريدون التعليم العالى – التوجيهية – وكلمة التوجيهية من ترجمتى أنا لكلمة [أوريلديشن] ORIENTATION الانجليزية .

وأنا أعترف بأنى اقتبست هذا من الشهادة الثانوية العامة الانجليزية ، والشهادة الثانوية العامة العالية والتى تزيد مدة سنة . فى ذلك الوقت ألف وزير المعارف لجنة لكل علم من علوم **الدراسة الابتدائية والثانوية ، بدلاً من إعلان مسابقات ، وطلب منى : أن أؤلف لجنة التأليف**

فى النحو ، والصرف ، والبلاغة ، للتعليم الابتدائى والثانوى من لجنتين : لجنة عليا للتخطيط ووضع النموذج ، ولجنة تنفيذية . لتنفيذ هذا التخطيط ، واقتباس هذا النموذج ، ثم يعرض على اللجنة العليا .

●● الأستاذ .. وضع اسمه مكان اسمى على كتب النحو والصرف وأنا رفضت مقاضاته ..

وكان من رأى نجيب الهلالى باشا الذى كان وزيرا للمعارف - وقتئذ - أن تؤلف اللجنة العليا من الدكتور طه حسين ، والأستاذ / أحمد السكندرى ، ومهدى علام ، وأن تؤلف اللجنة التنفيذية من كبار رجال اللغة العربية من أساتذة دار العلوم ، ورجال وزارة المعارف ، وطبع هذا الكتاب فى سبعة أجزاء ، عليه هذه الأسماء ، وصادف، بعد هذا ، أنى انتدبت أستاذا / زائرًا لجامعة « مانشستر » فى انجلترا ، وسافرت . وبقيت فى سفرتى هذه ، اثنى عشر عامًا ، ولما عدت وجدت أن الكتاب الذى اشتركت فى تأليفه على النسق الذى تركته طبع بعض الطبعات ، ثم رفع اسمى منه، ووضع بدله اسم الأستاذ / أحمد أمين ، وهذه النسخ لاتزال موجودة عندى والحّ علىّ كثير من تلاميذى ، لاأقول أصدقائى ؛ لأن أصدقائى يدينون برأيى بألا أقاضى ، فى مثل هذا الأمر ؛ وبعض تلاميذى الذين عاشوا الحقبة ، كانوا يلحّون علىّ فى أن أرفع قضية أقدم فيها المطبوعات نفسها ، ماعليه اسمى . وماعليه اسمه . ليرى أنه لافرق بينها إلا هذا ، ولكنّى أنا امتنعت عن هذا ، والحمد لله أننى امتنعت عن هذا ، فما كنت أريد لأن تقوم مناقشة على أمر شخصى ! أما المناقشة التى كانت على أمر جماعىّ هى علاقة المعهد الذى أدين فيه لاساتذتى وللثقافة التى تلقيتها ، فطبعًا لم أكن لأتردد فى أن أنازله فى هذا ، وهى منازلة لم تشأ أن تخرج منه كلمة واحدة فى الرد علىّ .

● أستاذى الجليل - بلا شك - بعد إثارة الاستاذ أحمد أمين رحمه الله - لتلك القضية الظالمة لرجالات دار العلوم الأفذاذ ! وتنكره لفضل أساتذته ، كان هناك مؤيدون ومعارضون ... لذا نرجو من سعادتكم إلقاء الضوء على هذه القضية من تلك الزاوية .

بالطبع أنا رددت عليه فى صحيفة دار العلوم وقرأها الناس وبخاصة المثقفون والغيورون على دينهم ولغتهم ، وكانت تصلنى رسائل للتهنئة والإشادة بما كتبت ، ولكنه — أى الأستاذ / أحمد أمين — لم يكتب كلمة واحدة بعد ذلك حول هذا الموضوع لا فى الرسالة ولا فى غيرها ، وتناسى هذا الموضوع تمامًا .

●● طه حسين أول من نادى بهدم دار العلوم قائلا : « فلتهدم قرطاجنة »

● **أستاذى الجليل حديثك الهام والعظيم يوحى أن هذا الموضوع كان له أنصار فى الخفاء . فمن هم هؤلاء ؟! أو بعضهم على الأقل ؟!**

● **المعركة** كانت معركة حامية ! وكان يرأسها طه حسين نفسه ، لأن طه حسين لم يستطع أن يقوم على مركز يعتمد عليه فى كلية الآداب أو الجامعة ، إلا بعد مضىّ سنين طويلة . وقضى هذه السنين فى سب دار العلوم ، إلا أنه لم يصل فيها إلى الحد الذى ذهب إليه أحمد أمين . إنما أنا أذكر أنه – فى وقت من الأوقات – كتب مقالة عنوانها : « **فلتهدم قرطاجنة !** » وهذا التعبير مأخوذ من امبراطور روما ، لما كانت قرطاجنة تونس مزاحمة لروما فى التاريخ القديم ! وكان الامبراطور الرومانى يبدأ كل خطبه فى روما بقوله : **فلتهدم قرطاجنة !** لأنه يعتقد أنه مادامت قرطاجنة قائمة ، فلن تقوم لروما قائمةً واستمر إمبراطور الرومان الباغى فى طغيانه ضد المسلمين وتراث المسلمين الى أن إنتهى أمر قرطاجنة ! وأمر المسلمين فى تونس .

وعندما نشر طه حسين هذه المقالة فى جريدة يومية قاصدًا بقرطاجنة : دار العلوم لتهدم هذه ، وكان يرى أن هدمها ، يقيم المجد لآداب القاهرة ! فى أنه لم يكن هناك من يقوم على تدريس اللغة العربية إلا الخريجون ....

وأنا مستعد أن أستخير الله سبحانه وتعالى وأعلن أنى توليت الردّ على هذا إنما بطرق أخرى ! فى ذلك الوقت : ألفت لجانا على ثلاثة مستويات ، لجنة أولى : من ثلاثة من خريجى دار العلوم من أولادى . يتولون الرد فى الصحف على هدم قرطاجنة وبعد مضىّ مدة كان المقصود أن تقوم لجنة أخرى من مستوى أعلا من مستواهم .

وبعد مضى مرحلة أخرى فى آخر الأمر أتولى أنا والأستاذ / عبد الحميد حسن الردّ ، إلا أن ذكاء طه حسين أدرك به أن قضيته لم تكن ليتولى الردّ عليها الاساتذة الذين تولوا الرد فى ذلك الوقت هم ثلاثة : كل واحدة فى جريدة من الجرائد – آنذاك – وأنه أحس بأن هذا لابد أن يكون للطلائع وفى ذكائه قال : خير له أن يحسم الأمر. فأرسل طلائعه هو لمصالحة دار العلوم . وطلب زيارة دار العلوم ، وزارها بالفعل واعترف لها بالفضل ، وأعلن ولاءه ... فأغلق القضية .

●● أنا والدكتور طه حسين صديقان لدودان !

حديثى اليوم عن أول لقاء بينى وبين المرحوم الدكتور طه حسين ، الذى مضى عليه نحو نصف قرن ، فعندما عدت من البعثة سنة ١٩٢٧ ، وصلتنى دعوة منه ، وكان هو أستاذ فى كلية الآداب ، فذهبت اليه ، دعانى الى الشاى فى بيته فى مصر الجديدة ، وأبلغنى – إذ ذاك – أنه يريد أن يعيننى مدرسًا بكلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، كما كانت تسمّى فى ذلك الوقت . رجوته أن يمهلنى قليلا ؛ ولكنه لم يمهلنى ، فتابع ذلك فى عدة أيام ، ومنها دعوة ذهب بى فى مساء يوم الى منزل المرحوم لطفى السيد باشا الذى كان مديرًا للجامعة – فى ذلك الوقت – وحدثه بما يريد أن يفعله معى ، ورجوت أنا السيد الأستاذ / مدير الجامعة أن ينتظر حتى تستكمل بعض الاجراءات . **فقال لى** : اذهب إلى الكلية غدا وخذ جدولك . ومابقى بعد ذلك يتم دون أى صعوبة .

●● رائحة : « الشعر الجاهلى » جعلتنى أرفض زمالة طه حسين كاستاذ مساعد له ..

وكذلك كانت الأمور فى أيديهم ، فما كانوا يحتاجون الى أىّ إجراءات ، إلا أننى رجوت الدكتور طه حسين أن يعفينى على أساسين : أحدهما صادق كل الصدق ، وهو أننى كنت بعثة دار العلوم ، ومن الوفاء أن أعود اليها : لأنها تبعثنى لكى أعود مدرسًا فيها .

السبب الثانى : صادق من غير شك ؛ ولكنه ليس فى قوة السبب الأول . وهو أنه فى ذلك الوقت كانت أخبار روائح الشعر الجاهلى لاتزال مليئة للجو ، وكنت أتردد كثيرًا فى أن أقتحم هذا المجال ، وأن أنزل من الدكتور طه حسين منزلة المساعد ، خصوصا فى موضوع أنا لم أكن أومن به ، كما كان يؤمن به هو ، أو كما آمن به هو ، ثم كفرعنة على كل حال ، تفضل فقبل منى آخر الأمر أنى التزم بوفائى لدار العلوم وأذهب اليها .

كان هذا فى سنة الف وتسعمائة وسبعة وعشرين ، وبعد أربع سنوات ، أو نحو ذلك ، حدث أنى قرأت فى الجريدة إعلانا من كلية الآداب جامعة فؤاد الأول من عميد الكلية الدكتور طه حسين يدعو فيه الى من يريد أن يعين مدرسًا للغة العربية فى كلية الآداب ، ليتقدم بخطاب إليه .

وربما كانت هذه إحدى أخطائى الكثيرة التى أخطأتها فى حياتى ، ذلك أننى فى ساعة من

ساعاتُ الضعف ، رأيت أن ألجأ الى هذا الحل . عسى أن يكون فيه بعدٌ عما كنت أشعر به من أن دار العلوم لم تعدل مرتبى الذى كنت به يوم تخرجت فى سنة ١٩٢٢ ، وهو حوالى سبعة عشر جنيها ، وأنا لم أذهب ، ولم أطلب ، ولم أكتب أية شكوى أو طلب فى هذا طول حياتى .

فقلت : ربما كان هذا حلاً طبيعيا ، فكتبت خطابًا الى الدكتور طه حسين مشيرًا الى إعلانه ، **وقلت له :** أنا فلان ، وشهاداتى التى حصلت عليها كذا ... ومعلوماتى هى كذا ... واللغات التى أجيدها هى كذا ... إلى آخره . وانتظرت ردًا ، وما كان أسوأ الأثر فى نفسى عندما جاءنى الردّ بعد نحو أسبوعين ، من الدكتور طه حسين نفسه ، يقول لى فيه : عليك أن تحضر الى الكلية فى التاريخ الفلانى ، لتأدية الامتحان فى الأدب العربى ، وتأدية الامتحان فى الأدب الانجليزى ، وأنا كدت أصعق ! عندما تسلمت هذا الخطاب ! كيف يكون هذا ؟ أنا كنت على علم غير وثيق أنهم يريدون مدرسين ... ولو لم يكونوا مؤهلين تمامًا تأهيلاً أكاديميا ، وكان هذا طبيعيا فى نشأة الجامعة . وكل الجامعات المصرية عندما نشأت ، تجاوزت عن اشتراط الدكتوراة ، وما إليها لبضع سنوات ، فظننت أن موضوع الامتحان ، يأتى للذين يتقدمون دون المؤهلات . فتناولت القلم ، وكتبت خطابًا مغضبا ردًا على هذه الدعوة ، وقلت فيها :

●● سأبقى حيث كنت وحيث أردت أن أكون منذ سنة ١٩٢٧ بدار العلوم ....

« أنا لا أريد أن أذكرك بما كان منك فى سنة ١٩٢٧ عندما حاولت ملحًا أن تعيننى فى كلية الآداب ، وعندما أخذتنى وذهبنا إلى الأستاذ / أحمد لطفى السيد باشا في بيته ، وقال عبارته المشهورة : اذهب غدًا الى الكلية وخذ جدولك للتدريس ، وما عدا هذا يتم دون أىّ صعوبة .

لا أريد أن أذكرك بهذا ، ربما لا تريد أن تتخذ منه سندًا لتعيين الذين تريده ، على حين تريد أن تتخذ مقياسًا آخر ، ليكن هذا المقياس ، هذا المقياس فيما أعتقد يتوقف على مؤهلات الشخص ، ومعلوماته ، وأظن أنك وجدت فى الطلب الذى قدمته أنى متخرج من دار العلوم ، كما أنى متخرج من جامعة « إكسترا » فى الأدب الانجليزى ، فكيف بعد هذا يستطيع إنسان أن يطلب منى أن أتقدم الى امتحان فى اللغة العربية ، وأنا متخرج من دار العلوم ، ويكفينى هذا دون أن أقول أىّ شىء آخر ، أو أن يقول أمتحنك فى الأدب الانجليزى وأنا متخرج من جامعة إنجليزية عندى فيها شهاداتها! ولكن يبدو يا سيدى العميد أنكم تريدون — وأنا متأسف جدًا أن

أقول هذا — تريدون من يتسقطون العلم من المجلات ، والكتب ، لا الذين درسوها دراسات منظمة جامعية .

أما أنا فأرحب بهؤلاء الذين يتقدمون إليكم ويقبلون أن تمتحنوهم . وأنا أظل فى مكانى ، لأنى لست أدرى من الذى سيمتحننى فى احدى هاتين اللغتين ، وأنا على أحسن تقدير أعده من زملائى .

سأبقى سيدى حيث كنت وحيث أردت أن أكون منذ سنة ١٩٢٧ فى دار العلوم .

وانتهى الأمر عند هذا وعلمت فيما بعد أنهم كانوا يعدون هذا الإعلان خاصًا بأشخاص بعينهم ، يؤدون امتحانات أقرب ماتكون أنها امتحانات شكلية !!!

والحمد لله : علمت أنهم كانوا من أفاضل الناس ، وأنهم كانوا عمدًا من الأعمدة الكبيرة فى حياة تلك الكلية منذ تلك النشأة وانتهى الأمر عند هذا .

●● أقامت الأحداث بيننا جدارًا كثيفا من الاحترام لم يتخلله أى شعاع من المحبة أو المودة !!

عادت الأيام ، بعد سنين طويلة ، إلى معاشرة الدكتور طه حسين ، إما عندما كان وزيرًا للتربية والتعليم ، فى وقت كنت كبيرًا لمفتشى اللغة العربية ، أو عميدًا لها ، لمدة لا تتجاوز سنة وكنت فيها أمنحه الاحترام اللائق ، ويقدر لى هذا الاحترام ولا أشك فى هذا !

وبعد ذلك هو خرج من الوزارة ، وأنا خرجت أيضا من الوزارة أيضا ، عندما افتتحت جامعة عين شمس . ونقلت إليها . وبقى الأمر بيننافى حالة صمت . لم يكن هناك مايدعو للاختلاط به فى أىّ شأن من الشئون . إلى أن جاء اجتماعنا فى هذا المجمع العظيم ، فقبل أن يعين نائبا للرئيس ، وقبل أن يعين رئيسا ، وكان عضوا ، وسرنا والحمد لله ، أمنحه كل الاحترام ، ويقابلنى باحترام مثله ، ولكن أظنّ أنّ جدارًا كثيفا من الاحترام والتوقير ، قام بينى وبينه حيث لم يتخلله شعاع من أشعة المحبة أو المودة فيما بين ذلك من أحد الجانبين . ولا أزال إلى الآن أحترم له ماكان بينى وبينه ، وأعتقد كذلك أنه كان يحترم ذلك فيما بيننا وفى المناقشات التى دارت بينى وبينه .

●● الاسلام والمسيحية دينا السماحة والتسامح ..

●● نار الفتنة الطائفية يزكيها من لايعرف دينه أو تاريخ بلده !

●● شاعر قبطى يطالب باقامة حد القصاص فيقول

فـــاذا اقتص فـــالقصـــاص حيـــاة وهـــو نصٌ لا يقبـــل التـــأويـــلا

● ورثت فيما ورثت مجموعة من المجلات التى كانت تصدر فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل هذا القرن ، مجموعة أو مجموعات ، بعضها كامل ، وبعضها غيرها كامل ، وقد شغفنى حبى للاطلاع فى ذلك الوقت ، وعدم وجود أىّ شىء آخر يطلع عليه غلام أو شاب سوى هذه المجلات فحاولت قراءتها . فوجدتها تُعنى بتاريخ الأدب العربى ، وبالذات بتاريخ الشعراء ، ووجدت أن أعدادها المختلفة وبعضها يصدر فى مصر ، وبعضها يصدر فى الشرق ، تقيم ماتسميه تقويمًا لشعراء العهد تطرحه على القراء ، فى العالم العربى ، والعالم المهجرى أيضا .

فكنت أجد أن القوائم التى ترسل ، فيها العشرة الأوائل ، كل ذى رأى يريد أن يقدم رأيه للمجلة التى يكتب إليها ، يختار أهم عشرة شعراء ، فى العالم العربى ويرتبهم .

● فكنت أجد فيهم طبعًا شوقى ، حافظ ابراهيم ، خليل مطران ، وغيرهم . ويختلفون فى الترتيب ، فى مجموعة من الصحف ، فى مجموعة من الشهور ، إنما كان هناك ما يشبه الاجماع على الثلاثة الأوائل : شوقى ، وحافظ ، ومطران ، وغالبا ما كان يأتى بعدهم اسم شاعر : وهبى بك ، وفى ثنايا صفحات هذه المجلات كنت أجد كثيرًا من الشعر ، لهؤلاء الشعراء ، **ومن بينهم شعر وهبى بك هذا !** الذى كان يعرف باسم وهبى بك ناظر المدرسة القبطية ، وحفظت له كثيرًا من شعره الذى كان منشورًا فى ذلك الوقت ، وانقضى ذلك الزمن ، بمجرد أن دخلت المدارس وشغلت بالدروس المقررة ، حيث انصرفت عن هذه المجلات ، إلى أن حدث فى يوم من الأيام فى سنة ١٩٢٨ ، أن حدث ما أيقظ الذاكرة ، عن هذا الموضوع وبما أنى ، بوصفى مشرفا ، على مجلة مجمع اللغة العربية ، أقدم تصديرًا لكل عَدد ، فكنت لا أكتفى بمجرد الكلام ، والكتابة فى أىّ شىء ، ربما لا تهم الانسان ، وإنما تملأ صفحة ، أو صفحتين ، فكنت أختار بعض الكتب ، ذات التاريخ الخاص عندى ، بمناسبات وأكتب عنها باعتبارها من أصدقاء مكتبى ، ففى يوم من الأيام كنت على وشك الكتابة لتصدير عدد من الأعداد ، هو العدد الثانى والخمسون فى نوفمبر سنة ١٩٨٣ ، فكتبت هذه الذكرى التى أرى من المناسبة أن أذكرها لك محررة كما كتبتها ، وإنها تعفى ذاكرتى الآن ، من أن تجتهد مرة أخرى ، فذكرت فى هذه المقدمة مايأتى :

●● سأصدر هذا العدد بالنقل من ذاكرتى ، بدلاً مما سرت عليه منذ بضع سنوات بالنقل من مكتبتى ، وقد دعانى الى ذلك ماقرأته فى الصحف فى اليومين الماضيين ، من الفتنة التى أشعل نارها ، فى بعض مدن الصعيد من أضلهم الله عن تاريخ بلدهم ، وعن طبيعة دينهم كمسلمين كانوا أو مسيحيين ، فكل من الإسلام والمسيحية دين السماحة والتسامح ، ولست هنا بصدد تفصيل ذلك ، فهو واضح لكل ذى عينين ، قد تناوله الكتاب ، حتى اختصه السيد رئيس الجمهورية بعنايته ، إنما دعانى إلى الكتابة اليوم — وقد كنت أعددت تصديرى كالعادة عن كتاب من كتبى — أننى تذكرت حادثة كانت تاريخية ولها دلالة خاصة ، على أن بلدنا ليس بلد الفتنة ، وعلى أن ديننا ودين إخواننا الأقباط ليس دين تعصب .

ففى يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٢٨ كنت راكبا ترام العباسية ، وفى إحدى المحطات ، صعد راكب فى زىّ محترم ، وسنّ تبلغ الشيخوخة المبكرة فوقف منتحيا فى مكانٍ خالٍ فى العربة التى كنت فيها ، فتنحيت له عن المكان الذى كنت جالسًا فيه ، فجلس شاكرًا ، وفى المحطة التالية نزل راكب كان جالسًا إلى جانب هذا السيد الذى أتحدث عنه ، فجلست فى المكان الذى خلا ، وعند ئذ أخذ السيد الوقور يحدثنى ، فسألنى عن عملى ، وأخبرته أننى مدرس بدار العلوم ، فاذا بالسيد المحترم يقول لى : إنه متخرج من دار العلوم ، وهنا اتجهت إليه بنظرة احترام خاصة ، لأنه ، فى سنه هذا كان يشعرنى بأنه أحد كبار المتخرجين من دار العلوم ، فى مثل دفعة سلطان بك محمد ، أو حفنى بك ناصف، ومحمد باشا سعيد .

ولما سألته عن تاريخ تخرجه وكنت يومئذ أحفظ عن ظهر قلب أسماء جميع المتخرجين فى العشرين أو الثلاثين سنة ، الأولى لانشاء دار العلوم ، أخبرنى فى عبارات رقيقة ، أنه مع تخرجه من دار العلوم لم يحصل على شهادة ، لأنه قبطى ، وكان محبا للغة العربية فتقدم لادارة المدرسة ، راغبا فى أن يسمح له فى حضور محاضرات اللغة العربية ، فقبل منه ذلك على أنه لا يسجل للامتحانات ، ولا للحصول على إحدى الشهادات وهكذا قضى أربع سنوات فى الدراسة ، ثم مارس التدريس والشعر ، حتى وصل الى نظارة مدارس الأقباط الكبرى ، وعندئذ أسعفتنى ذاكرتى باسمه ؛ لأنه كان شاعرًا عظيما فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل القرن الحالى .

فقلت له : سعادتك إذن. وهبى بك ! قال : نعم . أنا أحفظ لك كثيرًا من الشعر ، وذكرت له بعض ماحفظته ، وأشرت إلى أثر الثقافة الاسلامية فى شعره ، مستشهدًا بقصيدته التى رثى فيها الفقيد ، بطرس غالى باشا ، عندما قال فيها ، يطالب بالقصاص :

فاذا اقتص ، فالقصاص حياة وهو نص لا يقبل التأويلا

هكذا كانت علاقة أبناء هذا الوطن الواحد منهم بالآخر . وفى أننا نلاحظ أن معهدًا إسلاميا

مثل دار العلوم ، يقبل من طلابه مسيحيا ! يزامله أربع سنوات ويتخرج علميا فلم يكن فى حاجة لشهادة رسمية أو لأى تقدير حكومى .

وأتذكر أن مجموعة كبيرة من شعره ، كنت قد حفظتها عندما وجدتها فى بيتنا فى عهد الصبا فى مثل مجلة : « رعمسيس » و« سركيس » ، و« أنيس الجليس » وكان هناك عدة استفتاءات بين رجال الأدب ، فى ذلك الوقت على أهل الأدب والشعر ، من الشعراء المعاصرين، وكانت هذه المسابقات أو الرسالات التى تصل إلى المجلات فى كثير من الأحيان تشير إلى عشرة من الشعراء الموجودين، وكانت هذه المجلة تنشر اسم وهبى بك ضمن كل ردٍّ يأتى إليها من أية جهة من الجهات ، وأن ترديد هذه الاسماء كان من الأبواب الشائقة لى فى ذلك الوقت ، وأنا أتمنى الآن من كل من يقرأ هذا التصدير من المواطنين إذا كان يعلم شيئا جديدًا عن هذا الاستاذ ، لم أكن أعرفه أنا ، فانى أكون سعيدًا بجمعه لأكتب عنه .

وحدث فيما كنت أتحدث فيه أنى رجعت الى كتاب الزركلى فى الجزء الثانى ، من صفحة ٣ عسى أن يكون اسم وهبى بك قد ورد فيه ، فوجدته يقول :

« ..... إن وهبى بك حضر دروسًا فى اللغة العربية فى جامعة الأزهر ، والذى أقرره أنا هو كما سمعته نقلا منه شخصيا ، أنها كانت محاولة ، فى الدراسة فى الأزهر من أول الأمر ، وأنها لم تنجح ، وعدم نجاحها هو الذى دعاه أن يتحول الى دار العلوم » .

- **رفضت العنجهية والتسلط وغطرسة الحاكم بأمره وتمسكت برأيي ...**
- **أنت تستطيع غلق البوابة ولكنك لا تستطيع فتح فمى لتضع فيه الطعام !**
- **أيها الشيخ أرضيت بأضعف الايمان وأنت عالم أزهرى كبير ..**

● حدث وأنا طالب فى البعثة فى إكستر ، وكان لى زميل اسمه الدكتور أبو العلا عفيفى ، رغبنا فى أننا نود فى إجازة صيف الى مصر ، وكان القانون فى ذلك الوقت يسمح بالعودة مرة واحدة ، وعلى نفقة الدارس ، وأنا عدّلت هذا عندما كان لى رأى فى نظام البعثات عشرين سنة بعد ذلك ، وأصبح هذا على نفقة الوزارة .

على أى حال اتفقت مع أبو العلا عفيفى ، أننا نحضر الى القاهرة ، لنقضى اجازة صيف مع أهلنا ، ثم نعود الى إنجلتره .

حدث أن صديقا لوالدى له ابن كبير فى السن ، أكبر منى بكثير ، وأيضا صادقنى بحب صداقة والده لوالدى، وكان من المتطلعين لأن أتبنى ابنه فى دراستى التى أدرسها مستقبلا، على كل حال هذا رجل عظيم ، ومن أعيان القليوبية ، ولما علم أننى حضرت للقاهرة ، جاء الى القاهرة ، ودعانى أنا وصديقى أبو العلا للغداء عنده فى قرية « صنافير » ، قرية بعيدة عن قليوب نحو نصف ساعة بالركوبة ، وقال لى : سأرسل لكم الركائب على محطة القطار ، حيث ان هذه هى الوسيلة الوحيدة للوصول الينا .

وكان يعتبر أن هذا فرصة سعيدة عنده فى بلده ، أنه يحضر لضيافته اثنان صاحبا أسماء لامعة فى ذلك الوقت . واتفقت مع أبى العلا على اليوم الذى نسافر فيه .. وذهبنا الى محطة القاهرة وأخذنا القطار ، ووصلنا الى البلدة « قليوب » ووجدنا خدم هذا الشيخ العظيم ، والد صديقنا ومعهم حصانان لركوبنا ، وركبنا ، وبعد دقيقة أو اثنتين من السير ، قال لى : أبو العلا، إن حسين الشواربى ، وهو أحد الطلاب الذين يدرسون معنا فى انجلترا قد حضر أيضا لقضاء اجازته ، أفلا نمر عليه ؟! سراى الشواربى باشا كبيرة جدًّا ومعروفة فى هذا الوقت ، وكنا نمرّ ببيته ، وهو أحد زملائنا فهل نمر نحييه ، قلت له : نفعل . فدخلنا واستقبلنا استقبالاً عربيًا مصريًا شهمًا ، وسألنا عن حسين ، فقالوا انه ذهب الى القاهرة اليوم ، على كل حال فاننا حضرنا على غير موعد بقصد أن نحيّيه وشربنا القهوة وأردت أن استأذن لنقوم فاذا بزعيم أسرة الشواربى وهو ذو سطوة لا وجود لها الآن ، قال : تخرج ! كيف تخرج ؟! أنتم تتغدون معنا اليوم . قلت له : شكرا . إن الغداء فى بيت فلان وذكرت اسم مضيفنا .

... وبعنجهية لا تتصور إلا فى ذلك الوقت ! قال أنا سأحضر فلانا ليتغدى معكم .

فاستأت أشد الاستياء من هذا ! لأن هذا منتهى مايمكن من العبودية التى كانوا يتمتعون بها . فى أنه لايهمل حرمة دعوته فقط؛ بل يصل به الأمر الى أن يدعوه هو ليأتى ويتغدى معه . وشعرت أن هذا منتهى مايمكن من سوء الأدب ، قلت له : أنت لا تملك هذا ، وهو فى مجلسه فى السرايا – الدوار – ومعه علية القوم ، ويستمعون الى هذه المناقشة بين هذا الشيخ – الحاكم بأمره – وبين هذا الولد الذى لايجاوز من العمر الثالثة والعشرين – فى ذلك الوقت – ولم اقتصر على أنى أعتذر أوأنكر أنى أفعل هذا ! بل عبت هذا المسلك عيبا شنيعا جدًّا . وهممت أن أخرج . قال : ياولد أغلق البوابة . فقلت له هذا أمر سهل أن تغلق علىّ البوابة ، ولكنك مع إغلاقك البوابة لاتستطيع أن تفتح فمى لتضع فيه الطعام ، وأنا أتحداك أن تبقينى معك أيامًا إذا كنت تستطيع أن تجعلنى أتناول لقمة واحدة من طعامك !

كبرت فى زعمه – لأنه شواربى – وأنا أعلم تاريخ الشواربية فى القليوبية ، لأن لنا أقارب فى القليوبية ، فقال لى : أتعلم أن والدك لو كان هنا لما ردّ لى كلمة ؟ قلت له : لا أشك فى هذا ؛ لأن والدى يعيش بعقلية غير عقليتنا . وتربطه بك وثائق غير التى تربطنى بك . يصح أنه عرفك منذ ثلاثين سنة ، حرمة هذه المدة تجعله يصدقك أو يزاملك أو يوافقك . لكن أنا ماعرفتك إلا منذ دقائق ، وتناكرنا ، وجلست أنا – وكنت أدخن البايب فى ذلك الوقت – وأحضرت البايب وأشعلتها ، وقلت : أنا فى انتظار من يحاول أن يفتح فمى ليضع فيه الطعام ، وجلست . وأدركت أنى سأنتصر عليه فى شىء واحد ، وهو أنى لا أتغدى عنده ؛ لكنه سينتصر هو فى شىء آخر وهو أنى لا أتغدى عند مضيفى الحقيقى ، ولم تكن التليفونات موجودة فى ذلك الوقت بحيث نستطيع الاتصال ... وإنما الذى يستطيعه أن يرسل رجاله ويحضروا الرجل إلينا ، وأخيرًا ثاب الىّ رشدى ، كان خال هذا الزعيم الشواربى ، عالما من علماء الازهر الكبار ، ضريرًا – لا أذكر اسمه – وكان عملاقا فى القليوبية ، ممن يضرب بهم المثل ، فيقولون لوصلى مقبلا صلوا وراءه ! وكان سامعا – لكل هذا – وساكتا ، وإن كان ضريرًا ، فآثرت أن استعين به ، فقلت له : يامولانا . أتحفظ الحديث الشريف الذى يقول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فإن لن يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . أرضيت بأضعف الايمان وأنت شيخ أزهرى كبير ؟ الا تعتبر أن مايدعو إليه فلان هذا منكر ؟ فى أنى أخلف وعد صديقى ، وأحرمه من البشر الذى سيناله من حضورى أنا وصديقى لتناول الغداء عنده ؟ ويبلغ به الأمر إلى أن يقول : يحضره ليتغدى معنا ! تسمع هذا كله ولا تنبس ببنت شفة . أنت عليك إثم كبير جدًا . ولعل فى هذا تطاول منى على ذاك الشيخ الكبير .!

فهزّ الشيخ رأسه ، وقال : يافلان الأفندى بتكلم صح – والعمدة المتعجرف لا يرد له كلمة ، وهذا ما أوصلنى إليه تفكيرى – فقال : حاضر ياخال . بس على شرط فقال : ما هو الشرط ؟ قال : وهم راجعين يتعشوا معانا . فالشيخ لآنَ لهذا . فقلت له : لماذا ترضى ؟ من الذى أنابك عنى ؟ كيف تقبل أنت هذا ؟ فى أىّ حالة أنا ؟ كيف تمحو شخصيتى أنا ... أتغدى وأتعشى حيث يراد بى ذلك ؟ فقال : لا . تتغدى وقد نفذلك ماطلبت . قلت : لا أعطى كلمتى تحت تهديد الحبس . أنا لاأزال محبوسًا . سأقول إن كنت أقبل أن آتى للعشاء ، أولا أقبل وأنا ممتط صهوة الحصان – الحصان الذى أرسله الى الصديق منتظر خارج البوابة مع من يقوده – وأعلم أنى أستطيع أن أسير حيث أذهب ، لايمنعنى بواب ولا خدم إذن أستطيع أن أقول لن أحضر مثلا ، إذا شئت أن أقول : لن أحضر .

فقال له الشيخ : سيبه ، وتركنى . فخرجنا وركبنا الخيل وجاء يسلم علينا ، وقال : هل

ستحضر للعشاء ؟ فقلت له : نعم .

وبالفعل بعد أن قضينا يومًا فى الغداء عند أصدقائنا وعدنا ، ذهبنا إليه ، وكان حسين الذى هو سبب البلوى ، قد عاد من القاهرة ، وتعشى معنا فى بيت عمدتهم .

وعندما حكيت ماحدث لزميلى الذى قصدنا زيارته ، كان فخورًا جدا ، وسعيدا بشكل يفوق الوصف . ! لأنه لم يُزر بمقامه ، على أن يُحْضر الى دوار العمدة بالأمر !

- **خرج فى التطهير من لا يستحق التطهير ، لأن القرارات كانت مبنية على الهوى والمصالح الشخصية !**
- **اعتذرت عن قبول عضوية لجنة التطهير لأنى خشيت أننى لا أستطيع أن أقيم العدل فيها ..**

- ... وهناك حادثة أعتقد أنه لامانع من ذكرها خاصة أنها كانت فى بداية الثورة ... وبالطبع كان هناك غير الراضين عن تلك الثورة ، وأخذوا يكيدون لها فى عدة مواضع ... من ضمن هذه المواضع التى نجحوا فى الكيد لها فيها هى الامتحانات .

ذلك أن عددًا من الأساتذة الذين كانوا من كبار الموظفين فى الوزارة ، أخرجوا فيما يسمى – آنذاك – التطهير ! فربّما كان إخراج بعضهم على الأقل غير صادق ، حيث كان يرجع ذلك الى علاقات شخصية ، ويؤسفنى أن أقول : « **إن العلاقات الشخصية لعبت دورًا كبيرا فى حركة التطهير فأخرجت من لايستحقون التطهير ... ولذلك عندما رشحت أن أكون عضو لجنة التطهير ، اعتذرت لأنى خشيت أنى لا أستطيع أن أقيم العدل فيها** » .

فمن أمثلة ذلك : أن شخصًا كان يأتى فى منتصف الليل ويطلب وزير التعليم فى التليفون ، كان الوزير فى ذلك الوقت هو المرحوم الاستاذ اسماعيل القبانى ويقول له : أسئلة الجغرافيا للثانوية العامة معروفة ، وإذا أردت أن تعرف ففيها أسئلة فى المحيطات ! وأسئلة فى الغابات .

ويقوم اسماعيل القبانى فى وسط الليل ، ويستدعى رئيس المطبعة السرية ، ويذهب فيكشف على صورة من الأسئلة (فبالطبع هناك صورة منها محفوظة فى المطبعة السرية) فيجد فعلا أن من ضمن أسئلة الجغرافيا ،سؤالاً فى المحيطات ، وسؤالا فى الغابات ! فيلغى الامتحان فى ذلك اليوم ويحدث الاضطراب !

والذى كنا نعلمه نحن ، أن الأسئلة لم تكن معروفة حقيقة ، وإنما فلان بالذات ! الذى كنا نعرفه ، كان قد أخرج فى التطهير ، وهو من أساتذة الجغرافيا الكبار ، وأنه أراد أن يكيد لخصمه الوزير ، « إسماعيل القبانى » فراجع أسئلة السنوات الثلاث الماضية فى الجغرافيا ، ووجد أن هذه الأسئلة طوال هذه السنوات خلت من سؤال فى المحيطات ، وطبيعى أن واضعى الأسئلة يراعون مثل هذا ، وأن الموضوع الذى لم يطرق فى سنة أو سنتين متتاليتين يختار ، وأنه لابد أن يكون هناك سؤال من تلك المواضع ، ولذلك لم يكن السؤال محددًا ، بمعنى أنه يقول : كذا فى المحيطات . أبدًا لم يقل هذا . هو فقط قال : سؤال فى المحيطات .

●● انتظرت والحرّ كان شديدًا ، والعمل كان أشد ، والجنازة لا تستحق كل هذا !

هذا لم يكن يخصنى وإنما جاء دور اللغة العربية ، وأنا كنت رئيس لجنة وضع الأسئلة - حينذاك - وكان هناك رئيس نيابة اتخذ له حجرة عمل فى وزارة المعارف ، وكان الوقت فى رمضان ، وفى أشدّ أيام الحرّ ، وكنت أنا قائمًا بعمل رئيس لجنة تقدير الدرجات فى اللغة الانجليزية ، وأنا فى الوزارة كنت أعمل فى اللغتين ، كما ذكرت لك قبل ذلك . فإذا بطلب يأتينى بالحضور لحجرة فلان رئيس النيابة فى الساعة العاشرة ، وهذا كان قبل العاشرة ببضع دقائق ! فأنا كتبت على الطلب لا يمكن الحضور فى ذلك الوقت ، لقيامى بعمل مهم لا يستطيع غيرى أن يقوم به - وهذا صحيح - لأنى رئيس تصحيح الأوراق ، وأوزع الدرجات على المجموعة كلها . فجاءنى ردّ ، تعال متى تسمح الظروف ، فحددت الساعة الواحدة بعد ما أكون قد انتهيت من عملى وذهبت فى الساعة الواحدة ، ودخلت حجرة سكرتيره طبعًا ، حجرة ملحقة بحجرته ، وقلت له : أخذت ميعادًا الساعة الواحدة فدخل وقال : هو يستأذن بمدة قصيرة ، لأن فى يده عملاً يريد أن ينتهى منه فانتظرت والحر كان شديدًا ، والجو كان أشد ، والعمل كان شديدًا ، والجنازة لا تستحق كل هذا !!

●● السيد رئيس النيابة سؤالك يدل على جهلك التام بكيفية وضع الأسئلة ..

وبعد أن مضى فى حدود النصف ساعة بعد الواحدة ، قلت لسكرتيره : اذهب وقل له يتصل بى تليفونيا لنحدد موعدًا للمقابلة ، فأنا لست متهما حتى أنى أطالب بالحضور فى الوقت الذى يشاؤه هو . فعاد إلىّ يقول : هو يرجوك دقيقتين اثنتين يختتم بها المحضر الخاص بالتحقيق

الذى يقوم به . فسكت ودخلت بعد الدقيقتين ، وأنا مستشاط وتعب ، ومرهق ، وزاد الطين بلة : أنه كان يعتلى كرسى الرياسة فى النيابة ، ويظنّ أن كل إنسان يحضر أمامه ، يكون فى حكم المتهم ، فتكلم بكلام أعلى مما ينبغى أن يقوله ، فى تأنيب لمن ؟ فبعد أن أفرغ ما فى نفسه من الغطرسة والكبرياء ! سأل : هل حضرتك أنت الذى وضع أسئلة اللغة العربية ؟! وهل تستطيع أن تذكر لى من الذى وضع كل سؤال منها ؟!

وهنا كان قد أعطانى الفرصة كى أركب حصانى أنا ، قلت له : حضرتك لا تعرف شيئا عن طريقة وضع الأسئلة ، فلذلك يدل سؤالك هذا على خلو ذهنك عنها ! أنت تظن أن مجلس أربعة مثلا ، أنا أقول لأحدهم يا فلان ، أنت تضع سؤال فى الجزء الفلانى ، وغيره فى النقطة الفلانية ، ثم نأخذ الأسئلة ويوضع الامتحان . ما هكذا توضع الأسئلة ! إننا عندما نجتمع يقوم كل منا بسؤال أو بأكثر ونأخذ مدارسة هذه الأسئلة ، أحيانا ترفض ، وأحيانا تقبل ، وأحيانا تعدّل . من الذى يكون قد أنشأها ؟ لا ندرى . قد يكون منشئها أحدنا ، وبعد تعديلها عدة مرات تصل إلى واضع آخر ، ولا تمت لواضعها الأول بصلة . فقال : كان هناك سؤال معروف ، ألا تدرى على الأقل من وضعه ؟! هو المواطن الصالح . فى موضوع الإنشاء فى البكالوريا – آنذاك – الشهادة الثانوية العامة فقلت له : وهذا أيضاً من أعاجيبك ، لأنك تظن أن هذا السؤال لأنه عرف لابد أن يكون نتيجة خيانة ! (فقال لى : هل أنت متأكد أنكم بعد أن تتفقوا على الأسئلة تحرقون الأصول حقيقة ! كما تكتبون فى محضر كل جلسة ؟! فى محضر وضع الأسئلة تقول : تقرّ أننا حرقنا الأصول بمعرفتنا فقلت له : أنت توجه لى اتهاما لا حق لك فيه !

● **سؤالك يقول :** أمتأكد أنت ؟! لابد أن تكون أنت متأكد من أننى أفعل هذا ، ولا أسمح لنفسى وأنا واضع أسئلة منذ عشر سنوات أن نترك المسودات ، كيف نتركها ؟! ولماذا نتركها نحن نكون أسعد الناس بإعدامها ، لأننا نريد أن نتخلص منها ، نريد أن ننساها ، لا أن نحفظها . وغضبت عليه غضبا شديدًا ، فقال إذن كيف عرفت مسألة المواطن الصالح ؟ فقلت له مع قيام الثورة كان موضوع الساعة « **المواطن الصالح** » فكان هذا مما يرجح أن موضوعًا كهذا ، يمكن أن يأتى .. **فقال هذا الموضوع الذى يتحدث فيه الناس ، يختار فى الأسئلة ؟!**

فقلت له : من الذى يفصل فى هذا ؟! من قواعد التربية اسمح لى : أن أقول لك أنى أحد المتخصصين .. إن الأسئلة ينبغى أن تكون من بين ماهو مشهور بين الخلائق لا من بين ماهو خفىّ ، فقال لى : هذا خطأ ، ولابد أن تراجع الوزارة فى هذا فقلت له: لك أن تطلب من الوزارة ، أن تراجع فى هذا الأمر ، لأنها ستحيله إلى الشخص الوحيد المتخصص فى هذا ، وأن

الشخص الوحيد هو أنا . ليس هناك من يقول : ماهو نوع الأسئلة التى توضع إلا أنا ؟! لأنى لست متخصصا فى اللغة العربية فقط ، ولكن لأنى متخصص أيضا فى التربية وعلم النفس .

وانتهى بنا الأمر الى أننا لم نتفق على شيء . الآن أنا أطلب أن أخرج لأن الساعة جاوزت الثانية ، ونحن فى رمضان وأنا صائم ! وكان فى هذا إيماء له ، لأنه فى الغالب كان مفطرا وأمامه ماء ويشرب! وقمت بعمل يوم كامل فى الصباح ولا أريد أن أكون فى دور المتهم !

فاعتذر ، وقال أنا متأسف ، وماكنت أعلم أن هناك مشاكل كثيرة ، فى وضع الأسئلة ، وذكرت له بهذه المناسبة ، **قلت له : هل أنت حققت فى أسئلة الجغرافيا ؟**

قال :نعم . قلت له : هل وصلت الى شيء قال : لا . قلت له : أنا أوصلك الى شيء .

الذى أعلن سؤالين من ورقة الأسئلة هو شخص ممن طردهم الوزير فى التطهير ، وأراد أن يؤرق عليه نومه ! فكان يطلبه بالليل يحدثه : فيقوم ويذهب الى المطبعة السرية ، وطبعا المطبعة السرية سرّها معى أنا ، لأنى أنا رئيس عام للامتحانات أيضا ، من أجل هذا كنت أدرى بما يجرى مع الوزير فى منتصف الليل ، ويبحث فيجد أن هناك سؤالا فى المحيطات وسؤالا فى الغابات ؛ لكن هل استطاع هذا أن يقول : إن الأسئلة التى وضعت نص السؤال فى المحيطات كذا ، أى محيط من المحيطات ، هل هناك مقارنة بين المحيطات ؟ أبدًا . إنما كل مافى الأمر هو نظر فى امتحانات ثلاث سنوات مضت فوجد أن هناك موضوعات لم تطرق مطلقا ، فيرجح أن يأتى من بينها سؤال . قال : هذا أيضا خطأ ، قلت له : أرجوك ألا تدخل مرة أخرى فى الصواب والخطأ فى التربية ؛ لأن هذا ليس من شأنك : فابتسم واعتذر مرة أخرى وقمت لأنصرف فقام وسلم على ، وذهبت الى بيتى قبل مدفع الافطار بوقت قليل ..

● ● عوضنى الله عن سفرى الى أمريكا بخير كثير كنت لا أحلم به !

● **بسم الله الرحمن الرحيم :** هذه حادثه مرت بحياتى وكنت أتمنى ألا أذكرها لسببين : السبب الأول فيها اشادة بجهودى ، ولا أريد أن أتباهى بهذا ...

والسبب الثانى أنها اغتصبت منى ، ولا أريد أن أكون شكاءً ، فاشكوا من اغتصبها منى ، على أنى أخرج عن صمتى فى هذا ، بدون أن أذكر من كان سببا فى ماظنه حرمانى من شيء . ففى سنة ١٩٥٠ كان هناك جمعية أمريكية عالمية ، تختار فى كل عام أستاذًا من منطقة من

مناطق العالم ، ليذهب إلى الولايات المتحدة ، ويحاضر فى موضوعه ، الذى تخصص فيه نصف عام ، والنصف الآخر فى جامعة أخرى ، وكانت هذه الجمعية ذات مركز فى مصر ، وطريقتها أنها تعلن ، ويتقدم اليها من يريدون ، فتبحث اللجنة فى مؤهلاتهم ، ومؤلفاتهم ، وتختار واحدا منهم ، فى تلك السنة كنت وكيلا لكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، حضر إلى سكرتير هذه اللجنة ولم أكن أعرفه ، وقدم نفسه إلى وحدثنى عن هذه اللجنة وعن نشاطها ، وقال : إنها فى اجتماعها الأخير ، رأت بدلاً من أن تعلن ليتقدم إليها من يشاء ، أن تختار هى ، وقد وقع اختيارها على اسمك أن تكون المبعوث فى العام القادم من أول أكتوبر ، وشرح لى النشاط المطلوب من هذا العضو فى أنه يدرس موضوعه ، أيا كان تخصصه ، وأنه بعد ستة أشهر فى الشرق ، يكون ستة أشهر أخرى فى الغرب .

وقال : إن اللجنة رأت أنك لن تتقدم بطلب ، وهى تشعر بذلك ، كما أن غيرك بغير شك ، ممن يكون فى مثل منزلتك ، لا يتقدم بطلب ، فمن أجل ذلك ، وجدت أنها تخرج عن نظام المسابقة إلى نظام الدعوة ، وعلى فكرة هذا النظام موجود فى الجامعات البريطانية ، لتعيين الاساتذة . فعندهم تعيين الاستاذ / إما أن يكون بالاعلان ليتقدم من يشاء ، وإما أن يكون بالدعوة لأنهم يعلمون أن شخصا بعينه يجب أن يحضر لشغل هذه الوظيفة فيرسلون إليه من يدعوه إليها .

فاستوضحت من هذا السكرتير بعض النقط ، فأوضحها قائلا : إنى أتيت اليك لأعلم إن كنت تقبل إذا خاطبناك ، فاننا مهما قوى اعتقادنا برغبتنا فى أن تكون العضو المطلوب ، ربما يكون لديك مانع ، فلكى يكون العمل سليما من جميع وجوهه ، وجدوا أن الأفضل أن نستطلع رأيك فى القبول ، فاذا قبلت أرسلوا الدعوة . فأعلنت أنى أقبل هذا .

فحدث أن شخصًا نظر إلى هذه السَّفْرَة على أنها مفيدة له ، فاتخذ خطوات ممن يحسنون ضعها لما يشاؤون فى أنه أوحى إلى هذه اللجنة — دون علمى — بأننى سأكون مشغولاً بأعمال جامعية كثيرة ، وبأن من المصلحة أن يبحثوا عن شخص آخر ، وبالاختصار هذا الشخص الآخر هو نفسه ، فنجح فى أنه وضع نفسه فى هذا المكان الذى كنت سأذهب إليه أنا ، وعلى فكرة لم تكن أمريكا فى يوم من الأيام من المباهج التى أتطلع اليها ، ففيما يتعلق بالأسفار ، أنا سافرت فى معظم بلاد العالم ، خصوصا أوربا وآسيا ، ولم أذهب إلى أمريكا ، ولأمر ما ، فلتسامحنى أمريكا عندما أقول ذلك : لم تستهونى لأىّ شىء فيها ، ومع أن أولادى سافروا إليها فابنتى أقامت مع زوجها مدة ؛ ولكن هذه المرة كنت أظن أنها ستكون فرصة لأطلع فيها على هذا الجزء من العالم ، وشاء الله ألا يحدث .

وكان هذا خيرًا لى . فان الذى أراد أن يغتصب هذا اغتصب ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعوضنى عن هذا ، إن كان فى هذا خسارة ، فتعويضات كثيرة جدًا ، وأذكر منها : بكل الشكر لله تعالى – أن خيرات الانتخابات التى تمثل جهاز جهات مهمة ، وهيئات ذات مقام ، كانت تتهافت علىّ فسعدت بهذا وحمدت الله تعالى على أننى لم أذهب ، إذ كان هذا سيحرمنى من خير كثير جاءنى فى المدة التى غاب فيها هذا الشخص ، وحلّ مكانى . فحمدت الله تعالى على هذا .

●● اغتيال الكويت من قبل العراق ليس وليد اليوم !

هناك شيء أحب أن أذكره حيث كان بالأمس مجرد حديث ... واليوم يتبلور فى حقيقة .. وللأسف حيقة مخزية ... ففى عام ١٩٥٨ م أقيم مؤتمر أدبى فى الكويت ، وعهد إلىّ برئاسة الوفد المصرى لهذا المؤتمر ، وبقينا فترة هناك ، فكانت هناك أشياء أحيانا مسلية ولها فى نفس الوقت المعنى العميق الذى يستحق منا وقفة من ذلك مثلا : أن مندوب اليمن « الإمامية » فى ذلك الوقت ونحن مجتمعون فى أول اجتماع لالقاء خطب الافتتاح ، وحضر أمير الكويت والقيت الخطب بحسب الحروف الهجائية ، حدثت بعض الأحداث من بعض الذين تكلموا . وأذكر من ذلك شيئين :

أذكر أن مندوب العراق واسمه : « محمد مهدى الجوهرى » وقف على المنصة ، وقال عندما ركبت الطيارة من البصرة أشعلت لفافة كاللفافة التى معى !!! وكان يشعل لفافة وهو يتحدث بالفعل ! وقبل أن تنتهى هذه اللفافة كنت فى الكويت .!

وفهم الناس الغرض المطلوب من هذا ... لأن العراق فى ذلك الوقت كان يريد أن يبتلع الكويت إذ أن المسافة بينهما – العراق والكويت – لم يزد على مدة تدخين نصف سيجارة ... أو لفافة كما يقول : محمد مهدى الجوهرى . وتأذى بعض الناس وسكتوا ... وما تأذى منه الناس بالأمس يحدث اليوم !!

●● بفضل الأمير ... أصبح الخليج محيطا !

وفى يوم آخر وقف مندوب اليمن الامامى ، ويسمونه القاضى فلان ... وخرج عن طوره – وما هو معهود فى مثل هذه المواقف – فى المدح ، مع العلم أن الخطبة فى ذلك الوقت لاتزيد عن شكر الدولة المضيفة ، وتمنى النجاح للمؤتمر ؛ إلا أنه أخذ وكنا جالسين ، فقال : إننا ونحن نجتمع هنا فى حضرة الأمير ، فوق هذا المحيط ! فبعض الحاضرين يعرفون عنه مثل هذه النزوة ،

فقالوا : محيط إيه يا أستاذ إحنا فى الخليج ! **فقال لهم : وبفضل الأمير أصبح الخليج محيطا وضج المؤتمرون بالضحك !**

●● مندوب العراق حاول استفزازى ولكنه لم يفلح !

ومن خلال لجان المؤتمر كان هناك لجنة تسمى لجنة الصياغة كونت من رؤساء الوفود ، لأن كل وفد كان يضم مايقرب من خمسة أفراد ، وعندما اجتمعنا عهد الىّ الحاضرون فى هذه اللجنة أن أرأس هذه اللجنة ، وكان ذلك الوقت ، وقت قاسم العراق « عبد الكريم قاسم » وكانت العداوة الشديدة بينه وبين عبد الناصر ، ولم يستطع « محمد المهدى الجوهرى » أن يواجهنى مباشرة بالعداء ، فكان يسب الكويت بغير سبب ! وأنا كان لدىّ تعليمات فى الاّ أتشاجر مع أحد ، وطبيعى أنا كنت ألاطفه ، وأقول له : ياثلثى اسمى ، لأن اسمه كان: « محمد مهدى » الجوهرى .. حتى أوجهه لأعمال المؤتمر ، ولكنه كان يتمادى فى سبّه للكويت ! ويحاول أن يثيرنى أو يثير مندوب الكويت أيضا ، لكن - الحمد لله - لم ينجح فى هذا ....

وكان مندوب الكويت الاستاذ حسين وأظنه موجودا - ربنا يعطيه العمر - الآن فقد كان وزير للثقافة فى الكويت ، وكان مندوب الكويت خريج دار العلوم ، وقد تعلم هنا فى مصر ،

●●رفضت كمسلم وكمصرى أن أسير أنا والسفير خلف الحاكم الإيطالى للصومال !

فى مرة أخرى : فى « جونية » سنة ١٩٦٠ كانت الصومال تحت الوصاية وكان رئيس مجلس الوصايا الدكتور محمد حسن الزيات ، وهو من دمياط ، وهو رجل فاضل وأقل ما يقال فيه : أنه حل محل من ضرب بالرصاص وقتل . وكان مصريا - أيضا ، وسبب العداوة يرجع الى أنهم كانوا يريدون أن يقتلعوا الصومال ، لأنها كانت تحت الوصاية ، وأن معنى الوصاية أنه فى يوم من الأيام ستستقل ، وهناك من يريد للصومال الا تستقل ، بل تصبح تابعة له !

ومن حسن الحظ أن الدكتور محمد حسن الزيات كان مديرًا للبعثات فى نيويورك ، فأرسلوا إليه : « اذهب إلى الصومال » فانتقل وهو لايدرى تفاصيل عمله الجديد ، إنما يعلم أنه سيحل محل من قتل . وقد أظهر شجاعة عظيمة جدًا .

فى هذه المناسبة حدث أنى أنا سافرت مندوبا عن مصر من جهة ، وعن المؤتمر الاسلامى من جهة أخرى ، الذى كان سكرتيره العام السيد أنور السادات - رحمه الله - وأنا كنت مستشاره ،

وكان له خمسة مستشارين من الامة الاسلامية : مصر ، لبنان ، سورية ، العراق إلخ . وأنا كنت المصرى المستشار له . وأنابنى عنه بالاضافة الى نيابتى عن الحكومة المصرية ، ونيابتى عن الحكومة المصرية تتمثل فى مجرد حضور حفلة نقل الوصاية الى الاستقلال ، وتهنئة الدولة المستقلة بالاستقلال . وأما نيابتى عن السيد أنور السادات السكرتير العام للمؤتمر الاسلامى فتتمثل فى أمور غير هذا منها : تمثيل المؤتمر الاسلامى فى افتتاح أكبر مسجد ومركز اسلامى فى مقديشيو ، وكذلك عندما التقيت بالدكتور محمد حسن الزيات وعندما كادت تنتهى الوصاية وكانت تنتهى يوم ٣٠ يونيه ، أى تنتهى الوصاية ، وتستقل الصومال . وقال لى فى تلك الاثناء إننا فى احتياج شديد جدًا لنشر دعوة الاسلام ، ومعارضة الالحاد ، ووجودك فرصةعظيمة جدًا لذلك ، وسأرتب لك زيارة عدد من المدن تلقى فيها محاضرات باسم الاسلام ، وبعد افتتاح المركز الاسلامى ذهبت أنا على رأس وفد الى عدة مدن هناك ، ثم اتفقنا بعد أن انتهت الحفلة ، وأرجو أن أذكر أن الساعة الثانية عشرة فى منتصف الليل من ٣٠ يونية سنة ١٩٦٠ وهى الدقيقة التى ينتهى فيها الوصاية ويبدأ فيها الاستقلال ، وبالفعل أعلن الاستقلال ، وكان قد اختير رئيس للجمهورية « صوماليا » كما يسمونها ليتقدم ، فكان من سخرية القدر أنه لتعوده فى طول هذه المدة السير وراء المندوب الإيطالى ممثل الدولة الاستعمارية ، وبعد الاستقلال بدقائق وجدته يسير وراء المندوب الايطالى ، فسحبته من يده وسرت به أمام المندوب الايطالى وغيره .

●● أنا لست قنصلا لليمن ، ولكن أنا قنصل من قبل الله تعالى ....

وكانت فرصة لقاء سفراء الدول العربية والاسلامية فى اجتماع موسع من خلال هذا الحفل — حفل استقلال صوماليا — فاتفقنا جميعا أن نقيم حفلات ندعو فيها أهالى الصومال على الخصوص ليتعرفوا على الاسلام وعلى العرب وعلى المسلمين ، وامتدت بنا الاقامة حوالى عشرة أيام بعد انتهاء هذه الحفلة ، وكل واحد منا يمثل دولة إسلامية يوجه رقاع الدعوة للموجودين ، وكذا... وكذا ... ويقيمون حفل عشاء . وجاء دورى فطبعنا رقاع الدعوة باسم وفد مصر ، وحددنا اليوم ، وحددنا الخطباء ، وأردت أنا فى توزيع رقاع الدعوة ألا أرسلها بالبريد إلا لسواد الناس ، أما علية القوم فرأيت أن أذهب بنفسى وأقدم البطاقة تكريما لهم وتقديرًا لشأنهم ، وكان من بين الحاضرين معنا قنصل اليمن ، وكان مايزال اليمن إماميا ، وكانت لهذا القنصل الفكاهات اللطيفة ، فحصل أنى لما ذهبت إليه وهو يعرفنى طبعًا ، لأننا كنا نجتمع باستمرار ، قلت له : أنا أتشرف بأن أقدم إليك دعوة لحضور حفل العشاء الذى ستقيمه الجالية المصرية فى

«مقديشيو» فقال : تقدمها لمن ؟ قلت : لسعادة قنصل اليمن العام . قال : أنت مخطىء . أنا لست قنصل اليمن العام . فظننت أنها فكاهة من الفكاهات التى كانوا يطلقونها كثيرا ! فلم أعلق عليها . قال : لا . لا . لا . أنت لم تفهمنى . أنا لست قنصل اليمن العام ياسيدى ! يقول هو : عندما يتغير الوضع فى دولة من الدول لابد من أوراق اعتماد جديدة لجميع السلك السياسى والقنصلى . وأنا كتبت الى الامام . فلم يردّ علىّ ، وكتبت إلى وزير الخارجية فلم يرد علىّ ، وكتبت الى وكيل الخارجية فلم يرد علىّ .

فمنذ أول يولية انحسرت عنى صفة القنصلية لليمن . ولن تأتى بعدها مرة أخرى . فأنا قنصل من قبل الله تعالى . قلت : ياسيدى أنا سعيد جدًا جدًا بأن أقدم هذه الدعوة الى قنصل من قبل الله تعالى .

●● ذكرت لفظ العير مكان الحمار ، فاتهمنى أحد المتشددين بالاعتداء على الدين كيف ولفظ العير يطلق فى اللغة على الحمار مجازا ؟!

فى سنة ١٩٦٠ فى بدء الوحدة مع سوريا ، اجتمعت الجامعات العربية ، فى الأقاليم العربية فى مصر ، القاهرة ، و الاسكندرية ، وعين شمس ، وسوريا ، ودمشق وكان الاجتماع فى قاعة الجامعة الكبرى التى على رأسها هذه الساعة المشهورة فكان يجتمع رؤساء الجامعات وعمداء الكليات ... وكنت حاضرا ذلك الاجتماع ، ومن شأن هذه الساعة ، أنها ترتل كل ربع ساعة وتدق ، فما يكاد ينتهى دقها وتلحينها فى ربع الساعة ، حتى يأتى الموعد الذى تدق ربع الساعة التالية ، وكأنها كانت متلاحقة ! فطبعًا أعضاء مجلس الجامعة فى القاهرة ، كانوا متعودين على هذا ، فلم يضرهم أما من عدا هؤلاء ، منا نحن أعضاء جامعة عين شمس ، والأسكندرية وسوريا فكانت مزعجة لنا جدًا ، فأخذت قلما وكتبت بعض هذه الأبيات :

سـاعـة قـد ركبت من فـوقنـا ... مـاتنى فى دقهـا أن تسكت
كلمـا دار حـديث بيننـا ... دقت السـاعـة دقـا يُعْنِتُ
وإذا مـا قـال عضـو كلمـة ... كادت الكلمـة منـا تفلت
صـوتهـا يعلـو على أصـواتنـا ... فكأنـا قـد جلسنـا ننصت
أنكر الأصـوات صـوت العيْر ، بـل ... أنكر الأصـوات هـذه السـاعـة !

●● ثم ترتب على هذا أنى وزعتها سرًا على بعض الأعضاء فوقعت فى يد أحد المتشددين ، فأعلن بصوت جهير ! أن فى هذا كفرا ! لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » وأنا قلت : أن أنكر الأصوات ليس صوت « العْير » والعيْرُ هو الحمار ! بل هو صوت هذه الساعة . فحاولت أن أفهمه أن البلاغة تتسامح فى هذا ... وأحمد الله أن فهم ...

●● هل امتحانات الجامعة العربية فى وقت من الأوقات كانت تقوم على الخواطر ، والمحاباة ....

● يحضرنى الآن ذكرى عن موضوع يتعلق بامتحانات المتقدمين للالتحاق بالجامعة العربية فى مرحلة من المراحل أيام عبد الخالق حسونة باشا ، أمدّ الله فى عمره ، كان دارسا معنا فى الدراسة فى انجلترا ، فقد عهد الىّ أن أشرف على الامتحانات الخاصة بتعيين سكرترين ووظائف أخر فى الجامعة العربية ، والامتحان كان على قسمين قسم تحريرى قمت برياسته وأعددت له الاعداد المناسب . وكانت هناك شائعة سابقة لهذا الامتحان بأن الامتحانات السابقة لم تكن مضبوطة ، وأنه كان يحابى فيها من يريدون أن يحابوا ، وخصوصًا إذا كان من المصريين . وعبد الخالق باشا عندما طلب منى هذا قال : أنا أعرف من أنت . وأعرف أيضا ثقة حكومتك فى امتحانات الثانوية العامة تشجعنى على أن أطلب منك أن تشرف على هذا الامتحان ، وأنه لن يستطيع إنسان أن يتقول عليك .

وحصل بالفعل حادثة صغيرة فيما يتعلق بالامتحان التحريرى أن أحد المتحنين حضر قبل إعلام النتيجة ، نتيجة التحريرى ، وكنت أعمل فى حجرة فى الدور الخامس فى ادارة الجامعة العربية ، وكانت خاصة بالكنترول ، فصعد الىّ بما يشبه الجرأة التى تصل الى الوقاحة ! وقال لى : إن بعض المتقدمين للامتحان قد اطلعوا على درجاتهم ، وأنا قلت له إن ماتقول أمرٌ خطير جدًّا ، وإذا أحضرت لى هذا الشخص أو من يؤيد رأيه هذا، فأنا بين أمرين : إما أن القيه من نافذة الدور الخامس ؛ أو أن ألقى نفسى . وأخيرًا وبعد أخذ ورد اتضح أن كلامه كان تهديدًا عسى أنه فى ضوء هذا التهديد يستطيع أن يحصل على درجاته قبل إعلان النتيجة النهائية ، ولكن الحمد لله فالنتيجة النهائية لم تعلق الا يوم أن وقعتها أنا ، لدرجة أنى عندما أخذت الكشف النهائى لعبد الخالق وباشا حسونة لكى يوقعه باعتباره هو الأمين العام قال لى : بعد أن كان قد سمع ماسمع أتسمح لى أن أطلع على الكشف لأرى بنت أختى قد نجحت أم لا ؟ ولم يكن حدثنى فى ذلك قبل هذا ! فقلت له : النتيجة الآن نتيجتك أنا انتهيت منها ، تستطيع أنت وغيرك أن تطلع عليها .

●● ... السادة السفراء أنتم تسألون أسئلة لاتستطيعون الاجابة عنها !!!

أما فيا يتعلق بالامتحان الشفوى فكنا نعقده فى دروتين ، دورة فى القاهرة ، ودورة فى

بيروت لتيسير الأمر على الذين يأتون من البلاد العربية الأخرى ، فاذا كانوا على مقربة من القاهرة أدوا امتحانهم فى القاهرة ، وإذا كانوا على مقربة بيروت أدوا امتحانهم فى بيروت .

والطريقة التى كان يسير عليها الامتحان أن المتقدمين ينتظرون فى حجرة من الحجرات ونحن ندعوهم واحدا ، واحدا ، والواحد يبقى معنا أحيانا من ربع ساعة إلى نصف ساعة ، لأن هذه أمانة .

وكان معى عدد من سفراء الدول العربية ، والمرحوم الدرديرى أحمد اسماعيل الأمين العام المساعد ، وحدث فى أثناء جلوسنا فى الحجرة المجاورة للحجرة التى ينتظر فيها المتقدمون أن سمعنا اضطرابًا ولغطا ..! وحضر أحد الموظفين الذين يساعدوننا فى الوصول الى هؤلاء السادة ، واستدعاء من هو عليه الدور منهم بعد عدة محاولات قال لنا : إن شخصًا بعينه يثير ثائرات كثيرة ، ويتطاول بألفاظ غير لائقة ويقول : إن هذا الاختبار هو صورة وهمية ، ويحرض الباقين على أنهم ينسحبون . ماذا نفعل ؟ فأنا اقترحت أن يدعوه هو للحضور أولا ، فحضر فاستقبلناه : أهلا وسهلا ، ولكنه كان ثائرًا ووقحا ! وقال : ماقال : لم التفت إليه ، وتركت مناقشته للأعضاء الآخرين ، وأعضاء اللجنة الآخرون وهم : إما سفراء لبعض الدول العربية ، أو أمناء مساعدون للجامعة العربية منهم ! الدرديرى أحمد رحمه الله ، تصدُّوا جميعًا للدفاع عن الجامعة ، وعن نزاهة اللجنة ، وعن الامتحان بحق ، وأنا أبيت أن أدخل الميدان ، فبقيت فى دور المتفرج مدة، الى أن بلغ بهذا الممتحن أن قال : أنتم تسألون أسئلة فى الجغرافيا ، وفى التاريخ وفى السياسة ، وفى بعض العلوم ، وفى الأحداث العالمية ، هذه الأسئلة أنتم لاتعرفون كيف تجيبون عنها ؟!

عندئذ تكلمت أنا ، فقلت له : ربما تكون صادقا ، ونحن لانعرف الاجابة عن هذه الاسئلة . ولكن أريد أن أوجه نظرك الى شىء واحد ، نحن لسنا متقدمين لهذه الوظيفة ! واتضح فيما بعد أنه ابن رئيس وزراء سابق ف مصر ، وأنه كان فى الخارجية ، وخرج فى التطهير فى بدء الثورة ! وبالطبع لم ينجح فى الامتحان ؛ لأن معظم الدرجات كان مرصودًا للشخصية وحسن التصرف .

وشىء آخر لو شئت أنى أستعيد جو اللجنة لأخبرك به الآن . لو فرضنا أنه خضع للأسئلة وأجاب عنها ، هناك شىء آخر لا بد للاعتماد عليه وهو الشخصية .. فالشخصية لها جزء كبير جدًّا فى الدرجات ، وشخصية هذا الرجل تكفى فى أننا لا نرشحه لهذا العمل العربى ، فضلا عن

أنه عمل دولى كأعمال الجامعة العربية . وبالطبع فانه فى كل الامتحانات الشخصية ، وخصوصا امتحانات القيادة ، يخصص جزء كبيرللشخصية، ومثل امتحانات الإذاعة مثلا ، وأنا عملت رئيسا للجنة امتحانات الاذاعة لمدة عشرين سنة ، والتليفزيون أيضا فى بدء حياته ! فجزء كبير جدًا كان يخصص للشخصية !

●● المذيع العزيز .. غيّر إسمك كى تستطيع تكملة المشوار !

● وبمناسبة الحديث عن امتحانات المذيعين فتلك حادثة طريفة حصلت عندما كنت أعقد امتحانات للمذيعين فى الاذاعة المصرية ، إبّان أواخر الخمسينات والستينات ، فاسترعى نظرى اسم : أحد المتقدمين وهو : « قرند » فلما جاء الامتحان الشفوى سألته ماهذا الاسم ؟! وبأى طريقة تستطيع أن تعيش : « قرند » ؟

فقال لى : أن من أقاصى الصعيد ، ووالدى أمىٌّ ، وأراد أن يسمينى باسم إنجليزى ، كما كان كثير من إخواننا يفضلون تسمية أبنائهم فاختار اسم « جرانت GRANT » اسم مشهور ، فلما ذهب الى كاتب الصحة وسأله عن الاسم فقال له : « جرانت » وإنما يقصد : « قرند » فاذا به يكتب الاسم : « قرند » كأنه أمرٌ مفروغ منه ، فقلت له : يابنّى لا أظن أنك ستستطيع أن تعيش بهذا الاسم ؟! فحاول أن تغيره، وماعليك إلا أن تذهب إلى إدارة السجل المدنى وتتقدم أنت ووالدك لتغيير اسمك كى تستطيع أن تعيش بلا مشاكل أو تعقيد !

●● أين الثلج ؟ أين الثلج ؟ أين الثلج ؟ لو استطعت أن أصنع تمثالا لإله من الثلج لصنعت !! فظن هذا المثقف العظيم ! أنه ينطق القاف جيما ! وأنه لا يقصد : « جرانت »

●● ياعبد الثلج مهلا فالثلج سوف يذوب

● فى أثناء عملى فى مصر هنا : سعدت بأنى ساهمت فى المحاضرات فى معهد التمثيل العالى: وخير ما أتذكره أننا كنا فى الامتحان العملى تنعقد اللجنة فى مسرح هو الآن فى حديقة الأزبكية ، « المسرح القومى » وكنا نجتمع فيه ويسعدنى أننى لمدة سنتين ، أو ثلاثة ، كنت أحصل على مزاملة هؤلاء الاساتذة ، الذين كنت أراهم فى أثناء التدريس ليلا ؛ لأن المعهد فى ذلك الوقت كان يعمل ليلا : ولم يكن انتقل الى عمل نهارىٍّ . وهناك خصوصًا فى جلسات امتحان العملى ، التى كانت تعقد بعد الظهر ، وتمتد الى المساء ، فيها يوسف وهبى ، جورج أبيض ، وعبد الرحيم الزرقانى ، والأخوان فؤاد شفيق ، وحسين رياض .

وأذكر فى مرة من المرات ، وكان هذا يعقد فى يوليو ، والحر على أشد مايكون ، فكنا نستعين بمشروبات مثلجة ، أنا متذكر أن يوسف وهبى ، مرة قال : أين الثلج ؟ أين الثلج ؟ أين الثلج ؟ لو أستطيع أن أصنع تمثالاً لإله الثلج لصنعته ! فرددت عليه بسرعة :

يَــا عَــابِــدَ الثَّلْــجِ مهــلاً   فــالثلــج ســوف يــذوب

ولا أتذكر ما بقى من تلك الأبيات وما أذكره أننى فى ذلك الوقت ارتجلت ستة أبيات على هذا النمط ، وكتبتهاوأخذها الأستاذ يوسف وهبى وضحكنا كثيرا على هذا !

هذا شىء من ذكراى حول ماكان يدور فى لجان امتحانات معهد التمثيل فى بداية عهده .

●● حادثتان فى حياتى ... مستعد أن أعترف بما أجرمته فيهما ..

●● ... أرفق معى أستاذ آخر حتى لا أذهب الى جهنم وحدى مقابل كذبة كهذه !

● أبدأ بهذه : فى أيام أن كنت أقوم بالتدريس فى معهد التمثيل ، دعانى فى إحدى الليالى – لأن التدريس كان ليلاً – عميد المعهد ، وقال لى: إن فلانة ، وهى ممثلة شهيرة ، تشكو من نجوم السينما ، والمسرح ، تريد أن تدخل القسم ، لأنها لم تكن متخرجة من المعهد ؛ ولكنها لا تعرف اللغة الانجليزية ! وكان القانون – وقتئذ – يسمح بامتحان قبول فى اللغة العربية ، واللغة الانجليزية ، ومن قبل قال لى : عميد المعهد : إن هذه السيدة ، وهى من النجوم الكبيرة الشهيرة ، تشعر بمركب نقص ، نظرًا للشابات الصغيرات ، الشابات المتخرجات من المعهد ! وتريد أن تمحو هذا النقص ! بأن تحصل على دبلوم المعهد .

ولذلك تريد أن تدخل ؛ ولكن هى صارحتنى بأنها لا تعرف اللغة الانجليزية ، ولا بد من امتحانها فى اللغة الانجليزية ولابد من امتحانها فى العربية والانجليزية لدخولها ! هل لك أن تقرر قبولها بناء على أنك اختبرتها فى اللغة الانجليزية وهى تعترف وأنا معك أعترف بأنها لا تعرف الانجليزية ؟ قلت له : هذا شىء غريب طبعًا ... هناك من لايعرف من المادة شيئا .! قال لكن أنا متأكد أنها ستبذل كل جهدها فى سبيل تعلم اللغة ، وتسير فى السنوات الأربع لتحصل على هذه الشهادة . فقلت له : **ارفق معى أستاذ آخر ، حتى يصحبنى الى جهنم عندما نحاكم على هذا الكذب ! فأنا لا أريد أن أذهب إلى جهنم وحدى ...** فاختار أستاذا أخر ، وجلسنا أنا وهو فاهم للوضع تمامًا ، واستدعينا السيدة / الممثلة الشهيرةأنا لا أريد أن أذكر اسمها ، وان كانت هى شديدة الاعتراف بهذا الفضل كلما قابلتنى ! وإن كان هذا مضى

عليه نحو ثلاثين سنة ، وعلى كل حال وعندما حضرت ومعى زميلى سألتها فقالت : أنا لا أعرف إلا أبسط مبادىء اللغة الانجليزية ! وطبعا هى التى اشترطت معرفتى بها قبل الدخول لكننى أعد كتابة، وشفويا أننى إذ لم أنجح فى السنة الأولى فى اللغة الانجليزية مستوى المعهد أفصل وتنتهى المشكلة !

فمشكلتكم تحملونا فيها عبء تسعة أشهر على ضمائركم ! بعد تسعة أشهر من بدء الدراسة ، إذا لم أنجح فى مقرر السنة الأولى - ليس مجرد نجاح - أخذنا هذا باقرار ، وكتبنا مالا يفيد أنها نجحت ! طبعا لأنى لم أستطع أن أكتب أمامها . إنما قلت : أرى أن يسمح لها بالالتحاق بالمعهد ، فى خلال هذه السنة ، يعنى تجنبت صراحة الكذب ، وحصلت على الدبلوم بعد أربع سنوات بنجاح طيب ، وكلما صادف أن االتقينا فى اجتماع أو غيره ، اعترفت بهذا الجميل اعترافا شديدا يجعلنى أتوارى خجلاً !

● ● الأمر من عبد الناصر مباشرة بانجاح « روفس » فى العربية وهو لايعرف عنها شيئا !

● **الحالة الثانية :** عقب الثورة ، كان هناك طالب اسمه « روفس RUFUS » من الزنوج فى أمريكا وحضر الى مصر ليدرس الطب ، وعن طريق جمال عبد الناصر ... الذى أراد أن يكيد لأمريكا بأنه يقبل هذا الذى تحتقره أمريكا ! فبالاتصال بجامعة عين شمس ، قبل ومضى خمس سنوات ونصف . **أنا أسمع عنه فقط ، لأنه بالمصادفة دخل فى نفس السنة التى دخل فيها** حسام ابنى ، وكان هو لايتقن العربية حينئذ ، وطبعًا كان حسام عطوفا عليه ، فهو كان يرتاح الى الحديث معه بالانجليزية ، وكثيرا ماحدثنى حسام عنه ، إلى أن جاء يوم خاطبنى ، وكيل الجامعة . الطلاب الذين ليس لديهم شهادة توجيهية أو ما يقابلها مقربة فى كل الكليات **لا بد أن يمتحنوا فى معادلة فى اللغة العربية ، هذه المعادلة يقوم بها ، أستاذ فى كلية الآداب ، وهو** أنا . سواء كانت كلية الطب أو التجارة أو الزراعة الى آخره ، فخاطبنى هذا الزميل : الدكتور حشاد ! وقال لى : لدينا حالة نريد أنك تنجحها ولدينا تعليمات بهذا من الرئيس جمال عبد الناصر مباشرة ، وهذه الحالة هى حالة الطالب « روفس » أنا كنت أعرف « روفس » ولكنى لم أره ، أسمع عنه فقط من خلال حديثى مع حسام ابنى . **وقال لى :** الدكتور حشاد وكيل الجامعة إن روفس لايعرف العربية ، ولكنه نجح فى البكالوريوس فى المواد كلها ، وهو لن يمارس الطب فى مصر ، وسيمارس الطب فى بلاده ، وكانت فكرة جمال عبد الناصر أنه يمارس الطب بشهادة رسمية ، **فقلت له :** أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك ؛ لأنى يوم تنقلب الأمور

ستكون أنت أول من يحقق معى ، كوكيل للجامعة وتقول كيف نجحت شخصا لا يعرف العربية ؟! فقال : لا . المسألة يعنى أهم من هذا ! فقلت له : إذا وصلنى منك خطاب فيه الشروط التى أريدها أنا : فأنا مستعد أن أفعل ذلك ، فقال : أمل علىّ الخطاب الذى تريده فى التليفون . فأمليت عليه صورة الخطاب التى تحمينى من أىّ شىء ، وتجعلنى مجرد مستشار فى إبداء الرأى فى أنه يسافر أو لا يسافر . لا فى أنه ينجح أو لا ينجح . وبالفعل كتب هذا الخطاب الذى أمليته إياه ، وأرسله إلىّ

● **ومضمون هذا الخطاب يقول :**

« نرجو بمناسبة نجاح الطالب الأمريكى : روفس الذى لابد له أن يتقدم الى إمتحان المعادلة ، وبما أن ظروفه لا تسمح ولا تستطيع أن تمكنه من هذا ، وبما أن الظروف السياسة ، تساعد على أنه يرسل الى بلده ليدرس هناك ، ولن يزاول الطب فى مصر ، وكذا ... وكذا ... **والخلاصة :** أنه كلام صريح يؤكد أن هذا طلب من عبد الناصر نفسه .! فأخذت هذا الخطاب واحتفظت به ثم **أرسل** الىّ « روفس : مع حسام ، وسألت « روفس » وبالانجليزية – لأنى لم أسمع منه كلمة واحدة بالعربية – متى تسافر ؟! وهل سندرس الطب ؟! أم تفتح مستشفى الى آخر هذه الاسئلة.... فقلت له : تسافر بالسلامة وإن شاء الله تحفظ لمصر الجميل . وسافر روفس .

وكتبت أنا : أنا أوافق على أنه يسافر ..! لا أنه نجح . ولم أذكر شيئا عن معرفته باللغة العربية ، وتلك هى الحالة الثانية وأسأل الله تعالى أن يغفر لى ما ارتكبته من خطأ إن كان فيها خطأ .

●● لك الحق أن تخرج بما تشاء .... ولكن المتاعب تكون فى لندن !

قبيل سفرى الى بور سعيد للسفر منها الى انجلترا زرت أساتذتى ، وكان من بينهم أستاذ / عظيم له ابن ، هو مفتش البعثات فى لندن ، فقال لى : خذ خطابًا له منى ، ولدىّ ربطة أو طرد صغير ، به مجوهرات ، يريدها هو . فأرجو أن تأخذها له – ما أظن أنى ذكرت لك هذا – هى ساعة ذهبت وخواتم ونحو ذلك فى رابطة صغيرة ، وبسذاجة الشاب البرىء الذى لم يعرف شيئا مطلقا ، عن الأسفار ولا عن الجمارك ، ولا عن أىّ شىء من هذا القبيل ، قبلت

خصوصا وان الذى كلفنى بهذا العمل هو استاذ عظيم لا أشك فى حسن نيته ، وصدقه ، وانى سآخذها الى ابنه ، الذى سيكون له شأنه فى مكتب البعثات حيث يكون على متصلا به ! الذى حدث ، أنه عقب وصولنا أنا وعبد العزيز أبو علم ، إلى بور سعيد ، أخذنا هؤلاء الأصدقاء الى فندق لنستريح بعد الغداء .

وبعد ظهر ذلك اليوم ، تذكرت الطرد الذى معى ، وعاد إلى ذاكرتى أن جمرك لندن وجد أحيانا مع بعض المسافرين من المصريين، حليا وأنه جمركه بمقدار كبير جدا من المال ، هذا كان شيئا عالقا بالذاكرة منذ مدة ، فخطر ببالى وأنا أمامى متسع من الزمن أن أذهب الى الجمرك واستفهم عن هذا الموضوع . فذهبت الى الجمرك فى عصر اليوم الأول - الذى وصلنا فيه - وقابلنا أحد الموظفين ، لاشك أنه رجل ذو أخلاق ، لأنه أحسن استقبالى ، وأحسن أيضا نصيحتى ، فأنا شرحت له المسألة ، وقلت له : أنا معى طرد صغير فيه مجوهرات ، أرسلها أستاذى معى الى ابنه فى لندن ، وأنا أخذها معى ، فهل أنا فى حل أن أخرج من البلاد ومعى هذا أم أن هذا محظورا ؟ فقال : لا حظر على هذا ، فلك الحق أن تخرج بما تشاء ! لكن أنصحك بأنك ستلقى المتاعب فى لندن ! حيث دخول مثل هذه الاشياء القيمة يجمرك جمركة عالية ، فهل معك من النقود مايمكنك من أن تدفع هذا عندما تصل الى لندن ؟ فقلت له : أنا ليس معى سوى بضع جنيهات ، نأخذها على أنها مصاريف يد ، يعنى ليست شيئا ذا قيمة ، حيث إننا لا نحتاج شيئا فى أثناء السفر ، نحن فى السفينة مكفولين فى كل شيء ، لكن لو فرضنا أنهم طلبوا مبلغا ليس معى ، إنهم اذا يحتكرون المجوهرات !

فسألته بماذا ينصحنى ؟ فقال أحسن طريقة ، أنك تعيد هذا الطرد الى استاذك بالبريد ، وتطلب منه أن يرسله هو بالبريد ومعه فواتير رسمية ، وتطلب بالأثمان الحقيقية لهذه الاشياء ، لأنه فى كثير من الأحيان عندما يصل الطرد الى إنجلترا تفحص هذه الفواتير ، وغالبا مايعتمدون الاسعار التى فيها أو أن يبالغوا فى تسعيرها تسعيرًا عاليا !

وسألته كيف أعيد هذا الى أستاذى ؟ وتعجب أنت كيف أستفهم عن هذه الأشياء !! لأنى حقيقة لم أكن متدربا فى شئون الحياة ، لأنى كنت كما سمعت فى قصيدتى : وفى دار العلوم تروقنى دار العلوم أحبها وتحبنى حب المتيم فكان عملى عليما بحتا . فقال لى : أنت تذهب الى مكتب البريد ، وتأخذ طردًا وتطلب منهم أن يرسلوه مسجلاً .

فى ذلك الوقت كان النهار تقريبا قد انقضى ، نهار ذلك اليوم ، ومكتب البريد قد أغلق ، فأنا كان لدى اليوم التالى ، وكنت أعلم أن الباخرة لن تحضر إلا بعد الظهر ، ففى الصباح قمت أنا وعبد العزيز أبو علم رحمه الله ، اشترينا فرخ ورق وقطعة دوبارة ، ولفيت هذا الطرد فى

الورقة وكتبت عليه عنوان الآستاذ / الذى أعطانى هذه الأشياء وذهبنا إلى مكتب البريد ، وقلت لعامل البريد أريد أن أرسل هذا مسجلاً ، فقال لى : التسجيل لايمكن أن يقبل هكذا ! لا بد أن يكون قد ختم بالشمع الأحمر . هذا كان بحثا جديدًا علىّ ، قلت له : بم يختم ؟ قال : يختم بختم . قلت أنا ليس لى ختم ، قال لى هذه مسألة بسيطة ، إذهب إلى أىّ قهوة من القهاوى الموجودة فى الشارع ، وأنت تجد أمامه منضدة وعليها أختام كثيرة ، غير مكتوبة ، فاطلب منه أن يصنع لك ختما بقرشين ، هذه بسيطة وبالفعل ذهبنا الى المكان – ووجدنا هذا الشيخ ، وأمامه هذه المنضدة فقلت له : السلام عليكم قال : عليكم السلام . فقلت له : أريد ختما فقال لى : ما الاسم ؟ فقلت : محمد مهدى علام . فسحب ختما أملس وكتب عليه وحفره بالعكس ، بخط فارسى جميل جدًا ، محمد مهدى علام وأعطاه لى : وشكرته . وعندما أردت أن أدفع له النقود ، قال لى : أين الشهود ؟ فقلت مالشهود ؟ قال : الشهود على أنك محمد مهدى علام ، كان معى عبد العزيز أبو علم وهناك دفتر لمن استخرج له هذه الاختام ، ولابد أن اسم كل واحد منهم يكون أمامه اسم الشاهدين على أنه صاحب هذا الختم فقلت له ، أنا ماحضرت بور سعيد فى حياتى قبل هذا اليوم ، ولا أعرف فيها أحدًا إلا عبد العزيز أبو علم . وهذا صدق لأن الذين جاءوا ورحبوا بنا لم أكن أعرف لهم عنوانا !

واتضح أنهم من كبار البهائيين الذين لهم صلات بالقاهرة وعلموا بموعد حضورنا ، فقدموا لنا هذه الخدمات ، على العموم لم يخطر ببالى سوى ضيق الزمن ! لأنى فى ذلك الوقت كان الباقى على قيام الباخرة وقت قصير ، فأخذت أرجوه أن يكتفى بتوقيع عبد العزيز ، فقال : لا ، فخطر ببالى فكرة واستخرجت من جيبى جواز السفر ، وقلت له هذا جواز السفر ، يشهد بأنى أنا محمد مهدى علام ، فقال : هو الباسبور بيعرف يمضى؟ أنا أريد امضاءين فى خانتين خانه : للشاهد الأول . وخانة للشاهد الثانى : فلا بد من ملئها ! فى ذلك الوقت كان الناس قد تجمعوا حولنا ، كما يفعل الناس عادة ، عندما يجدون مناقشة أربعة ، أو خمسة ، أو ستة من الناس ، تجمعوا يشاهدون مايجرىمن المناقشة بينى وبين هذا الشيخ المحترم ! فخطر فى بالى مايدل على أن ذكائى لم يكن غائبا كلية ، فوجدت شخصا ذو ملابس أفرنجية ، وهذا يكون عادة دليلا على أنه رجل مثقف ، فسألته هنا مشكلة وحضرتك بتتفرج عليها لو طلبت اليك أن تنظر فى جواز السفر هذا لتخبرنا : من صاحب جواز السفر هذا هل تأذن أن تقول هذا ؟! فنظر فيه وقال : واحد اسمه محمد مهدى علام !! فقلت : هل تقبل أن توقع بامضائك أنى أنا محمد مهدى علام ؟! وجواز السفر فيه صورتى ، أنا واقع فى إشكال أريد أن أرسل طردًا بالبريد ويشترطون أن يكون مختوما وأنا ليس لدىّ ختم قال : وهو كذلك . ووقع هذا الشخص المحترم

بارك الله فيه ، الى جانب عبد العزيز ، وانتهينا بهذا من مشكلة التوقيع الثانى ، طبعا بعد ذلك ذهبنا واشترينا شمع وملأت الطرد أختاما ، وأرسلته .

ولأمرٍ ما بقى معى هذا الختم وأنا لاحتاج إلى ختم فى أى شىء سوى ماكان من أمر الطرد المزعج !!

●● الاسكتلنديون يقبلون أن تحكمهم انجلترا ماداموا هم يحكمون الامبراطورية !

● أتذكر الآن أنى منذ مدة كنت تكلمت عن اَحدى الكذبتين اللتين كذبتهما رسميا بأنى قد خالفت القواعد الخاصة بالامتحانات على طلب رسمى لفائدة قومية إحداهما كانت تتعلق بالطالب الأمريكى : « روفس » والأخرى متعلقة بالممثلة الشهيرة السيدة نادية السبع ، أنا لم أذكر اسمها - يوم تحدثنا عنها - خشية أن يتناثر هذا إليها فقد تتأذى منه، أو يتندر به من لايعرف قدرها ولكنى اكتفيت بأن أقول إنها بطلة مشهورة وأن شهرتها العظيمة هى التى دعتها الى أن تدخل القسم على الرغم من عدم معرفتها باللغة الانجليزية ، متعهدة أنها تنجح فيها فى السنة الأولى فى المقررين . الآن وقد علمت أنها توفيت منذ أسبوعين لا أرى مانعا من أذكر اسمها : فهى كانت السيدة الفاضلة : « نادية السبع » وتوفيت عن سن يناهز الثانين سنة .

● شىء آخر تحدثت عنه بالأمس ، وتذكرت شيئا يتصل به ، وهو : الأستاذ هذرنجتون » الذى كان رئيسًا لجامعة « إكستر » والذى نقل ليكون أستاذا للفلسفة الاخلاقية فى جامعة « إدنبرة » خلفا لأستاذه الذى توفى .

● ومن ضمن الأشياء التى ذكرها لنا : إلى جانب التاريخ المتصل باعادة الطلاب للتاثيل إلى حالتها الأولى ... ذكر لنا أشياء عن أستاذه هذا . وقال : ربما تعجبون كيف أنزل عن وظيفتى هذه إلى الأستاذية فى جامعة أدنبرة . وإنما لو علمتم فضل أستاذى هذا لما عجبتم .

كان حديثه عن أستاذه هذا ، هو مضرب الأمثال فى الحقيقة ! هذا الأستاذ / الذى هو أستاذ / ، لا أستاذ نفسه كان طالبا فقيرًا جدًّا من فقراء اسكتلندا ، واسكتلندا مشهورة بأنها مقاطعة فقيرة . ليس بها موارد طبيعية كثيرة ، ولكن فيها عقول جبارة ، حتى إن من أمثالهم التى يقولونها : « إنهم يقبلون أن انجلترا تحكم اسكتلندا ، مادامت اسكتلندا تحكم الامبراطورية » وهذا حقيقى ، لأن نبوغهم فى جميع أنواع المعرفة ، رشحهم لأن يكونوا فى جميع المجالات ، وأعود الى ماذكره الاستاذ هذرنجتون هارسن عن أستاذه . قال : إنه

كان فقيرًا جدًّا لدرجة أنه كان يعمل صبيا « لإسكافى » ولم يكن له مبيت ، فكان يبيت فى دكان الاسكافى ، ولكنه كان محبا للقراءة والاطلاع ، ويمكنه أن يحصل على هذا بكل الوسائل الممكنة ، الى أن بلغ مرحلة الدراسة المنتظمة ، وكان لابد له أن يسهر من أجل ملاحقة مطالب هذه المستويات ، فكيف كان يسهر ؟ وأين كان يبيت ؟! قال : إنه كان يبيت فى دكان الاسكافى ، وكان يقرأ أحيانا على ضوء الشارع !

ولكن هذا لم ييسر له القراءة الدائمة ، فاستعان بحشرات سراج الليل ؛ هناك حشرة اسمها الحباحب ؛ أو سراج الليل GLOW WORAN GLOW WORM وهى حشرة جلدها مكسو بمادة « فسفورية » وعندما يأتى الليل تضىء كأنها الماس ! وأنا رأيت هذه الحشرة ؛ لأنها موجودة فى انجلترا فى الشمال . ورأيتها حقيقة ، ورأيت ضوءها ، واقتنيت واحدة أو اثنتين منها ، وطبعًا لعدم معرفتى بطريقة علاجها ، فكان ينطفىء الفسفور عندما اليد . والمهم أن هذا الفتى كان يجمع فى بطرمان من الزجاج مجموعة من هذه الحشرات ، وفى الليل تكون مصباحًا كهربائيا عظيما وكان يقرأ على ضوئه الى أن وصل الى أعلى درجات العلم وأصبح أستاذا للفسلفة الاخلاقية فى جامعة إدنبرة ، وكان : (**هذرنجتون**) من كبار تلاميذه وخلفه ، ومن أجل ذلك اعتبر أن خلافته لهذا الأستاذ / العظيم تفوق جميع الألقاب الأخرى !

●● الشيخ مهدى الذى استقبل خالك سنة ١٩٢٠ هو الذى يحدثك الآن !

● فى حفل استقبال للاستاذ بدر الدين أبو غازى عضوا بمجمع اللغة العربية كان من بين الكلمات التى قلتها فى استقباله ، تلك الكلمة التى أتشرف بذكرها ضمن مذكراتى ، فأنى كنت أعلم أن مختار المثال خاله ، فسألته عن أعماله ؟! فقال لى : له كتاب اسمه « حياة مختار » وهو كتابه الأول عن خاله الفنان العظيم ، صدر فى سنة ١٩٤٩ م فى مائة وستين صفحة « والمثال مختار » هو كتابه الثانى عن خاله فى ٢٥٩ صفحة سنة١٩٦٤ .

*ولم يطلعنى الاستاذ / أبو غازى على هذا الكتاب إلا منذ أيام أربعة ، حين كان يحدثنى عما جاء بذلك الكتاب عن الحفلة التى أقيمت فيه لتكريم مختار، فى عيد ميلاده « **ميلادى القاهرة** » ونشر خبر تلك الحفلة فى الأهرام فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس ١٩٢٠ م فقال لى . فى تلك الليلة على أسلاك التليفون : **إن وصف هذه الحفلة يذكر من خطبائها أحمد** حشمت باشا ، والدكتور منصور فهمى باشا ، ومن الفنانين محمد حسن ومحمود خيرت ومهدى علام الأستاذ بدار العلوم العليا الذى القى قصيدة عصماء ، وذكرت الجريدة بعضا من أبيات

القصيدة ، وسألنى الأستاذ بدر الدين أبو غازى هل مهدى علام الأستاذ بدار العلوم هو أنت أم تشابه أسماء ؟ **فقلت له :** وقد تذكرت كل شىء إن هذا الشيخ مهدى علام ، هو مهدى علام الذى يسعده أن يستقبلك فى سنة ١٩٧٥م كما استقبل خالك العظيم « محمود مختار » فى عيد عودته من باريس عقب عرضه لتمثاله العظيم ، الذى كان يعرف باسم : « تمثال نهضة مصر » فى سنة ١٩٢٠ م . أى منذ خمسة وخمسين سنة . تلك القصيدة التى كان مطلعها :

إن فى التصـوير للنـاس هـدى ... وبيـانـا دونـه كل بيـان
رقعـة فيهـا خطـوط ربمـا ... أغنت الأقـوام عن ذرب اللسـان
ولرب اليـوم تمثـال لنـا ... يقرأ التـاريـخ فيـه كل فـان
يـارعـا الله أبـا الهـول ومن ... أودعـوه السر فى جـوف الـزمـان
إيـه يـامختـار قـد أيقظتـه ... بعـد أن قـد كان رمـزا للثـوانى
نلت فى تصـويره الفخر كما ... قـد نـالت بكم بعض الأمـانى

وتفضل الاستاذ / بدر الدين أبو غازى عقب تلك المكالمة التليفونية وأحضر لى نسخة من ذلك الكتاب وقد ضمتها الى ماكان لدى من الأخبار عن تلك الثورة .

● ● أنتهز هذه الفرصة وأبعث بتحياتى ودعواتى للطبيب النابه « أمير ناصف »

● وبتلك المناسبة أذكر لك عن آخر مرة كنت فيها فى المستشفى – مستشفى مصر الدولى – منذ أربع سنوات لعملية كبيرة جدًا فى القاولون .

الذى حدث أن هذا طرأ فجأة ، وبآثار ظاهرة فى نفس اليوم ، فحسام كان مستعدًا لأن يطلب أى طبيب ، وفجأة طرأ على بالنا اسم الطبيب نعرفه جيدًا منذ كان فتى بيننا ، وهو ابن الأستاذ / إمام ناصف صديقى ، ومساعدى فى مشكلات الامتحانات ، كنا جيرانًا سنين طويلة فى رأس البر ، كان الدكتور ناصف قد وصل منذ أربع سنوات تقريبا الى أستاذ الجراحة فى القصر العينى فقالوا : نطلبه تليفونيا كى يرى الحالة ، وكان هذا بعد منتصف الليل ، ثم سمعته يقول لهم : أعدوا شنطة لما يحتاجه عمى ، أما أنا فسآخذه معى فى سيارتى الى المستشفى ، والمستشفى هو مستشفى مصر الدولى ، فطبعا نحن نعلم تمام العلم ، لايسمح بدخول أحد فيها ، قبل دفع مقدم أحيانا يصل الى ألف جنيه ، إذا كانت الحالة تقتضى أى علاج أو جراحة ... وأحيانا يدفع أكثر من هذا ، فطبعًا استعد حسام ابنى ورياض زوج ثريا ابنتى ، بمبلغ معهم

حتى لا نمنع من الدخول ، وتركهم الدكتور امير ناصف وقال : سآخذ عمى معى فى السيارة ، وأدركونى أنتم ، لأنى ذهبت مع رئيس قسم الجرحة .

والحمد لله على أننى قضيت مدة طويلة نسبيا ، أليمة جدًّا فى العلاج ، والحمد لله انتهت بخير ، وانتظرنا كشف الحساب فى النهاية ، وقد جاء بمئات الجنيهات لأن كل طبيب اشترك يوجد اسمه ومبلغه ، وهناك يساعد بعضهم بعضا ، هذا للكشف ، هذا للأشعة ، هذا للبنج ، فنجد أن العملية اشتملت على نحو خمسة أطباء ، وكل منهم بقدم فاتورة كذا مائة جنيه ! فأخذنا تلك الفواتير ، وتم دفعها على الفور .

●● يوم خروجنا من المستشفى .

وعندما فحصنا هذه الفواتير ، وجدنا أن كل طبيب له فاتورة ومبلغا ، ثم المستشفى فاتورة ومبلغها ، ثم الاقامة والأدوية ، ولاحظنا أن الدكتور : « أمير ناصف » ترك فاتورته بيضاء لم يكتب فيها أجرا له . وطبعا هذا شىء لايستغرب منه ولا من أبيه ، وأنا أذكر هذا لأقدم له فى ذكرياتى كل تحية واحترام ودعاء بدوام التوفيق . ولا يفوتنى مع هذا أن أذكر فضل جامعة عين شمس ، فانها تقوم بدفع معظم نفقات العلاج للأساتذة وقد قامت بالفعل بدفع الجزء الأكبر من
نفقات العلاج . فشكرا لها أيضا على هذا الصنيع الطيب .

حسنة وحيدة
من حسنات الصحافة الىّ دوختنى وجوعتنى

● الحادثة التى أذكرها لك ضمن ذكرياتى سببت لى متاعب جمة ، ففى أول سنة ذهبت فيها إلى انجلترا مع أسرتى ، عندما انتدبت أستاذا زائرا للدراسات العربية والاسلامية فى جامعة مانشستر سنة ١٩٣٦ كان لنا مقرر سنوى ، رحلة الى مصر والعودة الى انجلترا ، وأظن أننى ذكرت لك قبل الآن فى حديث من الأحاديث أن مرتبى كان مصريًّا ، كما أن مقابلى الانجليزى الذى حضر هنا للتبادل الثقافى كان يتقاضى مرتبه من انجلترا ، فلم يكن لدى غير مرتبى إلا المائة جنيه التى كانت تكفى للرحلة البحرية فى ذلك الوقت .

عندما ذهبت الى انجلترا وكانت معى زوجتى وطفلاى كان لابد أن أنشىء بيتا بجميع مسئولياته ، فاستنفدت كل ما كان معى رصيدا بالمصرى ، وبقيت على المرتب الذى كان

ضئيلا ، لكن كان بحكمة زوجتى وحسن تصرفها ، وصبرى يكفينى . وأنت تعلم أنى قد سافرت من مصر بسبب ما كنت لقيته من أحد الذين كانوا فى وزارة المعارف – حينذاك – وعندما أردت أن أعود إلى مصر فى الاجازة الصيفية ذهبت الى البنك الذى أتعامل معه فقلت لهم : أنا أريد شركة مصر للسياحة ، حيث قامت بعمل تخفيض نصف نفقات للرحلة فى الذهاب والعودة ! إذا دفعت ثمن الرحلة ذهابا وعودة مقدما ! فاستنفدت الرصيد الذى بالبنك لأدفعه مصاريف الرحلة لنا نحن الأربعة والعودة ، بقى أن أصرف كل شهر ، كل شهر كان بيأتى شيك إلى مكتب البعثات بلندن مرسل من القاهرة ، وأنا أذهب **فآخذهم أصرفهم** ، ماذا أصرف فى القاهرة وقد حضرت إليها ؟ قلت له : أريد جواب توصية لصرف مبلغ من أى بنك أختاره أنا ! نسيت أنا لعدم خبرتى المالية أن هذا الخطاب لا يعطينى إلا لمن له رصيد ! فيعطينى أنا خطاب يقول : ادفع لمهدى علام مبلغ كذا ... وهو يعلم أن الرصيد عندهم **متحرك يأتيهم كل** شهر ، وأذهب أنا وآخذه ، وقد تبقى منه قليلا .

حدثت أزمة ، وكنت حريصًا فى ذلك الوقت على أن أعود بأطفالى وزوجتى إلى القاهرة – فى هذا العام بالذات – لأن هذا كان عقب وفاة والدى وأخيرًا : مدير البنك كان رجلا ظريفا جدًّا ، ووجد حلاً : فقال : لا أعطيك خطابا بتوصية ... وإنما أعطيك ثلاثة خطابات . خطاب لكل شهر ، فى المدة التى يصلنى فيها أنا الشيك يكون معك أنت خطاب ، فأنت ستكون فى يوليه ، وأغسطس ، وسبتمبر . وتأخذ ثلاثة خطابات للبنك الأهلى . وهو يعطيك فى يولية ، وهكذا فى أغسطس وسبتمبر . حل حسن جدا وشكرته على هذا .

أخذت ثلاثة الخطابات معى ، وأخذت أسرتى ، وركبنا البحر ، فى رحلة جميلة جدًّا ، أخذت أربعة عشر يومًا ، إلى أن وصلنا الاسكندرية ، فى الاسكندرية عند نزولنا ، صادف أن كان أحد الصحفيين موجودا . فعرف أنى جئت فرحب بى .

الذى حدث من الصحفى أنه تبرع بما يأتى : ظن أن وجودى – هو يعلم أنى أتقاضى مرتبى من القاهرة ـــ **فى القاهرة فى ثلاثة الأشهر هذه يقتضى أنى أذهب إلى** وزارة المعارف ، وآخذ مرتبى كل شهر . فبلغ هذا إدارة الشئون المالية بالوزارة ، فالكاتب الذى هناك احتجز المرتب ومنع ارساله الى انجلترا ، رجاء أنى أحضر أنا فآخذه وأنا لا أعلم هذا ، والذى كان يحدث أننى أذهب الى البنك الأهلى شهرا بعد شهر وانتهت الأجازة وعدت الى « مانشستر » وفى أول يوم عودتى ذهبت إلى البنك وبيدى شيك أريد أن أصرفه ! فكاتب الصرف الموجود يعرفنى

جيدًا ... فقال لى إن مدير البنك يريد أن يقابلك فقلت له : أهلا وسهلا : وحضر « مستر ووكر » متمنيا لى : أن أكون قضيت اجازة سعيدة الى آخره ..

ثم قال لى : أتعلم أنى لم يصلنى من الحكومة المصرية أىّ مرتب لك خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، فقلت ومعنى هذا أنى مدين للبنك بما صرفته ! فقال دعنا من هذا ... فقلت لماذا لم تكتب إلىّ فى مصر . وأنا تركت لك عنوانى هناك ؟! فقال : رأيت ياسيدى ألا أفسد عليك إجازتك بشىء كهذا ! وأنا أعلم أنك ستعود إن شاء الله ، وشكرت مدير البنك ، واستأذنته فى أن أذهب لأبحث موضوع عدم ارسال النقود للبنك فى كل هذه المدة . فقال لى : قف قليلا ! أنت حضرت لتصرف شيكا هل هناك من يأتى من إجازة ويكون معه نقود ؟ فلابد أن تصرف قلت : وأضيف هذا الى ماصرفته فى ثلاثة أشهر ؟! قال : هذا لايضيرنا . وبالفعل أعطيته الشيك الذى كنت قد حضرت من أجله . وصرفه لى من لاشىء .

وكتبت إلى مكتب البعثة فى لندن ، لأنه هو الذى كان عن طريقه يأتى المبلغ ، وقلت له : إن الاشهر الثلاثة الماضية لم يصل الى البنك أىّ مبلغ فيها .. وانتظرت قبل أن ينتهى الشهر وأرسلت خطابا آخر وكتبت الى الوزارة ، وبقيت نحو ستة أشهر .

الذى حدث أنه بعد ثلاثة أشهر علقوا المبلغ أمانات ! وهذه مصيبة من المصائب الكبيرة ، عندما يعلق مبلغ آمانات ، لايسترد الا بصعوبة ، ومشاكل كثيرة ، ومن حسن الحظ أن مدير البنك كان عطوفًا جدًا وشاعرا بقلقى ! وقال لى : نحن مطمئنون إليك ، وسيتم كل شىء باذن الله ...

ولقد اضطررت أنا وزوجتى أن نعيش نحو الاربعة أشهر على شىء من السلفة ، بعضها من البنك ، وبعضها من بعض الأصدقاء حتى عاد الوضع الى ماكان عليه .

فهذه حسنة من حسنات الصحافة الىّ ... دوّختنى .. وا ...

القسم السابع :

مهـــدى

فى عيون أبنائه

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذنا الكبير ، رائد الجيل ، الأستاذ الدكتور مهدى علام

خير ما فى المرء فكره ورأيه ، فبهما يوزن ، وعليهما يكون الترجيح بين الناس . وأستاذنا من شيوخ الأساتيذ ، يرى فيه هذا الجيل قيمة من أعظم قيمه ، ويتردّد اسمه فى عالم الآداب ، فتشخص إليه الأبصار ، وتشغل به الخواطر ، وتدور من حوله الأحاديث ، فهو فى شبابه فتى نجيب ، مرجوّ الغد ، وفى كهولته علم رفيع القدر ، مرموق المنزلة ، لازمه السداد والتوفيق فى حياته كلها من لدن شبابه إلى شيخوخته ، فكان فتى جادا طلوبا ، وكهلا متمرّساً دءوبا ، وشيخا صادق التجربة ، واسع المعرفة ، دانت له مصاعب العربية ، وأفضت بأسرارها إليه ، فهو دائما السابق المرتاد ، وغيره الآخذ اللاقف .

●● الرئيس حجَبَ العصبة ، وورَّث ذوى الأرحام !

وقد كان ينادى بتوسيع مجال النقد ، والدعوة إلى الإصلاح والتغيير ، حتى كانت محصلة هذا المنهج قيامه على أساس من البراءة والتجرد ، والتمحيص والبصر ، والحكمة والسداد ، ومراجعة الواقع على نور من الحقائق ، حتى يكون الحكمُ فى نهايته صرحا شامخا ، وخلْقا متكاملا ، بعيدا عن النقص والصدع ، والغفلة والوهم .

وقد شاركته جلسات مجلس كلية دار العلوم بالمنيرة ، كما شاركته حين انتقلت إلى مكانها الحاضر فى جامعة القاهرة سنة ١٩٧٣ ، فكان أنبه الأعضاء ذكرا ، وأوسعهم شهرة ، وكان بين تلاميذه وأصدقائه : المرجع الثقة ، والعالم الثبت ، نرجع إليه كلما غابت علينا مسألة أو غامت ، أو خفى علينا وجه الصواب فيها ، وقد كان حديثه فى المجلس يشق طريقه إلى العقول ، وينتهى بالصمود والبقاء !

كما كان ينشط للحوار ولا يضيق به ، ولا تأخذه غفلة أو يمسّه فتور ، وكأنه الصبر فى الحاذق ، يردّ الزيف ويقبل الصحاح ، وكان يجهر بما جدَّ لَهُ فيه ، أداء للأمانة ، وإبراء للذمة ، يغذى ذلك عقل يتوقّد ، وقريحة تستجيب ، من ذلك أن رئيس المجمع الدكتور مدكور رأى فى محاضرة ألقاها الدكتور شوقى ضيف عن (تيسير النحو) ـ وقد فتح باب المناقشة ـ ألا يناقش أعضاء المجمع على حين أباح ذلك لخبراء المجمع والضيوف ، فعلق أستاذنا بقوله : « **الرئيس حجب العصبة ، وورث ذوى الأرحام** » !

●● فى آداء واجبه يحمل نفسه على العزائم ويأخذ بها ٠٠ رافضا الرخص بكل اشكالها ٠٠

وقد كان حبّ العربية وآدابها أغلب عليه ، فآتاها من فكره وذات نفسه عطاء غير مجذوذ . وخدمة العربية وسيلة أمينة لخدمة الدين وقيام الملّة ، والأمم ما عاشت لهم لغتهم عاشوا على موصولة ، تردهم إلى غابر ، وتجمعهم على حاضر ، وتربطهم بمستقبل .

ولأستاذى نشاط علمى مبارك ، يتناول ألوانا من الثقافات ، يدل على رحابة الأفق ، وتعدّد الملكات ، يتبوّأ به مكانا بين أقرانه من حماة العربية راشدا موفقا ، وراضيا مرضيا ، فهو (موسوعى) كما يقولون ، عن أصالة مذخورة ، ووراثة مأثورة ، من ذلك أنه قضى حياته المباركة يحاضر لطلاب دار العلوم وآداب عين شمس ، والمعاهد العليا المختلفة ، وأقسام التخصص فيها ، وكلية الألسن والأزهر وغيرها حيث شارك فى الإشراف ، ومناقشة الرسائل الجامعية ، فتخرج عليه جموع من المتخصصين فى اللغتين العربية والإنجليزية ، ثم تفرّق هؤلاء وأولئك فى المعمورة ، فكانوا أصحاب رسالة ، وحملة أمانة ، ومصادر إشعاع ، ومناهل عرفان . ! وحسبه أنه يعيش الآن فى شبابه العلمى وهو فوق التسعين – مدّ الله فى عمره .

على أن أستاذى كان لا يأخذ فى أداء واجبه بالرخص ، بل بالعزائم ، يحمل نفسه عليها ، ويلتزم الأخذ بها .

وقد حملت كتاباته جوانب فذّة ، واتجاهات رائدة ومواقف حاسمة ، تجلّى هذا حين قيّد أحكاما أطلقها غيره ، فقد صحح كثيرا من القضايا والآراء ، بما أصّل من قاعدة ، وحرّر من مسألة ، كانت ولا تزال معلمة المجتهد ، وسلاح المشترع ، لما فيها من عمق التحليل ، وتشقيق القضايا ، وتفتيق المعانى ، ووضوح الدلائل .

وقد كان أسلوبه فيها : سمح الأداء ، متّسق الجرس ، حلو النبرة ، يتجلّى فيه حسن الإيقاع ، وروعة الانتقال ، وجمال التصوير ، وفى كل هذا تجده خفيف المئونة فى سهولة ويسر ، ولهذا كانت تسمعه الآذان وهى آنسة به ، مطمئنة إليه فى شغف واستمتاع ، فهو عذب فرات ، لا ينقطع سيبه ، ولا يغيض فيضه .

أما ودّه ووفاؤه لتلاميذه وأصدقائه فحدث عنه ولا حرج ، فلقد آنست فيه من صفاء الودّ وصدق الوفاء ، ما يعدّ نمطا فريدا ، من ذلك ما حرّره عن أصدقائه فى المجمع حيث خصّ كل

واحد منهم بسطر فيه وداع ووفاء ، لما كان لهم فى نفسه يوم عرفهم وصاحبهم ، ولقد لخص هذا السطر حياة كل عضو فى المجمع بأمانة وصدق ، فكان آية فى الإيجاز والإعجاز[1] !

كما كان يختم الترجمة بقوله « إنه خير رفيق على طريق » !!

وقد اتسع قلب أستاذى ووقته وقلمه لحب تلاميذه جميعا دون تفرقة يمهد لهم الطريق ، ويهديهم إلى المثل العليا فى الحياة الثقافية والفكرية ؛ باسطا تجربته وحكمته معينا ثرّا لمن شاء بلا قيود ، يقابل ذلك نمط من وفاء تلاميذه بغير حدود !

يصور ذلك ما كان بينه وبين تلميذه المرحوم الشاعر محمود حسن إسماعيل ، وما كان بينه وبين أديب الجزيرة العربية المرحوم الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ، فقد سمعت منه – فى أثناء زيارتى له فى منزله بمكة المكرمة سنة ١٤٠٤ هـ – ثناء مستطابا ، وحديثا نابضا بالحب والوفاء ، والعرفان والتقدير لأستاذه . أما معرفتى بأستاذى :

فقد شملت مراحل عدة :

الأولى منها : يوم سمعت منه (فلسفة المتنبى من شعره) سنة ١٩٤٧ ، وكان ذلك فى دار العلوم ، فرأيت فى درسه هذا جدة وعمقا وإمتاعا .

والثانية : حين كان ممتحنا لى مع المرحوم أستاذى الدكتور إبراهيم سلامة سنة ١٩٤٩ فى دار العلوم ، فكان عملاقا فذّا فى أثناء حوارى معه فى الأدب واللغة .

والثالثة : حين كان عضوا فى اللجنة الدائمة لفحص أعمال المرشحين لدرجة (أستاذ) فى تخصص اللغة العربية وآدابها ، وقد وقع اختيار اللجنة على تقرير أستاذى ليكون التقرير الجماعى الذى تراه اللجنة فى تقييم عملى وذلك سنة ١٩٨٠ .

وأشير إلى فقرة واحدة منه على استحياء . يقول أستاذى فى مختتم تقريره :

« إن هذا التقرير أشبه بقمة جبل الثلج ، تبدو فوق سطح البحر ، دليلا على عظمة الجبل الذى يضمه البحر » .

« الإنتاج غزير ، وعميق ، وأصيل . لقد كتب الدكتور الجندى فى النحو العملى ، والنحو

---

(١) انظر : المجمعيون فى خمسين عاما . بقلم الدكتور مهدى علام .

الفلسفى ، والنحو اللغوى ، والنحو المقارن ، فأضاف فى هذه الميادين إضافات جادة أصيلة ، وهو بهذا جدير بأن يرشح لوظيفة أستاذ بكلية دار العلوم ، بجامعة القاهرة »

٢٧ رمضان ١٤٠٠ هـ **مهدى علام**
٨ أغسطس ١٩٨٠ م

وبهذه المناسبة ، فقد استمع الدكتور أحمد هيكل إلى تقرير أستاذى كاملا ، وكان أحد أعضاء اللجنة ، فعقب قائلا :

« لو خيّرت بين أن يكتب عنى هذا التقرير ، أو يقام لى تمثال فى ميدان التحرير ، لكان الجواب قطعا أن يكتب عنى هذا بيد أستاذى الدكتور مهدى علام » .

●● أستاذى العظيم :

الحديث عنك متشعب ومستفيض ، والبحث فى حياتك وتاريخك وثقافتك – أتركه لمؤرخى الثقافة المعاصرة لتكون فى مكان أنت فيه الرائد الملهم ، والسابق المجلّى ، وهيهات أن يتسع لى مثل هذا المقام ، لأن زمنى فى القول محدود ، ولولا ذلك لطال الحديث عنك وعن مآثرك الخالدة .

ولكن عندما تتجلّى الهيبة يكون السّكوت ، وعندما تحتدّ البصيرة يكون الكشف والصمت ! وكلما اتسعت الرؤية ، ضاقت العبارة ! وحسبى من القلادة ما أحاط بالعنق ! فسلام عليك ، ورحمة الله تحفظك .

تلميــذك
أحمد علم الدين الجندى
أستاذ العلوم اللغوية بجامعتى القاهرة (دار العلوم)
وأم القرى بمكة المكرمة .
٢٥ رمضان المكرم سنة ١٤١١ هـ
١٠ إبريل ١٩٩١ م

●● أستاذى : راع وشيخ يقود طلابه دائما .. نحو يقين العلم ونور المعرفه ..

●● كان يقضى معظم وقته فى العمل الوطنى ومع هذا حافظ على تفوقه ..

●● عالم العربية والإنجليزية .. قاض ومحام فى آن واحد ..

كم كان كامل المهندس أستاذى الراحل يحدثنى عنه ، وعما أنجزه عندما كانا طالبين المعيين بدار العلوم يبحثان معا عن صيغ جديدة للكفاح الوطنى ، وعن سبل التوفيق بين العلوم الحديثه والتراث العريق .

كان يحدثنى أيضا عن دوره فى تجنيد الرأى العام الطلابى أثناء سفرهما فى بعثة علمية إلى لندن وإكسترا، وكل ذلك مع التفوق المستمر فى الدراسة والبحث .

●● الأستاذ المصرى الذى طور العربية وعلَّم الإنجليز كيف يتذوقونها . !

ثم مرت السنون ، وذهبت أنا إلى اكسفرد أدرس الأدب الإنجليزى وسمعت عنه هناك بين أوساط المستشرقين يصفون الأستاذ الزائر المصرى بجامعة منشستر الذى طور دراسة العربية تطويرا وهو يقضى سنىّ الحرب العالمية الثانية يعلم نخبة من شباب الإنجليز كيف يتذوقون العربية وآدابها كما ذكر لى أحد مريديه أنه الشخص الوحيد الذى كان يعرفه استطاع أن يقرأ لسان العرب بأكمله وأن يحفظ منه أجزاء يسترشد بها فى محاضراته المستنيرة .

●● .. الرائد الحقيقى ، بل القدوة ..

وعدت إلى جامعتى مدرسا بكلية الآداب فى وقت حرج للغاية هو مرحلة تمصير هيئة التدريس بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها . وكان الرائد الحقيقى ، بل القدوة فى تجربتنا عميد آداب عين شمس ورئيس قسمى العربية والإنجليزية بها - شخص لا يضن علينا بثمرة خبرته الحقة فى تدريس الأدبين تدريسا ليس فيه أدنى تضحية لقيمة أحدهما على حساب الآخر .

وفى وقت لم تكن مفهومات الأدب المقارن معروفة فى الأوساط الجامعية أرشدنا إلى الاهتمام بهذه الدراسة الجديدة التى كتب لها أن تصبح المبرر الأقوى لدراسة آداب غير الآداب الوطنية . ومنذ تلك الآونة أصبحت حياتى العلمية مرتبطة ارتباطا وثيقا بتوجيهاته بل إشرافه ، لأنه كان رئيس لجنة الترقية إلى الاستاذية المساعدة فالأستاذية **وأصبح هذا العالم بالثقافتين العربية والإنجليزية بمثابة قاض ومحام فى آن واحد - يشجع ويبين معالم الطريق ويحث الباحث على المزيد من البحث ، ويقرأ كل كلمة يكتبها فيقرر ما إذا كان يستحق الترقية أولا .**

●● أستاذى : راع وشيخ يقود طلابه نحو يقين المعرفة ..

ومنذ زمن ليس طويلا شاءت الأقدار أن أجلس بين يديه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ألجأ إليه فى كل كبيرة وصغيرة من أسرار اللغتين وأحتكم إليه وأسترشد برأيه بخاصة فى صعوبات الترجمة ومقارنة أسلوبيات العربية والإنجليزية .

ولكل باحث وطالب علم راع وشيخ يقوده نحو يقين المعرفة هذا الراعى ، هذا الشيخ ، هو بالنسبة إلىّ عمّى وأستاذى ومثبت خطاى . الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام !

●د . مجدى وهبة●

●● أستاذنا العظيم وهبه الله الحكمة وفصل الخطاب ..

إنه ليسعدنى حقا أن أرى قلمى يدوّن ما يجيش به صدرى نحو أستاذ فاضل وعالم كبير ، علمه غزير ، وفضله وفير ، أستاذ جليل ، ذو خُلق نبيل ، له عند الله زلفى وحسن مآب ، آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، ذلك هو أستاذنا العظيم الدكتور محمد مهدى علام الذى إذا كتب أثار الإعجاب ، وإذا تكلم فتّحت له الأبواب ، هو على نُور من ربّه ، وهو فى أولى الألباب .

التقيت به منذ أكثر من عشرين عامًا فى ظلال القرآن الكريم فتحاببنا وتآخينا فى الله الواحد القهار . كان لى نعم المعلم ونعم الأستاذ الذى اقتربت بهداه إلى ترجمة تفسير القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية بفضل تعاونه معى فى إخراج الطبعةَ التى بأيدينا ، وكان هُداه لى سببا أن هدانى ربّى سبيل الرشاد . هو ثَرِىٌّ فى مادته راسخ فى حكمته ، وفقه الله إلى أن يجمع ما بين الدنيا والدين ، فكان أستاذا عالما فى اللغةَ الإنجليزية التى درّسا نثرا وشعرا ، وأستـاذا ومَرْجِعا فى علوم الدين ، وقد أخلصه الله بخالصة ذكرى الدار ، ورفع له ذكره كما رفعه إلى الدرجات العلى ، حيث قال تعالى ﴿ **... يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ...** ﴾

وإذا تركنا العلم جانبا وسُمِحَ لى أن أتكلم عنه كإنسان فهو إنسان تتجلّى فيه خير الصفات - مكارم الأخلاق ، العداءَ للنفاق ، الحزم والعزم ، والصدق والشجاعه ، **وهو لا يخشى فى الله لومة لائم ، إذا قال فَصَلْ ، وإذا وعد فهو صادق الوعد ، ليّنُ القلب للضعفاء ، حازم مع الأشداء ، طريقه قويم وتنبع أفكاره وآراءه من عقل سليم ، وهو رجل كريم متواضع عظيم . إذا تناجى فَبِأْلْبِرّ والتقوى ، وإذا صَمَتَ فإنما هو فى مناجاة مع الله العزيز الحكيم .**

وما أريد أن أسهب فى وصفه كرائد لأولى العلم ، ولا فى وصف إنسانيته ومكارم أخلاقه كى لا يضل القارئ الطريق ، إنما أود أن أختم كلمتى داعيا المولى جل وعلا أن يكون فى المقرّبين الذين وعدهم الله ووعْده الحق « فَرَوحٌ ورَيْحانٌ وجنات نعيم .. »

عبد الخالق همت أبو شامه
أستاذ ومدير بحوث قسم النساء والتوليد جامعة نيويورك (سابقا) وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة ترجمة تفسير القرآن الكريم)

العاشر من شوال سنة ١٤١١
٢٥ إبريل سنة ١٩٩١

●● أستاذى الجليل : مواقفه العلمية ، والأبوية ، والإنسانية أكثر من أن يشملها الحصر ...

.. الحديث عن أستاذنا الجليل الدكتور مهدى علام ، هوحديث عن الأبوة ، ذلك أن حياة هذا الأستاذ الجليل إنما هى أبوة خالصة فى كل ما فيها من أفعال وتوجيهات ، فما من طالب علم كانت له الفرصة فى تلقى شيئ – ولو يسيرا – من فيض علمه إلا وأحس تلك الأبوة الحانية ، لا يختلف فى ذلك من كان فى مقتبل الحياة العلمية أو كان فى قمة نضجه ، وسواء كان طالبا يتلقى العلم فى قاعات الدراسة أم كان يحتل أعلى المناصب العلمية .

فأستاذنا الجليل قد دفع بالكثيرين إلى الأمام ، وكان الذى أشعل وألهب فيهم شعلة الموهبة الكامنة ، فبحسه الأبوى كان دائما يستشعر تلك الطاقات التى تبحث عمن يفتح لها الباب لتنطلق من مكانها ، ولولا مساندة أستاذنا الجليل ، والأخذ بيد هذه المواهب لما مضوا بخطى قوية واثقة فى طريق الإبداع ، فما يسبغه من أبوة حانية وبسخاء سمح ، كان المعين الذى ينهلون منه ليزدادوا يقينا والسياج الذى يعتمدون عليه فى خطواتهم الأولى حتى يتمكنوا السير بدون مساعدة .

●● زكاة العلم بذله ..

هذه الأبوة السخية والسمحة ، والتى تمنح بلا حدود وبلا مقابل ، لعلها كانت وراء استنفاد أكثر جهد أستاذنا الجليل فلم يتبق له إلا الجزء الصغير ، وهو فى تقديرى السر الكامن وراء قلة ما أخرجه لنا من مصنفات عظيمة تعد علامات بارزة فى مناهج الدرس الأدبى والدراسات القرآنية والإسلامية ، وفى ذلك النهج تتجلى أعلى مراتب الأبوة الصادقة التى تتركز حول مبدأ العطاء الخالص . فأستاذنا الجليل قد رأى فى طلابه ومريديه أعظم مصنفاته ، وهى نظرة غاية فى السمو والنبل والفائدة للمجتمع ، وهذا النهج يخالف أصحاب النظرة الذاتية للذين يضنون ليحتفظوا بكل طاقاتهم لأنفسهم ، وأعتقد كل تلاميذ هذا الأستاذ الجليل هم مصنفاته التى عكف على إخراجها ، فهم مؤلفات من لحم ودم وليسوا من أوراق وأحبار ، شاهدة على هذا العطاء الأبوى ، وتروى لكل ذى عقل وبصيرة كيف تكون الأستاذية الحقة وكيف يكون العلم مبذولا خالصا لوجه الله تعالى ، وكما يردد دائما لتلاميذه بأن « زكاة العلم بذله » . **أعود فأقول بأن لذة البذل والعطاء الخالص هى أهم خصائص أستاذنا الجليل ، وهى أخص ما يميز الأبوة عنده ..**

والأبوة فى أستاذنا الجليل لا تنصب فقط على عطائه العلمى ، بل إن هذه الأبوه الحانية تتجلى فى كل تعاملاته الحياتية ، وعلى سبيل التمثيل فقط سأذكر موقفين حدثا لى للتدليل على ذلك النهج الأبوى ، الأول : عندما اتصل بى تليفونيا فى الصباح الباكر ليودعنى قبل سفرى للخارج ، وليقول لى كلمات أبوية حانية صادقة ، ولا يمكننى وصف أثر هذه الكلمات ، لقد كان لها أثر لا يمحى ، ولا أجد لى لغة تستطيع وصف الأحاسيس التى تملكتنى أثناء هذه المحادثة فى ذلك الوقت المبكر . الموقف الثانى : عندما أخفى عنى نبأ وفاه أحد الأساتذة الكبار يوم زواجى ، ولم يشأ أن يعلمنى به إلا بعد إتمام مراسم ذلك اليوم مخافة أن يؤثر على فى تلك المناسبة .

●● أما عن المواقف الأبوية الحانية مع أبناء آخرين غيرى ، وكنت شاهدا عليها ، فسأذكر ما قل منها ودل حتى لا أطيل .

● طلب يوما أن نذهب لمنزل أحد أبنائه – وهو أستاذ كبير فى مهمة علمية بالخارج – وفى هذه الزيارة أبدى كل الحنان والأبوة الصادقة لابنه الأستاذ – وهى للعلم أستاذة فاضلة بالجامعة – ، **هذا الموقف اتخذه أستاذنا الجليل ليشعر الابنة بأن غياب الأب لا يمنع وجوده هو كأب لها .**

● موقف آخر حدث فى أحد المؤتمرات العلمية بجامعة القاهرة ، عندما أقبل أحد الأساتذة الكبار ليسلم على أستاذنا الجليل وكنت بصحبته ، فما أن شاهده حتى رحب به فى حرارة وشوق ، لأن هذا الأستاذ كان على رأس إحدى الجامعات العربية ، وغاب عدة سنوات لم يلق فيها أستاذنا الجليل ، بعد هذا الاستقبال الحار بادر أستاذنا بسؤال الأستاذ عن نجله الذى كان مبتعثا فى الخارج للاطمئنان ، وهى لفتة أبوية إنسانية لها دلالتها . **ولعل ما ذكره لى أستاذى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن من أن أستاذنا الجليل قد ذهب ينتظره فى الميناء يوم عودته من بعثته فى الخارج خير دليل على ما فى أستاذنا الجليل من عطاء أبوى فى تعاملاته الإنسانية مع أبنائه . والمواقف التى أعلمها من هذا اللون كثيرة ، ومالا أعلنه أكثر .**

●● يشرفنى أن يكون « سيد قطب » أحد أبنائى المقربين ..

وما يتصل بهذا الجانب الأبوى من أستاذنا الجليل ، ما حكاه لى من أنه كان يقيم فى منزله أمسيات علمية أدبية لطلابه مرة كل أسبوع عندما كان أستاذا فى دار العلوم ، وكانت هذه

الأمسيات الأبوية تضم من الطلاب اسماء لامعة أصبح لها شأنها فيا بعد ، **فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الأستاذ سيد قطب ، والشاعر محمود حسن إسماعيل ، والشاعر محمود غنيم حسن الصوت كما ذكر لى** ، ولذا فقد كان يقرأ بعضا من آى القرآن الكريم فى هذه الجلسات – إلى غير ذلك من الأسماء اللامعة ، والتى حظيت بالتلمذة على أستاذنا الجليل وهم كثير .

هذه الأمسيات الأبوية والتى تجمع الأب بأبنائه فى جلسة دافئة حنون – والمفتقدة الآن تماما – هى شاهد آخر على أبوة هذا الأستاذ الجليل .

●● أستاذى ... هو الذى شجع « سيد قطب » على تفسير القرآن الكريم ..

وقد يكون من المناسب فى هذا المقام أن أذكر حقيقة قد لا يعلمها إلا القلة ، فمن خلال هذه الجلسة الأبوية خرج مؤلَّف الأستاذ سيد قطب الضخم « فى ظلال القرآن » ، فقد طلب الأستاذ سيد قطب من أستاذه الدكتور مهدى علام أن يبدأ فى تفسير القرآن الكريم لأنه أكفأ من يقوم بهذا العمل فى العصر الحديث ، فما كان من الأستاذ – وقد سبق أن شجعه على وضع مؤلفات سابقة ، حتى أن أول مصنف للأستاذ سيد قطب قد قام على إخراجه ووضع مقدمة له أستاذه الدكتور مهدى علام[1] وهو لم يزل طالبا فى دار العلوم — إلا أنه شجعه ومنحه شحنة ضخمة من الثقة بأن طلب منه أن يقوم هو بذلك العمل لأنه لا يجد فى هذه الفترة الوقت الكافى لهذا العمل الكبير ، ولا يطمئن إلى أن يجد الفرصة فى فترة مقبلة لكثرة مشاغله . وبدءاً من تلك اللحظة وبفضل تشجيع الأب بدأ الأستاذ سيد قطب فى وضع مؤلفه الضخم .

● فى هذا السياق أيضا يحضرنى ملاحظة طريفة ، فقد كنت أشاهد مسابقة رمضانية فى تلفزيون المملكةالعربية السعودية فى شهر رمضان قبل الماضى ، **وكان موضوع المسابقة فى هذه الليلة كتاب الأستاذ سيد قطب « فى ظلال القرآن »** ، وقبل طرح أسئلة المسابقة تلا مقدم المسابقة نبذة عن تاريخ حياة المؤلف ، ولم يذكر فى تاريخ تلقى الأستاذ سيد قطب العلم سوى جملة واحدة هى : **« وقد تلقى العلم فى دار العلوم على يد الدكتور مهدى**

---

(١) هذا الكتاب هو : « مهمة الشاعر فى الحياة »

علام » ، وكم سعدت بهذه الجملة فى تلك الليلة ، وأَكْبَرَتْ زوجى - وقد كانت تجلس معى - معدّ هذا البرنامج لدقته وتحريه الأمانة .

● واستمراراً فى هذا السبيل الأبوىّ الخالص أذكر حقيقة أخرى ، وقد لا يعلمها سوى من عاصرها فقط ، وهى كافية للتدليل الحق على هذا النهج الذى نادرا ما يتكرر . حدثنى أستاذى الجليل بأنه دخل حجرته فى دار العلوم يوما فوجد فوق مكتبه ورقة قد كتب فيها قصيدة تتصدرها عدة أسطر تطلب منه قراءة القصيدة ، وإن لم تكن على المستوى المطلوب فيرجى أن ينسى ذلك الشيء وكأنه لم يكن ، وكانت الورقة بإمضاء الطالب محمود حسن إسماعيل ، فلما توسم الأب نسمات الشاعر فى تلميذه ، أرسل إليه ليهنئه ويبشره بمستقبل زاهر ، بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وهو كاف لناشىء فى ميدان الإبداع ، ذلك أن التشجيع فى هذه المرحلة له فعل السحر فى النفوس ، حيث يكون حافزا للسير بخطى واثقة ، أقول ان الأمر تخطى مجرد التشجيع بالكلمات ، فقد دعا الأستاذ الجليل إلى عقد مهرجان شعرى حضره أساتذة وطلاب من دار العلوم ليلقى فيه الطالب محمود حسن إسماعيل نماذج من شعره ، بل أكثر من هذا فإن الأب الحريص على مستقبل ابنه ، قد جمع قصائده وعمل على إخراجها فى ديوان مطبوع ، وقد كان « أغانى الكوخ » أول دواوين الشاعر الكبير . وعند صدور الديوان ، عقد حفلاً بالقاهرة لتهنئة الطالب الشاعر ، فكانت المرة الأولى والأخيرة أن يهنأ فيه أساتذة طالبا لهم فى أى دار علمى وفى صورة مهرجان ، كل هذا بفضل المشاعر الأبوية التى غرسها أستاذنا الجليل ، والتى تعد نبراسا لكل من له فطرة إنسانية سليمة .

هذا الحنان الأبوى الخالص لم يكن من نصيب الطلبة فى مقتبل عمرهم العلمى فقط ، بل كان يشمل أيضا الأساتذه الكبار ، فقد ذكر لى أستاذى العظيم الدكتور مصطفى الشكعة أن أستاذنا الجليل قد نبهه لأن يتقدم إلى الترقية لدرجة الأستاذية فبادره الدكتور الشكعة بسؤاله بأى كتاب يتقدم ؟ فرد عليه أستاذنا الجليل بأن أيا من كتبه يستطيع أن يزكيه لهذه الدرجة ، وهذا الرد هو بلا شك تقدير رقيق من أستاذ جليل لأستاذ كبير .

● صور العطاء ليست للأبناء فقط ..

● دخل الدكتور ناصر الدين الأسد حجرة أستاذنا الجليل - بمكتبه بالمجمع - العام الماضى وكنت أجلس عنده واستفسر منه عن إحدى القضايا العلمية ، فما كان منه إلا أن قام بكل الأبوة والأستاذية الحقة بإحضار المراجع الخاصة وبدأ يشرح له ما غمض عليه ، وهو موقف آخر

لهذا العطاء الأبوى الذى لم يقتصر على صغار الطلاب فقط ، والمواقف المشابهة كثيرة جدا والحديث عنها يطول .

● ومن معالم احتضان أستاذنا الجليل لأبنائه الطلبة أنه ذكر لى أن مكتبته الخاصة – وتحتويها جدران شقة كاملة – كانت المكان الذى أعدّ فيه كثير من الأساتذة بحوثهم العلمية ، **فعلى سبيل المثال لا الحصر كان منهم أساتذتى الدكتور عز الدين إسماعيل ، والدكتور إبراهيم عبد الرحمن ، والدكتور مصطفى ناصف وغيرهم كثير .**

● ومن مظاهر هذا الاحتضان الأبوى ، أنه عندما أراد أحد الأساتذة الترقية فى وقت معين – أثناء عطلة الصيف – لأن هذه الترقية إلى درجة أستاذ ستفيده ماديا كثيرا جدا – فقد كان معاراً إلى السعودية – عند تجديد عقده فى العام التالى ، فما كان من أستاذنا إلا أن عمل على ترقيته ، خاصة وأنه أستاذ كفء من الناحيه العلمية فقد تقدم بخمسين بحثا وهو ما لم يحدث من قبل ، كما ذكر لى أستاذى الجليل .

● ومن المواقف التى يتجلى فيها حب أستاذنا الجليل لأبنائه الطلبة ذلك الحب الأبوى الفطرى ، أذكر موقفا شهدته فى أحد الأيام ، فقد حدد موعدا لمناقشة إحدى الطالبات فى درجة الماجستير ، وبعد إتمام كل التجهيزات لهذه المناقشة لم يحضر إلى الكلية أحد الأساتذة من جامعة الأسكندرية ، وبعد فشل كل الجهود لمعرفة السبب فى تخلف هذا الأستاذ ، اتصل أستاذنا الجليل بعميد الكلية لتحديد موعد آخر مع التشديد على التأكد من جدية وصول إعلام واضح للأستاذ ، وقد كان يومها متشددا بصورة لم أعهدها من قبل ، ذلك لأنه كان يدافع عن قضية جوهرية ، ومبدأ أبوى ، وهو وجوب احترام المواعيد ، ووضع الظروف النفسية للطلبة فى الحسبان ، إذ كيف يوضع الطالب فى هموم الامتحان مرتين دون سبب ، وكيف لا يحترم الأستاذ موعدا محددا لإمتحان ما . وعند حضور الأستاذ فى المرة التالية أفهمه الأستاذ الجليل بخطئه دون أن يشعر أحدا بذلك ، **وفى حجرة مغلقة واعد الأستاذ بالاعتذار فى قاعة المناقشة .** وأستاذنا الجليل اتخذ هذا الموقف من منطلق أن للطالب حقوقا على أستاذه يجب أن توضع فى الإعتبار ، مثل ما للأبناء من حقوق على الآباء ، **وهو إحساس قد يُغْفَلُ عند أكثر الأساتذة .**

● ومن ملامح الأبوة أيضا حرص أستاذنا الجليل على طبع صفحات الترجمة التى يدرّسها للطلبة وتوزيعها عليهم ، وذلك حتى لا يثقل عليهم ، ويكونوا متفرغين فقط لأداء الواجب

العلمى ، هذا مع الأبناء الصغار ، أما عن الأبناء الكبار فهو دائم السؤال عن الكتب غير المتوفرة لديهم حتى يزودهم بنسخ منها ، وتكون متوفرة عنده ، وتكون عزيزة المنال أيضا .

● وأما عن ملامح أبوية والتى يسبغها على غير تلاميذه المباشرين ، أذكر موقفا واحدا ليفصح عن هذا الجانب بمنتهى الجلاء . أذكر أن أحد طلاب السنة التمهيدية للماجستير دخل إلى حجرة أستاذنا الجليل وكنت جالسا معه ، وكان الطالب يضع بحثا عن نتاج الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى الشعرى والمسرحى ، فأول ما قال الطالب أن الأستاذ الشرقاوى قد رحب به جداً فى مكتبه لما علم بأنه تلميذ للدكتور مهدى علام ووجدها فرصة سانحة ليرسل إليه تحية حارة جدا مع تلميذه ، وأضاف الطالب بأن الأستاذ الشرقاوى قد ذكر له بأن عليه دينا كبيرا لأستاذنا الجليل ، ذلك أنه كان أحد الذين وقفو إلى جانبه فى سبيل عرضه مسرحية له ، ولولاهم لما خرج هذا العرض المسرحى إلى الوجود .

● ولعل ما ذكرت ، وهو غيضة من فيض ، خير دليل على السمة الرئيسية من سمات أستاذنا الجليل ، وهى سمات نبيلة وعظيمة كثيرة . أعود فأقول بأن سمة الأبوة الخالصة فى تعامله مع تلامذته المباشرين وغير المباشرين ، هى أكبر سماته الواضحة ، **ناهيك عن سمات أخرى كعفة اللسان والنبل فى التعامل وتواضع العلماء المتميز ... ألخ .**

● حدثنى أستاذى **الدكتور أحمد كمال زكى** بأنه لم يسمع يوما أستاذى الجليل يتفوه بلفظ غير لائق ، كما أنه لم يجده يوما يدخل فى صراع مع أحد ، بل هو دائما سمحا نبيلا فى تعامله مع الآخرين ، وقد سمعت نفس الرأى من **أستاذى الدكتور إبراهيم عبد الرحمن** ، وهو ما الحظه ويلحظه كل من تعامل مع أستاذنا الجليل . وهناك حادثة يعلمها تلامذة أستاذنا الجليل تدلل على هذا المسلك النبيل ، فقد اقتبس أحد الأساتذة بحثا لأستاذنا الجليل ولم يشر إلى مصدر الاقتباس ، ومع ذلك لم يتخذ أستاذنا الجليل أى إجراء قد يتخذه غيره فى مثل هذه الحالة ، **إلا أن أستاذنا الجليل عند ذكر هذه الحادثة لا يضيقه إلا ذلك النكران الذى ظهر من أحد أبنائه .**

● **أما عن تواضعه الجم — وهو تواضع العلماء المخلصين — فإننى أذكر موقفا واحدا — وإن تكرر** أمامى عدة مرات - كنت أحد شهوده وهو كاف جدا للتدليل على هذا الجانب الإنسانى النبيل ، فقد وقف الأستاذ الفاضل الشيخ محمد نائل العميد السابق لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، وقف بعد انتهاء حفل استقباله عضوا فى مجمع اللغة العربية يبدى لأستاذنا الجليل أقصى ما يمكن أن يقال فى مجال العرفان بالجميل والوفاء ، والدكتور مهدى علام يرد عليه وبمنتهى الصدق ، استغفر الله يارجل ... استغفر الله ... ، لقد كان موقفا مؤثرا هزنى هزا ، فلئن كان

يدل على وفاء من شيخ عالم فاضل ، أكبرته كثيرا فى نفسى ، فإنه يدل على تواضع جم من أستاذ جليل عظيم .

●● الحديث عن أستاذنا الجليل طويل ... طويل ، ولا يسعنى أن أحيط به ، جزاه الله عنا - نحن تلاميذه - خير الجزاء ، بقدر ما أعطانا من نفسه ومن علمه ، أمدّ الله فى عمره حتى يظل نبراسا حيا للأستاذية الحقه ، أبوة ، وحنانا ، وعفة لسان .

دكتور محمود الجريدلى

بسم الله الرحمن الرحيم

أول وآخر من جمع بين أستاذية كرسيين معا ، فى العربية والإنجليزية :

« العشرة الكرام » وقع اختيارهم على الدكتور محمد مهدى علام لينوب عنهم فى إلقاء كلمة بمناسبة استقبالهم أعضاء بمجمع اللغة العربية ، وكان ذلك فى الجلسة التى عقدت صباح الإثنين ١٧ من شوال ١٣٨٠ هـ الموافق ٣ من أبريل ١٩٦١ م ، وكانت هذه هى البداية .

وقد سجلت وقائع هذه الجلسة لنشرها فى محاضر مجلس المجمع وفى مجلته التى كنت أشرف بأمانة تحريرها . وبحكم عملى محررا فى المجمع كنت أحضر جلسات المجلس والمؤتمر وأدون مناقشاتهما . وقد أعجبت بأسلوبه السهل الممتنع وهو يناقش قضايا اللغة والمصطلحات ، وقد أعجبت بأسلوبه السهل الممتنع وهو يناقش قضايا اللغة والمصطلحات ، وقد ملك ناصية العربية والإنجليزية ، ولم أكن أعلم آنذاك أنه عندما كان عميدا لكلية الآداب بجامعة عين شمس كان أستاذا للغة العربية وآدابها وللغة الإنجليزية وآدابها . وكان الدكتور محمد كامل حسين مدير الجامعة وقتئذ يقول له فى تقدير : أنت أول من شغل هذين الكرسيين .

وقد قيلت هذه المقالة فى جلسة تأبين المرحوم محمد شفيق غربال ، حيث قدم ترجمة فورية لكلمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد من العربية إلى الإنجليزية ، وقدم ترجمة فورية لكلمة المؤرخ العالمى البروفسور أرنولد توينبى من الإنجليزية إلى العربية .

● وقد أتاح لى عملى فى مجلة المجمع أن أتصل به للحصول على مقالات للمجلة ولعرض التجارب عليه قبل الإذن بطبعها . وقد تولى بعد ذلك الإشراف وما زال مشرفا عليها .

وقد لمست خلقا رفيعا وأدبا جما وعلما جعلنى أتطلع إلى مزيد من الاقتراب منه . وقد واتتنى الفرصة عندما انتخب أمينا عاما للمجمع ، **وبحكم عملى فى الشئون الإدارية كنت معاونا له وكلما اقتربت منه أزداد حبا وإعجابا .**

أحببته لتواضعه ، فلا يترك زائرا حتى يودعه عند باب مكتبه أو باب منزله .

أحببته لوفائه لشريكة عمره . قال سيدنا محمد ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .

وقد لمست أنه كان عند قول رسول الله ، فلم أر فى حياتى إنسانا يحبّ زوجته ويجلها ويحترمها ويذكرها دائما بكل خير فى كل مناسبة . واستأذنه فى ذكر ما وعته ذاكرتى عن واقعة سمعتها منه أبلغ فى الدلالة من كل قول :

« كان يعد العدة لترك إنجلترة والعودة إلى مصر ، وعن منزله الذى يمتلكه هناك للبيع ، واشترط على المشترى أن يسمح له بفك الكسوة الخشبية للمدفأة التى فى غرفة المعيشة لأنه أحس منها أنها سوف تفتقدها وأنها ألفتها وتأسف لفراقها ، وكادت تفشل الصفقة من أجل هذا الشرط غير المألوف ، وإزاء اصراره وافق المشترى وتم فكها وشحنها إلى مصر » .

أحببته لتمسكه بما يرى أنه الحق ، فله مواقف فى مكتب المجمع شهدت فيها إصراره على مكافأة الأجدر وليس الأولى .

أحببته لشموخه واحترامه لنفسه ، وأستأذنه فى ذكر واقعة كنت طرفا فيها :

« بمناسبة العيد الخمسينى للمجمع كلّف بتأليف كتاب « المجمعيون فى خمسين عاما » وقد استغرق منه اعداد هذا الكتاب جهدا ووقتا ، ولا يعرفُ عظم الجهد الذى بذل فى تأليفه إلا من حاول كتابة سطور قليلة عمن يعرف أو اتصل أو خالط . ومن فرط حرصه على ألا يفوته شىء لم يذكره ، أرسل لكل عضو من أعضاء المجمع الأحياء التجربة الأولى ، مصحوبة بكتاب رقيق منه ، **يرجو مراجعة التجربة وإضافة ما يرى أنه كان جديرا بأن يثبت** . وقد أحس بعدم اللياقة عندما أعاد إليه أحد الأعضاء العلميين التجربة ومعها الخطاب الذى أرسله إليه وقائمة من عدد من الصفحات تتضمن الأبحاث والمهارات التى حققها فى مهنته والتى مكانها ليس هذا المؤلف ، ولكن تقدم كحيثيات لنيل إحدى الجوائز . **وكان قراره عدم إثبات شىء من ذلك .**

ولعلمى أن ما حدث لم يكن عن قصد ، فقد تطوعت لإنهاء سوء الفهم ، وقد وفقت بعد أن مسنى منه شىء ، وإكراما لى نشر له ما أراد .

وقد شرفنى بأن أشركنى فى مراجعة تجارب هذا الكتاب ، وقد لفت نظرى أنى لم أجد فيما كتبه عن نفسه ذكر لما سبق أن قصه علىّ عن دوره فى ثورة ١٩١٩ ، ولا عن تكليفه بالتدريس للأمير فاروق . وقد سألته عن السبب ، فقال إنه يجد حرجا فى ذكر ذلك تجنبا لمظنة تزكية النفس ، **وكان رأيى أن السكوت عن ذكر هذه الأحداث إخفاء لجزء من التاريخ من حق**

القراء أن يعرفوه . وقد استجاب على مضض ، وأشار فيما كتب ، أنه أثبت ذلك أداء للأمانة التاريخية واستجابة لبعض الخلصاء .

هذا قليل من كثير أعرفه ولمسته عن قرب من أستاذى الدكتور محمد مهدى علام ، متعه الله بالصحة والعافية ومد الله فى عمره .

المعادى ١٥ يونية ١٩٩١ ● **إبراهيم أحمد** ●

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

●● أستاذى الجليل دكتور مهدى علام :

يا لمهدى علام ! ماذا أقول كأنه تلتقى عنده الحضارات ، فحينًا نراه فى بلاد الإنجليز ينتشى بأدبهم وينتشون من أدبه ، وانتشاؤهم بأدبه أجل وأكرم ، فهو انتشاء من أدب القرآن .

وحينا نرى وجهته إلى الشرق محوما على الأدب الفارسى والأدب العبرى ، ولا يكتفى بالتحويم وحسوة الطائر ، بل نراه متجها إلى السِّمَاكين مجنحا ليبلغ الآفاق ، غواصا إلى الجوهر فى الأعماق ؟

نعم ، نراه يتجه إلى العمق ، وإلا فلماذا يختار من المتبنى فلسفته ، ومن الكذب فلسفته ، ومن العقوبة فلسفتها ، ولماذا يتجه موازنا بين الفلسفات ؟ فيقدم لنا نظرية الوسط بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين .

أليس فى هذا حفز لنا وإغراء — أى إغراء — باقتفاء آثار أستاذنا فى هذه الفلسفات ؟ فننهل من منهله ، عسانا نكون مؤتمين به فى التقاط ما تناثر من فيض فلسفاته وأدبه .

من أنت أيها السيد المهدى ؟ حدثنا عن حقيقتك ، وماذا حويت من شخصيتك ، وانطوى تحت ردائك بما لم تسبق إليه ، فتناهت إليك أستاذية الأدب العربى والأدب الإنجليزى ، بل ارتقت إليك رئاسة القسمين .

حدثنا أيها المهدى ! أأنت جواب حضارات ؟ ومولّه بآداب اللغات ؟

وإلا ، فلماذا ضممت فى برديك كما يقول أدبنا العربى بين أدب الغرب وأدب الشرق ، وفلسفات الشرق والغرب ؟

رأينا من قبلك ابن خلدون مقتحما القمم فى السياسة ، ورأينا ابن بطوطة مقتحما الآماد فى شتى البلاد ، ثم يجيئنا المهدى فيكون اقتحامه حضاريا انسانيا سماويا !

ثم يحط به المسير عند قاهرة المعز فى مجمع اللغة العربية فيجمعه بين يديه حينا فى ثلاثين عاما ، وحينا فى خمسين ، ويشاء الله الجليل أن تجمعنا به حياته المباركة ، فيكون موجها سامقا للموجهين ، ويقدم لى لمحة من فضله ؛ فيكون خير هاد لى ، وأجل موجه كريم !

انظره وهو يأخذنى بيمينه إلى نقاد الأدب فى الصحف مقدما إياى إليهم ، حانيا على كعهدى به فى الثلاثين !

دمت أيها السيد المهدى للأدب جميعه : الأدب اللغوى والأدب الخلقى القرآنى ، وقل مع المصطفى ﷺ « أدبنى ربى وأحسن تأديبى » .

بل دمت للآداب جميعها ، ففيك التقت حضارات ، وتآخت فلسفات ، ولا زلت ينتجع إليك الشادون ، فكن كما أنت فى القمة دائما .

أيها السيد المهدى والأستاذ الجليل ، أأنت تنتمى إلى النثر تأتى فيه بالمبدع أم إلى الشعر تأتى فيه بالرائع المعجب ؟ الحق أنك تنتمى إلى الموسيقى والخيال فيممت إلى الشعر ، وأنت أيضا تنتمى إلى الفكر فكانت وجهتك إلى الفلسفة والنثر .

يالله ! هل كنت تترقب كل هذا فى مطلع شبابك ؟ لو نظرنا إلى المستقبل أيامها لحق علينا — عندما نلمحك ميمما دار العلوم — لحق علينا أن ننحنى أمامك جمعا جمعا أجل من الانحناء والإجلال الذى قوبل به الخديوى عندما أم دار العلوم ، وآسف لهذه الموازنة فأين الملوك من العلماء ، بل قمة العلماء ممثلين فى المجمعين الخالدين !

ربيع الأول / ١٤٠٨
نوفمبر / ١٩٨٧

الشاكر فضلك السابق والأمل فضلك اللاحق
أحمد عوض حماد
مصر الجديدة / ٣ شارع ماسبيرو

بسم الله الرحمن الرحيم

●● أستاذى الجليل الدكتور مهدى علام :

أمس بمناسبة ذكرى العقاد وأنا أسمع تسجيلا لحديث له مع أمانى ناشد ذكر العقاد أنه كان يكتب منشورات لثورة ١٩١٩/ ، فذهب ذهنى سريعا إلى أستاذى الدكتور مهدى وأنا أعلم أن له قسطا فى هذا المجال من تلك الثورة .

وهنا حقان على أستاذى وجب أن يسجلهما بتفصيل ما استطاع له وقته ، ولا أقول ما استطاعت ذاكرته ، فإنى أعلم أن الله أنعم عليه بذاكرة حية نابضة واعية ، فمن الحق عليه لواجبين جليلين : حق عام وهو مصر فيسجل لنا طرفا من هذه المنشورات فإننا نحن المحبين له الحافظين عهده العاشقين والمترسمين خطواته ــ من حقنا أن يقع بصرنا على بعض هذه المنشورات ، هذا حق الأدب ، وحق التاريخ الثورى ، وحق مصر فى هذه الحقبة من تاريخها ، فمن الحق يا مولاى ألا تبخس مصر حقها ــ وآسف لكلمة لا تبخس ، فالدكتور مهدى علام لا يقال له ذلك ، فهو الذى لا يبخس أحدا حقه ، فما بالكم إذا كان الحق لمصر .

فهذا اللفظ أوجهه إلى مهدى علام المعنوى أما مهدى علام الشخصى فلا أبيح لنفسى أن أرفع بصرى إليه وأوجه إليه هذا اللفظ ، ولكن عذرى أن حبى لمصر وتاريخ ثورتها أحب إلى من مهدى علام كما علمنى هو ذلك ، وعلمنى أن الحق أحب إلَىّ ...

هذا حق مصر ، أما الحق الآخر وهو حق جليل خطير أيضا فهو حق تسجيل حقبة لشاب ثائر تراه يتخذ من مصر ليلاه يناديها ويراوحها ، ويتنكر من أجلها متخفيا من عزالها ، متنكرا فى ملبسه وخطواته ، وهو يحمل المنشورات ! سجل للشباب كيف تكون حياة شاب راهب متبتل فى سبيل مصر ، حينا فى ميدان جهادها وهو يعلم أن الراصدين له لو وقع فى أيديهم لكان لهم معه ثأر أى ثأر ! سجل للشباب فهذا مَعْلم من معالم شاب يترهب فى محرابين : محراب للوطنية الثائرة يكتب المنشورات حينا ويوزعها حينا آخر ملتصقا التصاقا وثيقا قريبا من زعامة ذلك العهد ، كما قال شوقى فى أمين الرافعى :

كم إمـام قـربتَ فى الصف منـه ومُغَـنٍّ قعـدت منـه رسيـلا
تـنشد النـاس فى القضيـة لحنـا كالحوارى رتَّـل الانجيـلا

وحينا ترى الشاب مهدى علام فى معبد رهبنته يناجى العلم متخذا منه أيضا ليلاه فيكون الأول الأول أيضًا فى طلبه ، فهو الأول فى دار العلوم ثم فى إرساله إلى بعثة ، ... هكذا يكون المجد مجد الشاب الثائر للوطن أو للعلم .

فبحق الوطن عليك ، وبحق العلم إلا تناولت هذه الفترة من تاريخك — وآسف ثانية أيضا إذ مثلى يقسم عليك بحق الوطن ، فما كنت ممن يقسم عليهم بحق الوطن ، وإنك لراع دائما دائما حق هذا الوطن فى كل خاطرة من خطراتك وفى كل خطوة من خطواتك ، وإنى لشاهد حق على ذلك فى أخذك بيدك الأمينة المباركة ما كتبته عن أنوار القرآن الكريم ، ويعلو ويعلو فضلك حتى تكتب فوق ما كنت آمل ، هكذا يكون كرم الطبع وسماحة الخلق !

●● أستاذى ، أعود ثانية إلى ليلاك فى ثورة/١٩١٩ ، وأسأل : كيف كنت تعد شخصك للقائها نفسيا . وهيئة ؟ وهل كانت تعاونك فى ذلك حليلة لك إذا كنت قد ارتبطت بها ؟لا ، لقد كنت طالبا ، فكانت ليلاك هى مصر حقا ، ولا ليلى غيرها ، فهى الموجه لك ، وهى الراعى لك ، وهى الحامية والحانية عليك ، ولا عجب فأنت إذ ذاك — ودائما — فى رعاية الله .

ولعلك تسأل : لماذا إلحاحى فى التحدث عن هذه الحقبة من حياتك ؟ أقول لأنى ابنك وتلميذك وقد كنتُ فى/١٩٢٥ من شباب الحزب الوطنى ، وكنت طالبا فى دار العلوم ، وكنت أتنكر أيضا و أغافل اليد القابضة القوية إذ ذاك ، وأجتمع برجال الحزب سرا .

فمن هنا كان شغفى بكل ما تكتب عن هذه الحقبة من حياتك ، فأنا ابنك وتلميذك ، وهذا شرف دونه كل شرف .

●● وبعـد :

فإنى ذاكر لك شاكر فى كل وقت ، فإليك تحية جليلة ، وشكرا أجلّ ، ودعاء دائم لك ، ومثلها جميعا من تحية ، وشكر ، ودعاء للدكتورة ثريا .

ابنـك

أحمد عوض

●● ملحـق أول .

● اكتب لنا يا سيدى عن (منشورات / ١٩١٩) :

١ — بعض هذه المنشورات .

٢ — كيف كنتم تتنكرون ، ومدى علم الأقربين منكم .

٣ — بعض المآزق التى قابلتكم .

٤ — الأثر النفسى قبل وبعد توزيع المنشور .

٥ — حدثنا عن الجريدة السرية (المصرى الحر) أيوجد عند سيادتكم عدد منها ؟

٦ — فليس فى الأدب العربى أدب ثورى إلا ما تفصح عنه هذه المنشورات .

٧ — حدثنا عما أوجزت فى (المجمعيون فى خمسين عاما) .

٨ — من الظلم للأدب العربى والمصرى وللإنسانية أن يغفل أدب المنشورات وحقه أن يعنون بالأدب الثورى ويدرس للطلاب .

٩ — كان لنا عذر من قبل إذ كان الحاكمون أجانب ، أما الآن فلا عذر قط ، ويجب أن يحل أدب المنشورات الثورية محله اللائق به .

١٠ — وإذا لم يقم بهذا الدكتور مهدى علام فمن يقوم ، ؟ فهو من رواد أدب المنشورات .

●● ملحـق ثـان :

بـارك الله فيـك

● إن المنشورات وثائق ثورية قومية ذات طابع خاص يكتبها أبطال شعبيون يحسون بنبض الشعب فى لغة سهلة العبارة ، وهى موجزة يراد بها سرعة الانتشار فهى سلك كهربى بدءا من كاتبها ومرورا إلى موزعيها حتى منفذيها ، وتجمعهم جميعا التضحية والفداء ، وأصاب الدكتور مهدى فى وصفه لكاتبيها بأنهم أبطال ، ويزاد أنهم يظهرون فى الأزمات الحادة حيث الاستبداد ويؤخذ المرء بالنأمة والظنة ، وهنا يتقدم البطل المضحى وله من سنان قلمه سنان رمح أو طعنة سيف فيؤرق المحتل وينفس عن الشعب .

ومن أمثال هؤلاء مهدى علام والعقاد وفكرى أباظة المحامى الناشئ إذ ظهرت له

منشورات فى أسيوط إبان الثورة ، وأدب المنشورات لون جديد من الأدب فهو أدب نثرى يتفق مع الشعر الحر فى أن ألفاظه من لغة الحياة التى تقضى على حياة المحتل ، وتمتاز معانيها بالرباط الاجتماعى الوثيق المضحى ، وينهض بكل هذه القيم الشباب ، فهم جميعا من شباب الثورة إقداما وتسابقا إلى الفدائية والتضحية لا لمغنم بل ينتظر الجميع عدو قاصم غادر أثيم .

ولا يهن من أدب المنشورات أنها لغة الشعب فالكلمة الآن للشعب ، فيكتب شوقى عنوانا لصحيفة الجهاد :

قف دون رأيك فى الحياة مجاهدا   إن الحياة عقيدة وجهاد

وما المنشورات إلا دعوة للجهاد وثبات على العقيدة فى الحياة ، ويزاد فى المنشورات الثأر الدامى لا النكوص ولا التوانى .

حيا الله أبطال المنشورات ما دام فى الحياة ومثل للعقيدة والفدائية والجهاد .

بسم الله الرحمن الرحيم

بقلم الدكتورة : جيهان شعبان

بقدر ما شعرت بالفخر لإتاحة الفرصة لى للمشاركة فى هذا الإصدار عن الأستاذ والمربى والعالم الجليل الدكتور / مهدى علام ، بقدر ما شعرت بنوع من السعادة عندما بدأت تعود بى الذاكرة إلى الوراء لسنوات عديدة وأنا طالبة فى سنوات الليسانس بكلية البنات الإسلامية قسم الترجمة الفورية (لغة إنجليزية) حيث كان الدكتور مهدى علام يدرس لنا مبادئ الترجمة التحريرية من اللغة الإنجليزية إلى العربية والعكس وتدرج بنا إلى أن تعمق فى تدريس الترجمة الأدبية فى الدراسات العليا .

لا أستطيع أن أخفى القدر الكبير من المشاعر التى أكنها للدكتور مهدى علام ، وهى مزيج من الحب والاحترام والتقدير والإعجاب ، وكلها لشخص وجدت فيه من خلال التعامل بين أستاذ وتلميذاته صفات كريمة منها علم الأستاذ وتواضع العالم وسعة صدر الأب وحكمة المربى فضلا عن عطاء بلا حدود وإيمان يحيط بكل ذلك ويملأ قلبه بالخير لكل من حوله .

وعن تلك الفترة لا يمكن لأحد فى جامعة الأزهر أو كلية البنات الإسلامية على الأخص أن ينسى فضل وجهود الدكتور مهدى علام فى إنشاء وتطوير قسم الترجمة الفورية الإنجليزية . أما عن تدريسه فقد بلغ قدر تأثرى به أن قررت استكمال دراساتى العليا فى مجال الترجمة الأدبية ، وكان الدكتور مهدى علام صاحب فكرة موضوع رسالتى لنيل درجة الدكتوراه وكان لى شرف اشتراكه فى لجنة المناقشة التى منحتنى الدرجة .

كانت محاضراته بمثابة جولة ممتعة فكرياً فى موسوعة متخصصة لدوائر المعرفة فى مختلف العلوم من خلال تدريس الترجمة الأدبية .. كان يختار قطعة نثرية مرة وشعرية مرة أخرى لأدباء ، وشعراء ، وترجمات لها من الإنجليزية إلى العربية أو العكس .. وأحيانا كان يناقش معنا ترجمات قام بها بنفسه . كان يهتم دائما بتوضيح أهمية الفكرة فى أى نص وأسلوب عرضها ، وبالتالى أهمية محاولة التعبير عنها بدقة وبأقرب ما يكون لروح النص باللغة الأخرى المترجم إليها النص ، كان عادة يختار لنا نصوصا أو قطعا محببة إليه ويكون هو شخصيا معجبا

بأفكارها وأسلوب كتابتها ، وفيما يتعلق بالشعر بصفة خاصة كان يصر على ضرورة ترجمته شعرا أيضا وهنا تبرز فى شخصيته سمة التحدى فى عملية التعبير عن فكرة ونص إلى لغة أخرى فى قالب شعرى له أساليبه وأوزانه وقواعده الخاصة به والمختلفة عن اللغة الأولى[١] .

● إن الأستاذ الدكتور مهدى علام . كان ـــ كما سبق أن أشرت ـــ يعطينا فى محاضراته جرعات من الثقافة العامة من خلال تدريس الترجمة وعملية فهم النص من خلال فهم نفسية وشخصية الكاتب أو الأديب ، والبيئة التى كان يعيش فيها والظروف التى تحيط به ، فكنا نجد أنفسنا فى نهاية كل محاضرة ، وبالتالى نهاية كل عام دراسى ، نكون قد حصلنا على ثروة من الثقافة فى السياسة والتاريخ والطب وعلم الأجناس وعلم النفس فضلا عن اللغات الأجنبية التى تعلمها وأجادها الدكتور مهدى علام مثل الألمانية والفارسية والعبرية ، إلى جانب الإنجليزية بالطبع والعربية ..

● وأذكر عن الدكتور مهدى علام فى محاضراته أنه لم يكن يخرج من قاعة المحاضرة أو يتوقف عن نقل علمه إلينا إلا إذا كانت هناك محاضرة أخرى سيتعين إلقاؤها فى نفس القاعة سواء لنا أو لزميلات أخريات . وكان لا يبخل أبداً بأى جهد أو وقت فى سبيل توصيل العلم إلينا حتى ولو كان ذلك على حساب صحته أو راحته ، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يحفظه وينعم عليه بالصحة التى كثيرا ما كان يضحى بها من أجل عمله .

وتمر بنا السنوات وكما أشرت كان أستاذى الدكتور مهدى علام هو صاحب فكرة موضوع رسالتى للدكتوراه ، وكنت بطبيعة الحال ألجأ إليه فى كثير من الأحيان خاصة وأنى تناولت فى جزء من الرسالة عن ترجمة الشعر إحدى ترجماته للشعر بالشعر . ودائما أذكر غرفة الاستقبال التى كنا نجلس بها وفى مخيلتى المدفأة التى تعلوها صورته الشخصية وصورة السيدة المرحومة زوجته التى شاركته حياته وكفاحه فى مصر وفى إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية وقامت بدورها كزوجة وأم شريكة حياة خير قيام .. رحمها الله .. وحولنا مائدة فى وسط الغرفة وموائد صغيرة على الأجناب وكلها عليها كتب ومراجع وأوراق

---

(١) فى نهاية الموضوع سوف نعرض نموذجاً لنص واحد من عشرات النماذج التى كان يدرسها لنا الأستاذ / مهدى علام إما شعرًا إنجليزيا ويترجمه لنا شعرًا عربيا ، وإما شعرا عربيا ثم يترجمه لنا بعد ذلك شعرا إنجليزيا .

ورسائل دكتوراه سيناقشها أو ترجمات يراجعها . وأحيانا كنا نجلس فى غرفة المكتب حيث توجد المكتبة المليئة بآلاف الكتب حول الجدران الأربعة ، وبدون فهرسة أبجدية تجده يتجه بثقة وبدقة إلى الكتاب أو المراجع المطلوب . ولا عجب فى ذلك .. فحياته دائما بين هذه الكتب ..

لا أريد أن أستطرد فى سرد التفاصيل ولكن الخلاصة أنه مهما كانت الإطالة فى الكتابة فلن أستطيع أن أعبر عن القدر الذى يستحقه الأستاذ الكبير الدكتور مهدى علام ، وكل ما أرجوه أن يكون الدكتور مهدى علام — حفظه الله سبحانه وتعالى — قدوة لنا فى الإخلاص والتفانى والدقة فى العمل والعطاء بدون انتظار مقابل ، وإدراك أن الكمال لله سبحانه وتعالى ، وأن العلم لا نهاية له ، وعدم حجب العلم عن الآخرين ، والتواضع والتسامح واحترام النفس والآخرين والقناعة . وأخيرا أود أن أنتهز هذه الفرصة لأشكر أستاذى الدكتور مهدى علام على كل ما قدمه لى ، وأكرر دعائى لله سبحانه وتعالى أن ينعم عليه بالصحة والسعادة .

* * *

Olander (Theodore Henry)

The Best Friend is your mother

You'll find in this wide world my lad,
True friends are few at best,
Though vowing love and freindships true,
But few will stand the test,
When life is gay, from sorrow free,
Good friends you'll find through mirth and glee,
But let misfortune overtake, you'll find there is no other,
That you can trust like one dear friend-that best freind is your mother,
You found the one you learned to love,
To honour and adore.
she called herself your friend - you thought:
sh' s mine for ever more,
You Said: "I have a friend so true,
The best one that I ever knew,"
But you have found more friendship - false - She left you for another,
And left alone you found, my lad-the best friend is your mother.
Then all through life give honour to,
That precious friend so true,
The friend that would if need should be,
Now give her life for you
And when her hair is silv'ry gray,
Just make her fleeting moments gay,
In childhood days and manhood days,-she "ll leave you for no other,
Then, well remember now, my lad-the best friend is your mother.

الترجمة العربية : للدكتور مهدى علام

سَتلفى يا بنى غداة تصحو　　على وجه الحقيقة فى الحياة
وفاء الناس ينقصه وفاء　　إذا امتحن الوفاء لدى اللدات
فإن ريح الحياة سرت رخاء　　وجادت سحب غيثك بالهبات
وكنت مظفرا فى كل خطو　　ولم يتبعك ظل النائبات
وجدت الناس حولك فى ابتسام　　كأنك واحة وسط الفلاة
وإن نزلت بك المحن اللواتى　　تضيق بهن من غاد وآتِ
فليس لديك من خل وفى　　سوى الأم الوفية فى ثبات
وإن أحببت فى يوم فتاةً　　وخلت وفاءها هبة الحياة
فتمنحها فؤادك ثم تجثو　　كما تجثو بمحراب الصلاة
وتزعُم أنها لك لا توارى　　وتحسب حبها حب الثقات
ولا تدرى بأنك فى هواها　　أقل لدى الحساب من الهناة
فقد منحت سواك هوى سباه　　ليَسقُط فى شباك الصائدات
فلا تحزن على خل تخلى　　ولا تركن إلى غدر العداة
فليس لديك من خل وفى　　سوى الأم الوفية فى ثبات
هى الخل الوفى بكل خطب　　ومانعة المضرة والأذاة ...
وباذلة الحياة بغير بخل　　ولو أدى لصنع المعجزات
فإن وضع المشيب لجين تاج　　على شعراتها المتهدلات
فأشرق بالسعادة فى سخاء　　على تلك الليالى الباقيات
ففى برد الصبا إذ كنت طفلا　　وفى عهد الشبيبة والأناة
عداها الذمُ لم تخذلك يوما　　ولم تخدع خداعَ الفاتنات
فليس لديك من خل وفى　　سوى الأم الوفية فى ثبات

بسم الله الرحمن الرحيم

●● تحية الناشر للأستاذ الجليل محمد مهدى علام :

أما عن معرفتي بالدكتور مهدى علام فقد بدأت فى حوالى عام ١٩٦٣ ، وكنت قد تخرجت فى الجامعة الأمريكية وأمسكت بزمام مكتبة مصر ، وكنت أعتقد أن المسئولية كبيرة ، فالمكتبة تنشر لكبار رجال الفكر والأدب فى مصر ، وأنا شاب لم أصل بعد إلى المكانة السَّنية أو الثقافية والأدبية التى تجعلنى فى المركز الذى يؤهلنى لأن أقف لأتحدث مع هؤلاء الأعلام الذين تنشر صورهم فى الجرائد وتطبع أسماؤهم على أغلفة الكتب المدرسية والجامعية والأدبية التى أقرؤها .

وتقدم إلىّ عطية الموظف فى المكتبة يلقننى دورى ، أشار إلى رجل يتجه نحو باب المكتبة وقال : هذا هو الدكتور مهدى علام ، وله عندنا بعض مؤلفات فى النقد الأدبى ، وحسابه جاهز ليتسلمه .

وأخذت إذ رأيت رجلا فى عمر والدى خفيف الشعر يرتدى نظارات طبية وبه انحناءة خفيفة بالظهر .. تقدم إلىّ مسلما . وقام « عم عطية » بتعريفى إليه .. أمير ابن الحاج سعيد ، المدير الجديد للمكتبة . نظر إلىّ الدكتور مهدى علام نظرة أحسست بالحنان المتدفق منها وتفتح قلبى حبا وإعجابا ، وجلس انتظارا لكتابة الإيصال . ودار بيننا حديث أقرب إلى أحاديث التعارف ، فسألنى عن دراساتى وقراءاتى . وجاء الإيصال وتسلم نصيبه من طبعة الكتاب الذى كنا نصدّره إلى إحدى الدول العربية و لم يكن بالمبلغ الكبير ، ولكنه تسلمه شاكرا قانعا و لم يراجع ما قدمناه له من كشوف حساب ، فالثقة كانت متوفرة .

وأحسست بالتقدير الشديد للرجل الذى لم تكن الماديات لتشغل باله ، وعرفت قيمته أكثر لما تعاملت مع غيره من المؤلفين الشبان الذين لم يكونوا يقنعون بأى نصيب يصلون إليه أو يصل إليهم ، حتى أنى نقلت انطباعى هذا لوالدى فكتبه فى كتابه الصادر عن مكتبة مصر سنة ١٩٩١ ، قال !!

« وسارت الأمور فى « مكتبة مصر » سيرا حسنا ، وزادت علاقات أمير بالمؤلفين والعملاء

توثقا ، فأحبه المؤلفون وأحبهم ، وأخبرنى أمير أنه يعجب للفارق الكبير بين أخلاق المؤلفين إذ ذاك وأخلاق بعضهم فيما بعد .. فكان الدكتور مهدى علام — مثلا — إذا دخل المكتبة تحدث إليه حديثا هادئا مهذبا مليئا بالحكمة والأدب ، وتسلم نصيبه من الأرباح شاكرا واثقا من أمانة المكتبة ودقة حساباتها ، مثله مثل كل من الدكاترة محمد متولى ، وإبراهيم رزقانة ، ومحمد صبحى عبد الحكيم ، وصفى الدين أبى العز ، ومحمد قدرى لطفى ، وعبد الفتاح شلبى ، وسعد شلبى ، والأستاذ يوسف الحمادى ، ومثل الدكتور توفيق الطويل الذى كان إذا وصل إلى المكتبة وقف عند بابها فلا يدخل حتى يدق الباب مستأذنا ، على حين كان باب المكتبة مفتوحا على مصراعيه .

وشيئا فشيئا اشتهرت « مكتبة مصر » أكثر فأكثر ، وبدأ المؤلفون الناشئون والمؤلفون الهواة يتوافدون عليها لتتولى طبع كتبهم ونشرها ، ولكن شتان بين أخلاق المؤلفين المحدثين وأخلاق المؤلفين القدامى .

فمؤلفو اليوم — وأكثرهم من أساتذة الجامعات — يتعجلون الحصول على الأرباح ، ويعتقدون اعتقادا جازما أن كل الناشرين غير أمناء ، وأن ذممهم خربة ، يأكلون عائد المؤلفين ولا يعطونهم حقوقهم كاملة . فإذا حاول أمير أن يناقشهم وقال لهم إن عدد طلبتهم الذين يدرسّون مادة الكتاب ، ويحتاجون إليه فى دراستهم لا يزيد على ألف طالب ، فإذا وزع من الكتاب ألف نسخة فذلك يعتبر رواجا حسنا ، راحوا يحدثونه عن قيمة الكتاب الأدبية ، وأنه يساوى أضعاف ثمنه ، وأن أى مؤلف فى أمريكا يحصل من كتاب مثل كتابه على ملايين الدولارات »[1] .

أما عن الدكتور مهدى علام فقد كنت أسعد كلما لقيته ، وتشتد سعادتى كلما زادت معرفتى به ، فهو هادئ الطبع محدث لبق ، تشتاق إلى سماع أحاديثه وهو يتحدث فى كل آفاق المعرفة ، هادئ الصوت ، طيب القلب ، محب للناس محبوب من الناس .

---

(١) سعيد جودة السحار (**مواقف فى حياتى**) ص ١٧٢ مكتبة مصر ١٩٩١ .

محتوى الكتاب

(تم الكتاب بحمد الله)

رقم الإيداع : ١٩٩١/٨٤٢٠

الترقيم الدولى : 8 - 0703 - 11 - 977



● الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام صاحب المذكرات ومعه أبو بكر عبد الرازق محرر تلك المذكرات

هـذا الكتـاب :

●● نحمدك اللهم حمد من أمددته بتوفيقك فلم تزل يراعته . ونثنى عليك ثناء من اشترى حكمتك بلهو الحديث فربحت تجارته . نحمدك اللهم حمداً يصل جديد النعم بقديمها ، ونسألك توفيقا نحتمى به من عثرات الأقلام وزلات اللسان .

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد النبىّ الأمىّ ، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة دائمة إلى يوم الدين .

●● وبعد : ففى خضوع وتواضع ، واستجابة لرأى الزميل أبو بكر عبد الرازق فى أن أتناول بعض الأحداث التى مررت بها فى حياتى ، راجيا من الله العلى القدير أن يكون لها من القيمة ما يفيد قارئها ؛ أما أنا فحسبى أن أذكرها ، فلها ما لها من قيمتها ، كبرت أم صغرت .

وأنا لا أذكر ــ تلك الذكريات ــ تباهيا بها ، وإنما ما دامت قد سجلت للتاريخ فى وقتها ، فأنا أشير إليها بقدر ما أستطيع الآن بعد مرور أكثر من نصف قرن عليها .

دكتور محمد مهدى علام

●● وكاتب هذه المذكرات أبو بكر عبد الرازق خريج كلية الشريعة بجامعة الأزهر الشريف . وهو عضو بنقابة الصحفيين المصريين ، واتحاد الصحفيين العرب ، ولجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وعضو مجلس إدارة المركز الإسلامى بالزيتون ــ القاهرة وله ثلاثة عشر كتابا واثنان تحت الطبع ، وكلها تعالج قضايا إسلامية لها أهميتها .. فى مجال الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

(الناشر)